عبد الرحمن الشرقاوى



علي إمام المتقين

الجزء الثانى

مكتبة غريب

عبد الرحمن الشرقاوي



الناشر
مكتبة غريب
٣،١ شارع كامل صدقي (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

مقـــــــدمـة

فى مقدمة الطبعة الأولى للجزء الأول من هذا الكتاب وعدت أن أضع فى نهاية ذلك الجزء الأول التعقيبات والمحاورات التى أثيرت حوله حينما كان ينشر على صفحات جريدة الأهرام صباح كل أربعاء . .

ولكنى خشيت أن أقطع على القارىء استرساله من الجزء الأول إلى الجزء الثانى ، فرأيت أن أجعلها فى نهاية الجزء الثانى . . ثم إنى أشفقت من أن أفسد على القارىء انفعالاته وتأملاته بعد أن يفرغ من الجزء الثانى ، فاخترت أن تستقل المحاورات وما يدخل فى بابها بكتاب خاص عنوانه « **محاورات** » أرجو أن يصدر قريبا إن شاء الله .

وكنت قد أشرت فى نهاية الطبعة الأولى من الجزء الأول إلى أن الجزء الثانى سيكون عنوانه « **على إمام المساكين** » . . ولكني تلقيت نصائح صادقة بأن أعدل عن هذا ، لأن هناك من سيؤولون العنوان تأويلا قبيحاً منكراً : إما عن جهل بمعنى المساكين ، وإما عن سوء قصد ، أو عن غفلة الكريم .

فلما نظرت فى الأمر ، استمعت للنصح عسى أن أستنقذ هذا الكتاب مما قد يثار عليه من غبار ينبغى أن تتنزه عنه حياتنا الفكرية والثقافية . . وأبقيت فى الجزء الثانى على عنوان : « **على إمام المتقينّ** » ، داعيا الله تعالى أن ينفع به من يلتمس النفع فيما يقرأ ، وأن يشفى الذين فى قلوبهم مرض ، وأن يضىء بالمعرفة من تغشى عقولهم الظلمات .

ثم إنى فى هذا الجزء الثانى من كتاب « **على إمام المتقين** » قد خرجت عما ألفته من قبل كلما رسمت صورة قلمية فنية من تراثنا الجليل معتمدة على الحقائق الثابتة فى التاريخ . . خرجت فى هذا الكتاب عما ألفته وعما تعوده القراء منى ، ذلك أنى أوردت من الوقائع والأقوال ما قد يصدم بعض العقول ، فأثبت أوثق المراجع من كتب أئمة أهل

السنة . . وعذرى فى ذلك أن من الناس من تحدانى أن أذكر المراجع التى تثبت ما لم يقبله لأنه فى الحق يناقض مصالحه !! ثم لأن من الناس من يتهم بدلا من أن يفكر ويبحث ويتعلم ، ومن الناس من يجادل بغير علم ولا هدى ولا سراج منير !! . .

وهؤلاء جميعــا هم فى الحق قلة ضئيلة لا وزن لها ولا خطر إلا أنها قلة احــترفت الغوغائية ، فانطلقت فى عماية تطرفها تحاول أن تصرف كل الأبصار والبصائر عن نصاعة تراثنا ، وعما فى تاريخنا العظيم مما يعتبر به أولو الألباب ، ومن ذكرى . . والذكرى تنفع المؤمنين !! . .

إن المصالح الفاسدة هى التى تصرخ وتعوى وتتهم . . هى التى تحرك ذلك الصنف من الرجال . . المصالح ، لا العقول ولا الأفهام ولا البصائر !! . . وتعسا لهذه المصالح الفاسدة التى جعلت ومازالت تجعل من بعض الرجال أنصاف رجال !! . .

ولقد أود فى هذا المجال أن أذكر القارىء بما كتبته فى مقدمة الجزء الأول تعليلا لذكرى المراجع فى نهاية الكتاب ، على خلاف الكتب المماثلة السابقة ، فليرجع إليه مشكورا . .

وبعد . . فحسبى جزاء لما بذلت من جهد ، وعزاء عما لقيت وألقى من عنت وعما كابدت وأكابد من حماقات ومن عربدة ضجيج أصحاب المصالح الفاسدة وشغبهم على . عزائى عن كل هذا العنـاء هو أن يجد الصادقون فى هذا الكتاب ما يدفعهم إلى مقاومة الباطل والدفاع عن الحق !! . .

عزائى وجـزائى ومكافأتى الصحيحة أن يكشف هذا الكتاب عن وضاءة مبادىء الإسلام ، وعما يملكه الإسلام من قدرات هائلة ومتجددة على العطاء فى مواجهة الجدب الروحى والمادى مهما يختلف الزمان والمكان !! . .

حسبى جزاء ومكافأة وعزاء عن كل ما قاسيت وما أقاسى ، أن يهدى الله تعالى بما كتبته ولو عقلا واحدا ، وأن يفتح لحب الحقيقة التى دافع عنها ولو قلبا واحدا !! . .

ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . .

١٤٠٥ هجرية

١٩٨٥ ميلادية

عبد الرحمن الشرقاوى

الفصـــل الأول

الطريـــق إلى صفـــين

أقبل الحجاج بن الصِّمة على معاوية فى قصره بدمشق فقال له : « يا أمير المؤمنين » !.

وكان معاوية يجلس مسترخيا على كرسى فاخر فى قاعة ضخمة من قصره ، وحوله بعض أتباعه من أهل الشام ، فالتفت معاوية لمن حوله يرى أثر النداء على وجوههم ، وحين لم ير على وجوههم الرفض ، اطمأنت نفسه ، وابتسم . . !

وابتهج معاوية إلى أغوار قلبه . . لقد أحسن عندما رفض البيعة لعلى ، وطالب بدم عثمان ، وجعل نفسه ولىّ الدم ، وتأوّل الآية الكريمة : ﴿ **ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

وأحسن حين أعلن العصيان ، ورد أمر علىٍّ بعزله وحرض الناس على خلع علىٍّ وقتاله . . وها هو ذا يرى أحد المسلمين يعدل عن علىٍّ ، ويناديه هو معاوية : « يا أمير المؤمنين » . فيرضى عن ذلك من يشهد من رؤساء المسلمين بالشام !! . .

ونظر معاوية إلى الرجل يستزيده ، فعاد الرجل يقول : « يا أمير المؤمنين . . إنى أخبرك يا أمير المؤمنين أنك تقوى على علىٍّ بدون ما يقوى به عليك ، لأن معك قوما لا يقولون إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت . وإن مع علىٍّ قوما يقولون إذا قال ، ويسألون إذا أمر ، فقليل ممن معك خير من كثير ممن معه » ! . .

لقد بايع أهل الشام معاوية من قبل على الطلب بدم عثمان رضى الله عنه . . بايعوه لما عزله أمير المؤمنين علىٌّ كرم الله وجهه . . بايعوا معاوية أميرا على الشام ، ووليا لدم عثمان ، لا يطمع فى الخلافة ، وإنما يطالب عليا بالاعتزال ليكون الأمر شورى بين المسلمين !!

فلما قتل طلحة والزبير رضى الله عنهما فى معركة الجمل ، بدأ معاوية يشرئب إلى الخلافة ، حتى نجح فى إقناع الناس بأن يبايعوه خليفة ، وبأن ينادوه بلقب الخلافة : « أمير المؤمنين » .

ثم أخذ يحشد الجنود ليزحف إلى الكوفة ، ويثب على أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى بايعه من قبل أهل بدر ، والمهاجرون والأنصار ، وفى طليعتهم الزبير وطلحة !!

وكان قد اعتزل الناس نفر قليل من المهاجرين والأنصار ، فأرسل إليهم معاوية يستنصرهم فخذلوه ، وردوا طلبه ردا عنيفا . . فكتب إليه محمد بن مسلمة الأنصارى : « . . . وأما أنت فلعمرى ما طلبت إلا الدنيا ، ولا اتبعت إلا الهوى ، فإن تنصر عثمان ميتا فقد خذلته حيا . . » .

كما رد سعد بن أبى وقاص على كتاب معاوية إليه : « أما بعد فإن عمر بن الخطاب لم يدخل فى الشورى إلا من يحل له الخلافة من قريش (وهم عثمان وعلى وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص . . وهم بقية العشرة الكرام البررة الذين بشرهم رسول الله ﷺ بالجنة) . فلم يكن أحد منا أحق بها من صاحبه إلا باجتماعنا عليه ، غير أن عليا كان فيه ما فينا وليس فينا ما فيه . وهذا أمر قد كرهنا أوله ، وكرهنا آخره ، فأما طلحة والزبير فلو لزما بيوتهما كان خيرا لهما . والله يغفر لأم المؤمنين ما أتت » .

أما عبد الله بن عمر بن الخطاب فقد أسخطه كتاب معاوية إليه . . وكان معاوية قد كتب إليه : «أما بعد، فلم يكن أحد من قريش أحب إلى أن يجتمع عليه الناس بعد قتل عثمان منك . ثم ذكرت خذلك إياه وطعنك على أنصاره فتغيرت عليك . وقد هون ذلك علىَّ خلافك على علىٍّ ، ومحا عنك بعض ما كان منك . فأعنا رحمك الله على حق هذا الخليفة المظلوم فإنى لست أريد الإمارة عليك ، ولكنى أريدها لك . فإن أبيت كانت شورى بين المسلمين » .

فأجابه عبد الله بن عمر : « أما بعد فان الرأى الذى أطمعك فىَّ هو الذى صيرك إلى ما صرت إليه : أنى تركت عليا فى المهاجرين والأنصار ، وطلحة والزبير ، وعائشة أم المؤمنين ، واتبعتك ! . . أما زعمك أنى طعنت على علىٍّ فلعمرى ما أنا كعلى فى الإيمان والهجرة ، ولكن حدث أمر لم يكن من رسول الله ﷺ إلىَّ فيه عهد . ففزعت إلى الوقوف (يعنى الصمت) وقلت : « إن كان هدى ففضل تركته ، وإن كان ضلالة فشر نجوت منه . فأغن عنا نفسك » .

ولكن معاوية كان قد أعد العدة ليكون هو الخليفة ، وإنه ليجهز جند الشام للزحف على الكوفة لقتال على . . ثم ها هو ذا ينصب نفسه خليفة !

قال لرؤساء أهل الشام الذين اصطنعهم لنفسه : « يا أهل الشام . قد علمتم أنى خليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وخليفة عثمان وقد قتل مظلوما وأنا ابن عمه ووليه ، والله يقول فى كتابه : ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ . وأنا أحب أن تعلمونى ما فى أنفسكم من قتل عثمان » .

فبايعوه على الطلب بدم عثمان .

ثم ظل بهم يصطنعهم لنفسه ، ويغدق عليهم ، ويسترضيهم ، حتى بايعوه خليفة ، ولكنهم لم يجسروا على أن ينادوه : « يا أمير المؤمنين » ، حتى خاطبه بها الحجاج ابن الصُّمة الذى كان عينا له على الإمام علىٍّ أمير المؤمنين .

ولم يلبث معاوية حتى قدم عليه عبيد الله بن عمر ، وهو الذى خرج بسيفه مغاضبا لما اغتيل أبوه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقتل ابنة القاتل أبى لؤلؤة ، وقتل الهرمزان ورجلا آخر ، كانا مع أبى لؤلؤة يفحصان الخنجر الذى اغتيل به عمر ، قبل الجريمة بيوم . .

وتكاثر الناس على عبيد الله وحبسوه ، حتى إذا تمت البيعة لعثمان طالبه على رضى الله عنهما بأن يقتل عبيد الله بمن قتلهم . . ولكن عثمان أبى ، ودفع من ماله دية القتلى . . فلما تمت البيعة لعلى ، خشى عبيد الله أن يقتص منه الخليفة الجديد فترك المدينة ناجيا بنفسه من القصاص ، وطوَّف فى الأرض ثم انتهى به المطاف إلى معاوية ! . .

وفرح به معاوية ، وأكرمه وأغدق عليه .

قال معاوية لعمرو بن العاص : « يا عمرو ، إن الله أحيا لك عمر بن الخطاب بالشام بقدوم عبيد الله بن عمر ، وقد رأيت أن أقيمه خطيباً فيشهد على علىٍّ بقتل عثمان وينال منه » .

فقال عمرو : « الرأى ما رأيت » .

فأرسل معاوية إلى عبيد الله ، فلما أتاه قال معاوية : « يا ابن أخى . إن لك اسم أبيك ، فانظر بملء عينيك ، وتكلم بملء فيك ، فأنت المأمون المصدق فاصعد المنبر واشتم عليا واشهد عليه أنه قتل عثمان » .

فقال عبيد الله : « يا أمير المؤمنين ! » .

وطرب معاوية إذ ناداه بلقب الخلافة ، فابتسم ، وأكمل عبيد الله : « أما شتمى عليا فانه على بن أبى طالب وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم . فما عسى أن أقول فى حسبه . وأما بأسه فهو الشجاع كما قد علمت ، وأما أيامه فما قد عرفت ! ولكنى ملزمه دم عثمان » .
فقال عمرو : « قد وأبيك إذن نكأت القرحة » .

ولكن معاوية لم يعقب . وبانت على وجهه خيبة الأمل فى عبيد الله . . وغشى المجلس صمت كئيب متوتر !

وانصرف عبيد الله فقال معاوية : « أما والله لولا قتله الهرمزان ، ومخافته عليا على نفسه ، ما أتانى أبدا . ألم تر إلى تقريظه عليا ؟! » .

فقال عمرو : « يا معاوية إن لم تغلب فاخلب » .

ثم إن عبيد الله قام فى الناس خطيبا ، فأمسك عن علىّ ، ولم يتهمه بقتل عثمان . !

فلما فرغ من خطابه بعث إليه معاوية وعاتبه فى حدة : « ابن أخى ! إنك بين غى أو خيانة » فقال عبيد الله : « كرهت أن أقطع الشهادة على رجل لم يقتل عثمان » .

فهجره معاوية مليا ، واتهمه بالفسق ! . .

فلما انتهى إلى عبيد الله بن عمر ما قاله فيه معاوية أغلظ عليه فى العتاب ، واستعد للرحيل . .

وأحس معاوية أنه من الخير له أن يترضى عبيد الله بن عمر ، وأن يكسبه إلى صفه ، فيفيد من اسم أبيه عمر بن الخطاب . . فما من أنصار لمعاوية من المهاجرين والأنصار وأبنائهم إلا نفر قليل ، إذ جيش علىّ يضم منهم آلافاً ، تنكر على معاوية أنه أعلن العصيان ، وخالف الإمام ، وشق عصا الطاعة وفرق الجماعة ، وإنهم ليشحذون سيوفهم ليلقوه تحت راية أمير المؤمنين الإمام علىّ فيلزموا العصاة الطاعة !!

ثم إن القراء من أهل الشام ، كانوا ينكرون على معاوية عصيانه للإمام ، والقراء هم الذين يحفظون القرآن الكريم ويعلمونه .

فأقبل نفر منهم على معاوية ومعهم أبو مسلم الخولانى وهو زاهد من أهل الشام ، كان قد رحل إلى النبى ﷺ فلم يدركه ، فتلقى علوم الدين وتفقه فيه على علىّ وعاد إلى موطنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويأمر الناس بأن يعملوا فى دنياهم لآخرتهم . .

وكان زهد أبى مسلم على غرار زهد الإمام على . . وقد منح هذا الزهد أبا مسلم جرأة فى الحق ، وجسارة على الباطل ، وشجاعة القلب ، فأصبح فى غنى بالله عن الناس ، يتهم من بايعوا معاوية بالخلافة أنهم دعاة فتنة ، وأنهم باعوا دينهم بدنياهم ، وأن طاعة أمير المؤمنين علىّ تجب عليهم . .

وأقبل أبو مسلم مع القراء الشاميين من أهل التقوى فتكلم باسمهم . قال : « يا معاوية! » .

ودهش معاوية . . فما من أحد من الرعية يناديه باسمه اليوم إلا عمرو بن العاص ، أما بقية الرعية فلا تخاطبه إلا بأمير المؤمنين !

وعاد الرجل الصالح يقول : « يا معاوية » ونظر معاوية إلى القراء الذين أقبل فيهم أبو مسلم ، فوجدهم جميعاً ينادونه : « يا معاوية » . ثم إنهم قالوا له فى حدة حاسمة : « علام تقاتل عليًا وليس لك مثل صحبته ولا هجرته ولا قرابته ولا سابقته ؟! إنك لتعلم أنك من الطلقاء ولا حق لك فى الخلافة . . إنك لمن المؤلفة قلوبهم وما أسلمت إلا يوم فتح مكة أنت وأبوك ومن معه من مشركى قريش ، فقال لكم الرسول ﷺ ، اذهبوا فأنتم الطلقاء . . إنا لنذكرك إن كنت نسيت . . فما أنت وأمير المؤمنين على بن أبى طالب ؟! قد والله يا معاوية عدوت . . . . » .

فقاطعهم معاوية : « حسبكم ! . . » .

ثم ألان لهم صوته ، ووطأ أكنافه قائلا : « ما أقاتل عليًا وأنا أدعى أن لى فى الإسلام مثل صحبته ولا هجرته ولاقرابته ولا سابقته . ولكن خبرونى ألستم تعلمون أن عثمان قتل مظلوما ؟ » قالوا : « بلى » قال : « فليدفع إلينا قتلته فنقتلهم به » قالوا : « فاكتب إليه كتابا يأتيه به بعضنا » .

فكتب معاوية كتابا لعلىّ يطالبه فيه بتسليم قتلة عثمان !

وحمل أبو مسلم كتاب معاوية إلى علىّ ، حتى إذا جاءه وهو فى المسجد الجامع بالكوفة يعظ الناس ، قال له بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « أما بعد يا أمير المؤمنين فانك قد قمت بأمر وتوليته . والله ما أحب أنه لغيرك إن أعطيت الحق من نفسك . إن عثمان قتل مسلما محرما صائما مظلوما ، فادفع إلينا قتلته وأنت أميرنا وأمير المؤمنين ، فان خالفك أحد من الناس كانت أيدينا لك ناصرة ، وألسنتنا لك شاهدة ، وكنت ذا عذر وحجة » ثم سلمه كتاب معاوية .

وعندما فرغ علىٌّ من قراءة كتاب معاوية ، ألفاه مثل كتبه السابقة . . فهو يطالبه بقتلة عثمان ، ويعده إن هو فعل أن يبايعه !! . .

ومعاوية يعرف أن الآلاف قتلوا فى يوم الجمل ، وفيهم قتلة عثمان ، منهم من كان فى جيش علىٍّ ، ومنهم من كان فى جيش طلحة والزبير . . !

ومعاوية يدرك أنه ليس من حقه أن يقيم نفسه وليا له سلطان على القتلة فذلك لولى الأمر ، وما على معاوية إلا أن يدخل فى الجماعة ويبايع ، ثم يطالب ولى الأمر بأن يجرى القصاص !!

والأمة كلها تعلم أن عليا نصح عثمان حتى اعتزله ، فلما اعتزله عاتبه عثمان واشتد عليه فلم يجبه ، فلما سأله : « مالك لا تجيبنى ؟ » قال الإمام : « لأنى لا أريد أن أسمعك ما تكره ، وليس لك عندى إلا ما تحب ! » .

والأمة كلها تعرف أن معاوية يتعلل بالطلب بدم عثمان ، وتسليم قتلته لتكون له حجة فى قتال على . .

قال علىٌّ لرسول معاوية : « اغد علىَّ غدا فخذ جواب كتابك » .

فلما كان الغد جاء الناس فى السلاح فامتلأ بهم المسجد والرحبة أمامه وهم يتنادون : « كلنا قتلة عثمان ! » .

ودخل أبو مسلم على الإمام فى داره ، فوجدها دارا ضيقة خشنة واضحة الفقر . . أهذا هو مقر الخلافة ؟! أين هذه الدار التى هى أدنى من دار أفقر رجل من المسلمين ، من قصر معاوية الضخم الشامخ بفخامته وأبهته ؟!

قال أبو مسلم : « يا أمير المؤمنين . . قد رأيت قوماً ما لك معهم أمر ! » قال على : « وما ذاك ؟ » . قال : « بلغ القوم أنك تريد أن تدفع إلينا قتلة عثمان فضجوا واجتمعوا ولبسوا السلاح وزعموا أنهم كلهم قتلة عثمان » .

فدفع إليه على برده على معاوية ، قائلا : « والله ما أردت أن أدفعهم إليك طرفة عين . لقد ضربت هذا الأمر أنفه وعينيه ما رأيته ينبغى لى أن أدفعهم إليك ولا إلى غيرك » ! . .

وانصرف أبو مسلم فى سلام عائدا إلى دمشق .

وخرج الإمام عليٌّ إلى الناس فوجدهم يشتمون ويلعنون معاوية ومن تبعه ، فزجرهم الإمام ، فقال الأشتر : « ألسنا محقين ؟ » . قال : « بلى » . قال حجر بن عدى : « أليسوا مبطلين ؟ » قال : « بلى » . قال الناس : « فلم تمنعنا عن شتمهم ؟ » قال : « كرهت لكم أن تكونوا شتامين لعانين ولكن لو وصفتم مساوىء أعمالهم كان أصوب فى القول. فان قلتم مكان لعنكم إياهم وبراءتكم منهم : اللهُم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وذات بينهم ، واهدهم من ضلالتهم حتى يعرف الحق منهم من جهله ، ويرعوى عن الغى والعدوان من لهج به ، كان هذا أحب إلى وخيرا لكم » .

فقال الأشتر وحجر بن عدى : « يا أمير المؤمنين نقبل عظتك ، ونتأدب بأدبك » .

وحجر صحابى من رواة الحديث ، وعبد الله بن عمر يتخيرً منه .

* * *

ومرت أيام والناس يلحون على أمير المؤمنين أن يخرج بهم إلى الشام ، قبل أن يقود معاوية وعمرو بن العاص إليهم جند الشام ، ويغزوهم فى ديارهم .

وجمع الإمام من كان معه من المهاجرين والأنصار ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد فانكم ميامين الرأى ، مقاويل بالحق ، أهل الحلم ، مباركو الفعل والأمر ، وقد أردنا المسير إلى عدونا وعدوكم فأشيروا علينا برأيكم » .

فقام عمار بن ياسر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « يا أمير المؤمنين إن استطعت ألا تقيم يوما واحدا فافعل . اشخص بنا قبل استعار نار الفجوة واجتماع رأيهم على العدوان والفرقة ، وادعهم إلى رشدهم ، فان قبلوا سعدوا ، فان أبوا إلا حربنا فوالله إن سفك دمائهم ، والجد فى جهادهم لقربة عند الله » .

فقال الإمام : « لله درك يا عمار . سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن عمارا ملىء إيمانا إلى مُشاشه (رؤوس العظام كالمرفقين والمنكبين والركبتين)». وكان عمار إذا استأذن على النبى ﷺ يقول : ائذنوا له . فإذا دخل استقبله عليه الصلاة والسلام بقوله : مرحبا بالطيب المطيب .

فلما فرغ الإمام من الثناء على عمار ، قام سعد بن قيس بن عبادة فقال : « يا أمير المؤمنين . عجل بنا إلى عدونا ، فوالله لجهادهم أحب إلىَّ من جهاد الترك والروم لإدهانهم

فى دين الله ، واستذلالهم أولياء الله من أصحاب محمد ﷺ من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ! إذا غضبوا على رجل حبسوه أو ضربوه أو حرموه أو سيّروه (نفوه) ، وفيئنا لهم فى أنفسهم حلال ، ونحن لهم فيما يزعمون قطين (أى رقيق وعبيد) » .

ثم قام سهل بن حنيف فقال : « يا أمير المؤمنين . نحن سلم لمن سالمت وحرب لمن حاربت . ورأينا رأيك . ونحن كف يمينك ، وقد رأينا أن تقوم بهذا الأمر فى أهل الكوفة ، فتأمرهم بالشخوص ، وتخبرهم بما صنع الله لهم فى ذلك من الفضل ، فإنهم هم أهل البلد وهم الناس . فإن استقاموا لك استقام لك الذى تريد وتطلب . وأما نحن صحابة رسول الله ﷺ ، فليس عليك منا خلاف ، متى دعوتنا أجبناك ، ومتى أمرتنا أطعناك » .

وقام عدىُّ بن حاتم الطائى فقال : « يا أمير المؤمنين ، ما قلت إلا بعلم ، ولا دعوت إلا إلى حق ، ولا أمرت إلا برشد ، فإن رأيت أن تستأنى القوم حتى تأتيهم كتبك ، ويقدم عليهم رسلك ، فإن يقبلوا يصيبوا ويرشدوا ، والعافية أوسع لنا ولهم ، وإن يتماروا ولا ينزعوا عن الغى فسر لهم وقدمنا إليهم بالعذر ، ودعوناهم إلى ما فى أيدينا من الحق ، فوالله لهم من الله أبعد ، وعلى الله أهون من قوم قاتلناهم بناحية البصرة أمس » .

وقال أبو زبيب بن عوف : « يا أمير المؤمنين ، لئن كنا على الحق لأنت أهدانا سبيلا ، وأعظمنا فى الخير نصيبا ، ولئن كنا فى ضلالة إنك لأثقلنا ظهرا وأعظمنا وزرا ! أمرتنا بالمسير إلى هذا العدو وقد قطعنا ما بيننا وبينهم من الولاية ، وأظهرنا لهم العداوة نريد بذلك ما يعلم الله من طاعتك وفى أنفسنا من ذلك ما فيها . أليس الذى نحن عليه هو الحق المبين والذى عليه عدونا هو الغى والحُوب الكبير (الحوب : الإثم) » .

فقال له الإمام : « بلى . شهدت أنك إن مضيت معنا ناصرا لدعوتنا صحيح النية فى نصرتنا ، قد قطعت منهم الولاية ، وأظهرت لهم العداوة كما زعمت ، فانك ولى الله تسبح فى رضوانه ، وتركض فى طاعته ، فأبشر أبا زبيب ! » .

وقال له عمار : « اثبت أبا زبيب ولا تشك فى الأحزاب عدو الله ورسوله » .

وقال يزيد بن قيس : « يا أمير المؤمنين . إنا على جهاز وعدة (الجهاز : ما يحتاج إليه المقاتل والمسافر) ، فمر مناديك فليناد الناس يخرجوا إلى معسكرهم بالنخيلة فان أخا الحرب ليس بالسؤوم ولا النؤوم (من السأم والنوم) ، ولا من إذا جاءته الفرصة أجّلها واستشار فيها ، ولا من يؤخر الحرب فى اليوم إلى غد وبعد غد » .

فقال زياد بن النضر : « لقد نصح لك يا أمير المؤمنين وقال ما يعرف فتوكل على الله وثق به ، واشخص بنا إلى هذا العدو راشدا معانا » .

ثم قام عبد الله بن بديل فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن القوم لو كانوا يريدون الله أو يعملون لله ما خالفونا ، ولكن القوم إنما يقاتلون فرارا من التسوية (التسوية بين المسلمين فى قسمة المال) ، وحبا للأثرة ، وضنا بسلطانهم ، وكرها لفراق دنياهم التى فى أيديهم ، وعلى إحن (أحقاد) فى أنفسهم ، وعداوة يجدونها فى صدورهم ، لوقائع أوقعتها يا أمير المؤمنين بهم قديمة ، قتلت فيها آباءهم وإخوانهم . كيف يبايع معاوية عليا وقد قتل أخاه حنظلة وعمه الوليد وجده عتبة فى موقف واحد يوم بدر ؟ ! والله ما أظنهم يفعلون ، والله لن يستقيموا لكم دون أن تقطع على هامهم السيوف » .

ثم وقف أحد الأنصار فقال : « اذكروا قول رسول الله ﷺ لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا (أى : طريقا) وسلكت الأنصار شِعبا لسلكت شِعب الأنصار . ونحن الأنصار نؤيدك يا أمير المؤمنين لم ينجز منا إلى خصمك غير ثلاثة نفر فرارا من التسوية فى القسمة . ولله درك يا أمير المؤمنين يوم جاءك طلحة والزبير مغاضبين فقالا : « أنت تقسم القسم ، وتقطع الأمر ، وتمضى الحكم بغير مشاورتنا ولا علمنا » . لله درك إذ أجبتهما : « لقد نقمتما يسيرا ، فاستغفرا الله يغفر لكما . ألا تخبرانى أدفعتكما عن حق وجب لكما وظلمتكما إياه ؟ » قالا : « معاذ الله ! » فسألت : « فهل استأثرت من هذا المال لنفسى بشىء ؟ » قالا : « معاذ الله ! » قلت : « أفوقع حكم أو حق لأحد من المسلمين فجهلته أو ضعفت عنه ؟ » قالا : « معاذ الله ! » قلت : « فما الذى كرهتما من أمرى حتى رأيتما خلافى ؟ » قالا : « إنك جعلت حقنا فى القسم (القِسمة) كحق غيرنا ، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما أفاء الله تعالى علينا بأسيافنا ورماحنا ، وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا » . فقلت لهما : «فأما ما ذكرتما من الاستشارة ، فوالله ما كانت لى فى الولاية رغبة ، ولكنكم دعوتمونى إليها ، وجعلتمونى عليها ، فخفت أن أردكم ، فتختلف الأمة ، فلما أفضت إلىَّ نظرت فى كتاب الله وسنة رسوله ، فأمضيت ما دلانى عليه ، واتبعته ، ولم أحتج إلى آرائكما فيه ولا رأى غيركما . ولو وقع حكم ليس فى كتاب الله بيانه ، ولا فى السنة ، واحتيج إلى المشاورة فيه لشاورتكما فيه . وأما القَسم والأسوة فان ذلك أمر لم أحكم فيه بادىء بدء ، فقد وجدت أنا وأنتما رسول الله وآله يحكم بذلك ، وكتاب الله ناطق به ، وهو الكتاب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وتنزيل من حكيم حميد . وأما قولكما جعلت فيئنا وما أفاءته سيوفنا ورماحنا سواء بيننا وبين غيرنا ، فقديما سبق

إلى الإسلام قوم ، ونصروه بسيوفهم ورماحهم ، فلم يفضلهم رسول الله ﷺ وآله - فى القَسْم (قِسمة المال) ، ولا آثرهم بالسبق ، والله سبحانه موفٍّ السابق والمجاهد يوم القيامة أعمالهم ، وليس لكما والله عندى ولا لغيركما إلا هذا ، أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق » ، كان هذا من طلحة والزبير يا أمير المؤمنين ، فما بال معاوية وعمرو وأين هما من طلحة والزبير ؟ » .

وحين سمع الإمام اسمى طلحة والزبير جاشت نفسه ، وفاضت عيناه بالدمع ، ودعا لهما بالرحمة . .

ثم قام عمرو بن الحَمِق فقال : « إنى والله يا أمير المؤمنين ما أحببتك ولا بايعتك على قرابة بينى وبينك ، ولا إرادة مال تؤتينيه ، ولا التماس سلطان يرفع ذكرى ، ولكنى أجبتك لخصال خمس : أنك ابن عم رسول الله ﷺ وآله ، وأول من آمن به ، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد ﷺ وعلى آله ، وأبو الذرية التى بقيت فينا من رسول الله ، وأعظم رجل من المهاجرين سهما فى الجهاد . فلو أنى كُلِّفتُ نقل الجبال الرواسى ، ونزح البحور الطَّوامى فى أمر أقوى به وليَّكَ ، وأوهن به عدوك ، ما رأيت أنى قد أديت فيه كل الذى يحق علىَّ من حقك » .

فدعا له الإمام : « اللهم نور قلبه بالتقى ، وأهده إلى صراطك المستقيم ليت أن فى جندى مائة مثلك ! » .

فقال حجر بن عدى : « إذن والله يا أمير المؤمنين صَحّ جندك وقَلَّ فيهم من يغشك ! يا أمير المؤمنين ، نحن بنو الحرب وأهلها ، ولنا أعوان ذوو سلاح ، وعشيرة ذات عدد ، ورأى مجرب وبأس محمود ، وزمامنا منقاد لك بالسمع والطاعة ، فان شرّقت شرّقنا ، وإن غرّبْت غربنا ، وما أمرتنا من أمر فعلناه » فسأله الإمام : « أكل قومك يرى مثل رأيك ؟ » أجاب : « ما رأيت منهم إلا خيرا . وهذى يدى عنهم بالسمع والطاعة » .

وامتدت أيدى المهاجرين والأنصار والتابعين بالبيعة على السمع والطاعة ، ودوّت جنبات الكوفة وآفاقها بصيحات المتقين : «الله أكبر» ؛ تجاوبها آمال المساكين فى عصر مطمئن من الأمن والرخاء تخفق على النداء العذب الجسور المقتحم : « الله أكبر الله أكبر » .

ثم رأى الإمام أن يأخذ بمشورة سهل بن حنيف الأنصارى ، فيتجه إلى أهل الكوفة فيأمرهم بالخروج إلى معاوية وجنده قبل أن يغزوهم فى ديارهم . .أما المهاجرون والأنصار

فمتى دعاهم أجابوا ، ومتى أمرهم أطاعوا ، كما قال سهيل . . ليت أهل العراق وسائر الناس يسلكون خلفه شعْب الأنصارا ! . .

* * *

ودعا عليٌّ أهل الكوفة إلى لقائه بالمسجد الجامع إذا كان الغد، ثم أرسل إلى عماله على الأمصار . . وكتب إلى كل واحد منهم : « سلام عليك ، فانى أحمد الله إليك الذى لا إلـه إلا هو . أما بعد . . فان جهاد من صدف عن الحق رغبة عنه ، وهَبَّ فى نعاس الضلال اختيارا له ، لفريضة على العارفين بالله . إن الله ليرضى عَمَّنْ أرضاه ، ويسخط على من عصاه . وأنا قد هممنا بالمسير إلى هؤلاء القوم الذين عملوا فى عباد الله بغير ما أنزل الله ، واستأثروا بالفىء ، وعطلوا الحدود ، وأماتوا الحق ، وأظهروا فى الأرض الفساد ، واتخذوا الفاسقين ولَيجةً (بطـانة) من دون المؤمنين . فإذا ولىٌّ لله أعْظَم أحداثهم (أى شجب أعمالهم) أبغضوه وأقصوه وحرموه ، وإذا أَحَدٌ ساعدهم على ظلمهم أحبوه وأدنوه وبَرُّوه ، فقد أصرُّوا على الظلم وأجمعوا على الخلاف ، وقديما ما صَدُّوا عن الحق ، وتعاونوا على الإثم ، وكانوا ظالمين ، فإذا جاءك كتابى هذا فاستخلف على عملك أوثق أصحابك فى نفسـك ، وأقبل إلينا لعلك تلقى هذا العدو المُحِلّ (المحل : الخارج من ميثاق كان عليه ، يعنى البيعة ، فهى واجبة على من لم يشهدها من المسلمين بعد أن بايعه أهل بدر والمهاجرون والأنصار بالمدينة) ، فتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فانه لا غناء بنا ولا بك عن أجر الجهاد . وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » .

ثم كتب إلى أمـراء الجنـد الـذين دعـاهم للحـاق به : « . . . خذوا على أيدى سفهائكم ، واحترسوا أن تعملوا أعمالا لا يرضى الله بها عنا، فيردّ علينا وعليكم دعاءنا، فإن الله تعالى يقول : ﴿ قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما ﴾ فان الله إذا مقت قوما من السماء ، هلكوا فى الأرض ، فلا تألوا أنفسكم خيرا ، ولا الجند حسن سيرة ، ولا الرعية معونة ، ولا دين الله قوة ، وأبلوا فى سبيله ما استوجب عليكم ، فان الله قد اصطنع عندنا وعندكم ما يجب علينا أن نشكره بجهدنا ، وأن ننصره ما بلغت قوتنا . ولا قوة إلا بالله » .

وكتب إلى الجنود : « من عبد الله علىٍّ أمير المؤمنين . أما بعد . فان الله جعلكم فى الحق جميعاً سواء أسودكم وأحمركم (أى العرب وغير العرب) وجعلكم من الوالى بمنزلة الـولـد من الوالد ، وجعل الوالى منكم بمنزلة الوالد من الولد . وإن حقكم على الوالى

إنصافكم والعدل بينكم ، والكف عن فيئكم ، فإذا فعل ذلك معكم وجبت عليكم طاعته بما وافق الحق ، ونصرته فى سيرته ، والدفع عن سلطان الله ، فانكم وَزَعَةُ الله فى الأرض (المدافعون عما أمر به) فكونوا له أعوانا ، ولدينه أنصاراً ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » .

ثم مضى أمير المؤمنين يعبىء رؤساء الكوفة وأهل الرأى إلى لقائه فى المسجد ليشاورهم فى أمر الحرب ، فان استقاموا له كما استقام من معه من المهاجرين والأنصار ، نهض بهم إلى الشام قبل أن يزحف معاوية على العراق .

* * *

وتوافى عليه عماله الذين كتب إليهم ، وفيهم ابن عباس ، وحشدوا ما استطاعوا من جند ، وحملوا إليه ما بقى من مال ليجهز به الجيش بعد أن أنفقوا على ولاياتهم ما اقتضته مصالحها .

وأسرع أهل الرأى من رؤساء الكوفة إلى المسجد ليلقوا الإمام ، ومعهم القراء (الذين يحفظون القرآن ويعلمونه) ، ورهط كبير من محبى الإمام .

وجلسوا ينتظرونه مع بعض المهاجرين والأنصار ، وأهل بدر ، وخلال الانتظار وقف عمار بن ياسر يحدثهم عن مناقب الإمام .

وأضاءت لحيته البيضاء وجهه الأسمر ، وهو يحدث الناس فى صوت يجلجل بالإصرار على الرغم من الشيخوخة ، وتخفق كلماته بنبض إيمان عميق . . هذا الإيمان الذى يمنح المؤمن القدرة على خوض الغمرات حتى الاستشهاد وهو يبتسم !

قال عمار : « إننا نحن صحابة رسول الله ﷺ نرى لأمير المؤمنين علىٍّ كرم الله وجهه من السوابق ما لو أن سابقة واحدة منها بين الخلائق لو سعتهم خيرا . وما ظنكم برجل يقول عن الدنيا : إنما الدنيا جيفة ، فمن أراد منها شيئاً ، فليصبر على مخالطة الكلاب ، يقول هذا إذ عدوه يصطنع الناس بحبهم الدنيا وزينتها . . ؟! » .

وهز المستمعون رؤوسهم طربا وعجبا ، ونظروا إلى عمار بن ياسر فى جلال شيخوخته يمسك بلحيته الشيباء ثم يطلقها ، وعيناه تنظران إلى بعيد ، وكأن نظراته الثاقبة تقتحم الستار الذى أسدله الزمن على الذكريات !

ثم قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول لعلى بن أبى طالب : « إن الله عز وجل قد زينك بزينة لم يتزين العباد بزينة أحب إليه منها : الزهد فى الدنيا ، فجعلك لا تنال من الدنيا شيئا ، ولا تنال منك شيئا . ووهب لك حب المساكين ، ورضوا بك إماما ، ورضيت بهم أتباعا ، فطوبى لمن أحبك وصدق فيك ، وويل لمن أبغضك وكذب عليك ، فأما الذين أحبوك وصدقوا فيك : فهم جيرانك فى دارك ، ورفقاؤك فى قصرك فى الجنة ، وأما الذين أبغضوك وكذبوا عليك ، فحق على الله أن يوقفهم موقف الكذابين يوم القيامة » .

فضج الحاضرون : « صدق رسول الله ﷺ . . ينصرك الله يا أمير المؤمنين ، يا إمام المساكين » . . وقال أحد الحاضرين : « عزاؤنا نحن المساكين أن يكون إمامنا هو أعلم الناس بكتاب الله وسنة رسوله . أم يعرف أحدكم من هو أعلم منه ؟ » .

فقال أحد المهاجرين : « إن عليًّا له ما شئت من ضرس قاطع فى العلم والبسطة فى العشيرة ، والقدم فى الإسلام ، والصهر لرسول الله ﷺ ، والفقه فى السنة ، والنجدة فى الحرب ، والجود بالماعون » .

فقال رجل من أهل الكوفة : « متى يقودنا أمير المؤمنين لنغزو الشام قبل أن يغزونا معاوية ؟ » .

وقال آخر : « تعلمنا من الإمام أنه ما غُزِى قوم فى دارهم قط إلا ذَلُّوا . . ؟ » .

فأجابه شيخ : « دع الأمر للإمام فهو أدرى بالأمر منا » .

فارتفع صوت : « لا والله لا يصنع بنا كما يصنع معاوية بأصحابه : يأمرهم فيطيعون ، دون أن يفقهوا ! إن لنا فى الأمر رأيا ، وقدْ علَّمَنَا أمير المؤمنين أنه ما خاب من استشار ، وأن من استشار الرجال شاركهم فى عقولهم . لا والله لا يبرم أمرا دوننا أبداً » .

فقال رجل آخر من أهل الكوفة : « لسنا أعلم بالأمر من أمير المؤمنين فلا تحملوه على ما يكره » . وقد سمعناه يروى عن رسول الله أنه قال له : « لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم . فعسى أن يكون فى نية أمير المؤمنين أن ينصح معاوية كما نصحه آنفا ليحقن دماء المسلمين » .

وتنادى الناس : « أمير المؤمنين قادم » . فاشرأبت إليه الأعناق ، وهو يقبل مسرعا مهيبا جليلا . . فقال لهم ابن عباس : « سلوه . . فوالله لقد أُعطِىَ علىٌّ تسعةَ أعشار العلم ، وأيم الله لقد شاركهم فى العشر العاشر » .

وصعد الإمام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال ما تعود أن يقوله كلما صعد المنبر : « سلونى قبل ألا تسألونى . لن تسألوا بعدى مثلى » . فقال ابن الكواء : « ما الذاريات ؟ » قال الإمام : « الريح » قال « فما الحاملات وقرا ؟ » أجابه : « السحب » فسأل ابن الكواء : « فما الجاريات يسرا» قال : « السفن » . فسأل : « فما المقسمات أمرا » قال : « الملائكة » .

وتعالت الصيحات : « الله أكبر . . صدق الرسول إذ قال أنا مدينة الحكمة وعلى بابها » .

ثم ساد صمت ، قطعه قول الإمام : « اسألونى . فوالله ما نزلت آية فى كتاب الله عز وجل إلا وقد علمت متى أنزلت ، وفيم أنزلت . وما من رجل فى قريش إلا نزلت فيه آية تسوقه إلى جنة أو نار » . فسأله أحد القراء : فما نزل فيك ؟ قال : « لولا أنك سألتنى على رؤوس الملأ ما حدثتك ! أما تقرأ قوله تعالى فى سورة هود : « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه ؟ » . فرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على بينة من ربه وأنا الشاهد منه أتلوه وأتبعه » .

ثم أمسك الإمام كرم الله وجهه عن الحديث عن نفسه حياء وتحرجا .

فقام ابن عباس فقال : « وقول الله تعالى فى سورة المائدة : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا** ﴾ نزلت فى المؤمنين وعلى بن أبى طالب أولهم . . وبقية الآية : ﴿ **الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ . نزلت فى على بن أبى طالب خاصة ، كان يصلى فمر سائل وهو راكع فأعطاه خاتمه » .

قال عمار : « قال رسول الله ﷺ : أنا مدينة العلم وعلى بابها ، فأتوا البيوت من أبوابها » .

فقال أحد الأنصار : « اسألوا أمير المؤمنين ، فما أحد اليوم يقول اسألونى غيره . وقد كان يفتى ويقضى على عهد الرسول ﷺ فيرضى . وقد كنا فى ذلك الزمان ولا أحد منا يحفظ القرآن كله إلا على كرم الله وجهه . وقد كنا نعرف المنافقين ببغضهم لعلى ! ولقد كنا مع رسول فانقطع شسع نعله ، فأخذها علىٌّ ليصلحها فمضى رسول الله ﷺ فقال إن منكم رجلا يقاتل على تأويل القرآن ، كما قاتلت على تنزيله ، فاستشرف لها القوم ، فقال رسول الله ﷺ : لكنه خاصف النعل . فجاء فبشرناه بذلك فلم يرفع به رأسا ، كأنه شىء قد سمعه من النبى ﷺ »

فقـال أحد قراء الكوفة : « وها هو ذا معاوية يؤول الآية الكريمة : ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ ! » :

فقـال أحـد الأنصـار : « أمرنا رسول الله ﷺ بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين فقلنا : (يا رسول الله أمرتنا بقتال هؤلاء فمع من؟) قال : (مع على بن أبى طالب . معه يقتل عمار بن ياسر) فهتف عمار : الله أكبر ! إذن أقتل شهيدا . . قال لى رسول الله ﷺ أبشر يا عمار: تقتلك الفئة الباغية . أما والله لأقاتلنها مع أمير المؤمنين على بن أبى طالب فقد سمعت رسول الله ﷺ يقول عنه : من أحبه فقد أحبنى ، ومن أحبنى فقد أحب الله ، ومن أبغضه فقد أبغضنى ، ومن أبغض عليا فقد أبغض الله عز وجل ، وقال صلى الله عليه وآلـه لعـلى : لا يحبـك إلا مؤمن ولا يبغضـك إلا منافق، وقال له: أوحى إلى أنك سيد المسلمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين » .

فقام رجل فقال : « سئل رسول الله ﷺ من يؤمر بعدك ؟ قال : إن تؤمروا أبا بكر تجدوه أمينا زاهدا فى الدنيا ، راغبا فى الآخرة ، وإنتؤمرواعمر تجدوه قوياً،لا يخاف فى الله لومة لائم ، وإن تؤمروا عليا ـ ولا أراكم فاعلين ـ تجدوه هاديا مهديا يأخذ بكم الصراط المستقيم » .

وتكلم الإمام علىٌّ كرم الله وجهه من على المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « إن الله قد أكرمكم بدينه ، وخلقكم لعبادته ، فانصبوا أنفسكم فى أداء حقه ، وتنجزوا موعوده ، واعلموا أن الله جعل أمراس (حبال) الإسلام متينة ، وعراه وثيقة ، ثم جعل الطاعة حظ الأنفس برضا الرب ، وغنيمة الأكياس (الحكماء) عند تفريط الفَجَرة ، وقد حملت أمر أسودها وأحمرها (يعنى العرب وغيرهم) ، ولا قوة إلا بالله . ونحن سائرون إن شاء الله إلى من سفه نفسه ، وتناول ما ليس له وما لا يدركه : معاوية وجنده ـ الفئة الباغية الطاغية . . وأنتم أعلم الناس بحلاله وحرامه ، فاستغنوا بها علمتم ، واحذروا ما حذركم الله من الشيطان ، وارغبوا فيها أنالكم من الأجر والكرامة ، واعلموا أنالمسلوبمن سلِبَ دينه وأمانته، والمغرور من آثر الضلالة على الهدى . فلا أعرف أحدا منكم تقاعس عنى وقال : فى غيرى كفاية . ومن لم يَذُدْعن حوضه يتهدم . ثم إنى آمركم بالشدة فى الأمر ، والجهاد فى سبيل الله ، وألا تغتابوا مسلما ، وانتظروا النصر العاجل من الله إن شاء الله » .

وتصايح أهل الكوفة مكبرين ، وأجابوا الإمام ، ووافقوه على الخروج لصد معاوية وجنـده إلا جماعـة من أتبـاع عبد الله بن مسعود رضى الله عنه , جاءته فقال قائلهم : « يا أمير المؤمنين إنا نخرج معكم ولا ننزل عسكركم ، ونعسكر على حدة حتى ننظر فى

أمركم وأمر أهل الشام ، فمن رأيناه أراد ما لا يحل له ، أو بدا منه بغى كنا عليه » .

فتبسم الإمام قائلا : « مرحبا وأهلا . هذا هو الفقه فى الدين ، والعلم بالسنة ، من لم يرض بهذا فهو جائر خائن . . رحم الله عبد الله بن مسعود ورضى الله عنه » .

وجاءته جماعة أخرى فى نحو أربعمائة رجل فقال كبيرهم : « يا أمير المؤمنين إنا شككنا فى هذا القتال على معرفتنا بفضلك ، ولا غناء بنا ولا بك ولا المسلمين عمن يقاتل العدو ، فَوَلِّنا بعض الثغور نكمن به ، ثم نقاتل عن أهله » .

فوجههم إلى الرِّىّ .

ثم شعر الإمام أن جماعة أخرى لا تحب الخروج معه ، ولكنها لم تفصح عما فى أعماقها تحرجاً وحياء منه ، فذهب إليهم وقال لهم : « خذوا عطاءكم واخرجوا إلى الدَّيْلم » . فحمدوا الله إليه .

وهكذا أرسل الجماعات التى لا تريد أن تنغمس فى القتال ، إلى حدود البلاد ليحموا الثغور مع حماتها مما عسى أن يتهددها من الأعداء . ولم يغاضب أحدا لأنه أبى الخروج معه . .

وأمر الإمام مناديه أن ينادى الناس والمقاتلين إلى أن يخرجوا من ساعتهم إلى النخيلة خارج الكوفة فيعسكروا فيها فى انتظار أن يوافيهم بقية الجند من أقطار البلاد . .

وأمر الإمام صاحبه زياد بن خالد أن يعد ثمانية آلاف مقاتل طليعة للجيش ، وأمر صاحبه شريح بن هانىء أن يعد أربعة آلاف ، وأوصى كلًّا منهما « اتَّق الله ، وخَفْ على نفسك الغرور . وكن لنفسك مانعا وازعا من البغى والظلم والعدوان ، فانى قد وليتك هذا الجند ، فلا تستطيلنّ عليهم وإن خيركم عند الله أتقاكم ، وتعلم من عالمهم ، وعلِّم جاهلهم ، واحلم عن سفيههم ، فانك إنما تدرك الخير بالحلم ، وكف الأذى والجهل (الحماقة) » .

وانطلقت طليعة الجيش فى طريقها إلى الشام فى ثمانية آلاف مقاتل بقيادة زياد ومعه شريح بن هانىء فى أربعة آلاف .

* * *

لبث الإمام علىٌّ فى النخيلة عدة أيام وجنوده يتوافدون عليه مع أمرائهم وعماله من كل الأمصار .

وكان معاوية قد أعد العدة ليرسل جيشه تحت قيادة أحد رجاله ويبقى هو فى دمشق ، ولكن عمرو بن العاص قال له : « أما إذا سار على بن أبى طالب فسر إليه بنفسك ، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك » .

ودخل جند الشام شىء من التهيب والإشفاق مذ عرفوا أن عليا يقود جيشه بنفسه ، فقد علموا أنه ما قاد جيشا قط إلا نصره الله .

وقام عمرو بن العاص يشجع الناس ويهوّن عليهم أمر علىٌّ قائلا : « إن أهل العراق قد تفرقوا عنه . .وإن أهل البصرة مخالفون لعلىٍّ بمن قتل منهم ، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل ، وإنما سار على بن أبى طالب فى شرذمة قليلة ، وقد قتل خليفتكم عثمان ، والله الله فى حقكم أن تضيعوه ، وفى دمكم أن تطلّوه (تهدرونه ولا تثأرون له) » .

فتشجع أهل الشام .

وعقد معاوية لواء لعمرو ، ولواء لابنيه عبد الله ومحمد ، وسار معاوية بجيشه متجها إلى العراق .

وقضى الإمام علىٌّ أياما فى النخيلة يدرب الجند ، ويعلمهم ويعظهم بروائع الحكمة ، من ذلك قوله :

« من خاف الله خافه كل شىء . . إذا تناهت إليكم أطراف النعم ، فلا تنفروها بقلة الشكر . . إذا خبث الزمان كسدت الفضائل وضرّت ، ونفَقَتْ الرذائل ونفعت ، وكان خوف الموسر أشد من خوف المعسر . . . إذا رغبت فى المكارم فاجتنب المحارم . . إذا أيسرت فكل الرجال رجالك ، وإذا أعسرت أنكرك أهلك . . إذا تحركت صورة الشر ولم تظهر ولدت الفزع ، فإذا ظهرت ولدت الألم ، وإذا تحركت صورة الخير ولم تظهر ولدت الفرح ، فإذا ظهرت ولدت اللذة . . إذا استشارك عدوك فجرد له النصيحة ، لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل فى مودتك . . إذا أعجبك ما يتواصفه الناس من محاسنك ، فانظر فيما بَطن من مساوئك ، ولتكن معرفتك بنفسك أوثق عندك من مدح المادحين لك . . . إذا أردت أن تحمد فلا يظهر منك حرص على الحمد . . من تكلف ما لا يعنيه فاته ما يعنيه . . . لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال . . لا تفرح بسقطة غيرك فانك لا تدرى ما تتصرف الأيام بك » .

فلما اكتمل جيشه ترك النخيلة ، وضم إليه عسكر المدائن ، وسار بهم فلما وصل إلى الرقة أمر أهلها أن يصنعوا له جسرا من سفنهم ليعبر عليه الفرات إلى الشام ، فأبوا ، لصلاتهم بمعاوية ، فأقسم الأشتر : إن لم يعملوا جسرا لأمير المؤمنين أن يحاربهم ويستولى على أموالهم التى رشاهم بها معاوية ، فخافوه على أنفسهم وأموالهم ، وأقاموا من السفن جسرا عبر عليه أمير المؤمنين . .

وفى طريقه إلى الشام فوجىء بزياد بن النضر وشريح بمقدمة جيشه يسيران خلفه فقال الإمام ضاحكا : « ما هذا . مقدمتى تسير من ورائى ؟ » .

فأخبره زياد وشريح أنهما سبقاه فى الطريق إلى الشام ، فلما بلغا مدينة بالقرب من دمشق علما أن معاوية قادم فى جيش من مائة وعشرين ألف مقاتل ، فقالا : « لا خير فى أن نلقى جنود الشام بمن معنا » وكانوا نحو اثنى عشر ألفا فحسب ، فعادا وعبرا الفرات إلى أمير المؤمنين .

فاستحسن رأيهما ، فسيرهما أمامه ، حتى إذا أشرفا على موضع يقال له سور الروم لقيهما أبو الأعور السلمى فى جند من أهل الشام ، فأرسلا إلى أمير المؤمنين ، فبعث إليهما الأشتر فى عدة آلاف أميرا على مقدمة الجيش وقال له : « إياك أن تبدأ بقتال إلا أن يبدأوك ، حتى تلقاهم فتدعوهم وتسمع منهم ، ولا يحملك بغضهم على قتالهم قبل دعائهم والإعذار إليهم مرة بعد مرة ، واجعل على ميمنتك زيادا وعلى ميسرتك شريحا ، ولا تَدْنُ منهم دنُوّ من يريد أن ينشب الحرب ، ولا تتباعد عنهم تباعد من يهاب البأس . حتى أقدم إليك حثيث المسير فى إثرك إن شاء الله تعالى » .

وكتب إلى زياد وشريح يأمرهما بطاعة الأشتر ، فهو أمير طليعة الجيش الآن . .

وهكذا خرج الإمام من الكوفة بعد أن أقام بها سبعة عشر شهرا تجرى خلالها الكتب بينه وبين معاوية ، وهو ينصح معاوية وأهل الشام ، بأن يلزموا الجماعة ، وأن يتقوا الله فى مهج المسلمين فيحقنوا الدماء ويدخلوا فى السلم كافة . . ولكن بلا جدوى . .

فكان لابد مما ليس منه بد !

* * *

وخلال إقامته فى الكوفة منذ رجب سنة ست وثلاثين للهجرة ، حتى تركها زاحفا بجنده إلى الشام ، تعود أن يفقه الناس فى الدين ، وأن يجلس إليهم بعد كل صلاة يعلم ويفتى ، ويقول لهم « اسألونى » . وما قالها أحد غيره . .

كما تعـود أن يذهب إلى سوق المـدينة فيشترى حاجته وحاجة أهل بيته من طعام ونحوه ، فيأمر أهل السوق بتقوى الله ، وصدق الحديث والعدل فى الميزان .

اشترى ذات يوم قميصين ، فقال لغلامه : « اختر واحدا منهما » .

ولقـد تحدث إليه بعض الـذين لحقـوا به من أتقياء أهل الشام وقرائهم عن بذخ معاوية ، وعن إغدا'قه على من يصطنعهم . . فزعموا أن على مائدة معاوية عشرة أصناف من الحلوى وحـدها ، وأنه يرتدى كل يوم حلَّتين ، وقد اتخذ لسيفه مقبضا من ذهب ، وما هو إلا أحد الولاة ، فما بال أمير المؤمنين لا يملك غير إزار قصير ، من غزل أهل بيته ، لا يغطى إلا نصف ساقه ؟! وما بال طعامه أخشن طعام ، وما باله يحمل سيفه على حبل من ليف ، وقد اتخذ من حصير المسجد سرير ملكه ؟!

ياله من إمام للمتقين وإمام للمساكين !. .

وضحـك الإمـام وقـال لهم : « أما والله ما أحب الفقر ، ولو تمثل لى الفقر رجلا لقتلته . ولكنى والله لا أرزأ من أموالكم شيئاً » .

ولاحظ أحد الحاضرين أن أمير المؤمنين يرتعد من البرد ، وليس عليه ما يكفى من الثياب فسأله : « يا أمير المؤمنين إن الله قد جعل لك ولأهل بيتك فى هذا المال نصيبا ، فلم تفعل بنفسك هذا ؟ ! » .

فتبسم قائـلا : « إن مس الحصير كان يوجع جنب رسول الله ﷺ ، وما شبع هو وأهله من طعام قط وقد حِيزَتْ له الدنيا وما فيها ، وأنا على سنته . . ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : لا يحل للخليفة من بعدى من مال الله إلا قصعة يأكلها هو وأهله وقصعة يتصدق بها وحلة للصيف وحلة للشتاء ! على أنى أعيش على ما يأتينى من ينبع ، وأستغنى به عن بيت المال » .

وسكت قليلا ثم تنهـد وقـال : « كم من جامع ما سوف يتركه ، ولعله من باطل جمعه ، ومن حق منعه ، أصاب به حراما ، واحتمل به آثاما ، فناء بوزره وقدم على ربه آسفا لاهثا « خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين » صدق الله العظيم . ألا إنه لا شرف أعـلى مـن الإسـ[illegible] ولا عز أعز من التقوى ، ولا معقل أحسن من الورع ، ولا شفيع أنجح من التوبة ، ولا كنز أغنى من القناعة ، ولا مال أذهب للفاقة من الرضا بالقـوت ، والـرغبـة مفتاح النَّصَب ، ومطية التعب ، والحرص والكبر والحسد دواع إلى

التقحم فى الذنوب . . . ألا فاعلموا أن الله تعالى فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما متع به غنى ، والله تعالى سائلهم عن ذلك » .

ولكم عجب الذين سمعوه وسمعوا معاوية . إن معاوية يقرب الناس إليه بما يغدق من منصب أو مال ، وبما يبذل من وعود ، أما على فيصارح الناس بمنهجه ولا يطمعهم فى عطاء لا يستحقونه ، أو فى منصب لا يستأهلونه . . فالمال مال الله وهو أمين عليه ، فهو يستنفر فى الرجل تقاه ، ويزهده فى دنياه ، ليستغنى عن الناس بالله !

إنه ليتصدق بكل ماله الخاص ، ولا يبقى لنفسه أو لأهله إلا ما يكفيهم لما هو ضرورى لاستمرار الحياة من الطعام والكساء . . وحين خوطب فى هذا قال كرم الله وجهه ورضى الله عنه : « الرزق رزقان : رزق تطلبه ، ورزق يطلبك ، فإن لم تأته أتاك ، فلا تحمل هم سنتك على هم يومك ! فإن تكن السَّنَةُ من عمرك فما تصنع بالهَمّ ؟! فإن الله تعالى سيؤتيك فى كل غد جديدٍ ما قسم لك ، وإن لم تكن السنّة من عمرك فما تصنع بالهَمّ لما ليس لك ؟! لن يسبقك إلى رزقك طالب ، ولن يغلبك عليه غالب ، لن يبطىء عنك ما قدر لك . . ألا وإن من البلاء الفاقة ، وأشد من الفاقه مرض البدن ، وأشد من مرض البدن مرض القلب ، ألا وإن من النِّعمَ سعة المال ، وأفضل من سعة المال صحة البدن ، وأفضل من صحة البدن تقوى القلب . . ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها ، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستوفى رزقه منها » .

وألح عليه بعض أصحابه أن يأكل ما طاب ليقوى على القتال فهو لا يأكل إلا رغيفين من خبز الشعير كل يوم ،وأن يكون أحسن الناس مظهرا فهو أمير المؤمنين وإمامهم !

فقال : « إنما هى نفسى أروضها بالتقوى لتأتى آمنة يوم الخوف الأكبر . . ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ، ولباب هذا القمح ، ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات أن يغلبنى هواى ، ويقودنى جشعى إلى تخير الأطعمة !! ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا يجد القرص (الرغيف) ولا عهد له بالشبع ! أو أبيت مِبْطانا (ممتلىء البطن) وحولى بطون غرثى (خالية) وأكباد حرى !؟ . . أقنع من نفسى بأن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر ، أو أكون أسوة لهم فى خشونة العيش ؟! فما خلقت ليشغلنى أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها . . وما خلقت لأترك سدى ، أو أجر حبل الضلالة ، أو أعتسف طريق المتاهة !! وكأنى بقائلكم يقول : « إذا كان هذا قوت ابن أبى طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ومنازلة الشجعان » !! ألا وإن الشجرة

البرية أصلب عوداً ، والروائع الخَضرة أرقّ جلودا ، والنباتات البدوية أقوى وقودا وأقل خمودا . وأنا من رسول الله كالصنو من الصنو ، والذراع من العضد : وقد كان رسول الله يأكل أخشن مما آكل ويلبس أخشن مما ألبس ، وأنا على سُنته حتى ألحق به » .

« ألا وإن لكل إمام مأموما يقتدى به ويستضىء بنور علمه ، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بِطِمْرِيْهِ (إزار ورداء)، ومن طعامه بقرصيه (رغيفيه) . ألا إنكم لا تقدرون على ذلك ولا أطالبكم به ، ولكن أعينونى بورع واجتهاد ، وعفة وسداد ، فوالله ما كنزت من دنياكم تِبراً ، ولا ادخرت من غنائمها وفرا ، ولاحزت من أرضها شبرا . . بلى كانت فى أيدينا فدَك من كل ما أظلته السماء ،فشحت عليها نفوس قوم ، وسخت عنها نفوس قوم آخرين ، ونعم الحكم الله ! وما أصنع بفَدَك وغير فدك ؟! إليك عنى يا دنيا فحبلك على غاربك ، قد انسللتُ من مخالبك ، وأفلتُّ من حبائلك . . اغربى عنى ، فوالله لا أذل لك فتستذلينى ، ولا أسلس لك فتقودينى . وأيم الله لأروضن نفسى رياضة تهش معا إلى القرص إذا قدرت عليه مطعوما (أى تفرح بالرغيف من شدة الحرمان) وتقنع بالملح مأدوما . . أيأكل على من زاده فيهجع . فلا قَرَّتْ إذن عينه ! . . إذن أصبح بعد السنين المتطاولة كالبهيمة والسائمة !! طوبى لنفس أدت إلى ربها فرضها وهجرت فى الليل غمضها ، حتى إذا غلب الكرى عليها افترشت أرضها ، وتوسدت كفها ، فى معشر أسهر عيونهم خوف معادهم ، وتجافت عن مضاجعهم جنوبهم ، وهمهمت بذكر ربهم شفاههم ، وتقشعت بطول استغفارهم ذنوبهم ، ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾ » .

ثم مضى يعظهم : «فاتقوا الله عباد الله وبادروا آجالكم بأعمالكم ، وابتاعوا ما يبقى لكم بما يزول عنكم . . وتزودوا من الدنيا فى الدنيا ما تحفظون به أنفسكم غدا ، فيالها حسرة على كل ذى غفلة أن يكون عمره عليه حجة وأن تؤديه أيامه إلى شقوة ! نسأل الله سبحانه أن يجعلنا وإياكم ممن لا تبطره نعمة ، ولا تقصر به عن طاعة ربه غاية » .

وبكى . . وبكى معه بعض أصحابه مما يسمعون ، فنظر إليهم الإمام ، ومازالت فى عينيه الدموع ، فرأى من خلال الدمع صاحبا له قد بنى دارا كبيرة فقال له : « لقد اتخذت دارا واسعة ، فما تصنع بهذه الدار فى الدنيا أما أنت إليها فى الآخرة كنت أحوج » . فأجابه صاحبه فى حياء وندم : « بلى يا أمير المؤمنين » . قال الإمام : « إن شئت بلغت بها الآخرة : تقرى بها الضيف ، وتصل فيها الرحم ، وتطلع منها الحقوق مطالعها » .

* * *

وقد حسب بعض المستمعين أنه كرم الله وجهه ، يدعوهم إلى الخروج عما أحل الله من متاع الدنيا ، فترك أحدهم أهله وبنيه ، ولبس مرقعة واعتكف للعبادة ، فدعاه الإمام وقال له : « أما استحييت من أهلك ؟! أما رحمت ولدك !؟ أترى أن الله أحل الطيبات وهو يكره أخذك منها . لقد علمتكم أن للمؤمن ثلاث ساعات : ساعة يناجى فيها ربه ، وساعة يرُمُّ معاشه ، وساعة يخلى بين نفسه وبين لذتها فيما يحل ويجمل » .

فدع التواضع فى الثياب تخوفا	فالله يعلم ما تجُن وتكتم
فرثاث ثوبك لا يزيدك زلفة	عند الإله وأنت عبد مجرم
وبهاء ثوبك لا يضرك بعد أن	تخشى الإله وتتقى ما يحرم

فاعلم رحمك الله أنه لا بأس بالغنى لمن اتقى ، واعلم أن الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرّك على الكذب حيث ينفعك ، وألاَّ يكون فى حديثك فضل (زيادة) على عملك ، وأن تتقى الله فى حديث غيرك . . . فلا تعتزل الناس ، فلا رهبانية فى الإسلام . . وتدبر قول الرسول ﷺ : رهبانية أمتى الجهاد . وتعلم وعلِّم غيرك ، فما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلِّموا . وكفاك أدبا لنفسك اجتناب ما تكرهه لغيرك . فخذ من الدنيا ما أتاك ، وتول عما تولى عنك . أو ليس الله تعالى يقول : ﴿ والأرض وضعها للأنام ، فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام ﴾ ؟ أو ليس الله يقول : ﴿ مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ؟ ﴾ . وقد قال تعالى : ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ . » فظل الرجل صامتا لا يرد على الامام . فقال : « تكلم يا رجل ليعرف الناس من أنت ، فان المرء مخبوء تحت لسانه . » فقال : الرجل : « يا أمير المؤمنين تنهانى عن العزوف عن زينة الحياة التى أحل الله لعباده والطيبات من الرزق ، فعلام اقتصرت فى مطعمك على الطعام الغليظ وفى ملبسك على الخشونة ؟ وتركت قصر الإمارة ونزلت منزل أفقر أهل الكوفة ؟! » .

فضحك الإمام كرم الله وجهه ، وقال : « إن الله الذى جعلنى إماما لخلقه فرض علىّ التقدير فى نفسى ومطعمى ومشربى وملبسى ومسكنى كضعفاء الناس ، لأن الله أخذ على أئمة الهدى أن يكونوا فى مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم الغنى ، ولا يزرى بالفقير فقره . فوالله ما ضرب الله عباده بسوط أوجع من الفقر ، ولو تمثل لى الفقر رجلا لقتلته ، فالفقر هو الموت الأكبر ، وإنى لأعرف أن الفقر غربة فى الوطن ، والغنى وطن فى الغربة ، ولكنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أن تفتح عليكم

الدنيا فتنافسوها . والله لقد رقعت مدرعتى هذه حتى استحييت من راقعها ، ولقد قال لى قائل : « ألا تنبذها عنك ؟ » فقلت له : « اغرب عنى . فعند الصباح يحمد القوم السرى . والله لأن أبيت على حسك السعدان (الشوك الحاد) مُسَهّداً ، أو أجَرَّ فى الأغلال مصفدا ، أحبُّ إلى من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالما لبعض العباد أو غاصبا لشىء من الحطام . وإن لى فى رسول الله ﷺ لأسوة ، إذ قبِضَتْ عنه أطراف الدنيا ، وفُطِمَ عن رضاعها ، وزُوى عن زخارفها ، وكان يلبس ويطعم أخشن مما ألبس وأطعم . وإن شئت قلت فى عيسى ابن مريم عليه السلام ، فلقد كان يتوسد الحجر ، ويلبس الخشن ، ويأكل الطعام الغليظ ، وكان سراجه بالليل القمر . . ولم تكن له زوجة تفتنه ، ولا ولد يحزنه ، ولا مال يلفته ، ولا طمع يذله ، دابته رجلاه ، وخادمه يداه » .

* * *

وجاءه بعض الموالى من أهل الكوفة يشكون الولاة وأعوانهم ، فقال لهم : « وأين علماؤكم ؟ ! لقد أخذ الله على العلماء ألا يقروا ظالما ولا يسكتوا عن مظلوم » . .

ثم سألهم عن أعوان الولاة ، فعلم أن الولاة لايحاسبونهم فقال : « يجب على الوالى أن يتعهد أموره ، ويتفقد أعوانه ، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ولا إساءة مسىء ، ثم لا يترك أحدهما بغير جزاء ، فإنه إذا ترك أعوانه تهاون المحسن واجترأ المسىء ، وفسد الأمر » .

فقال أحد الموالى : « سأل الإسكندر حكماء بابل أيها أبلغ عندكم الشجاعة أم العدل ؟ » فقالوا : « إذا استعملنا العدل لم نحتج للشجاعة » .

فقال الإمام : « يجب على السلطان أن يلزم العدل فى ظاهر أفعاله لإقامة أمر سلطانه ، وفى باطن ضميره لإقامة أمر دينه ، فإذا فسدت السياسة ذهب السلطان ، ومدار السياسة كلها على العدل والإنصاف ، فلا يقوم سلطان لأهل الإيمان والكفر إلا بهما . والإمام العادل كالقلب بين الجوارح تصلح الجوارح بصلاحه ، وتفسد بفساده » .

فقال رجل آخر من الموالى : « قال سقراط : ينبوع فرح العالَم الملك العادل ، وينبوع حزنهم الملك الجائر » .

فقال الإمام ضاحكا : « حسبكم دلالة على فضيلة العدل أن الجور الذى هو ضده لا يقوم إلا به ، وذلك أن اللصوص إذا أخذوا الأموال واقتسموها بينهم ، احتاجوا إلى استعمال العدل فى اقتسامهم ، وإلا أضر ذلك بهم ! » .

فقـال رجل ثالث من الموالى : « جاء فى كتب الهند : رأس الحزم للملك معرفته بأصحابه ، وإنزالهم منازلهم ، واتهام بعضهم على بعض » .

وقال رجل رابع من الموالى : قال أحد حكمائنا ينصح كسرى أنوشروان : « كلمة منك تسفك دما ، وأخرى تحقن دما ، وسيفك مسلول على من سخطت عليه ، ورضاك بركة مستفادة على من رضيت . وما نقول لك إلا هذا يا أمير المؤمنين ، فاختر لولايتك أحد رجلين إما أن يكون وضيعا فرفعته ، أو صاحب شرف مهمل فاصطنعته » .

وعجب بعض العرب من أصحاب الإمام فصاح : « ويلكم ! أتعلّمون أمير المؤمنين وهو باب مدينة العلم » .

فنصح الإمام أصحابه بالحلم ، وطلب منهم أن يجعلوا الحكمة ضالتهم ، فقد علمهم الرسول أن الحكمة ضالة المؤمن وأن عليه أن ينشدها . . وقال لمن أنكر على الموالى أن يشيروا على أمير المؤمنين : « لا يقذفنّ فى روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأى غيرك ، فتنقطع بذلك عن المشورة ، فإنك لا تريد الفخر ، ولكن الانتفاع » .

ثم التفت الإمام إلى أصحابه قائلا : « ما هلك امرؤ عن مشورة ، ونعم المؤازرة المشاورة ، ومن استقبل وجوه الآراء عرف مواضع الخطأ . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ما ندم من استشار) . فاعلموا أن الخطأ مع الاستشارة خير من الصواب مع الاستبداد . فتعوّذوا من سكرات الاستبداد بصحوات الاستشارة ، واعلموا أن الرأى يسد ثلم السيف ، والسيف لا يسد ثلم الرأى . فلا يرفع أحدكم صوته بغير حجة على أحد من الموالى ، واعلموا أن الظفر لمن احتج ، لا لمن لج » .

ثم التفت إلى أحد الذين صاحوا فى وجه الموالى الأربعة وقال : « العقل حسام قاطع ، والحلم غطاء ساتر ، فقابل هواك بعقلك ، واستر خلل خلقك بحلمك . ولا يتعصب أحدكم لقبيلته أو لقومه من العرب ، فقد نظرت فما وجدت أحدا من العالمين يتعصب لشىء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء ، أو حجة من عقول السفهاء » .

* * *

وشرع الإمام يكتب إلى عماله الذين اشتكاهم الموالى ، فكتب لأحدهم :

« اتق الله ، ولا تبغ على أهل القبلة ، ولا تظلم أهل الذمة ، فان الله لا يحب المتكبرين ، واعلم أن من آذى إنجيليا فقد آذانى » .

وكتب لوالٍ آخر : « أما بعد ، فان دهاقين بلدك شكوا منك غلظة وقسوة ، واحتقاراً وجفوة . . ولهم فى ذمتنا عهد ، فامزج لهم بين التقريب والإدناء ، والإبعاد والإقصاء إن شاء الله » .

وكتب لثالث : « بلغنى أنك تعمر دنياك بآخرتك ، وتصل عشيرتك بقطيعة دينك ، لئن كان الذى بلغنى عنك حقا ، لجمل أهلك وشعث نعلك خير منك ، ومن كان بصفاتك فليس بأهل أن يُسَدّ به ثغر ، أو يُنفذ به أمر ، أو يُعلى له قدر ، أو يُشرك فى أمانة ، أو يُؤمن على جباية ، فأقبل إلىَّ حين يصل إليك كتابى هذا إن شاء الله » .

وكتب لرابع : « بلغنى عنك أمرٌ إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وأغضبت إمامك ، أنك تقسم فى المسلمين الذى حازته رماحهم وخيولهم ، وأريقت عليه دماؤهم ، فيمن اعتامك (اختارك) من أعراب قومك . . لئن كان ذلك حقا ، لتجدن بك علىَّ هوانا ، ولتخفن عندى ميزانا . فلا تستهن بحق ربك ، ولا تصلح دنياك بمحق آخرتك ، فتكون من الأخسرين أعمالا » .

وكتب لعامل غيره : « بلغنى أنك جردت الأرض ، فأخذت ما تحت قدميك ، وأكلت ما تحت يديك ، فارفع إلىّ حسابك » .

وكتب لجميع عماله على أهل البلاد المفتوحة (أهل البلاد المفتوحة هم الموالى) : « انظروا فى حال تشتتهم وتفرقهم ، ليالى كانت الملوك والأكاسرة والأباطرة أربابا لهم فتركوهم عالة مساكين ! » .

وكتب إلى أحد عماله : « أترجو أن يعطيك الله أجر المتواضعين وأنت من المتكبرين ؟! ، أتطمع وأنت متمرغ فى النعيم ، تستأثر فيه على الجار المسكين والضعيف الفقير والأرملة واليتيم ، أن يجب لك أجر الصالحين المتصدقين ؟ فماذا لو أكلت طعامك مرة وأطعمت الفقير الجائع مرة ؟! إنما المرء يجزى بما أسلف ، والسلام » .

وكتب لآخر : « انظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله ، فاصرفه إلى من قِبَلك (عندك) من ذوى العيال والمجاعة ، مصيبا به مواضع الفاقه والخلات (الحاجات) وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيمن قِبَلَنا » .

وكتب لغيره : « إن عملك ليس لك بطعمة ، ولكنه فى عنقك أمانة ، وأنت مسترعى لمن فوقك ، ليس لك أن تفتات فى رعية ، وفى يديك مال من مال الله عز وجل ، وأنت من خزانه حتى تسلمه إلىّ » .

وقال لأصحابه : « اعلموا أن الولاة هم خزان الرعية ، ووكلاء الأمة ، وسفراء الأئمة » وقال : « إن الوفاء توأم الصدق ، ولا أعلم جُنّة أوقى منه ، وما يعذر من علم كيف المرجع ! ولقد أصبحت فى زمان قد اتخذ أكثر أهله الغدر كيْسًا (عقلا) ، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة . ما لهم - قاتلهم الله - قد يرى الحُوَّلُ القُلَّبُ وجه الحيلة ودونه مانع من أمر الله ونهيه ، فيدعها رأى عين بعد القدرة عليها ، وينتهز فرصتها من لا ورع له ! » .

فقال الذين جاءوا من الشام أن معاوية قد اصطنع أهل الشام جميعاً ، وكلهم حديث عهد بالإسلام ، وكلهم لا يعرف إلا معاوية ، وما يغدقه معاوية ، ثم إنه ليصطنع رؤساء القبائل العربية ، فيجزل لهم فى العطاء أضعافا مضاعفة ، من أجل ذلك نكث الولاة الذين خافوا الإمام على ما كسبوه بغير حق وفروا إلى معاوية !

فقال أصحاب الإمام له : « يا أمير المؤمنين أَعْطِ هذه الأموال ، وفَضِّل هؤلاء الأشراف من العرب ومن قريش على الموالى والعجم ، واسْتَمِلْ من تخاف خلافه من الناس » .

فقال لهم متعجبا منكرا : « أتأمرونى أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟! . . لو كان المال لى لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله ؟! . . ألا وإن إعطاء المال فى غير حقه تبذير وإسراف ، وهو يرفع صاحبه فى الدنيا ، ويضعه فى الآخرة ، ويكرمه فى الناس ، ويهينه عند الله ، ولم يضع امرؤ ماله فى غير حقه ، ولا عند غير أهله إلا حرمه الله شكرهم وكان لغيره ودهم ، فإن زَلَّتْ به النعل يوما فاحتاج إلى خدمتهم فشر خدين وألأم خليل ! . . إنه لا يسعنا أن نعطى أحدا أكثر من حقه . . إن هذا المال ليس لى وليس لكم . ولكنه مال الله يقسم بين الناس بالسوية فلا فضل لأحد على أحد » .

فقال أحدهم : « يا أمير المؤمنين أنت تنصف الوضيع من الشريف ، فليس للشريف عندك فضل منزلة على الوضيع ، فضجت طائفة ممن معك من الحق إذ عموا به ، واغتموا من العدل إذ صاروا فيه ، ورأوا صنائع معاوية من أهل الغنى فباعوا أنفسهم وأكثرهم يشترى الباطل . فإن تبذل المال يمل إليك أعناق الرجال ويستخلص ودهم » .

فرد الإمام : « أما ما ذكرت من علمنا ومسيرتنا بالعدل فان الله عز وجل يقول : ﴿ من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ﴾ . وأنا من أن أكون مقصرا فيما ذكرت أخوف . وأما ما ذكرت أن الحق ثقل عليهم ففارقونا ، فعلم الله أنهم لم يفارقونا عن جور ، ولا لجأوا إذا فارقونا إلى عدل ! وأما ما ذكرت من بذل الأموال واصطناع الرجال فانه لا يسعنا أن نؤتى أحدا من المال فوق حقه » .

* * *

وقدم عليه أخوه عقيل بن أبى طالب من المدينة فقال له : « ما أقدمك يا أخى ؟ » قال : « تأخر العطاء عنا ، وغلاء السعر ببلدنا ، وركبنى دين عظيم ، فجئت لتصلنى » .

فقال عليٌّ : « والله ما لى مما ترى شيئاً إلا عطائى ، فإذا خرج فهو لك » .

قال عقيل : « أشخوصى من الحجاز إليك من أجل عطائك ؟! وماذا يبلغ منى عطاؤك !؟ وما يدفع من حاجتى ؟ » .

فقال الإمام : « هل تعلم لى مالاغيره؟ أم تريد أن يحرقنى الله فى نار جهنم فى صلتك بأموال المسلمين ؟ وما بقى من نفقتنا فى ينبع غير دراهم معدودة . والله يا أخى إنى لأستحى من الله أن يكون ذنب أعظم من عفوى أو جهل أعظم من حلمى ، أو عورة لا يواريها سترى ، أو خلة لا يسدها جودى » .

فلما ألح عقيل عليه ، قال لرجل : « خذ بيد أخى عقيل وانطلق به إلى حوانيت أهل السوق ، فقل له : دق هذه الأقفال ، وخذ ما فى هذه الحوانيت » .

فقال عقيل : « أتريد أن تتخذنى سارقا !؟ » .

قال الإمام « وأنت تريد أن تتخذنى سارقا !؟ أن آخذ من أموال المسلمين ، فأعطيكها دونهم » .

فقال : « والله لأخرجن إلى رجل هو أوصل لى منك . لآتين معاوية » .

فقال الإمام : « أنت وذاك . راشدا مهديا ! » .

فلما قدم على معاوية ، رحب به وقال : « مرحبا وأهلا بك يا عقيل بن أبى طالب . ما أقدمك على !؟ » .

قال : « قدمت عليك لدين عظيم ركبنى ، فخرجت إلى أخى ليصلنى فزعم أنه ليس له مما يلى إلا عطاؤه ، فلم يقع ذلك منى موقعا ، ولم يسد منى مسدا ، فأخبرته أنى سأخرج إلى رجل هو أوصل منه لى ، فجئتك » .

فازداد معاوية فيه رغبة ، وقال للناس : « يا أهل الشام هذا سيد قريش وابن سيدها ، عرف الذى فيه أخوه من الغواية والضلالة ، فجاءنى ، ولكنى أزعم أن جميع ما تحت يدى لى ، فما أعطيت فقربة إلى الله ، وما أمسكت فلا جناح لى عليه » .

ثم قال لعقيل : « يا عقيل بن أبى طالب : هذه مائة ألف تقضى بها ديونك ، ومائة ألف تصل بها رحمك ، ومائة ألف توسع بها على نفسك » .

فوقف عقيل فقال : « صدقت ، لقد خرجت من عند أخى على هذا القول ، وقد عرفت من فى عسكره ، لم أفقد والله رجلا من أهل بدر ولا المهاجرين والأنصار ، ولا والله ما رأيت فى معسكر معاوية رجلا من أصحاب النبى ﷺ » .

فقال معاوية : « يا أهل الشام . أعظم الناس من قريش عليكم حقا ابن عم رسول الله ﷺ وسيد قريش ، وها هو ذا تبرأ مما عمله أخوه ! » .

وضج أهل الشام استحسانا لما يقوله معاوية ! . .

وعجب عقيل ، كيف يفقهون وكيف يسومهم معاوية !؟

إنهم ليلغون عقولهم وأسماعهم وأبصارهم ، ولا يعون أويفقهون أويسمعون أويبصرون إلا ما يريده معاوية !

فوقف عقيل يقول : « أيها الناس ، إنى أردت أخى عليا على دينه فاختار دينه ، وإنى أردت معاوية على دينه ، فاختارنى على دينه » . .

وشعر معاوية أن بعض رؤساء العرب قد فهموا عن عقيل ، وأنهم قد يشرحون لسواهم من غير العرب من أهل الشام ، ففض الناس ، وأمرهم أن يتجهزوا للزحف إلى العراق ، ليغنموا أرضه الشاسعة الخصبة وأمواله الطائلة ونساءه الحسان !! . .

ووجد معاوية أحد رؤساء العرب يسخر من كل هذا ، وينظر إلى معاوية وعمرو شزرا فسأله : « لم أحببت عليا علينا ؟ » فقال : « لثلاث خصال : حلمه إذا غضب ، وصدقه إذا قال ، وعدله إذا حكم » .

وكان عليه السلام قد تعود أن يأخذ الجزية والخراج (الضرائب) من أهل كل صنعة وعمل ، حتى ليأخذ من أهل الإبر والمال والخيوط والحبال ثم يقسمه بين الناس . وكان لا يدع فى بيت المال مالا يبيت فيه ، بل يقسمه إلا أن يغلبه مشغل فيصبح إليه . وكان يكنس بيت المال بعد أن يفرغ من توزيع ما فيه ، ويتخذه مسجداً يصلى فيه .

وقد كانت له بالكوفة امرأتان ، فإذا كان يوم هذه اشترى لحما بنصف درهم ، وإذا كان يوم هذه اشترى لحما بنصف درهم . وكان ينفق هذه النفقة من شىء يأتيه من الحجاز .

وكان يوصى كل عامل يوليه على الخراج : « لا تضربن رجلا سوطا فى جباية درهم ، ولا تتبعن لهم رزقا ، ولا كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعملون عليها ، ولا تقيمن رجلا قائماً فى طلب درهم » فقال له أحد عماله : « يا أمير المؤمنين إذن أرجع إليك كما ذهبت من عندك ؟ » .

قال الإمام : « أمرنا نأخذ منهم الفضل (ما زاد عن الحاجة) » .

* * *

الفصل الثانى

الغمرات ثم ينجلين

مضى الإمام بجيشه فى طريقه إلى الشام ، حتى بلغوا مدينة بها آثار كسرى ، فتمثل أحد أصحاب الإمام بقول الشاعر القديم :

جرت الرياح على مكان ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد

فقال له الإمام : « أفلا تمثلت بقول الله عز وجل : ﴿ كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها قوماً آخرين * فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ ، إن هؤلاء كانوا وارثين فأصبحوا موروثين . إن هؤلاء لم يشكروا النعمة فسلبوا دنياهم بالمعصية . إياكم وكفر النعم لا تحل بكم النقم » .

ثم أمر رجاله أن ينزلوا ليستريحوا على ربوة تكسوها الخضرة ، وتظللها الأشجار الباسقة الوارفة .

وبعد أن استراحوا ، استأنفوا السير حتى مروا بمدينة الأنبار ، فخف وجهاء المدينة وأعيانها إلى استقبال الإمام ، يسوقون دواب مطهمة حملوها أشهى الطعام هدية للإمام وجنوده .

فسألهم الإمام : « ما أردتم بهذا الذى صنعتم ؟ » قالوا : « أما هذا الذى صنعنا فهو خلق منا نعظم به الأمراء : فالمطايا هدية لك ، وقد صنعنا لك وللمسلمين طعاما ، وهيأنا لدوابكم علفا كثيرا » . قال : « أما هذا الذى زعمتم أنه منكم خلق تعظمون به الأمراء فوالله ما ينفع هذا الأمراء ! وإنكم لتشقون به على أنفسكم وأبدانكم ، فلا تعودوا له . وأما دوابكم هذه فان أحببتم أن نأخذها منكم فنحسبها من خراجكم أخذناها منكم . وأما طعامكم الذى صنعتم لنا فاننا نكره أن نأكل من طعامكم شيئا إلا بثمن » . قالوا : « يا أمير المؤمنين نحن نقومه فنقبل ثمنه » . قال : « وإن غصبكم أحد فأعلمونا » .

ثم مضى عنهم وهم يقسمون أنهم ما شعروا بالأمن قط فى عهد ملوكهم الغابرين ، كما يشعرون به الآن فى ظل ظليل من حكم الإسلام ، وحكمة الإمام . .

وسار الإمام بجيشه حتى جهدوا ، فأمر بأن يستريحوا ، ويعلفوا الخيل والدواب ويسقوها . .

وأفضى الإمام إلى أهل الرأى بأنه يتمنى على الله أن يثوب أهل الشام إلى الحق ، فتحقن الدماء !

فقال بعض أصحابه : « يا أمير المؤمنين اكتب إلى معاوية ومن معه من قومك كتابا تدعوهم فيه إليك ، وتأمرهم بترك ما هم فيه من الخطأ ، فان الحجة لن تزداد عليهم بذلك إلا عظما » .

فكتب إلى معاوية كتابا جاء فيه : « . . . لا ينبغى لمن كان له عقل ألا يجهل قدره ، ولا أن يعدو طوره ، ولا أن يشقى نفسه بالتماس ما ليس له . ثم إن أولى الناس بأمر هذه الأمة قديما وحديثا ، أقربها من رسول الله ﷺ وأعلمها بالكتاب وأفقهها فى الدين ، وأولها إسلاما وأفضلها جهادا ، وأشدها بما تحمله الرعية من أمورها اضطلاعا ، فاتقوا الله الذى إليه ترجعون ، ولا تلبسوا الحق بالباطل وأنتم تعلمون . واعلموا أن خيار عباد الله هم الذين يعملون بما يعلمون ، وأن شرارهم الجهال الذين ينازعون بالجهل أهل العلم ، فإن للعالم بعلمه فضلا ، وإن الجاهل لن يزداد بمنازعة العالم إلا جهلا ! » .

« ألا وإنى أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، وحقن دماء هذه الأمة ، فان قبلتم أصبتم رشدكم ، واهتديتم لحظكم ، وإن أبيتم إلا الفرقة وشق عصا هذه الأمة فلن تزدادوا من الله إلا بعدا ، ولن يزداد الرب عليكم إلا سخطا » .

فرد عليه معاوية كما رد من قبل متحديا : « أما بعد فانه :

ليس بينى وبين قيس عتاب ... غير طعن الكلى وضرب الهام

فقال الإمام : « ﴿ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ﴾ صدق الله العظيم » .

وأذن للصلاة ، فأمَّ الناس وصلى ركعتين . وأمرهم أن يقصروا فى الصلاة فهم على سفر . فلما فرغ من الصلاة قال : « سبحان ذى الطول والنعم . سبحان ذى القدرة

والأفضال ، أسأله الرضا بقضائه والعمل بطاعته ، والإنابة إلى أمره ، فانه سميع الدعاء » .

واستوى على ظهر جواده ، وقرأ الآية الكريمة التى تعود أن يقرأها كلما ركب : ﴿ سبحان الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين * وإنا إلى ربنا لمنقلبون ﴾ .

ومضى بجنده فى طريقه إلى الشام حتى إذا غابت الشمس ، ودخل الليل ، صلى بالناس المغرب والعشاء جمعا وقصرا .

وعندما انتهى من صلاته قال : « الحمد لله الذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل . الحمد لله كلما وقب ليل وغسق » .

ثم دعا الله تعالى بدعاء الرسول ﷺ فى السفر : « اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، والحيرة بعد اليقين ، وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد . اللهم أنت الصاحب فى السفر ، والخليفة فى الأهل » .

وأضاف الإمام : « ولا يجمعها غيرك ، لأن المستخلف لا يكون مستصحبا ، والمستصحب لا يكون مستخلفا » . وقضى وجنده الليل حتى إذا تنفس الصبح صلى بهم . .

وراعه جمال المنظر من حوله . . الماء ، والخضرة ، وغابات النخيل . . فقال : ﴿ والنخل باسقات لها طلع نضيد ﴾ . صدق الله العظيم .

وتابع السير فاستقبله أهل قرية فضيَّفوه، فتأبى ، فقال له يزيد بن قيس : « يا أمير المؤمنين . هؤلاء قومك . من طعامهم فاطعم ، ومن شرابهم فاشرب » .

وسأله رجل من أهل القرية عن وضوء رسول الله ﷺ فطلب منهم إناء كالإبريق . . وملأ نصفه بالماء ، فتوضأ الإمام ثلاثا ثلاثا ، ومسح برأسه واحدة وقال : « هكذا رأيت رسول الله يتوضأ » .

* * *

وتوافى إليه جند كثير حتى بلغت عدة جيش الإمام نحو تسعين ألفا ، أغلبهم من أهل بدر والمهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، والمساكين .

أما جيش معاوية فقد بلغ مائة وعشرين ألف مقاتل ، سبق بهم عليا إلى صفين ، نزلوا فى أرض رحيبة واسعة فيحاء على شاطىء الفرات ، فملكوا شريعة الماء حيث يستطيعون أن يشربوا ويسقوا الدواب .

وجاء على بجيشه فأنزلهم تجاه جيش معاوية . .

فلما استراحوا قام فيهم خطيبا ، فقال : « إنه سيأتى عليكم بعدى زمان ليس فيه شىء أخفى من الحق ، ولا أظهر من الباطل ، ولا أكثر من الكذب على الله ورسوله ، وليس عند أهل ذلك الزمان سلعة أبور من الكتاب إذا تلى حق تلاوته ، ولا أنفق (أروج) منه إذا حُرِّف عن مواضعه ، ولا شىء أنكر من المعروف ، ولا أعرف من المنكر ، فقد نبذ الكتاب حملته ، وتناساه حفظته . فالكتاب يومئذ وأهله طريدان منفيان . فالكتاب وأهله فى ذلك الزمان فى الناس وليسا فيهم ، ومعهم وليسا معهم ، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا ، فاجتمع القوم على الفرقة ، وافترقوا على الجماعة ، كأنهم أئمة الكتاب ، والكتاب ليس إمامهم ، فلم يبق عندهم منه إلا اسمه ، ولا يعرفون إلا خطه ، ومن قبل ما مثلوا بالصالحين كل مثلة ، وسموا صدقهم على الله فرية ، وجعلوا فى الحسنة عقوبة السيئة . . فلا تستعجلوا ما يجىء به الغد ، فكم من مستعجل بما إن أدركه وَدَّ أنه لم يدركه وما أقرب اليوم من تباشير غد ! » .

فقال له بعض أصحابه : « لقد أعطيت يا أمير المؤمنين علم الغيب » . فضحك وقال : « ليس هو بعلم الغيب ، وإنما هو علم من ذى علم . علم الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، وما سوى ذلك فعلم علَّمه الله نبيهُ ، فعلمنيه ، ودعا لى بأن يعيه صدرى ، وتنضم عليه جوانحى » .

كانت شريعة الماء التى ملكها معاوية هى المورد الوحيد على النهر للماء . ولقد جعل معاوية عليها حرسا كبيراً بقيادة أبى الأعور ، وأمرهم أن يمنعوا الماء عليا وجنوده . وجاء جنود على يشربون فصدهم جيش معاوية ، وشرعوا فى وجوههم الرماح والسيوف ، ورشقوهم بالنبال !!

فقال له عمرو بن العاص : « يا معاوية خَلِّ بين القوم وبين الماء فإنهم لن يعطشوا وأنت ريان . ولكن بغير الماء فانظر فيما بينك وبينهم » .

فأبى معاوية . .

فقال عمرو : « يا معاوية ما ظنك بالقوم إن منعوك الماء غدا كما منعتم اليوم ؟ » .
قال : « إن عليا لا يستحل منا ما نستحل منه » .

ولما أحس جند الإمام حر العطش شكوا إليه ، وطلبوا منه أن يأذن لهم بقتال جند معاوية على الماء .

فأرسل الإمام إلى معاوية من يقول له : « إنا سرنا مسيرنا هذا ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم ، فقدمت إلينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك ، وبدأتنا بالقتال ! ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك . وهذه أخرى قد فعلتموها ، منعتم الناس من الماء ، والناس غير منتهين أو يشربوا ، فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس والماء ، وليكفوا لننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له . فان أردت أن نترك ما جئنا له ونقتتل على الماء حتى يكون الغالب هو الشارب فعلنا » .

فقام رجل من أهل الشام فقال : « أما والله لو سبقكم عليٌّ إلى الماء لسقاكم منه ، أما تعلمون أن فيهم العبد والأمة والأجير والضعيف ومن لا ذنب له ؟ فهذا أول الجور ! يا معاوية لقد شجعت الجبان ، وبَصَّرت المرتاب، وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك » .

وكان الرجل صديقا لعمرو فقال له معاوية : « يا عمرو اكفنى صديقك ! » .

وأمر الإمام جنوده أن يحاربوا على الماء . . فاندفع بهم الأشتر والإمام يدعو :

« اللهم إن أظهرتنا على عدونا فجنبنا البغى ، وسددنا للحق ، وإن أظهرتهم علينا فارزقنا الشهادة ، واعصم بقية أصحابى من الفتنة » .

وحمل جند الإمام حملة ضارية فانهزم جند الشام عن الماء ، وصار الماء فى أيدى جند الإمام ، فقال رجال منهم : « والله لا نسقيهم » .

فلما بلغ ذلك الإمام أرسل إلى رجاله أمره : « خذوا حاجتكم من الماء وارجعوا إلى عسكركم ، وخلُّوا بينهم وبين الماء ، فإن الله قد نصركم ببغيهم وظلمهم » .

وأرسل إلى معاوية : « إنا لا نجازيك بصنعك ! هلم إلى الماء فنحن وأنتم فيه سواء » .

وشعر معاوية بالخجل . وتغيظ عمرو على معاوية ، فقال له معاوية : « يا عمرو .

كان فلتة من رأيى أعقبتنى بخطئها » ثم التفت إلى بطانته وقال : « لله در عمرو ! ما عصيته فى أمر قط إلا أخطأت فيه ! » .

وأخذ الإمام يعظ أصحابه فقال :

« إن هذه القلوب أوعية ، وخيرها أوعاها ، فاحفظوا عنى ما أقول لكم : الناس ثلاثة : فعالم ربانى ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ، لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق » .

* * *

وبعث معاوية إلى الإمام رجالا ثلاثة ممن عرفوا بسلاطة اللسان وانعدام الحياء ، وأمرهم أن يغلظوا للإمام .

قال قائلهم للإمام : « أما بعد فان عثمان كان خليفة مهديا ، يعمل بكتاب الله ، وينيب إلى أمره ، فاستثقلتم حياته واستبطأتم وفاته ، فعلوتم عليه فقتلتموه ، فادفع إلينا قتلة عثمان إن زعمت أنك لم تقتله . ثم اعتزل أمر الناس ، فيكون أمرهم شورى بينهم يولونه من أجمعوا عليه » .

وعجب الإمام من جسارة الرجل على الحق ، وسفاهته !! .

وأدرك أن معاوية اصطفاه سفيرا عنه لخصال فيه يريدها معاوية فى هذا الموطن !!

لقد أحسن معاوية اختيار من يناسب المهمة حقا . . ! .

وتبسم الإمام ضاحكا من قول الرجل ، وقال له مستخفا به : « ما أنت لا أمّ لك ، والولاية والعزل والدخول فى هذا الأمر ؟! اسكت ! لست هنالك ولا بأهل له » .

فقال الرجل : « والله لترينى بحيث تكره ! » فقال الإمام ساخرا : « وما أنت لا أبقى الله عليك إن أبقيت علينا ؟! اذهب فَصَوِّب وصَعِّد ما بدالك » .

فقال الرجل الثانى من وفد معاوية : « ما كلامى إلا مثل كلام صاحبى فهل عندك جواب غير هذا ؟ » .

قال الإمام : « نعم . عندى جواب غيره » .

ثم حمد الله وأثنى عليه وقال : « أما بعد ، فإن الله تعالى بعث محمداً بالحق ، فأنقذ

به من الضلالة والهلكة ، وجمع به من الفرقة ، ثم قبضه الله إليه ، فاستخلف الناس أبا بكر ، ثم استخلف أبو بكر عمر ، فأحسنا السيرة وعدلا فى الأمة . . وولى الناس عثمان ، فعمل بأشياء عابها الناس ، فساروا إليه فقتلوه ، ثم أتانى الناس وأنا معتزل أمورهم ، فقالوا لى : بايع ، فأبيت ، فقالوا : بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك ، وإنا نخاف إن لم تفعل أن يتفرق الناس » .

« فبايعتهم ، فلم يرعنى إلا شقاق رجلين قد بايعانى ! وخلاف معاوية الذى لم يجعل الله عز وجل له سابقة فى الدين ، ولا سلف صدق فى الإسلام !! . فهو طليق ابن طليق . وحزب من الأحزاب ، لم يزل حربا لله ولرسوله هو وأبوه حتى دخلا فى الإسلام كارهين ، ولا عجب إلا انقيادكم له ! أتتركون آل بيت نبيكم الذى لا ينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ؟! ألا إنى لأدعوكم إلى كتاب الله ، وسنة نبيه ، وإماتة الباطل ، وإحياء الحق ، ومعالم الدين . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم وللمؤمنين » .

فانصرفوا فشيعهم الإمام بنظرات مشفقة وهو يتلو الآية الكريمة : ﴿ **إنك لا تسمع الموتى ، ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين * وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون** ﴾ .

ثم قال لأصحابه : « لا يكن هؤلاء فى الجدّ فى ضلالهم أجد منكم فى الجد فى حقكم » .

* * *

فى جيش على وجيش معاوية كثير من القراء أكثرهم من أهل التزمت والتطرف فى أمور الدين . .

وذات صباح خرج القراء من جيش على ، والقراء من معسكر معاوية فتنادوا . . فالتقوا يتشاورون فى أمر الحرب ، فبلغ عددهم من المعسكرين نحو ثلاثين ألفا .

وخلص رؤساء القراء نجيا ، فرأوا أن يسعوا فى الصلح بين على ومعاوية ونصبوا عليهم أربعة رؤساء يتحدثون عنهم . .

واغتم معاوية غما شديدا حين رأى قراء الشام يخرجون ليلتقوا بالقراء فى جيش على ، وخشى أن يميلوا إلى علىّ ، وما من أحد فى جيش معاوية غيرهم يعتمد عليه فى دعواه أنه يحكم القرآن ولى دم عثمان ، فله سلطان بحكم الشرع !!

وذهب رؤساء القراء إلى معاوية فقالوا له : « يا معاوية » فدهش معاوية وامتعض لأنهم لم ينادوه بلقب الخلافة : أمير المؤمنين . كما تعود معظم أهل الشام منذ حين .

قالوا فى حسم : « يا معاوية ما الذى تطلب ؟ » قال : « أطلب بدم عثمان » قالوا « ممن تطلب بدم عثمان ؟ » قال : « من علىّ » قالوا : « وعلىٌّ عليه السلام قتله ؟ » قال : « نعم قتله وآوى قاتليه » .

فأتوا عليا فقالوا : « يا أمير المؤمنين إن معاوية يزعم أنك قتلت عثمان » قال : « كذب . لم أقتله » فعادوا إلى معاوية يقولون : « علىٌّ عليه السلام لم يقتله » . فقال معاوية : « إن لم يكن قتله بيده فقد أمر ومالأ » فانصرفوا عنه إلى الإمام علىٌّ فقالوا : « إن معاوية يزعم أنك إن لم تكن قتلت فقد أمرت ومالأت على قتل عثمان » قال : « اللهم كذب » فذهبوا إلى معاوية يقولون : « إن عليا عليه السلام يزعم أنه لم يفعل » قال معاوية : « إن كان صادقا فليمكنّا من قتلة عثمان ، فانهم فى عسكره وجنده ، وأصحابه وعصده » فقالوا للإمام : « إن معاوية يقول لك إن كنت صادقا فادفع إلينا قتلة عثمان أو أمكنّا منهم » قال على : « تأول القوم على عثمان القرآن ووقعت الفرقة وقتلوه فى سلطانه فليس عليهم قَوَد (قصاص) » .

فانحاز القراء إلى رأى على ، وأخبروا معاوية بذلك ، فقال لهم : « إن كان الأمر كما تزعمون فما باله ابتز الأمر دوننا على غير مشورة منا ولا ممن ها هنا معنا ؟ » وعادوا بكلامه للإمام فقال : « إن الناس تبع المهاجرين والأنصار ، وهم شهود المسلمين فى البلاد على ولايتهم وأمر دينهم ، فرضوا بى فبايعونى ، ولست أستحل أن أدع شبه معاوية يحكم على الأمة ويركبهم ويشق عصاهم » فعادوا إلى معاوية برد الإمام ، فقال معاوية : « ليس الأمر كما يقول . فما بال من هاهنا من المهاجرين والأنصار لم يدخلوا فى هذا الأمر فيؤامروه (يشاوروه) » .

فلما حملوا رد معاوية إلى الإمام قال : « ويحكم . هذا للبدريين (أهل بدر الذين حاربوا المشركين فى أول معركة قادها الرسول) وليس فى الأرض بدرى إلا وقد بايعنى وهو معى ، أو قد أقام ورضى ، فلا يغرنكم معاوية من أنفسكم ودينكم » .

فعادوا يعلنون نصرتهم لعلى ! وأقاموا لهم معسكرا بين المعسكرين ، فكلما حاولت جماعة من أحد المعسكرين أن تقاتل جماعة من المعسكر الآخر حجز القراء بين المقاتلين . . وأصبح قراء الشام وقراء العراق جيشاً واحدا يرى أن طاعة معاوية ومن معه لأمير المؤمنين واجبة ، وإلا كانوا بغاة !

فأراد معاوية أن يفرقهم ، ويصرفهم عن عَليّ . . فكتب لهم كتابا رشقه بسهم وأطلقه على معسكرهم ، فلما التقطوا السهم قرأ كبيرهم ما في الكتاب على الناس . وإذ فيه : « من عبد الله الناصح ، فانى أخبركم أن معاوية يريد أن يفجر عليكم الفرات » .

فقالوا : « هذا أخ ناصح كتب يخبرنا بما يريد بنا معاوية » .

ونظروا إلى شاطىء الفرات ، فوجدوا نحو مائتى رجل من رجال معاوية يحفرون الشاطىء فاضطربوا وتنادوا بالفرار !

وعلم الإمام بما كان ، فقال : « إن الذى يريده معاوية لا يستقيم له ولا يقوى عليه . إنها خدعة . اثبتوا . إنما يريد أن يزيلكم عن مواقعكم ، فلا تهنوا ولا تضعفوا » فقالوا : « يا أمير المؤمنين لا تدعهم والله يحفرون الساعة » قال : « ويحكم لا تغلبونى على أمرى » قالوا : « والله لنرحلن » .

ورحلوا . . واختاروا مكانا مرتفعا ألقوا فيه رحالهم ، وشاع الذعر من الغرق فى جيش الإمام ، فصعدوا جميعاً بلا إذنه ! واضطر هو آخر الأمر إلى الصعود معهم !!

ودخل أبو الدرداء وأبو أمامة على معاوية ، وكانا فى جيشه ، ولكنهما رأيا أن يسعيا فى حقن الدماء قبل أن تستعر الحرب .

قالا لمعاوية : « علام تقاتل هذا الرجل ؟ فوالله لهو أقدم منك إسلاما ، وأحق بهذا الأمر منك ، وأقرب إلى النبى ﷺ ، فعلام تقاتله ؟ » . قال : « أقاتله على دم عثمان ، وأنه آوى قتلته ، فقولوا لهُ فَلْيُقِدنا (يمكننا من القصاص) فأنا أول من بايعه من أهل الشام » .

فأتيا عليا فقالا : « يا أمير المؤمنين ادفع إلينا بقتلة عثمان نسلمهم معاوية يبايعك وتحقن الدماء كما تريد » فأشار علىٌّ إلى جيشه ، ورد ساخرا : « هم الذين تريان » فإذا بآلاف مؤلفة من الدارعين ، لا شىء يبين منهم غير العيون يصيحون فى صوت واحد : « كلنا . فان شاءوا فليروموا ذلك منا » .

فانصرف عنهم أبو أمامة وأبو الدرداء ، فاعتزلا القتال .

وأخذ الإمام يفكر فى مكر معاوية وعمرو . . ما زالا قادرين على أن يقنعا بعض الناس أن معاوية يطالب بثأر عثمان ، وأن عليا يأوى قتلة عثمان !

وتذكر الإمام ما جرى لعمرو ومعاوية ، ورؤساء أهل الشام ، فضحك !

وروى الإمام لأصحابه ما كان سمعه : أراد عمرو أن يكايد معاوية ويغيظه ، فطلب رؤساء أهل الشام ، وزعم لهم أن معاوية يغضب ممن يخاطبه قائلا : « يا أمير المؤمنين » . وكان الناس منذ بايعوه لا ينادونه إلا بهذا اللقب ! فلما دخل رؤساء أهل الشام على معاوية ، وعنده عمرو ، جعلوا يقولون لمعاوية : « السلام عليك يا رسول الله صلى الله عليك ! » .

ودهش معاوية ! فانفجر عمرو ضاحكا وهو يقول : « لعنكم الله من حمير ! نهيتكم أن تنادوه أمير المؤمنين فجعلتموه رسول الله !! » .

ودعا عليٌّ ثلاثة من أصحابه وقال لهم : « القوا معاوية فائتوه ، واحتجوا عليه ، وانظروا ما رأيه » فجاءوه فقال أحدهم : « يا معاوية إن الدنيا عنك زائلة ، وإنك راجع إلى الآخرة ، وإن الله عز وجل محاسبك بعملك ، وجازيك عما قدمت يداك ، فلا تفرق جماعة هذه الأمة ، ولا تسفك دماءها بينها » .

فقاطعه معاوية قائلا : « هلا أوصيت بذلك صاحبك » .

فقال الرجل الثاني : « يا معاوية إن صاحبنا ليس مثلك ! صاحبنا أحق البرية كلها بهذا الأمر فى الفضل، والدين ، والسابقة فى الإسلام ، والقرابة من رسول الله ﷺ » .

قال معاوية : « فيقول ماذا ؟ » .

قال الرجل الثالث : « يأمرك بتقوى الله عز وجل ، وإجابته إلى ما يدعوك إليه من الحق ، فانه أسلم لك فى دنياك ، وخير لك فى عاقبة أمرك » .

قال معاوية : « ونترك دم عثمان !؟ لا ، لا ، والله لا أفعل ذلك أبداً ؟ » فقال : « يا معاوية ، إنى قد فهمت ردك ، إنه والله لا يخفى علينا ما تطلب ! إنك لم تجد شيئاً تستغوى به الناس ، وتستميل به أهواءهم ، وتستخلص به طاعتهم إلا قولك : (قتل إمامكم مظلوما فنحن نطلب بدمه) فاستجاب لقولك سفهاء طغام . وقد علمنا أنك أبطأت عن عثمان بالنصر ، وأحببت له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت تطلب ! ورب متمنى أمر وطالبه ، الله عز وجل يحول دونه بقدرته ، وربما أوتى المتمنى أمنيته وفوق أمنيته ! ووالله مالك فى واحد منهما خير . لئن أخطأت ما ترجو إنك لشر العرب حالا ، ولئن أصبت ما تتمنى لا تصيبه حتى تستحق من ربك صِلىَّ النار ! فاتق الله يا معاوية ، ودع ما أنت عليه ، ولا تنازع الأمر أهله » .

فغضب معاوية وقال : « قد كذبت ولؤمت أيها الأعرابى الجلف الجافى فى كل ما ذكرت ووصفت . انصرفوا من عندى ، فانه ليس بينى وبينكم إلا السيف » فخرجوا وهم يقولون : « أفعلينا تهول بالسيف ؟ ! أقسم بالله لنعجلنها إليك » .

فأخبروا الإمام بما كان وطالبوه أن يأمر بالقتال بين الجمعين ، ولكن الإمام رأى أن يجنب المسلمين لقاء الجيشين الكبيرين حذر الاستئصال وهلاك الآلاف !

فكان يأمر جماعة صغيرة من أصحابه أن يخرجوا للقاء جماعة صغيرة من جيش معاوية . ولربما اقتتلوا فى اليوم الواحد مرتين ! وكان الأكثر خروجا الأشتروحجر بن عدى ، وقيس بن سعد بن عبادة .

واستبطأ أصحابه إذنه للجيش كله بالقتال ، وكانوا يريدون أن يلتقى جمع أهل العراق بجمع أهل الشام .

والإمام ينتظر ، ويرسل إلى معاوية ورؤساء جيشه من يعظهم لعلهم يدخلون فى الطاعة فتحقن الدماء ، حتى ضاق بذلك أصحاب الإمام ، فتقوَّل نفر منهم عليه الأقاويل . وحسبوه لا يريد الحرب حذر الموت وخشية من أهل الشام !

فقال : « أما قولكم أكل ذلك كراهية الموت ؟ فوالله ما أبالى : دخلت إلى الموت أو خرج الموت إلى . وأما قولكم شكا فى أهل الشام ! فوالله ما دفعت الحرب يوما إلا وأنا طامع أن تلحق بى طائفة فتهتدى بى ، وتعشو إلى ضوئى . وذلك أحب إلى من أن أقتلها على ضلالها ، وإن كانت تبوء بآثامها » .

حتى إذا جاء المحرم عام سبع وثلاثين ، توادع الفريقان على ترك الحرب بينهما حتى ينقضى الشهر الحرام .

وبعث الإمام إلى معاوية وأهل الشام عدى بن حاتم الطائى على رأس وفد من ثلاثة رجال ، داعين إلى حقن الدماء .

فقال عدى : « أما بعد . فقد جئناك ندعوك إلى أمر يجمع الله به كلمتنا وأمتنا ، ويحقن به الدماء ، ويصلح به ذات البين ، إن ابن عمك سيد المسلمين (يقصد الإمام) ، وأحسنهم فى الإسلام أثرا ، وأفضلهم سابقة ، وقد استجمع له الناس ، ولم يبق أحد غيرك وغير من معك ، فاحذر يا معاوية لا يصيبك وأصحابك مثل يوم الجمل ! » .

فغضب معاوية وقال : « كأنك جئت مهددا ، ولم تأت مصلحا ، هيهات يا عدي !

كلا . والله إنى لابن حرب (اسم جده) والله إنى ما يقعقع لى بالشّنان (القربة البالية ، تقعقع أى تحرك فتحدث صوتا فتتحرك الابل ، وهذا هو أصل المثل) ، وإنك والله يا عدى لمن المخلبين على عثمان ، وإنك من قتلته ، وإنى لأرجو أن تكون ممن يقتله الله به » .

فقال له بقية النفر : « أتيناك فيما يصلحنا وإياك ، فأقبلت تضرب لنا الأمثال ! دع ما لا ينفع وأجبنا فيما يعم نفعه . إنا لم نأت إلا لنبلغك ما أرسلنا به إليك ، ونؤدى عنك ما سمعنا منك ، وننصح لك ، وأن نذكر ما تكون به الحجة عليك ، ويرجع إلى الألفة والجماعة . إن صاحبنا من قد عرف المسلمون فضله ، وهو لا يخفى عليك ، فاتق الله يا معاوية ولا تخالفه ، فوالله ما رأينا فى الناس رجلا قط أعمل بالتقوى ، ولا أزهد فى الدنيا ، ولا أجمع لخصال الخير كلها منه » .

ولكن معاوية لم يجبهم إلى دعوتهم ، فانصرفوا عنه ، وأخذ هو يغرى نفرا من أصحاب الإمام بالمال ويعدهم بامارة الولايات !

فردَّ كل منهم بجواب واحد : « إنى على بينة من أمرى . ربِّ بما أنعمت على فلن أكون ظهيراً للمجرمين » .

فقال معاوية لعمرو بن العاص : « لست تكلم رجلا منهم فيجيب إلى خير ، ما قلوبهم إلا كقلب واحد » .

وهذا حق . . كانت قلوب أصحاب الإمام كقلب واحد تعمره التقوى وعزة الاستعلاء فوق أطماع الدنيا ولبانات الجاه ، ولكن آراؤهم كانت شتى !

أما هؤلاء الذين انحازوا لمعاوية وأصبحوا هم جيش الشام ، فقد وصفهم معاوية آنفا لعمار بن ياسر وهو يهدده قبل مقتل عثمان : « يا عمار ، إن بالشام مائة ألف فارس ، كلٌّ يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم لا يعرفون عليا ولا قرابته ، ولا عمارا ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحابته ، ولا طلحة ولا هجرته ، ولا يهابون ابن عوف ولا ماله ، ولا يتقون سعدا ولا دعوته ، هم لا يعرفون الإسلام ولا أصحاب الفضل ، ولا يعرفون إلا العطاء » .

أما العرب الذين تركوا عليا ولحقوا بمعاوية ، وهم قليل من الذين تولوا أمرا من أمور المسلمين ، فهم الذين يخافون عدل علىٍّ وحسمه وتقواه على ما فى أيديهم ، والذين يرفضون التسوية فى القسمة ، والذين خانوا أماناتهم ، فلما أراد الإمام أن يحاسبهم ، فروا منه بما

نهبوه ، فأقرهم معاوية على ما نهبوه وأغدق عليهم المزيد . . أما هؤلاء جميعاً فقد قال عنهم الإمـام : « إنـما هم أهل دنيا مقبلون عليها ، مهطعون إليها ، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه ، وعلموا أن الناس عندنا أسوة ، فهربوا إلى الأثرة ، فبعدا لهم وسحقا !! » .

وقال عن معاوية الذى اصطنعهم : « طبيب دوار بطبه ، قد أحكم مراهمه ، وأحمى مواسمه (جمع ميسم : المكواة) يضع ذلك حيث الحاجة إليه : من قلوب عمى ، وآذان صم ، وألسنة بكم ، يتبع بدوائه مواضع الغفلة ، ومواطن الحيرة » .

شعر الإمام بما اعتور نفوس بعض عماله وبعض رجاله وأصحابه ، وهم يقارنون بين ما يأخذهم به من حرمان وشدة فى الحق ، وبين ما يغرق به معاوية أتباعه ، وما يصطنع به الناس من إغداق الضياع والمال والمتاع بغير الحق ، فقال : « إنى أعرف ما يصلحكم لى ، ولكنى لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسى » .

وما كان الإمام فى الحق داعية إلى الفقر ، ولكنه كان هاديا إلى التقوى . قال يعظ ابنه محمد بن الحنفية : « يا بنى إنى أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه ، فان الفقر منقصة للدين ، مدهشة للعقل ، داعية للمقت » .

وكـان من دعائه كرم الله وجهه : « اللهم صن وجهى باليسار ، ولا تبذل جاهى بالإقتار ، فأسترزق طالبى رزقك ، وأستعطف شرار خلقك ، وأبتلى بحمد من أعطانى ، وأفتتن بذم من منعنى ، وأنت من وراء ذلك كله ولىُّ الإعطاء والمنح ، إنك على كل شىء قدير . اللهم إنى أعوذ بك أن أفتقر فى غناك ، أو أضل فى هداك ، أو أضام فى سلطانك ، أو اضطهد لأمر لك » .

وكان يعلم الناس أن يدعوا بدعاء علمه الرسول ﷺ لصفيته فاطمة الزهراء رضى الله عنها . قال لها : « يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعى ما أوصيك به أن تقولى : يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث ، لا تكلنى إلى نفسى طرفة عين وأصلح لى شأنى كله » .

كما كان يعظهم أن يدعـوا بدعـاء لنبى الله عيسى عليه السـلام : « اللهم إنى أصبحت لا أستـطيع دفع ما أكره ، ولا أملك نفع ما أرجو ، وأصبح الأمر بيد غيرى ، وأصبحت مرتهنا بعملى ، فلا فقير أفقر منى . اللهم لا تشمت بى عدوى ، ولاتسؤ بـى صديقى ، ولا تجعل مصيبتى فى دينى ، ولا تجعل الدنيا أكبر همى ، ولا تسلط على من لا يرحمنى . . يا حى يا قيوم » .

وانقضى الشهر المحرم ، ولم تفىء عصبة معاوية إلى أمر الله ، ولم تقبل الصلح أو تلزم الجماعة ، فأرسل إليهم الإمام مناديا ، فنادى : « يا أهل الشام ، يقول لكم أمير المؤمنين على بن أبى طالب : قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه ، فلم تنتهوا عن البغى والطغيان ، ولم تجيبوا إلى الحق ، وإنى قد نبذت إليكم على سواء (أى أعلمهم بنبذ الموادعة أى أنذرهم بالحرب) إن الله لا يحب الخائنين . قال تعالى : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ صدق الله العظيم » .

ووزع الإمام رايات القتال ، وعينَ القواد ، واتخذ كل مقاتل وقائد مكانه .

ثم قال : « لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم . وأنتم - بحمد الله - على حجة ، وترككم قتالهم حتى يبدءوكم حجة أخرى ، فإذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا ، ولا تجهزوا على جريح ، ولا تكشفوا عورة ، ولا تمثلوا بقتيل ، فإذا وصلتم إلى رحال القوم فلا تهتكوا سترا ، ولا تدخلوا دارا إلا بإذن ، ولا تأخذوا شيئا من أموالهم إلا ما وجدتم فى عسكرهم من عدة الحرب وأدواتها ، ولا تهيجوا امرأة بأذى وإن شتمن أعراضكم ، وسببن أمراءكم وصلحاءكم » .

ولكنه سمع بعض أصحابه يتحاورون فيما أمرهم به ، كما حاوروه بعد معركة الجمل ، فما زال بهم حتى اقتنعوا .

ثم قال يحرض على القتال : « عباد الله اتقوا الله ، وغضوا الأبصار ، واخفضوا الأصوات ، وأقلوا الكلام ، ووطنوا أنفسكم على المنازلة . . فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ، ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، واصبروا إن الله مع الصابرين . اللهم ألهمهم الصبر ، وأنزل عليهم النصر ، وأعظم لهم الأجر » .

وفى المعسكر الذى اجتمع فيه قراء الشام وقراء العراق ، ارتفعت الأصوات فى حدة ، وهم يتجادلون فى أوامر علىٍّ . فقال أحدهم : « علىٌّ مصيب فقد جاء فى الحديث الشريف : علىٌّ مع القرآن والقرآن معه لا يفترقان » .

فوقف علىٌّ خطيبا ليلة أول صفر سنة سبع وثلاثين للهجرة ، فحمد الله وأثنى عليه وقال : « الحمد لله الذى لا يبرم ما نقض ، وما أبرم لم ينقضه الناقضون ، ولو شاء الله ما اختلف اثنان من خلقه ، ولا اختلفت الأمة فى شىء ، ولا جحد المفضول ذا الفضل فضله . وقد ساقنا وهؤلاء القوم الأقدار فنحن بمرأى من ربنا ومسمع ، فلو شاء عجل النقمة ، وكان منه التغيير ، حتى يكذب الظالم ، ويعلم المحق أين مصيره ، ولكنه جعل

الدنيا دار الأعمال وجعل الآخرة دار القرار ﴿ ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى ﴾ ، ألا وإنكم لاقو القوم غدا ، فأطيلوا الليلة القيام ، وأكثروا قراءة القرآن ، واسألوا الله النصر والصبر ، والقوهم بالجد والحزم وكونوا صادقين » .

حتى إذا كان صباح الأربعاء غرة صفر ، زحف الإمام بالناس ، وخرج إليه معاوية فى أهل الشام ، وكان الإمام فى القلب على أهل المدينة وأكثر من معه من أهل بدر والمهاجرين والأنصار ، بين أهل الكوفة وعليهم الأشتر ، وأهل البصرة ، وعليهم عبد الله ابن عباس .

ورفع معاوية قبة عظيمة ، وبايعه بعض أهل الشام على الموت دفاعا عنه . .

وسأل الإمام عن القبائل فى جيش الشام ، وأمر كل قبيلة فى جيشه أن تكفيه أختها من أهل الشام .

واقتتل الناس يوم الأربعاء قتالا شديدا ، ثم انصرفوا عند المساء وليس منهم مغلوب ولا غالب !

فلما كان الخميس وقف عبد الله بن بديل يحرض على القتال فقال : « ألا إن معاوية ادعى ما ليس له ، ونازع الحق أهله ، وعاند من ليس مثله ، وجادل بالباطل ليدحض به الحق ، وصال عليك بالأعراب والأحزاب الذين زين لهم الضلالة ، وزرع فى قلوبهم حب الفتنة ، ولبّس عليهم الأمر ، وزادهم رجسا إلى رجسهم ، وأنتم والله على الحق ، على نور من ربكم وبرهان مبين . فقاتلوا الطغاة الجفاة ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ﴾ . قاتلوا الفئة الباغية الذين نازعوا الأمر أهله ، وقد قاتلوهم مع رسول الله ﷺ ، فوالله ما هم فى هذه بأزكى ولا أتقى ولا أبر » .

وقام يزيد بن قيس فقال : « إن المسلم من سلم فى دينه ورأيه ، وإن هؤلاء القوم والله ما يقاتلوننا إلا على هذه الدنيا ليكونوا جبارين فيها وملوكا فلو ظهروا عليكم ـ لا أراهم الله ظهوراً ـ لرموكم بالسفهاء الضالين ، وممن يأخذ حقكم ويقول : هذا لى ولا إثم علىَّ كأنما أعطى تراثه عن أبيه وأمه ، وإنما هو مال الله أفاءه علينا بأرماحنا وسيوفنا . فقاتلوا عباد الله القوم الظالمين ، فانهم إن يظهروا عليكم يفسدوا عليكم دينكم ودنياكم ، وهم من قد عرفتم وخبرتم ، والله ما ازدادوا إلى يومهم إلا شرا » .

نَظَّم الإمام على أمير المؤمنين صفوف جيشه وقال : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفًا كأنهم بنيان مرصوص . فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدِّموا الدارع ،

وأخروا الحاسر ، وعضوا على الأضراس ، فإنه أنبى للسيوف . . وغضوا الأبصار ، فانه أربط للجأش ، وأسكن للقلوب . وأميتوا الأصوات ، فانه أطرد للفشل ، وأولى بالوقار . راياتكم فلا تميلوها ولا تزيلوها ولا تجعلوها إلا بأيدى شجعانكم . واستعينوا بالصدق والصبر ، فانه بعد الصبر ينزل النصر » .

وبدأت المعركة ، واستحر القتال . . وما يسمع غير وقع الحديد على الحديد .

وكان الحسن والحسين ومحمد بنو الإمام معه ، والنبل يمر بين عاتقه ومنكبه ، فلما دنا منه أهل الشام وأطلقوا عليه السهام والنبال يريدون قتله ، قال له الحسن أكبر بنيه : « ما ضرك لو سعيت حتى تنتهى إلى هؤلاء القوم من صحبك فتلقوا بجمعكم أهل الشام ؟ » فقال : « يا بنى إن لأبيك يوما لا يعدوه ولا يبطىء به عنه السعى ، ولا يعجل به إليه المشى ، إن أباك والله لا يبالى أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ! » .

واقتتل الفريقان حتى العصر ، وانهزم أصحاب أمير المؤمنين ، وفر بعضهم ، فقال للأشتر : « إيت هؤلاء القوم الفارين فقل لهم : أين فراركم من الموت الذى لن تعجزوه إلى الحياة التى لا تبقى لكم » .

فقال الأشتر لهم ما قاله الإمام ، وأضاف : « أنا الأشتر . إلىَّ أنا الأشتر . إلى يا مذحج (وهى قبيلته) » .

فلما خلصوا إليه قال : « ما أقبح ما قاتلتم منذ اليوم . ما أرضيتم ربكم ، ولا نصحتم له فى عدوكم ، وكيف ذلك وأنتم أبناء الحرب ، وأصحاب الغارات وفتيان الصيال ، وفرسان الطراد ، وحتوف الأقران ؟! ما تفعلون هذا اليوم فانه مأثور عنكم بعد اليوم . فاصدقوا عدوكم اللقاء ، فان الله مع الصادقين ، والذى نفسى بيده ، ما من أهل الشام رجل على مثل جناح بعوضة من دين الله » فقالوا : « خذ بنا حيث أحببت » .

وزحف بهم الأشتر ، وثاب إليه الفارون ، فقاتل بهم قتالا شديدا ، وقاتل غيرهم من أصحاب الإمام بقيادة عبد الله بن بديل ، حتى أحاطوا بقبة معاوية . وانتهوا إلى الرجل القائم على رأس معاوية ومعه ترس مذهب يستر به معاوية من الشمس ، فقتلوه ، فدعا معاوية بفرسه فركبه ، فهم بالفرار فنظر إليه عمرو وقال : « اليوم صبر ، وغدا فخر » فقال معاوية : « صدقت » وأخذ يردد قول الشاعر الجاهلى :

أبــت لى همتــى وأبــى بلائــى وإقــدامى على البــطل المشيــح
وإقــدامــى على المكــروه نفســى وأخــذى الحمــد بالثمن الــربيــح
وقــولى كلما جشــأت لنــفــســى مكــانــك تحمــدى أوتســتريحــى

وعاد إلى المعركة يستثير جنده أن يضربوا ويصبروا وسيغلبون . . فجندُ عليٍّ يفرون !

ووقفت أم الخير ، وهى امرأة من الكوفة ، على جملها تخطب الفارين : « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم ، إن الله قد أوضح لكم الحق ، وأبان الدليل . فأين تريدون رحمكم الله ؟ أفرارا عن أمير المؤمنين ؟ أم فرارا من الزحف ؟ أم رغبة عن الإسلام ؟ أم ارتدادا عن الحق ؟ أما سمعتم الله جل ثناؤه يقول : ﴿ **ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين** ﴾ » .

ثم رفعت رأسها ويديها إلى السماء ، وقالت : « اللهم قد عيل الصبر ، وضعف اليقين ، وبيدك يارب أزِمّة القلوب ، فاجمع اللهم بها الكلمة على التقوى ، وألف القلوب على الهـدى ، واردد الحَق إلى أهله . . هلمـوا رحمكم الله إلى الإمام العادل ، والرضِىّ التقى ، والصِّـدِّيق الأكبر . إنها إحن (ضغائن) ، وأحقاد جاهلية وثب بها واثب حين الغفلة ليدرك ثارات عبد شمس . . صبرا يا معشر المهاجرين والأنصار ، قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم . . الله الله أيها الناس ، قبل أن تبطل الحقوق وتعطل الحدود ويظهـر الـظالمـون . فالى أين تريدون رحمكم الله ـ عن ابن رسول الله ﷺ وصهره وأبى سبطيه ؟ خلق من طينته ، وتفرع من نبعته ، وجعله باب مدينته ، وأبان ببغضه المنافقين . صلى والناس مشركون ، وأطاع والناس كارهون ، فلم يزل حتى قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وهزم الأحزاب ، وقتل الله به أهل خيبر . . فيالها من وقائع زرعت فى القلوب نفـاقـا ، وردة وشقـاقا ، وزادت المؤمنين إيمانا . . قد اجتهدتُ فى القول ، وبالغت فى النصيحة ، وبالله التوفيق ، والسلام عليكم ورحمة » .

وشعـر الرجال الفارون بالخزى والمهانة إذ يولون الأدبار ، وامرأة تستنفر رجولتهم وشجاعتهم ، وتزرى على جبنهم ، وتدعوهم للثبات ، فعادوا مستثارين فى حماسة عارمة ، فحملوا على جنـد معـاوية ، يطردون من أعماقهم حب الدنيا والحرص عليها ، بالرغبة الجليلة فى الاستشهاد دفاعا عما يؤمنون به ، حتى فى الجاهلية ما كان آباؤهم يفرون عند الروع ، فما بال الذين استقوا بالإسلام والإيمان يفرون ؟!

وها هو ذا صوت الأشتر الجهير يختلط بقراع الأسنة ووقع الحديد على الحديد ، ويردد جند عليٍّ كلمات الأشتر : « الغمرات ثم ينجلين » .

وتتعالى الصيحات من كل الأرجاء من صفوف عليٍّ كلٌّ يشد أزر صاحبه : « شدوا شدوا يا رهبان الليل وفرسان النهار ! » .

تدافعت صفوف الورعين والمساكين والقراء تنقض على جند معاوية بكل الطاقة الخارقة التى يمنحها حب العدل ، والغنى عن الناس بالله ، والأشواق النبيلة إلى المساواة ، والكبرياء التى يفجرها شرف الجهاد فى سبيل الله ، والعزة التى تصب قوة لا تقهر فى سواعد الذين يدافعون عن الحق ، ويذودون عن الحقيقة باسم الله !

واندفع عبد الله بن بديل على رأس ثلثمائة من القراء قاصدين الترس الذهبى الذى يستظل به معاوية أمام قبته الفخيمة ، وأمامه خمسة صفوف من جنده بايعوه على الموت دفاعا عنه . . وربط كل واحد منهم نفسه إلى أخيه بعمامته ليحاربوا جميعاً ، فيظفروا أو يهلكوا جميعاً ، ولا يتمكن أحد من الفرار !

واستطاع عبد الله بن بديل بمن معه من القراء أن يهزم أول صف ، ثم هزم الصف الذى يليه ، وأزاح الصف الثالث والرابع ، ولم يبق دون معاوية إلا صف واحد !

والمعركة تحتدم ، والصفوف تضطرب وتتموج ، فما يبقى من الجانبين أحد فى مكانه . . وكل شىء يضطرم !

ونظر عبد الله بن بديل فى الصفوف يبحث عن الإمام فى موقعه من قلب الجيش ، غير أن الإمام لم يكن فى مكانه !!

ووجد عبد الله بن بديل مكان الإمام صاحبه الأشتر ، فسأله : « ما فعل أمير المؤمنين ؟ » قال الأشتر : « حى صالح يقاتل فى الميسرة » . فقال وقال القراء معه : « الحمد لله . كنا ظننا أنه هلك وهلكتم معه » .

وصاح عبد الله فى رجاله : « استقدموا بنا » فقال له الأشتر : « لا تفعل واثبت مع الناس هنا فقاتل ، فانه خير وأبقى لك ولأصحابك » .

ولكن عبد الله اندفع يقود أصحابه من القراء ، وأوشك أن يهزم آخر صف فينكشف له معاوية ، فصاح معاوية : « أقذفوه بالحجارة » . فقذفوه ، فسال دمه . وسقط على الأرض ، فأجهزوا عليه ، وحملوا على القراء .

ولكن الأشتر وجنده حملوا على جند الشام فأتاح للقراء أن ينسحبوا سالمين ، ليحاربوا فى موقع آخر من وادى صفين .

وجاء معاوية ومعه صاحبه عبد الله بن عامر ، فغطى ابن عامر بعمامته وجه صديقه عبد الله بن بديل ، وكانت بينهما مودة قبل الحرب . . وقال : « رحمك الله يا عبد الله » واغرورقت عيناه بالدموع . فقال معاوية : « اكشفوا وجهه » .

وأدرك ابن عامر أن معاوية يريد أن يمثل بجسد ابن بديل . . فقال ابن عامر ينذر معاوية : « والله لا تمثل به وفىَّ روح » . قال معاوية : « اكشفوا وجهه فقد وهبناه لك . هذا كبش القوم . اللهم أظفرنى بالأشتر » .

وعاد معاوية إلى قبته الفخيمة ، وحامل الترس المذهب يتحرى أشعة الشمس ليحمى منها رأس معاوية .

وصاح أحد النساك الزاهدين من أصحاب الإمام : « ألا إن مرعى الدنيا أصبح هشيما ، وشجرها حصيدا (مقطوعا) ، وإنى لأتمنى الشهادة وأتعرض لها فى كل جيش وغارة ، فأبى الله إلا أن يبلغنى هذا اليوم . وإنى متعرض لها من ساعتى هذه ، وقد طمعت ألا أحرمها ،فما تنتظرون عباد الله بجهاد من عادى الله ؟ أهو خوف من الموت القادم عليكم الذاهب بأنفسكم لا محالة ؟ استبدلوا الدنيا بالنظر فى وجه الله ، ومرافقة النبيين والصديقين والشهداء فى دار القرار » .

واندفع يقاتل وهو يقول لإخوة له ثلاثة كانوا معه : « يا إخوتى قد بعت هذه الدنيا بالتى وراءها » .

وقاتل حتى قتل ، فشد إخوته على جند معاوية قائلين لأخيهم الشهيد : « لا نطلب رزق الدنيا بعدك » .

وقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً . وتبارز رجلان ، فصرع أحدهما الآخر فسقطت خوذة المغلوب ، فإذا هو شقيق الغالب ، فتوقف حتى استأذن الإمام فى أمره ، فأمره الإمام أن يدع أخاه ويعفو عنه !

ورأى الإمام جميع الفارين من جنده قد عادوا يكرون فحياهم بقوله : « أنتم عُمّار الليل بتلاوة القرآن ، وأهل دعوة الحق إذ ضل الخاطئون ، فلولا إقبالكم بعد إدباركم ، وكركم بعد فراركم ، وجب عليكم ما وجب على المُوَلِّ يوم الزحف دبره ، وكنتم من

الهـالكـين . ولكن هَوَّنَ وجـدى أنى رأيتكم أزلتمـوهم عن مصـافهم (صفـوفهم) كما أزالوكم ، تحسونهم بالسيوف ، تركب أولاهم أخراهم كالإبل المطردة (الطريدة) الهيم (العطاش) فالآن اصبروا ، نزلت عليكم السكينة ، وثبتكم الله عز وجل باليقين ، ليعلم المنهزم أنه مسخط ربه ، وموبق (مهلك) نفسه ، إن الفرار موجدة (غضب) لله عز وجل عليه ، والـذل اللازم والعار الباقى ، وفساد العيش عليه . إن الفار لا يزيد فى عمره ، ولا يرضى ربه ، فموت المرء محقا قبل إتيان هذه الخصال خير من التلبس بها ، والإقرار عليها » .

وقتـل رجـل من جنـد علىٌّ يوم صفـين فمـر به صديق فقال له : « عز علىَّ والله مصرعـك . أمـا والله إن كنت لمن الذاكرين الله كثيرا ، أوصنى رحمك الله » . فقال : « أوصيك بتقوى الله ، وأن تناصح أمير المؤمنين ، وتقاتل معه المحلين حتى يظهر أو تلحق بالله . وأبلغه عنى السلام ، وقل له : قاتل عن المعركة حتى تجعلها خلف ظهرك ، فانه من أصبح غدا والمعركة خلف ظهره كان العالى » ثم لفظ أنفاسه .

فلما حمل صديقه رسالته إلى الإمام قال : « رحمه الله ! جاهد فينا عدونا فى الحياة ونصح لنا فى الوفاة » .

* * *

وغابت الشمس فكفوا عن القتال ، وعادوا إليه فى اليوم التالى . . لقد لبثوا أياما يقتتلون ثم يكفون ، ويتزاورون فى ساعات الهدنة .

ولما رأى الإمام علىٌّ كثرة الضحايا من الجانبين ، ووجد معاوية مصمما على القتال ، خشى فناء العسكرين فنادى : « يا معاوية . علام يُقتل الناس ويذهبون على ملك إن نلته كان لك دونهم وإن نلته أنا كان لى دونهم؟ ابرز إلىَّ ودع الناس فيكون الأمر لمن غلب » قال عمرو بن العاص : « أنصف الرجل يا معاوية » فضحك معـاوية وقال : « طمعت فيها يا عمـرو» فقـال عمروٌ : « والله ما أراه يجمل بك ألا تبارزه » فقال معاوية : « ما أراك إلا مازحا . نلقاه بجمعنا » . قال عمرو : « والله ما أدرى أشجاع أنت أم جبان ؟ » قال معاوية :

شجـاع إذا ما أمـكـنـتـنى فرصـة   فان لم تكـن لى فرصـة فجـبـان

ورفض معاوية أن يبارز عليًا . . وتوقفت الحرب عندما جاء الليل . .

ومضى الإمـام إلى معسكر القراء ، فلما رأوه بلا خوذة ولا دروع قالوا مشفقين : « يا أمـير المؤمنـين أتقتـل أهـل الشام بالغداة وتخرج فى العشى بإزار ورداء ؟! » فقال : « أبالموت أخوَّف !؟ والله ما أبالى أسقط علىَّ الموت أم سقطت عليه ! » .

فقال له القراء : « عظنا وانصحنا يا أمير المؤمنين » فقال : « يا حملة القرآن اعملوا به ، فان العـالم من عمل بما علم، ووافق علمـه عمله ، وسيكـون أقوام يحملون العلم لا يجاوز تراقيهم ، تخالف سريرتهم علانيتهم ، ويخالف عملهم علمهم ، يجلسون حلقا فيباهى بعضهم بعضا ، حتى إن الرجل يغضب على جليسه أن يجلس إلى غيره ويدعه ، أولئك لا تصعد أعمالهم فى مجالسهم تلك إلى الله . . لا تدعوا القران رغبة منه إلى غيره . . أما والله لقد قصم ظهرى عالم متهتك . وجاهل متنسـك . هذا يفتى وينفر الناس بتهتكه ، وهذا يضل بتنسكه . . كونوا بقبول العمل أشد اهتماما منكم بالعمل . . فانه لن يقل عمل مع التقوى ، وكيف يقل عمل متقبل ؟! . . الفقيه منكم كل الفقيه من لا يقنط الناس من رحمة الله ، ولا يرخـص لهـم فى معاصى الله ، لا خير فى عبادة لا علم فيها ، ولا خير فى علم لا فهم معـه ، ولا خير فى قراءة لا تدبر فيها ، وما أبردها على كبدى إذا سئلت عما لا أعلم أن أقول : الله أعلم . . إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكر القدرة عليه » .

وسأله أحد القراء : « أما نحن فيه قدر كتب علينا يا أمير المؤمنين ؟ » وسأل آخر : « ما القدر ؟ » فقال الإمام : « القدر طريق مظلم لا تسلكه ، وبحر عميق لا تلجه . سر الله قد خفى عليك فلا تفشه أيها السائل ، إن الله خلقك كما شاء أوكما شئت ؟ » قال الرجل : « بل كما شاء » قال الإمام : « فليستعملك كما شاء » .

فسأله أحد القراء : « ألست أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ ؟ » . فدهم الإمام الحـرج ، وشعر بحياء شديد ، وقال للرجل : « ما أنا إلا رجل من المسلمين » . وهتف القراء إعجابا بحياء الإمام وتواضعه . . هذا التواضع الذى يرفع صاحبه .

واستمر الإمام : « خير هذه الأمة بعد نبيها عليه الصلاة والسلام أبو بكر وعمر » .

قال رجل : « لله درك يا أمير المؤمنين إذ تمجد أبا بكر وعمر ! » .

وقال آخر : « أمن أجل ذلك سميت أولادك أبا بكر وعمر وعثمان ؟ » فقال الإمام : « أما والله لا يفضلنى أحد على أبى بكر وعمر إلا جلدته حد المفترى » .

وعنـدمـا انصرف الإمام قالوا : « أما والله ماأ نزل الله : ﴿ يا أيها الذين امنوا ﴾ إلا وعليٌّ أميرها وشريفها » .

قال رجـل منهم : سمعت أم المؤمنـين عائشة رضى الله عنها تقول : قال رسول الله ﷺ « خير إخوتى على ، وخير أعمامى حمزة » .

وقالت رضى الله عنها : « كانت فاطمة أحب الناس إلى الرسول ﷺ وزوجها عليٌّ أحب الرجال » .

وقـال رجـل اخر : « أما أنا فسمعت أن أم المؤمنين أم سلمة رضى عنها تقول : سمعت رسول الله يقول : من سبَّ عليًّا فقد سبَّنى » . قال اخر : « وحدثونا أن رسول الله ﷺ قال : ذرية كل نبى فى صلبه ، وجعل الله ذريتى فى صلب عليٍّ » .

وأنه قال : « الجنة تشتاق إلى ثلاثة ، عليٍّ وعمار وسلمان » .

وأنه قال لعليٍّ : « إن فيك مثلا من عيسى بن مريم ، أبغضه اليهود حتى بهتوا أمه (اتهموها زورا وبهتانا) ، وأحبه النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذى ليس له » .

فقال أحد القراء : « لله در أمير المؤمنين إذ يقول : خير هذه الأمة النمط الأوسط يرجع إليهم الغالى (المغالى) ، ويلحق بهم التالى (المتأخر) » .

فقال رجل : « إن الإمام لم يشف صدورنا حين حدثنا عن القدر . سأسأله فى خيمته » .

وذهب نفر من القراء إلى الإمام فوجدوه فى جماعة من أصحابه يقول لهم عن فضل العشيرة : « عشيرة الرجل خير للرجل من الرجل للعشيرة ، إن كَفَّ عنهم يدا واحدة كفوا عنـه أيديا كثـيرة مع مودتهم وحفـاظهم ونصرتهم ، إن الـرجل ليغضب للرجل لا يعرفه إلا بنسبه ، وسأتلو عليكم فى ذلك ايات من كتاب الله تعالى . قال عز وجل فيما حكاه عن لوط : ﴿ لو أن لى بكم قوة أو اوى إلى ركن شديد ﴾ (يعنى العشيرة) ولم يكن للوط عليه السلام عشيرة . فوالذى نفسى بيده ما بعث الله نبيا من بعده إلا فى ثروة من قومه ، ومنعة من عشـيرتـه . ثم ذكـر شعيبـا إذ قال له قومـه : (إنـا لنـراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك) ، وكان مكفوفا ، والله ما هابوا الله ولا هابوا إلا عشيرته » .

وعندما انتهى الإمام من كلامه وجد أمامه جماعة القراء ، الذين سألوه من قبل عن القـدر ، وخمن الإمام أنهم سيعاودون السؤال ، وما لبث رجل منهم أن سأل : « يا أمير

المؤمنين ، ما تقول فى القدر ؟ » وابتسم على ، وقال : « ويحك ! أخبرنى عن رحمة الله ، أكانت قبل طاعة العباد ؟ » قال : « نعم » قال : « أسلم صاحبكم وقد كان كافرا ؟ » فقال الرجل : « أليس بالمشيئة الأولى التى أنشأنى بها وقوم خلقى ، أقوم وأقعد ، وأقبض وأبسط ؟ » قال على : « إنك بعد فى المشيئة . أما إنى أسألك عن ثلاث ، فان قلت فى واحدة منهن : لا ، كفرت ، وإن قلت نعم ، فأنت أنت . أخبرنى عنك ، أخلقك الله كما شئت أو كما شاء ؟ » قال الرجل : « بل كما شاء » قال : « فهل خلقك الله لما شئت أو لما شاء ؟ » قال : « بل لما شاء » قال الإمام : « فيوم القيامة تأتيه بما شئت أو بما شاء ؟ » قال : « بل بما شاء » قال الإمام : « قم فلا مشيئة لك » .

فقال الناس : « ألا تزيدنا موعظة يا أمير المؤمنين ؟ عظنا » . .

قال : « من حلم ساد ، ومن ساد استفاد ، ومن استحيا حرم ، ومن هاب خاب ، ومن طلب الرئاسة صبر على السياسة ، ومن أبصر نفسه عمى عن عيب غيره ، ومن سل سيف البغى قتل به ، ومن احتفر لأخيه بئرا وقع فيها ، ومن نسى زلته استعظم زلة غيره ، ومن هتك حجاب غيره انهتكت عورات بيته ، ومن كابر فى الأمور عطب ، ومن اقتحم اللجج غرق ، ومن أعجب برأيه ضل ، ومن تعمق فى العمل مل ، ومن صاحب الأنذال حقر ، ومن جالس العلماء وقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن حسن خلقه سهلت له طرقه ، ومن حسن كلامه ، كانت الهيبة أمامه ، ومن خشى الله فاز ، ومن استعار الجهل ترك طريق العدل ، ومن عرف أجله قصر أمله » .

* * *

الفصل الثالث

كلمة حق يراد بها باطل

كان أبو الكلاع من أقوى أصحاب معاوية ، وأشدهم تحرجا ، وأكثرهم سطوة وتأثيرا على أهل الشام .

كان يحب عليا ، ولكنه خرج يقاتله ، لأن معاوية أقنعه بأن عليا مسئول عن قتل عثمان ، فقد حشد معاوية عددا ممن ينتسبون إلى العلم ، فجعلهم أئمة على المساجد ، وأجزل لهم العطاء وأغدق عليهم وأقطع لهم الإقطاعات . وملأ خزائنهم بالذهب والفضة ، وربط مصيرهم بمصيره ، وأقنعهم بأنه هو ولى دم عثمان ، وقد قتل عثمان مظلوما ، فلمعاوية سلطان ، وله الحق فى أن يطالب بدمه !!

وإذ هذا النفر يقنعون الآخرين برأى معاوية ، ويتأولون تفسير الآية الكريمة : ﴿ **ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ .

هذا النفر من علماء الشام ، كانوا كما قال الإمام علىٌ عنهم أنهم علماء مرتشون باعوا علمهم ودينهم بزخرف الدنيا ، فهم يعلمون أن ولى الأمر - وهو الإمام - هو وحده المسئول عن القصاص ، ومع ذلك فقد قالوا وعملوا بغير ما تعلموا وبغير ما علموا . .

وكان أبو الكلاع فى شك من أمرهم جميعاً !!

لقد سمع أن عمار بن ياسر من أمراء جيش على ، وهو يعلم كما يعلم كل المسلمين أن الرسول ﷺ قال لعمار بن ياسر : « تقتلك الفئة الباغية » . . فهذا الحديث الشريف لا يجهله أحد ، ولا ينكره أحد فى كل بلاد المسلمين . . وفى كل بلاد المسلمين تتواتر أحاديث شريفة فيها ثناء على عمار بن ياسر . . وفيها أن عمار بن ياسر ما خُيِّر بين شيئين إلا اختار أرشدهما ! . .

ومضى أبو الكلاع يسأل عمرو بن العاص عن عمار . وسكت عمرو . . فصاح

أبو الكلاع : « ويحك ! ما هذا يا عمرو ؟ ألم يقل الرسول ﷺ : يلتقى أهل الشام وأهل العراق ، وفى إحدى الكتيبتين الحق وإمام الهدى ، ومعه عمار بن ياسر ؟ » .

قال عمرو فى ضيق : « عمار بن ياسر سيرجع إلينا ! » .

ومضى أبو الكلاع يحدث أهل الشام عن على ، ويقسم لهم أنه يعرف فضله وسابقته وحقه ، ولكنه يحاربه ليسلم معاوية قتلة عثمان ، كما أفتى بعض العلماء من حاشية معاوية لرؤساء أهل الشام .

وخشى عمرو أن يفت كلام أبى الكلاع فى عضد جيش الشام ، فحاول أن يقنعه بأن عمار بن ياسر هو أحد المسئولين عن قتل عثمان الخليفة المظلوم ، ولكن أبا الكلاع أغلظ لعمرو ومضى يحدث أصحابه من أهل الشام عن مناقب عمار ، فقال : « إنه كان أحد سبعة هم أول من أظهروا إسلامهم ، منهم أمه سمية أول شهيدة فى الإسلام ، كما كان أبوه ياسر أول شهيد فى الإسلام ، عذبا حتى هلكا . . » .

ومضى أبو الكلاع إلى ابن خالد بن الوليد ، وكان من أصحاب معاوية فسأله عما كان بين خالد وعمار أمام الرسول ﷺ . فقال : « قال لى أبى : كان بينى وبين عمار كلام فأغلظت له فى القول ، فانطلق عمار يشكونى إلى رسول الله ﷺ ، فجئت وعمار يشكونى ، فجعلت أغلظ له ، ولا أزيده إلا غلظة ، والنبى ﷺ ساكت لا يتكلم ، فبكى عمار وقال : يا رسول الله ، ألا تراه !؟ فرفع رسول الله ﷺ رأسه وقال : من عادى عمارا عاداه الله ، من أبغض عمارا أبغضه الله . فخرجت من عند الرسول فما كان شىء أحب إلى من رضا عمار ، فأرضيته حتى رضى » .

ومضى أبو الكلاع يسأل العلماء الذين اصطنعهم معاوية ، أسمعوا عن الحديث الشريف : « اهتدوا بهدى عمار » ؟! فسكتوا . . خرجوا بالصمت عن لا ونعم !

وأبو الكلاع يبحث عن قراء الشام الذين انضموا إلى قراء العراق . . فاذا هم جميعا تحت إمرة عمار . .

وإنه ليقودهم متجها إلى صفوف معاوية . والناس تقول ما يسلك عمار واديا من أودية صفين إلا التف حوله أصحاب رسول الله .

كان قراء الكوفة هم وآباؤهم يرون فيه رائدا عظيما . . ذلك أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أرسل عمارا إلى الكوفة : بكتاب إلى أهلها : « أما بعد فانى أرسلت إليكم

عمار بن ياسر أميراً ، وعبد الله بن مسعود وزيرا ومعلما ، وهما من نجباء أصحاب محمد ، فاقتدوا بهما » .

واتصلت المودة بين أهل الكوفة وبين ابن مسعود وعمار كليهما رضى الله عنهما ، فلما مات ابن مسعود لم يعد لأهل الكوفة شيخ إلا عمار . .

وكان عمار حيثما مضى من أرض الإسلام أحبه الناس ، وتمثلوا بصلابته فى الحق ، وحسن بلائه فى سبيل الله . . هكذا أحبه المصريون حين جاء إلى مصر ، وأحبه أهل العراق .

سألوا عنه ابن عباس فقال : « كان رسول الله ﷺ فى أول الدعوة يمر بعمار وأمه (سمية) وأبيه ياسر وهم يعذبون فى رمضاء مكة فيقول : (صبرا آل ياسر ، موعدكم الجنة !) وكان المشركون يبلغون من المسلمين فى العذاب ما يعذرون به على ترك دينهم ! إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر على أن يستوى جالسا ، من شدة الضر الذى به حتى أنه ليعطيهم ما سألوه من الفتنة ، وحتى يقولوا له : اللات والعزى إلهك من دون الله ! فيقول : نعم » .

ولقد عذبوا سمية أم عمار على الإسلام ، وهى تأبى ما يريدون ، حتى قتلوها . فكانت أول من استشهد فى الإسلام .

وأخذ المشركون عمارا فعذبوه ، فلم يتركوه حتى سب النبى ﷺ ، وذكر آلهتهم بخير . ثم تركوه . فأتى الرسول باكيا . فقال الرسول : « ما وراءك » قال : « شر يا رسول الله » ما تركونى حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير . قال الرسول : « كيف تجد قلبك » قال : « مطمئنا بالإيمان » قال : « فإن عادوا لك ، فعد لهم » فنزلت فيه الآية الكريمة من سورة النحل : ﴿ **من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان** ﴾ .

وعمار الآن فى نحو التسعين ، ومازال قادراً على القتال والجهاد فى سبيل الله .

أسمر ، طويل القامة ، أبيض اللحية ، سريع الخطوات على الرغم من شيخوخته ، نشط ، جليل ، مهيب .

وإنه لمطاع الكلمة عند الصحابة ، يتبعه القراء فيما يقول . . ولقد يراهم يسرفون فى العبادة ، فيعلمهم القصد ، ويحملهم على الاعتدال ، وإنهم لفى طاعته لا يردون له أمرا .

عمار مثلهم من المساكين ، يعانى ما يعانون ، ولقد تعلم من الإمام على لونا من الزهد جعله لا يرضى الدنية فى دينه . . هذا اللون من الزهد الذى يملأ قلوب المؤمنين حبا للحقيقة ، ويجعل المتقين أقوى من الإغراء ، ويجعل المساكين فقراء إلى الله حقا ، أغنياء عن الناس !

وقد علّم عمار تلاميذه من القراء كل ما تعلمه من الرسول ﷺ ، ومن على كرم الله وجهه . . فلما وجدهم يغالون فى الزهد ، علمهم ما تعلمه من الرسول : « لا رهبانية فى الإسلام ، ورهبانية أمتى الجهاد » .

الدفاع عن قيم الإسلام الفاضلة : عن الحق والعدل والإحسان . . الدفاع عن كل أولئك جهاد فى سبيل الله . . هكذا علم عمار أتباعه القراء .

وما زال ثناء الرسول عليه فى كل ما شهده مع الرسول من مواقع . . ما زال هذا الثناء يمنحه القدرة على القتال . . وإنه اليوم ليجاهد تحت راية على ، هؤلاء الذين جاهدهم هم وآباءهم من قبل تحت الراية نفسها فى زمن الرسول فى مواقع كثيرة . . ما واحدة منها بأزكى من الأخرى ولا بأزكى من هذه كما قال . . وها هم أولاء أصحاب علىٍّ من حوله يحملون حملة صدق ، فيزيلون جند معاوية عن مواقعهم ، وتضطرب صفوفهم . . وها هو ذا معاوية فى آخر صف يحميه فرسان الشام الدارعون . . ولكن خالد بن معمر أمير هذا الرهط من فرسان على يزحف على فرسان معاوية وهم يتقهقرون فرقا . وها هو ذا يكاد يفضى إلى سرادق معاوية ويزيل قبته العالية فإذا بمعاوية يهرب منهزما ويختفى . . ليرسل إلى خالد يسأله ألا يتقدم بعد ، وألا يغامر بحياته ، فما عساه يكسب من على ؟!

إن معاوية ليعده بأن يوليه خراسان إن هو توقف عن الزحف !! وإن معاوية ليهدى خالدا من التبر ما لا يستطيع أن يحصل على ذرة منه من أبى تراب !!

ويتوقف خالد عن الزحف !!

ياالقدرة معاوية على أن يطيش أحلام الرجال بوعود الجاه والثراء والسلطان!! وإن لديه من المال ما يمكنه من شراء من يلين : فله خراج الشام كله ملكا خالصا لا يؤدى منه لبيت المال درهما واحدا !!

أما الإمام علىٌّ فما عساه يملك ؟!!

إنه لا يملك غير العدل فى القسمة بين الناس !!

. . .

ما يملك إلا التقوى ، وما عساها تجدى مع الرجال الذين يصطنعهم معاوية ، من الذين قال عنهم هو نفسه : « إنهم لا يعرفون غير المال » .

ما عسى أن تجدى التقوى إذا أصبحت ضمائر بعض الرجال تشترى وتباع ، وتستخدم ، وتزيف باسم المقدسات ؟!

ولكن سقوط هذا الرجل أو ذاك ، لم يكن ليزيد الآخرين إلا ارتفاعا على الدنايا !!

فى الحق أن سقوط رجل ما أوقبيلة ما تحت إغراء ما يعرضه معاوية من مال ومناصب وجاه كان يوجع قلب الإمام . . ولكن الإمام كان على الرغم من كل شىء يؤمن بأنه من الخير له أن يتخفف من الذين تعربد رؤوسهم الأطماع وأحلام الغنى والأباطيل !

إنه لمع الحق ، وإن أوحشت طرقه ، وقل نصيره ، وكفى بالله نصيرا ! .

وكان المتأمل فى جند الإمام وجند معاوية يرى عجبا !!

فأغلب جند الإمام صفر الوجوه من القيام ، وعلى الجباه علامات من أثر السجود ، ثيابهم خشنة ، ولكن وجوههم على الرغم من كل شىء تضىء بالثقة ، يسعى نورهم بين أيديهم إلا قليلا .

فإذا وقف الإمام ينظمهم فى صفوفه ، ويأمرهم أن يصطفوا كالبنيان المرصوص ، حاوروه حتى يقتنعوا ، وحتى يفقهوا معنى ما يتلوه عليهم : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » .

وحينئذ يغرسون أقدامهم فى الأرض بثبات . .

أما جند معاوية ، فكانت ملابسهم فاخرة ، جاءوا إلى القتال فى أحسن زينة ، وما كان معاوية فى حاجة إلى أن يكلمهم فالإشارة تغنيه عن العبارة . . !

وقف عمرو بن العاص ينظر إلى جند معاوية وجند على ويقارن بين الحالين . . وشعر معاوية بها فى أعماق عمرو فقال مزهوا : « يا ابن العاص كيف ترى هؤلاء وما هم عليه ؟ » . قال عمرو : « لقد رأيت من يسوس رعيته بالدين والدنيا ، فما رأيت أحدا تأتىٰ له من طاعة رعيته ما تأتىٰ لك من هؤلاء » . قال معاوية : « أفتدرى متى يفسد هذا ، وفى كم ينتقض ؟ » قال : « لا » قال : « فى يوم واحد ! أى والله أو فى بعض يوم ! » قال عمرو : « وكيف ذلك ؟ » قال معاوية : « متى كُذِبوا فى الوعد والوعيد ، وأُعطوا على الهوى لا على الغناء ! » .

* * *

القبائل العربية موزعة بين جيش الإمام وجيش معاوية . . كل قبيلة تكفى أختها . . حتى قريش الشام تعرضت للقرشيين الذين جاءوا من العراق أو من الحجاز .

ومعاوية ما برح يغرى رؤساء القبائل فى جيش على . . ولقد راسل الأشعث بن قيس رئيس اليمانية فلم يحفل به ، ولم يرد عليه ، وراسل عبد الله بن عباس لعله يكفكف من حماسته !

ورد عليه ابن عباس أكثر من مرة ينصحه بأن يحقن الدماء ، ويدخل فى الجماعة ، فيعود معاوية إلى مخاطبته مصرا على أن يسلمه علىٌّ قتلة عثمان ليدخل فى الطاعة . . !!

وقد حاول معاوية أن يخاطب من جيش على رؤساء ربيعة وهمدان ، ولكنهم ردوا عليه ردا منكرا قبيحا ، فكسروه !

وارتفع صوت الإمام يقول فى جنده : « سيروا على بركة الله . . الله أكبر الله أكبر . . يا الله يا أحد يا صمد . يارب محمد . ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . . بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . الحمد لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . مالك يوم الدين . إياك نعبد وإياك نستعين . اللهم اكفنا واكف عنا بأس الظالمين » .

. . وبرز للإمام أربعة من أبطال الشام فصرعهم الواحد بعد الآخر . . واشتبك الجيشان ، وتساقط الناس صرعى ، وعز ذلك على الإمام . . فنادى بأعلى صوته : « ويحك يا معاوية ! ابرز إلىَّ ولا تفن العرب بينى وبينك ! » فقال له عمرو بن العاص : « اغتنمه وهو مجهد فانه قد أثخن بقتل هؤلاء الأربعة ! » .

فقال له معاوية : « والله لقد علمت أن عليا لم يُقْهَرْ قط . إنما أردت قتلى لتصيب الخلافة بعدى ! » .

اشتد القتال من جديد ، والإمام يدعو الله : « اللهم إليك رُفِعَت الأبصار وبُسِطَتْ الأيدى ، ونُقِلَتْ الأقدام ، ودَعَت الألسن ، وأَفْضَت القلوب . . فاحكم بيننا وبينهم بالحق وأنت خير الفاتحين . اللهم إنا نشكو إليك غيبة نبينا وقلة عددنا ، وكثرة عدونا ، وتشتت أهوائنا ، وشدة الزمان ، وظهور الفتن ، أعنَّا عليهم بفتح تعجله ، ونصر تعز به سلطان الحق وتظهره » .

ثم قال لأصحابه : « قال الله تعالى لقوم : قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت

أو القتل وإذن لا تمتعون إلا قليلا ، وأيم الله لئن فررتم من سيف الدنيا لا تسلمون من سيف الآخرى » .

وتضرجت السيوف والحراب من مهج المسلمين ، وتطايرت الرءوس وسقط القتلى . . فصاح الإمام مرة أخرى : « يا معاوية » فقال معاوية : « اسألوه ما شأنه » قال الإمام : « أحب أن يظهر لى فأكلمه كلمة واحدة » فبرز معاوية ومعه عمرو بن العاص ، فقال : « يا معاوية ويحك ! علام تقتيل الناس بينى وبينك ؟ ابرز إلىَّ فأينا يقتل صاحبه فالأمر له » فالتفت معاوية إلى عمرو فقال : « ما ترى أبا عبد الله ؟ أأبارزه ؟ » قال عمرو « اعلم أنه إن نكلت مرة أخرى لم تزل سبة عليك وعلى عقبك ما بقى عربى » قال معاوية : « يا عمرو ابن العاص، ليس مثلى يخدع عن نفسه . والله ما بارز ابن أبى طالب رجلا قط إلا سقى الأرض من دمه . والله إن تريد إلا أن أقتل فتصيب الخلافة بعدى » .

ثم انصرف معاوية راجعا ومعه عمرو ، فاختبآ فى آخر الصفوف .

فضحك الإمام . .

ووقف عبد الله بن عباس يخطب المقاتلين فكان مما قاله : « لقد قاتل على بن أبى طالب مع رسول الله ﷺ وعلى يقول صدق الله ورسوله ، ومعاوية وأبو سفيان يقولان : كذب الله ورسوله . فما معاوية فى هذه بأبر ولا أتقى ولا أرشد ولا أصوب فى قتالكم . فعليكم بتقوى الله والجد والحزم والصبر ، إونكم لعلى الحق وإن القوم لعلى الباطل ، فلا يكونن أولى بالجد فى باطلهم منكم فى حقكم . . اللهم ربنا أعنا ولا تخذلنا ، وانصرنا على عدونا » .

* * *

ووقف عمار يخطب فقال : « اللهم إنك تعلم أنى لو أعلم أن رضاك فى أن أضع ظبة (طرف) سيفى فى بطنى ثم أنحنى عليها حتى تخرج من ظهرى لفعلته ! والله إنى لا أعلم اليوم عملا هو أرضى لك من جهاد هؤلاء الفاسقين . . من يبتغ رضوان الله فلا يرجع إلى مال ولا ولد ! اقصد بنا هؤلاء القوم الذين يطلبون دم عثمان . والله ما أرادوا الطلب بدمه ، ولكنهم ذاقوا الدنيا واستحبوها ، وعلموا أن الحق إذا لزمهم حال بينهم وبين ما يتمرغون فيه منها ، ولم تكن لهم سابقة يستحقون بها طاعة الناس والولاية عليهم . فخدعوا أتباعهم أن قالوا : إمامنا قتل مظلوما ، ليكونوا بذلك ملوكا جبابرة ، فبلغوا ما ترون . ولولا هذه ما تبعهم من الناس رجلان ، ولكن قول الباطل له حلاوة فى أسماع

الغافلين . . فسيروا إليهم سيرا جميلا . اللهم إن تنصرنا فطالما نصرت ، فان جعلت لهم الأمر فادخر لهم بما أحدثوا فى عبادك العذاب الأليم . . اذكروا الله ذكرا كثيرا . . الجنة تحت ظلال السيوف ، الشهادة فى أطراف الأسنة ، وقد فتحت أبواب السماء ، وتزينت الحور العين . اليوم ألقى الأحبة ، محمدا وصحبه » .

وتقدم حتى دنا من عمرو بن العاص ، فقال له : « يا عمرو بعت دينك بمصر . تبا لك ! تبا لك ! » .

فقال عمرو : « لا ، ولكنى أطلب دم عثمان »قال : « أشهد أنك لا تطلب بشىء من فعلك هذا وجه الله ،وأنك إن لم تقتل اليوم تمت غدا . فانظر إذا أعطى الناس على نياتهم ما نيتك ؟ لقد قاتلت صاحب هذه الراية ثلاثا مع رسول الله ﷺ . وهذه الرابعة ما هى بأبر ولا أتقى » .

ثم قاتل عمار . وعطش فطلب أن يشرب ، فجاءوه بلبن ممزوج بماء فهمهم : بشرنى حبيبى رسول الله أن آخر زادى اللبن الممزوج بالماء . . واندفع يحارب وهو يدعو الله أن يرزقه النصر أو الشهادة .

وطعنه رجل من بنى السكسك ، ولهم ثروة عظيمة بالشام .

ظل الرجل الثرى يتحرى عمار بن ياسر حتى طعنه بحربة ، وأقبل ثرى آخر من أثرياء الشام فاحتز رأسه .

وجاء من يبشر عمرو بن العاص ومعاوية بقتل عمار ، ومن ينعى إليهما ذا الكلاع .

قال عمرو لمعاوية : « ما أدرى بقتل أيهما أنا أشد فرحا ، بقتل عمار أو ذى الكلاع ، والله لو بقى ذو الكلاع بعد قتل عمار لمال بعامة أهل الشام إلى على وأفسد علينا جندنا » .

وجاء الرجلان الثريان إلى معاوية : الذى طعن عمارا ، والذى حز رأسه ، كل منهما يدعى أنه صاحب الفضل فى قتل عمار !

فقال لهما عبد الله بن عمرو : « ليطب كل واحد منكما نفسا لصاحبه بقتل عمار ، فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول : قاتله وسالبه فى النار ، إنما تقتله الفئة الباغية » .

فغضب معاوية وقال لعمرو محتدا : « ألا تنهى عنا مجنونك هذا ؟ » ثم قال لعبد الله : « فلم تقاتل معنا ؟ » فقال عبد الله : « إن رسول الله أمرنى بطاعة والدى ما كان حيا ، وأنا معكم ولست أقاتل » فقال معاوية : « أو نحن نقتل عمارا ، إنما قتل عمارا من جاء به » .

وشاع فى جند معاوية أن رسول الله ﷺ قال عن عمار : « إنما تقتله الفئة الباغية » فخرج معاوية إليهم فقال : « صدق رسول الله ﷺ . إنما قتل عمارا من جاء به . قتله على ابن أبى طالب» . . وبارك العلماء المرتشون من صنائع معاوية هذا التخريج .

فأخذ جند معاوية يرددون دون أن يفكروا : « إنما قتل عمارا من جاء به ! قتله على ابن أبى طالب ! » .

وحمل أهل العراق على أهل الشام . فتقهقروا ثم توقفوا ، فوقف الأحنف ابن قيس يخطب أهل العراق . « يا أهل العراق ، والله لا تصيبون هذا الأمر أذل عنقا منه اليوم ، قد كشف القوم لكم قناع الحياء ، وما يقاتلون على دين ، وما يصبرون إلا حمية وحبا فى الدنيا ، فتقدموا » قالوا : « إنا إن تقدمنا اليوم فقد تقدمنا أمس ، فما تقول يا أمير المؤمنين ؟ » قال الإمام على لهم : « تقدموا فى موضع التقدم ، وتأخروا فى موضع التأخر . تقدموا من قبل أن يتقدموا إليكم » .

فانقض أهل الشام يقودهم عمرو بن العاص ، وتقدم أهل العراق يقودهم أمير المؤمنين الإمام على، وكان فى الدروع والزرد لا تبين منه إلا عيناه ، وكذلك كان عمرو ، فلم يعرف عمرو أن الذى يقود أهل العراق هو على الذى ما صارع أحدا إلا صرعه . . وتصدى لعمرو فلما تلقى عمرو أول ضربة فى الصراع أدرك من ثقل الضربة أنها لعلى ! ! ثم ضربه على بحربته فأوقعه من على ظهر حصانه ، فأدرك عمرو أنه هالك ، فبادر فكشف عورته وهو يتخبط على الأرض ، فنحّى الإمام على كرم الله وجهه ـ وجهه عن عمرو وتركه يسرع هاربا ، فقال أصحاب على : « أفلت الرجل يا أمير المؤمنين » قال : « فهل تدرون من هو ؟ إنه عمرو بن العاص ، تلقانى بعورته فصرفت وجهى عنه » .

وتقدم بسر بن أرطاة ، وهو أقوى فرسان معاوية ليصارع عليا ، فضربه فأسقطه ، فلما أدرك بسر أنه يبارز عليا ، كشف عورته كما صنع عمرو ، فصرف الإمام وجهه عنه ، وتركه يفلت هاربا . . وروى عمرو ما كان من على . فقال معاوية : « أحمد الله وعورتك ، أما والله أن لو عرفته يا عمرو ما أقحمت نفسك عليه ! » ثم قال شعرا يزرى فيه بعمرو ، فقال عمرو : « ما أشد تعظيمك عليا فى أمرى هذا ! وهل هو إلا رجل لقيه ابن عمه فصرعه ؟ أفترى السماء قاطرة لذلك دما ؟! » قال معاوية : « لا . ولكنها معقبة لك خزيا » .

وهدأ القتال ، فقدر معاوية أن عليا سيقهره إن استمر القتال . .

ورأى معاوية أن يحاول استمالة بعض أصحاب على ، ممن كانت له بهم مودة من قبل فأرسل أخاه عتبة إلى الأشعث بن قيس فنادى الأشعث فقال « سلوا هذا المنادى من جيش معاوية من هو؟ » قال عتبة : « أنا عتبة بن أبى سفيان » قال الأشعث : « غلام مترف ولا بد من لقائه » .

فلما خرج إليه سأله : « ما عندك يا عتبة ؟ » قال عتبة : « أيها الرجل إن معاوية لو كان لاقيا رجلا غير على للقيك . إنك رأس أهل العراق ، وسيد أهل اليمن ، وقد سلف من عثمان إليك ما سلف من الصهر والعمل ، ولست كأصحابك . أما الأشتر فقتل عثمان ، وأما عدى فحرض عليه ، وأما شريح وابن قيس فلا يعرفان غير الهوى ، وإنك حاميت عن أهل العراق تكرما ، ثم حاربت أهل الشام حمية ، وقد بلغنا والله منك ما بلغنا |، وبلغت منا ما أردت ، وإنا لا ندعوك إلى ترك على ونصر معاوية ولكنا ندعوك إلى البقية (أن تبقوا علينا ولا تستأصلونا) ، التى فيها صلاحك وصلاحنا » .

فقال الأشعث : « يا عتبة ، أما قولك أن معاوية لا يلقى إلا عليا فان لقينى والله ما عظم منى ولا صغرت عنه ، فان أحب أن أجمع بينه وبين على فعلت . وأما قولك أنى رأس أهل العراق وسيد أهل اليمن ، فان الرأس المتبع والسيد المطاع هو على بن أبى طالب عليه السلام . وأما ما سلف من عثمان إلىّ فوالله مازادنى صهره شرفا ، ولا عمله عزا ، وما عيبك أصحابى فان هذا لا يقربك منى ولا يباعدنى عنهم . وأما محاماتى عن أهل العراق فمن نزل بيتا حماه . وأما البقية (الإبقاء على المقاتلين وعدم استئصالهم) فلستم بأحوج إليها منا » .

فلما روى عتبة لأخيه معاوية ما قاله الأشعث قال : « يا عتبة لا تلقه بعدها فإن الرجل عظيم عند نفسه ، وإن كان قد جنح للسلم » .

على أن معاوية رأى أن يحاول مع غير الأشعث . . مع رجل له عند على حظوة ومكان ، وله على أصحابه سلطان ، فلم يجد غير عبد الله بن عباس . فقال معاوية لمستشاره عمرو بن العاص : « إن رأس الناس بعد على هو عبد الله بن عباس . فلو ألقيت إليك كتابا ترفقه به ، فانه إن قال شيئا لم يخرج علىٌّ منه ، وقد أكلتنا الحرب » .

فقال عمرو : « ابن عباس لا يخدع ، ولو طمعت فيه لطمعت فى على » . قال معاوية : « على ذلك، فاكتب إليه » .

فكتب عمرو إلى عبد الله بن عباس : « أما بعد ، وأنت رأس هذا الجمع بعد على ،

فانظر فيما بقى ودع ما مضى ، فوالله ما أبقت هذه الحرب لنا ولكم حياة ولا صبرا . واعلموا أن الشام لا تملك إلا بهلاك العراق ، وأن العراق لا تملك إلا بهلاك الشام ، وما خيرنا بعد هلاك أعدادنا منكم ، وما خيركم بعد هلاك أعدادكم منا ؟! ولسنا نقول ليت الحرب غارت (انتهت) ولكنا نقول ليتها لم تكن ، وإن فينا من يكره القتال ، كما أن فيكم من يكرهه ، وإنما هو أمير مطاع أومأمور مطيع ، أومؤتمن مشاور ، وهو أنت . وأما الأشتر الغليظ الطبع ، القاسى القلب ، فليس بأهل أن يدعى فى الشورى ، ولا فى خواص أهل النجوى » .

طال البلاء وما يرجى له آس ... بعد الإله سوى رفق ابن عباس

قولا له قول من يرجو مودته ... لا تنس حظك إن الخاسر الناسى

فلما قرأ عبد الله بن عباس الكتاب ، أطلع عليه الإمام ، فقال ضاحكا : « قاتل الله ابن العاص ، ما أغراه بك يا ابن عباس ؟ أجبه » .

فأجابه ابن عباس : « أما بعد فانى لا أعلم رجلا من العرب أقل حياء منك ! إنه مال بك معاوية إلى الهوى ، وبعته دينك بالثمن اليسير ، ثم خبطت بالناس فى عشوة طمعا فى الدنيا ، فلما لم تر شيئا أعظمت الدنيا إعظام أهل الدنيا ، ثم تزعم أنك تتنزه عنها تنزه أهل الورع . . ! فان كنت ترضى الله بذلك فدع مصر وارجع إلى بيتك . وهذه الحرب ليس فيها معاوية كعلى ، ابتدأها على بالحق وانتهى فيها إلى العذر ، وبدأها معاوية بالبغى وانتهى فيها إلى السرف . وليس أهل العراق فيها كأهل الشام ، بايع أهل العراق عليا وهو خير منهم ، وبايع معاوية أهل الشام وهم خير منه ، ولست أنت وأنا فيها بسواء ، أردتُ الله وأردتَ أنت مصر ، وقد عرفت الشىء الذى باعدك منى ولا أعرف الذى قربك من معاوية ، فان ترد شرا لا نسبقك به ، وإن ترد خيرا لا تسبقنا إليه » .

فجاء عمرو بكتاب ابن عباس إلى معاوية وقال له فى غضب : « أنت دعوتنى إلى هذا ، ما كان أغنانى وإياك عن بنى عبد المطلب » . فقال معاوية : « إن قلب ابن عباس وقلب علىٍّ قلب واحد ، كلاهما ولد عبد المطلب ، وإن كان ابن عباس قد خشن فقد لان ، وإن كان قد تعظم أوعظم صاحبه فلقد قارب وجنح إلى السلم . وإن ابن عباس رجل من قريش وأنا كاتب إليه أخوفه عواقب هذه الحرب لعله يكف عنا » .

وأرسل معاوية إلى ابن عباس : « أما بعد ، فانكم يا معشر بنى هاشم لستم إلى أحد

أسرع بالمساءة منكم إلى أنصار عثمان بن عفان ، فان كان ذلك لسلطان بنى أمية ، فقد وليها عدى (قبيلة أبى بكر) وتيم (قبيلة عمر) فلم تنافسوهم ، وأظهرتم لهم الطاعة . وقد وقع من الأمر ما قد ترى ، وأكلت هذه الحروب بعضها من بعض حتى استوينا فيها . فما أطمعكم فينا أطمعنا فيكم وما يسيئكم منا يسيئنا منكم ، وقد رجونا غير الذى كان ، وخشينا دون ما وقع ، وقد قنعنا بما كان فى أيدينا من ملك الشام ، فاقنعوا بما فى أيديكم من ملك العراق ، وأبقوا على قريش ، فإنما بقى من رجالها ستة : رجلان بالشام ، ورجلان بالعراق ، ورجلان بالحجاز . فأما اللذان بالشام فأنا وعمرو وأما اللذان بالعراق فأنت وعلى ، وأما اللذان بالحجاز فسعد (ابن أبى وقاص) وابن عمر . وأنت رأس هذا الجمع اليوم ، ولو بايع لك الناس بعد عثمان كنا إليك أسرع منا إلى على » .

فلما قرأ ابن عباس الكتاب غضب وقال : «حتى متى يخطب ابن هند إلى عقلى وحتى متى أجمجم على ما فى نفسى؟» وأسرع يرد عليه : « أما بعد ، فقد أتانى كتابك وقرأته ، فأما ما ذكرت من سرعتنا إليك بالمساءة فى أنصار ابن عفان ، وكراهيتنا لسلطان بنى أمية ، فلعمرى لقد أدركت فى عثمان حاجتك حين استنصرك فلم تنصره ، حتى صرت إلى ما صرت إليه ، وبينى وبينك فى ذلك ابن عمك وأخو عثمان الوليد بن عقبة (أخو عثمان لأمه) ، وأما قولك أنه لم يبق من قريش غير ستة فما أكثر رجالها وأحسن بقيتها ! وقد قاتلك من خيارها من قاتلك ، ولم يخذلنا إلا من خذلك . وأما إغراؤك إيانا بعدىٍّ وتيمٍ فأبو بكر وعمر خير من عثمان ، كما أن عثمان خير منك ، وقد بقى لنا منك يوم ينسيك ما قبله ، وتخاف ما بعده . وأما قولك : إنه لو بايع الناس لى لاستقمتم لى ، فقد بايع الناس عليا وهو خير منى فلم تستقيموا له ، وإنما الخلافة لمن كانت له المشورة . وما أنت يا معاوية والخلافة وأنت طليق وابن طليق ؟ والخلافة للمهاجرين ، وليست للطلقاء (الذين أسلموا يوم فتح مكة) » .

فلما قرأ معاوية الكتاب ، نظر إليه عمرو شامتا وضحك ، فقال معاوية : « هذا عملى بنفسى . والله لا أكتب إليه أبدا » .

ثم قال : « والله لأستميلن بالأموال ثقات على ، ولأقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياى آخرته » .

وأغدق معاوية على بعض أهل العراق أموالا طائلة ووعدهم بإقطاعات ومناصب كبرى ، فمالوا إليه ، وانتشر الخبر فى الناس ، فأحزن ذلك عليا ، واستنفر آخرين آثروا دين

علىٌّ على دنيا معاوية ، فانقضوا على من انضموا إلى جيش الشام ، وأعملوا فيهم القتل وفى أهل الشام ، فجزع معاوية جزعا شديدا ، وقال لأهل الشام : « هذا يوم تمحيص ، وإن لهذا اليوم ما بعده ، اصبروا وكونوا كراما » .

* * *

استشهد عمار بن ياسر رضى الله عنه ، فجزع أتباعه القراء وزلزلوا زلزالا شديدا ، فقد كانوا لا يتخيلون أن يقتل عمار على هذا النحو البشع : يعمد إليه أحد أثرياء الشام فيقتله ، وينقض ثرى آخر فيفصل رأسه عن جسده ، كأنه يريد أن يطمئن أنه لن يعود إلى الحياة مرة أخرى ، فيطالب الأغنياء بأن يقوموا بأمر الفقراء ، وينادى بأن للفقراء والمساكين وأهل الحاجة حقوقا فى أموال الأغنياء غير الزكاة !!

وما حيلة عمار ، وما ذنبه وهو قد تعلم هذا من الرسول ﷺ ، وفقهه فيه على بن أبى طالب .

وتساءل بعض القراء : كيف نصر الله الأغنياء بافترائهم وطغواهم ، على المساكين بزهدهم وتقواهم ؟! الحكمة ما أراد الله تعالى ، وما أراد ! لا راد لقضائه !

وتساءل آخرون منهم : لماذا يبتلى إمامهم علىٌّ بكل هذه المحن ؟!

وقال آخر : إن عليا من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وقد شرى علىٌّ نفسه ابتغاء مرضاة الله .

فقال أحد القراء : « رأيت فى بعض الكتب أن رسول الله ﷺ لما أراد الهجرة ، خلَّف علىَّ بن أبى طالب بمكة لقضاء ديونه ورد الودائع التى كانت عنده ، وأمره ليلة خرج إلى الغار ، وقد أحاط المشركون بالدار ، أن ينام فى فراشه ، وقال له : (اتَّشِح ببُرْدِى الحضرمىِّ الأخضر ، فانه لا يخلص إليك منه مكروه إن شاء الله تعالى) ، ففعل ذلك ، فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام أنى آخيت بينكما ، وجعلت عمر أحدكما أطول من عمر الآخر ، فأيكما يؤثر صاحبه بالحياة ؟ فاختار كلاهما الحياة ، فأوحى الله عز وجل إليهما : أفلا كنتما مثل على بن أبى طالب ؟ آخيت بينه وبين نبيى محمد ، فبات على فراشه ، يفديه بنفسه ، ويؤثره بالحياة ، اهبطا إلى الأرض فاحفظاه من عدوه . فنزلا ، فكان جبريل عند رأس على ، وميكائيل عند رجليه ، وجبريل ينادى : بَخٍ بَخٍ ! منْ مِثْلُكَ يا ابن أبى طالب يباهى الله عز وجل به الملائكة ؟! فأنزل الله عز وجل على رسوله وهو يتوجه

إلى المدينة ـ فى شأن على : (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) [1] » .

فقال أحد القراء : « سينصر الله إمامنا فقد علمنا من شيخنا ابن مسعود وعمار أن رسول الله ﷺ قال : على مع القرآن والقرآن مع على لا يفترقان » .

وأخذ القراء يبكون عمارا ويدعون الله ، ويرتلون القرآن ، ويطيلون الركوع والسجود ، حتى رآهم الأشتر ، فأشفق عليهم ، وضمهم إلى رجاله وقادهم جميعا فشقوا طريقا فى صفوف جند معاوية . وتزايلت صفوف معاوية صفا بعد صف . . فحرض معاوية أصحابه على أن يبارزوا الأشتر ويقتلوه ، فخافه أصحاب معاوية ، ولم يتقدم أحد بعدُ إلى الأشتر ، وحاول معاوية أن يغرى مروان بن الحكم بذلك . فأبى مروان ، وقال لمعاوية : « ادع للأشتر عمرو بن العاص فهو وزيرك ! » قال معاوية : « وأنت نفسى ! » . فقال مروان : « لو كنت كذلك ألحقتنى به فى العطاء ، وألحقته بى فى الحرمان » .

وسمع عمرو بذلك فقال لمعاوية : « قد غَمَّك القوم فى مصر ، فان كان لا يرضيهم إلا أخذها ، فخذها . إن ابن عمك مروان يباعدك منا ويباعدنا منك ويأبى الله إلا أن يقربنا إليك » .

* * *

عندما علم الإمام باستشهاد عمار ، بكاه وصلى عليه ، وأمر بدفنه حيث استشهد . ثم اتجه الإمام إلى ربيعة وهمدان فقال لهم : أنتم درعى ورمحى . . فقال لهم شيوخهم : « يا معشر ربيعة لا عذر لرجل فى العرب إن وصل أحد بأذى إلى أمير المؤمنين وهو بينكم وفيكم رجل حى ، إنه لعاركم آخر الدهر فان منعتموه ، مجد الحياة اكتسبتموه » .

وتقدم الإمام يقود نحو اثنى عشر ألفا من ربيعة وهمدان ، منهم ألفان وثمانمائة من المهاجرين والأنصار ، ومن بقى من أهل بدر إلا ثلاثة نفر ، وتسعمائة ممن شهدوا بيعة الرسول تحت الشجرة ، ونزل فيهم قرآن كريم يبشرهم برضوان الله .

بايعته ربيعة وهمدان على الموت ، وحملوا على جند الشام ، فنقضوا صفوفهم ، ومعاوية يحرض جنده على قتل علىٍّ ، ورجال علىٍّ يحرسونه ، وهو يلاقى الفرسان واحدا بعد

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير .

الآخر فما يبارز أحدا إلا قتله . . ويطلب منه رؤساء القبيلتين أن يأخذ حذره ، وسيبارزون هم عنه ، فيقول :

من أى يومىَّ من الموت أفِر ؟ أيوم لا قدر أم يوم قدر ؟

وحرض معاوية عمرو بن العاص على مبارزة على، فقال له عمرو : « بارزه أنت فتكون على إحدى الحسنيين ، إما أن تقتله فتكون قد قتلت قاتل الأقران وتزداد شرفا إلى شرفك ، وإما أن يقتلك فتكون قد استعجلت مرافقة الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً » . فقال معاوية : « يا عمرو ! الثانية شر من الأولى » .

وكان معاوية واقفا على تل يشاهد المعركة وعلىٌّ يفلق الهامات ، وما من أحد يقوى عليه ، والصفوف تنهزم أمامه هو وفرسان ربيعة وهمدان ، وجيش الشام ينهار ، وصناديده يفرون يلتمسون النجاة من علىٍّ وأصحابه ! !

فقال معاوية وهو يتأمل كلَّ ذلك : « تبا لهؤلاء الرجال وقبحا ! أما فيهم من يقتل عليا مبارزة أو غيلة ؟ » فقال له الوليد بن عقبة : « ابرز إليه أنت فإنك أولى الناس بمبارزته » فقال معاوية : « والله لقد دعانى إلى البراز حتى استحييت من قريش ! إنى والله لا أبرز إليه . وما جُعِلَ العسْكَرُ بين يَدَىِ الرئيس إلا وقاية له » .

. وجمع معاوية من معه من رجالات قريش وقال لهم : « العجب يا معشر قريش أنه ليس لأحد منكم فى هذه الحرب فعل حسن يطول به لسانه ما عدا عمرو بن العاص ! فما بالكم ؟ أين حمية قريش » فرد عليه الوليد بن عقبة فى غضب : « وأى فعل تريد ؟؟ والله ما نعرف فى أكفائنا من قريش العراق من يغنى غناءنا باللسان ولا باليد » فقال معاوية : « بل إن أولئك قد وَقَوْا عليًّا بأنفسهم » قال الوليد متحديا معرضا بمعاوية : « كلا . بل وقاهم علىٌّ بنفسه ! » فقال معاوية : « أما منكم من يقوم لِقِرْنٍ منهم مبارزة أو مفاخرة ؟ » قال مروان : « أما البراز فان عليا لا يأذن لحسن ولا لحسين ولا لمحمد بنيه فيه ولا لابن عباس وإخوته ، ويَصْلىَ على بالحرب دونهم . فلأيهم نبارز ؟ أما المفاخرة فبماذا نفاخرهم ؟ أبالإسلام أم بالجاهلية ؟ فان كان بالإسلام فالفخر لهم بالنبوة . . » .

وقاطعه معاوية فسفهه !

وتنابزوا جميعاً ، فأغلظ الوليد لمعاوية .

وقال مروان : « أما والله لولا ما كان منى يوم الدار مع عثمان ، ومشهدى بالبصرة ،

لكان منى فى علىّ رأى يكفى امرءًا ذا حسب ودين ! » ثم انصرفوا جميعا عن معاوية غاضبين ، ولكنه لم يدعهم يبيتون فى غيظهم !! فصالحهم (وأرضاهم من نفسه ، ووصلهم بأموال جليلة) .

وإذ رأى معاوية أن الدائرة توشك أن تدور عليه ، وأن عليا يوشك أن يكسب الحرب ، قال لعمرو : « قد رأيت أن أكتب لعلىّ كتابا أسأله الشام ـ وهو الشىء الأول الذى ردنى عنه وألقى فى نفسه الشك والريبة » . فضحك عمرو قائلا : « أين أنت يا معاوية من خدعة على ؟ » . فقال : « ألسنا بنى عبد مناف » قال عمرو : « بلى ، ولكن لهم النبوة دونك ! وإن شئت أن تكتب فاكتب » .

فكتب معاوية لعلىّ : « أما بعد ، فانى أظنك أن لو علمت أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت وعلمنا ، لم يجنها بعضنا على بعض . وإنا وإن كنا قد غلبنا على عقولنا فقد بقى لنا منها ما نندم به على ما مضى ، ونصلح به ما بقى ، وقد كنت سألتك الشام على ألا يلزمنى لك طاعة ولا بيعة ، فأبيت ذلك علىّ فأعطانى الله ما منعت ، وأنا أدعوك اليوم إلى ما دعوتك إليه أمس ، فإنى لا أرجو من البقاء إلا ما ترجو ، ولا أخاف من الموت إلا ما تخاف ، وقد والله رقت الأجناد ، وذهبت الرجال ، ونحن بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل إلا فضل لا يُستذل به عزيز ، ولا يُسترق به حُرّ والسلام » .

فلما قرأ الإمام كتاب معاوية قال : « العجب لمعاوية وكتابه ! » .

ثم كتب إلى معاوية : « أما ، بعد فقد جاءنى كتابك تذكر أنك لو علمت وعلمنا أن الحرب تبلغ بنا وبك ما بلغت لم يجنها بعضنا على بعض . فإنا وإياك منها فى غاية لم نبلغها . وإنى لو قتلت فى ذات الله وحييت، ثم قتلت ثم حييت سبعين مرة، لم أرجع عن الشدة فى ذات الله ، والجهاد لأعداء الله . وأما قولك أنه قد بقى من عقولنا ما نندم به على ما مضى ، فانى ما نقضت عقلى ، ولا ندمت على فعلى . فأما طلبك الشام ، فإنى لم أكن لأعطيك اليوم ما منعتك أمس ، وأما استواؤنا فى الخوف والرجاء ، فإنك لست أمضى على الشك منى على اليقين ، وليس أهل الشام بأحرص على الدنيا من أهل العراق على الآخرة . وأما قولك إنا بنو عبد مناف ليس لبعضنا على بعض فضل ، فلعمرى إنا بنو أب واحد ، ولكن ليس أمية كهاشم ، ولا حرب كعبد المطلب ، ولا أبو سفيان كأبى طالب ، ولا المهاجر كالطليق ولا المحق كالمبطل، وفى أيدينا بعدُ فضل النبوة التى أذللنا بها العزيز ، وأعززنا بها الذليل » .

فلما قرأ معاوية كتاب الإمام ، أخفاه .

ثم إن عمرو بن العاص ألح على معاوية حتى أطلعه على كتاب الإمام ، فأثنى عمرو عليه ، وأغضب ذلك معاوية . . فقال لعمرو عاتبا : « أردت تسفيه رأيي وإعظام عليٍّ ! وقد فضحك »وكان عمرو يعظم عليًا لأنه بعد أن صرعه لم يجهز عليه بل أشاح عنه بوجهه وتركه ينجو . فقال عمرو : « أما إعظامي عليًّا فانك بعظمته أشد معرفة مني ، ولكنك تطوى ما تعرفه وأنا أنشره ، وأما أنه فضحني يوم صارعته ، فلم يفتضح امرؤ لقي أبا الحسن » .

خرج علي ، ومعاوية ، كل واحد منهما على رأس جنده ، وبرز من جند معاوية عبيد الله بن عمر بن الخطاب يقود أربعة آلاف بعمائم خضراء يطالبون بدم عثمان ، فنادى الإمام : « ويحك يا ابن عمر ، علام تقاتلني ، والله لو كان أبوك حيًّا ما قاتلني » قال عبيد الله : « أطالب بدم عثمان » فقال الإمام : « أنت تطلب بدم عثمان والله يطلبك بدم الهرمزان ! » .

وأمر الإمام صاحبه الأشتر وفرسانه أن يتصدوا لعبيد الله بن عمر وفرسانه . . وكان عبيدالله بن عمر قد تعود حين يخرج إلى القتال أن يأمر نساءه فيشددن عليه السلاح ، ويأخذ إحداهن على راحلتها من خلفه لترى بلاءه في القتال . فلما خرج ذلك اليوم طلب من امرأته بنت هانيء أن تخرج خلفه وقال لها : « إني عبأت اليوم لقومك وإني لأرجو أن أربط في كل وتد من أوتاد خيمتي سيدا منهم ! » وكان قومها في جند الإمام . فقالت : « ما أبغض إلا أن تقاتلهم » قال : «ولم ؟ » قالت : « لأنه لم يتوجه إليهم صنديد في جاهلية ولا إسلام وفي رأسه صعَرٌ (غرور) إلا أبادوه ، وأخاف أن يقتلوك ! وكأني بك قتيلا وقد أتيتهم أسألهم أن يهبوا لي جيفتك » فرماها بقوس فشج رأسها وقال : « ستعلمين بمن آتيك من زعماء قومك » .

وخرج إلى القتال، وخلفه امرأتان له على راحلتين أخرجهما معه لتشهدا بطولته .

ولكنه لم يلبث أن بارز الأشتر ، فصرعه الأشتر ، فلما وجدته امرأتاه مجندلا أكثرتا العويل عليه .

ثم إن نساءه ذهبن إلى معاوية ليرسل في طلب جيفته ، فأرسل يعرض فيها عشرة آلاف على قوم أم عبيد الله ، وسألوا الإمام عليًّا ، فقال لهم : « لا يحل بيعها » .

وجاءتهم امرأته بنت هانىء فقالت : « أنا بنت هانىء وهذا زوجى القاطع الظالم وقد حذرته ما صار إليه فهبوا لى جيفته » فدفعوا إليها جيفته . وكانت مربوطة فى وتد خيمة !!

ورأى معاوية تفوق أهل العراق على أهل الشام ، فأنب أصحاب رايات الشام ، وأغلظ لهم . . وهددهم وتوعدهم وقال لأكبرهم : «لقد هممت أن أولّىَ قومك من هو خير منك مقدما وأنصح منك دنيا » فقال له الرجل مغضبا : « والله لقد نصحتك على نفسى ، وآثرت ملكك على دينى ، وتركت لهواك الرشد وأنا أعرفه ، وحدت عن الحق وأنا أبصر ، وما وفقت لرشد حين أقاتل على ملكك ابن عم رسول الله ﷺ وأول مؤمن به ! ولو أعطيناه ما أعطيناك لكان أرأف بالرعية ، ولكن قد بذلنا لك الأمر ، ولابد من إتمامه غيا كان أورشدا ، وحاشا أن يكون رشدا . وسنقاتل عن تين الغوطة (موضع بالشام) وزيتونها ، إذ حُرِمنا ثمار الجنة وأنهارها » .

واندفع الرجل براية قومه يقاتل جيش على . . وأخذته الحمية ، فأحسن البلاء وحمى وطيس المعركة من جديد . .

وخلال المعركة رأى الإمام ولديه الحسن والحسين يخوضان غمراتها ، فدعا الله أن يحفظهما . . وقال لأحد أصحابه : « إنى أضن بهذين على الموت ، لئلا ينقطع بعدهما نسل رسول الله ﷺ » .

ولاحظ الإمام أن معاوية يقف على التل تحت الترس الذهبى ، يتفقد طريق مؤخرته إلى الشام ، لينسحب إذا ما لم يجد حيلة إلا الانسحاب . .

وشاهد الإمام تدفق الإمدادات والميرة من الشام إلى مؤخرة جيش معاوية ، فنظر الإمام فى الأمر ، فوجد أن معاوية كلما حوصر ونفدت منه الميرةجاءه مددضخم من الشام ، فالطريق إليها مفتوح . . وإذن فلا سبيل إلى الانتصار الحاسم على جيش الشام ومعاوية ما بقى طريق الميرة والإمداد مفتوحا ومؤمّنا .

وأصدر الإمام علىٌ أمره إلى أحد أصحابه : « سر فى بعض هذه الخيل فاقطع الميرة عن معاوية ، ولا تقتل إلا من يحل لك قتله ، وضع السيف موضعه » .

وبلغ ذلك معاوية ، فدعا أقوى أمراء جيشه وأمره أن يخرج بفرسانه لتأمين الطريق ، ولكنه عاد منهزما بعد حين ، وقطع الإمام الميرة عن جيش الشام .

فجمع معاوية رؤوس جند الشام وأصحابه وقال لهم : « أتانى خبر من ناحية من نواحىَّ فيه أمر شديد » فقالوا جميعا : « يا أمير المؤمنين ليس لنا رأى فى شىء مما أتاك، إنما علينا السمع والطاعة » .

وأراد الإمام علىٌّ أن يعرف رأى أصحابه من أهل العراق ، فقال : « أيها الناس ، إنه أتانى خبر من ناحية من نواحىّ » فقال بعضهم : « الرأى لك » وقال آخرون : « يا أمير المؤمنين ، إن لنا فى كل أمر رأيا ، فما أتاك فأطلعنا عليه حتى نشير عليك » فقال على : « ظفر والله ابن هند باجتماع أهل الشام له واختلافكم علىَّ ، والله ليغلبن باطله حقكم . إنما أتانى أن بعض خيلنا قطعت الميرة عن معاوية ، وظفرت بفرسانه ، وأتى معاوية نبأ هزيمة أصحابه فقال : « يا أهل الشام ، إنى أتانى أمر شديد » فقلدوه أمرهم ، واختلفتم علىّ ! » .

فقام قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى فقال : « أما والله يا أمير المؤمنين لنحن كنا أولى بالتسليم لك من أهل الشام لمعاوية . . » .

* * *

وشعر معاوية أنه سيحاط به وبجند الشام بعد أن قطع الإمام طريق الميرة فبعث أبا هريرة ، والنعمان بن بشير الأنصارى إلى علىٍّ فقالا له : « يا أبا الحسن إن الله قد جعل لك فى الإسلام فضلا وشرفا ، وقد بعثنا معاوية يسألك أمرا تسكن به هذه الحرب ، ويصلح له به ذات البين : أن تدفع إليه قتلة عثمان ، فيقتلهم به ، ويجمع الله تعالى أمرك وأمره ، ويصلح بينكم ، وتسلم هذه الأمة من الفتنة والفرقة » .

فعجب الإمام لهذا الكلام !

أما يزال معاوية يطالب بقتلة عثمان ، ويرى نفسه ولىَّ الدم وله الحق فى القصاص دون الإمام ولىِّ أمر الأمة ؟! وعجب أن يحمل إليه أبو هريرة والنعمان بن بشير الأنصارى مثل هذا الكلام . . !!

فقال الإمام لهما : « دعا هذا الكلام » . .

ثم اتجه إلى النعمان قائلا : « حدِّثنى عنك يا نعمان . هل أنت أهدى قومك سبيلا ؟ » قال : « لا » . قال الإمام : « فكل قومك الأنصار قد اتبعنى إلا شذاذا منهم ثلاثة أو أربعة ، أتكون أنت من الشذاذ ؟! » قال النعمان : « إنما جئت لأكون معك

والـزمـك . وكان معاوية قد سألنى أن أؤدى هذا الكلام ، ورجوت أن يكون لى موقف أجتمع فيه معك ، وطمعت أن يجرى الله تعالى بينكما صلحا ، فإذا كان رأيك غير ذلك فأنا ملازمك وكائن معك » .

وكـان بعض الناس فى صفين يسعى بين المعسكرين ، وكانت الحرب إذا هدأت عشاء يتسامر أهل المعسكرين معا ، فيتعاتبون ، ولقد يرق الواحد منهم للآخر ، حتى إذا أصبحوا واستعر القتال بينهم كره بعضهم بعضا . .

وكـان ممن يترددون بين المعسكـرين فى صفـين ، نفـر اعتزلوا القتال ، وسعوا فى الصلح ، فكانوا إذا نودى للصلاة يصلون خلف علىّ ، فإذا جاء وقت الطعام أو النوم ، ذهبوا إلى معاوية حيث الطعام ألذ والفراش ألين ، وكانوا إذا سئلوا فى ذلك قالوا : « الصلاة وراء على كرم الله وجهه أتقى وأزكى ، ولكن طعام معاوية أشهى » .

ولقد أقام النعمان عند علىّ ، ولكنه سئم المقام إذ لم يطق تقشف الإمام ، ولا خشونة العيش مع أتباعه المساكين ، ففر إلى معاوية !

وسمع عبد الرحمن بن عثمان وهو معتزل فى حمص ، أن معاوية أرسل إلى علىّ رجلين آخرين ، فقال لرسولى معاوية لما لقيهما: « العجب منكما ! أتأتيان عليا وتطلبان منه قتلة عثـمان ؟! وأعجب من ذلـك قولكـما لعلى اجعلها شورى واخلعها من عنقك !! وإنكما لتعلمان أن من رضى بعلى خير ممن كرهه ، وأن من بايعه خير ممن لم يبايعه ، ثم صرتما رسولى رجل من الطلقاء ، لا تحل له الخلافة ! » .

فلما علم معاوية بما قاله عبد الرحمن بن عثمان ، أوشك أن يرسل إليه من يقتله ، ولكنه خاف غضب قومه !

وسمع فتى من همدان عمرو بن العاص يحرض على الإمام ، فقال : « يا عمرو إن أشياخنـا سمعـوا رسـول الله ﷺ يقـول : « من كنت مولاه فعلى مولاه . فحق ذلك أم باطل ؟ » فقال عمرو : « حق ، وأنا أزيدك أنه ليس أحد من صحابة رسول الله ﷺ له منـاقب مثل على ، ولكنه أفسدها بأمره فى عثمان » قال الفتى منكرا : « هل أمر بالقتل أو قتل ؟ » قال عمرو : « لا . ولكنه نوى ومنع » قال الفتى : « فهل بايعه الناس ؟ » قال عمـرو : « نعـم » قال : « فما أخرجك عن بيعته » قال : « اتهامى إياه فى عثمان » قال الفتى : « فأنت أيضاً قد اتهمت ! » قال : « صدقت . إنى خرجت إلى فلسطين » .

فعاد الفتى إلى قومه همدان ، يقول : « إنا أتينا أقواما أخذنا الحجة عليهم من أفواههم » .

* * *

وزحف على بجيشه ، واشتجرت القنا ، واشتبكت الرماح ، وتقارعت السيوف والحراب ، فما أحد يسمع شيئاً إلا وقع الحديد على الحديد ، وما ترى إلا أشعة الشمس تسطع على الأسنة ، ودماء المسلمين تختلط بالنقع المثار . .

ورأى على ابنه الحسن فى حومة الوغى فقال : « ابعدوا عنى هذا الغلام لا يهدنى » .

كان الإمام قد نهى بنيه ، وبنى عمه عن الدعوة إلى المبارزة ، فكان إذا دعى أحد منهم بارز الإمام عنه . . هكذا بارز عن ابن عمه عبد الله بن عباس وصرع متحديه ، وعرض أن يبارز عن ابنه محمد ابن الحنفية ، ولكن متحديه ولى . .

إنه كرم الله وجهه يحمى العشيرة ولا يدع العشيرة تحميه . . كما ضن بعدد من كبار الصحابة من غير المقاتلين من أهل الزهادة والنسك فمنعهم من القتال ، وقاتل هو عنهم ، واكتفى بصحبتهم يعظمون المقاتلين ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويمجدون الجهاد فى سبيل الله .

* * *

ومعاوية بن أبى سفيان يرقب المعركة من التل ، والترس المذهب يحميه من الشمس . .

معاوية لا يخوض الحرب بنفسه بعد أن انهزم المرة بعد المرة أمام عبد الله بن بديل ، ثم أمام الأشتر ، واكتفى بأن يوجه المقاتلين ، وترك عمرو بن العاص يقود المعارك .

ولكن رجال معاوية ضاقوا بالأمر ، وطالبوه أن يقودهم . وأن يحارب بنفسه كعلىٍّ . .

ورأى معاوية بطش جيش العراق بجيش الشام فقال لرجاله : « لا مرد لأمر الله . إنما لقيتم كباش أهل العراق ، وقتلتم وقتل منكم ا وما لكم علىَّ من حجة فقد عبأت نفسى لقتال سعيد بن قيس » .

وخرج معاوية يقود رجاله ليلقى سعيد بن قيس فى همدان ، ففر الرجال عن معاوية ، وهزمهم سعيد بن قيس ، وفر معاوية . .

نادى الرجال الفارين ، وفيهم عمرو ، فوبخهم . . وقال لعمرو : « إنك لجبان » ، فقال له عمرو : « فهلا برزت إلى علىٍّ إذ دعاك إن كنت شجاعا كما تزعم ؟! » .

ولكنهما كانا لا يصبران على خصومة ، وإلا نقضا غزلهما أنكاثا . .

فسرعان ما تصالحا ، فطلب معاوية من عمرو أن يقدم أقوى قبائل الشام واسمها (عكّ) لتقابل همدان ، فخاطبهم عمرو : « يا معشر عك . إن عليا قد عرف أنكم خير أهل الشام فعبأ لكم خير أهل العراق همدان ، فاصبروا وهبوا لى جماحكم ساعة من نهار ، وقد بلغ الحق مقطعه » فقال زعيم عك : « أمهلونى حتى آتى معاوية » فأتى العَكّى معاوية فقال له : « اجعل لنا فريضة ألفى رجل فى ألفين ، ومن هلك فابن عمه مكانه » قال معاوية : « ذلك لك » .

فتقاتلوا حتى انصرفت عك . فانصرفت همدان ، فقال عمرو لمعاوية : « لقد لقيت أسد أسدا ، ولم أر كاليوم قط ، لو أن معك حيا كعك ، أو مع على حيا كهمدان ، لكان الفناء ! » .

وشاع فى القبائل أن قبيلة عك لم تحارب بهذه البسالة إلا بعد أن نالت ما اشترطته على معاوية من العطاء الوفير . .

وعجب معاوية وهو يتابع شجاعة رجال علىٍّ ! . . ما الذى يثير فيهم هذه الشجاعة كلها ، وعطاؤهم قليل ؟! . .

كيف استطاع هؤلاء المساكين من أتباع على بأثوابهم الخشنة ووجوهم الذابلة أن يقهروا أثرياء الشام فى جاههم وترفهم ؟!

ورأى معاوية أنه ما من سبيل على جيش العراق إلا باغراء مساكينهم بالمال . . إلى أى مدى يستطيع هؤلاء المساكين القتال تحت راية على متحملين شظف العيش . . ألا يغبطون جند الشام على طلاوة منظرهم ، وطراوة حياتهم ، وترفهم ؟! كم منهم يستطيع أن يتحمل آلام الزهد والنسك ، وكم من الأيام يحتملون ؟!

وذاع فى جند العراق أن معاوية يعد من ينضم إليه منهم بالغنى والجاه . .

وجاء إلى علىٍّ فارس من همدان فقال له : « يا أمير المؤمنين إن أقواما طلبوا من معاوية العطاء فأغدق عليهم ، فباعوا الدين بالدنيا . . وإنا رضينا بالآخرة من الدنيا ، وبالعراق من الشام ، وبك من معاوية . يا أمير المؤمنين . . والله لآخرتنا خير من دنياهم ، ولعراقنا خير من شامهم ، ولإمامنا أهدى من إمامهم ، فاستفتحنا بالحرب ، وثق منا بالنصر ، واحملنا على الموت » .

وساء عليًا ما بلغه عن معاوية وأهل العراق ، ولكنه أثنى أطيب الثناء على فارس همدان . . فلما بلغ معـاوية ذلك ، عاد يقول : « والله لأستميلن بالأموال ثقات على ، ولأقسمن فيهم المال حتى تغلب دنياى آخرته » .

ويالله ما كان أمرَّ الصراع بين دنيا معاوية وآخرة على ! !

اشرأبت أطمـاع الـذين مع معـاوية إلى ما يغنمـون ، وشرعوا يحاربون دفاعا عن أحلامهم بالثراء ، وكل ما يمكن أن يمنحه المال من سطوة وهيبة وتشبث بمتاع الحياة الدنيا !

وانتفض المتقون والورعون والمساكين من أصحاب على وأتباعه ، بأشواقهم الجليلة إلى العدل ، وحرصهم النبيل على أن تنتصر الحقيقة !

اندفعوا جميعا بالطاقة الخارقة التى يمنحها صدق الإيمان ، وهم يرون على الأفق الجنة التى وعدها الله عباده المتقين الذين يقاتلون فى سبيله ويستشهدون ، وإذ هم ليسوا أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون !

انقضوا بكل ما يصبه عشق الحقيقة فى أجلاد أهل الورع من بأس ، وما يثيره فى عروقهم من جسارة واستهانة بالموت .

وحملوا على الحـريصين على الحياة من رجال معاوية . . واستعر القتال ، واسْتَحَرَّ القتل فى أهل الشام ، فتقهقروا حتى ألحقتهم همدان بقبة معاوية !

جزع معاوية جزعا شديدا ، وقال : « ما لقيت من همدان ! » .

وقـال على : « يا معشر همدان أنتـم درعى ورمحى ، يا همدان ما أجبتم إلا الله ولا أجبتم غيره » فقال زعيمهم سعيد بن قيس : « أجبنا الله وأجبناك ونصرنا نبى الله ﷺ فى قبره ، وقاتلنا من ليس مثلك ، فارم بنا حيث أحببت » .

فقال الإمام يثنى على همدان :

ولـو كنـت بوابـا على باب جنـة　　　لقـلت لهمـدان ادخـلى بسـلام

* * *

اضطربت صفوف أهل الشام فإذا الأنصار قد فعلوا بهم الأفاعيل فأرسل معاوية إلى النعمان بن بشير الأنصارى فقال له : « قد والله غمنى ما لقيت من الأنصار ، صاروا واضعى سيوفهم على عواتقهم يدعون إلى النزال ، حتى والله جبنوا أصحابى ، الشجاع والجبان ، وحتى والله ما أسأل عن فارس من أهل الشام إلا قالوا قتله الأنصار ، أما والله لألقينهم بحدى وحديدى ، ولأعبئن لكل فارس منهم فارسا ينشب فى حلقه ، ثم لأرمينهم بأعدادهم من قريش !. . يقولون نحن الأنصار !؟ قد والله آووا ونصروا ، ولكن أفسدوا حقهم بباطلهم » .

وانتهى كلام معاوية إلى الأنصار ، وكانوا جميعا فى جيش علىٍّ لم يشذ عنهم إلا النعمان وصاحبان له . . فوقف قائدهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى يخطبهم : « لعمرى لئن غظتم معاوية اليوم لقد غظتموه بالأمس ، وإن وترتموه فى الإسلام فقد وترتموه فى الشرك ، وما لكم إليه من ذنب أعظم من نصر هذا الدين الذى أنتم عليه . . فجدوا اليوم جدا تنسونه به ما كان أمس ، وجدوا غدا جدا تنسونه به ما كان اليوم ، وأنتم اليوم مع اللواء الذى كان يقاتل عن يمينه جبريل وعن يساره ميكائيل ، والقوم مع لواء أبى جهل والأحزاب » .

ثم حمل قيس بن سعد بفرسانه على جماعة من أهل الشام ، رأى عليهم رجلا يشبه معاوية ، فعمد إليه سعد فصرعه بسيفه ، فإذا هو رجل غير معاوية !

ورأى ابن الصباح وهو من رؤساء أهل الشام فداحة الخسائر فى الرجال ، فوقف يخطب أصحابه : « والله إنى يا أهل الشام لأظن أن الله قد آذن بفنائكم ، ويحكم ! خلوا بين على ومعاوية فليقتتلا ، فأيهما قتل صاحبه ملْنا معه » .

فلما علم علىٌّ بذلك قال : « والله ما سمعت بخطبة منذ وردت الشام أنا بها أشد سرورا من هذه » .

أما معاوية فإنه لما سمع ابن الصباح ، اندس فى آخر الصفوف ، واختبأ ، وقال لمن

حوله : « إنى لأظن ابن الصباح قد أصيب فى عقله ! » فقالوا له : « والله إنه لأفضلنا دينا ورأيا وبأسا ، ولكنك تكره مبارزة على » .

* * *

حتى إذا كان اليوم العاشر من صفر سنة سبع وثلاثين ، أعلن الإمام أنه زاحف اليوم بجميع من معه على معاوية وجميع من معه . .

وكان اليوم حارا يتلظى وهجه . . وسطعت الشمس على الخوذ والدروع تخطف بالأبصار ، وتقارعت الأسنة ، وغاصت الحراب فى مهج المسلمين .

. . . وخرج رجل من أهل الشام ينادى بين الصفين : « يا أبا الحسن . يا على ، ابرز إلى » فبرز إليه على فقال : « يا على ! إن لك قدما فى الإسلام والهجرة . فهل لك فى أمر أعرضه عليك يكون فيه حقن هذه الدماء ؟ » قال له على : « وما ذاك ؟ » قال : « ترجع إلى عراقك فنخلى بينك وبين العراق ، ونرجع نحن إلى شامنا فتخلى بيننا وبين شامنا » . فقال له على : « لقد عرفت . إنما عرضت هذا نصيحة وشفقة . ولقد أهمنى هذا الأمر وأسهرنى ، وضربت أنفه وعينيه ، فلم أجد إلا القتال أو الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ . إن الله تبارك وتعالى لم يرض من أوليائه أن يُعْصَى فى الأرض وهم سكوت مذعنون ، لا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ، فوجدت القتال أهون على نفسى من معالجة الأغلال فى جهنم » .

فرجع الشامى إلى الصف وهو يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

* * *

وأسر معاوية بعض أصحاب الإمام ، فقال عمرو لمعاوية : « اقتلهم » ، فقال له أحد الأسرى ، وهو من قبيلة أود : « لا تقتلنى فإنك خالى » . قال معاوية : « من أين أنا خالك ولم يكن بيننا وبين أود مصاهرة ؟ » قال الأودى : « إن أخبرتك فهو أمانى عندك ؟ » قال معاوية : « نعم » قال : « أليست أختك أم حبيبة بنت أبى سفيان زوج النبى ؟ » قال : « بلى » قال : « أليست هى أم المؤمنين ؟ فأنا ابنها ، وأنت أخوها ، فأنت خالى » فأعجب معاوية بدهاء الأودى ، وسر بحسن حيلته ، وصفق طربا ، وقال : « ماله لله أبوه !؟ أما كان فى هؤلاء الأسرى من يفطن لها غيره ؟ » وأطلقه .

فأشار عمرو عليه أن يقتل الأسرى الآخرين .

وإن معاوية لبوشك أن يقتل الأسرى من أصحاب على ، إذ بأصحاب معاوية الذين كان قد أسرهم على يعودون ، فيشيدون بحسن المعاملة التى لقوها ، ويحملون إلى معاوية ومن معه فتوى الإمام : « إن أسير أهل القبلة لا يفادى ، ولا يقتل » .

فأطلق معـاوية الأسرى من أصحاب على، وهو يقول لعمرو مؤنبا : « يا عمرو ، لو أطعناك فى هؤلاء الأسرى لوقعنا فى قبيح من الأمر » .

* * *

وخلال احتدام المعركة حمل هشام بن عتبة فى عدد من القراء على أهل الشام ، ولكنهم صبروا واستبسلوا استبسال من يحرص على الموت لتوهب له الحياة ، لا من يقاتل عن زخرف الدنيا وزينتها !

ورأى هشام القراء قد فتنوا بصمود أهل الشام ، فقال لهم : « لا يهولنكم ما ترون من صبر هذا الحى من الشام ، فوالله ما هى إلا حمية العرب وصبرها تحت راياتها . وهو صبر عرفته العرب فى جاهليتها ! والله إنهم لعلى الضلال وإنكم لعلى الحق » .

ثم اندفع بمن معه من القراء ، وهم فى دروعهم لا يبين منهم غير العيون ، فأثخنوا أهل الشام ، وتقهقروا ، إلا فتى منهم وقف مغيظا يشتم ويلعن عليا وأصحاب على ، فقال له هشام : « يا هذا اتق الله فانه سائلك عن هذا الموقف وما أردت به » فقال الشاب وهو يرتعد من الحنق : « فانى قاتلكم لأن صاحبكم لا يصلى وأنتم لا تصلون ، وصاحبكم قتل خليفتنا ! » فقال هشام فى تؤدة حانية على الفتى : « يا بنى ! ما أنت وعثمان ؟ إن الذين اختلفوا معه كانوا من الصحابة وأبنائهم وقراء الناس ، وهم أهل العلم والدين ، فدع هذا فما أهمل هذا الدين طرفة عين ، وأما قولك أن صاحبنا لا يصلى ، فإنه أول من صلى ، وأفقه خلق الله فى دين الله وأولى بالرسول صلى ﷺ ، وأما كل من ترى معى فكلهم قارىء كتاب الله لا ينام الليل تهجدا ، فلا يغرنك هؤلاء الأشقياء ولا يضلوك ! » .

وسكت الفتى برهة يتفكر فى كلام هشام ، وهزته نبرته الأبوية الحانية الصادقة التى تنبعث من قلبه كأنها نداء هداية ! . . أهكذا هم أصحاب على !؟ . . وأخذ الفتى يلوم نفسه : كيف صدق ما أفرغوه فى روعه : أعلى يقتل عثمان ؟! أعلى لا يصلى ؟! فمن يصلى إذن !!

وأغمد الفتى سيفه ، وتقدم إلى هشام كابن ضال يريد أن يعود إلى أحضان أهله ، وقال ودموع الندم تبلل صوته : « فهل لى من توبة ؟! » قال : « نعم . . تب إلى الله يتب عليك ، فان الله يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات » .

فلما عاد الفتى يجادل إخوانه ويدعوهم إلى على ، قال شيخ منهم : (خدعك العراقى) . ولكن الفتى انضم إلى على وضم إليه بعض إخوانه .

وحمى وطيس المعركة ، وكاد الناس يفنى بعضهم بعضا .

قال أحد الذين شهدوا ذلك اليوم : « زحف الناس بعضهم إلى بعض ، ثم تطاعنوا بالرماح حتى تكسرت واندقت ، ثم مشى الناس بعضهم إلى بعض بالسيف وعمد الحديد ، فلم يسمع السامع إلا وقع الحديد بعضه على بعض ، لهو أشد هولا فى صدور الرجال من الصواعق ، ومن جبال تهامة يدك بعضها بعضا ، وثار القتام ، وضلت الألوية والرايات ، فارتموا بالنبل والحجارة حتى فنيت ، والأشتر يسير فيها بين الميمنة والميسرة فيأمر كل قبيلة أو كتيبة من القراء بالإقدام على التى تليها . فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة إلى نصف الليل لم يصلوا لله صلاة إلا إيماء ، فلم يزل الأشتر يفعل ذلك بالناس حتى أصبح والمعركة خلف ظهره ، وافترقوا عن سبعين ألف قتيل فى ذلك اليوم وتلك الليلة ، وهى ليلة (الهرير) . وكان الأشتر فى ميمنة الناس ، وابن عباس فى الميسرة ، وأمير المؤمنين فى المقدمة على القلب » .

ثم استمر القتال من نصف الليل الثانى إلى ارتفاع الضحى ، والأشتر يقول لأصحابه وهو يزحف بهم نحو أهل الشام : « ازحفوا قيد رمحى هذا » فاذا فعلوا قال : « ازحفوا قاب هذا القوس » . فاذا فعلوا سألهم الإقدام مثل ذلك ، فتقدموا وتقدموا حتى مل الناس الإقدام . . فقال : « أعيذكم بالله » . .

ثم خرج يسير فى الكتائب ويقول : « ألا من يشرى نفسه لله ، ويقاتل مع الأشتر حتى يظهر أويلحق بالله ؟ » فلا يزال الرجل من الناس يخرج إليه ويقاتل معه . .

ثم إنه صاح فى أصحابه : « شدوا شدة ترضون بها الله وتعزون بها الدين » وشد معه أصحابه يضربون أهل الشام حتى انتهى بهم إلى عسكرهم . ثم إنهم قاتلوا عند العسكر قتالا شديدا فقتل صاحب راية الأشتر .

وأخذ علىٌّ ـ لما رأى الظفر قد جاء من قبل الأشتر ـ يمده بالرجال . .

* * *

هدأ القتال قبيل منتصف الليل المترع بالدم ، ولا صوت فى الليل إلا حشرجة الموتى ، وأنات الجرحى !

ووقف الإمام خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس قد بلغ بكم الأمر وبعدوكم ما قد رأيتم ، ولم يبق منه إلا آخر نفس . وإن الأمور إذا أقبلت اعتبر آخرها بأولها ، وقد صبر لكم القوم على غير دين حتى بلغنا منهم ما بلغنا ، وأنا غاد إليهم بالغداة أحاكمهم إلى الله عز وجل بسيفى هذا » .

وأصاب أهل الشام فزع شديد من وعيد الإمام .

أما معاوية فقد روعه انتصار على ، وخشى الهلاك ، وهم بالفرار فلاذ بعمرو يستشيره ، ويستنفر مكره ودهاءه ، ويستغيث حيلته ، فنصحه عمرو بالصبر ، وكان معاوية يضع رجله فى ركاب فرسه ليفر وينجو بنفسه . . فنزل وقال : « يا عمرو . إنما هى الليلة حتى يغدو علينا بالفيصل ! فما ترى ؟ » .

قال عمرو وقد برحت به الهزيمة : « إن رجالك لا يقومون لرجاله . ولست مثله ! هو يقاتلك على أمر وأنت تقاتله على غيره . أنت تريد البقاء وهو يريد الفناء ، وأهل العراق يخافونك إن ظفرت بهم ، وأهل الشام لا يخافون عليا إن ظفر بهم » .

فقال معاوية وجسده البدين المترهل يرتعد فى هلع : « فما ترى ؟ فما ترى ؟ فما ترى يا عمرو ؟ » .

قال عمرو فى أناة ، وقد استمسك بدنه النحيل القصير ، والتمعت عيناه : « ألق إلى علىٌ وأصحابه أمرا إن قبلوه اختلفوا ، وإن ردوه اختلفوا ! » .

فنزل معاوية من على ظهر فرسه وقال ، وقد فرغ صبره : « أى أمر ؟ عجل » قال عمرو فى هدوء وثبات وهو يبتسم ، إذ معاوية يتزايل فى أغوار نفسه : « يا معاوية ، هون عليك ! ادعهم إلى كتاب الله حكما فيما بينك وبينهم ، فانك بالغ به حاجتك فى القوم . فانى لم أزل أؤخر هذا الأمر لوقت حاجتك إليه . فان وجدت فيهم من يقبل حكم القرآن ، وجدت فيهم من لا يقبل ، فيكون خلاف بينهم فيفشلوا وتذهب ريحهم ، فان قبلوا جميعا منعنا عناء هذه الحرب إلى حين » .

فأمر معاوية المنادين أن يدعوا إلى الاحتكام لكتاب الله .

وارتفعت من أهل الشام صرخات شقت الليل الدامى حزينة فاجعة مروعة تنادى : « يا أبا الحسن ، من لذرارينا من الروم إن فنينا . الله الله ؟ البقيا ! كتاب الله بيننا وبينكم » .

حتى إذا أصبح الصباح كانت المصاحف قد عقدت إلى الرماح ، ورفعت على السيوف ، ووديان صفين تدوى بالنداء : « يا أهل العراق كتاب الله بيننا وبينكم . يا أبا الحسن لا ترد كتاب الله ، فانك أولى به منا ، وأحق من أخذ به » .

وتقدم رجال من أهل الشام تحت الرماح التى ربطت إليها المصاحف فقال خطيبهم : « يا أهل العراق . يا معشر العرب . . الله الله فى نسائكم وبناتكم ، فمن للروم والأتراك وأهل فارس غدا إن فنيتم ؟! الله الله فى دينكم ، هذا كتاب الله بيننا وبينكم » .

فصاح الإمام فى رجاله : « اللهم إنك تعلم أنهم ما كتاب الله يريدون فاحكم بيننا وبينهم إنك أنت الحكم الحق المبين » .

فقام أحد القراء المتزمتين المتطرفين من أصحاب على ، فقال : « يا أمير المؤمنين . إنهم يدعونك إلى كتاب الله وأنت أولى به منهم ! » .

غير أن أصواتا ارتفعت من معسكر على تطالب بالاستمرار فى الحرب حتى يتمم الله لهم النصر على أهل الشام .

فوقف الأشعث بن قيس من أصحاب على ، فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « قد رأيتم يا معشر المسلمين ما كان فى يومكم هذا الماضى ، وما قد فنى فيه من العرب ، فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ فما رأيت مثل هذا اليوم قط . ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن نحن تواقفنا غدا إنه لفناء العرب وضيعة الحرمات . أما والله ما أقول هذه المقالة جزعا من الحتف . ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى غدا إذا فنين » .

فقام رجال من أصحاب على يطالبون الإمام بالاستمرار فى القتال وقالوا : « يا أمير المؤمنين إنا والله ما أجبناك ولا نصرناك عصبية على الباطل ، ولا أجبنا إلا الله عز وجل ، ولا طلبنا إلا الحق ، ولو دعانا غيرك إلى ما دعوتنا إليه لاستشرى فيه اللجاج ، وطالت فيه النجوى ، وقد بلغ الحق مقطعه ، وليس لنا معك رأى » .

كانوا قد ذاقوا حلاوة النصر ، فتحاضُّوا على الاستمرار فى القتال حتى يتم الله عليهم نعمة النصر .

فوقف الأشعث مغضبا فقال : « يا أمير المؤمنين إنا لك اليوم على ما كنا عليه أمس ، وليس آخر أمرنا كأوله ، وما من القوم أحد أحنى على أهل العراق ولا أوتر لأهل الشام منى ، فأجب القوم لكتاب الله ، فانك أحق به منهم ، وقد أحب القوم البقاء ، وكرهوا القتال » .

فقال على : « إن هذا أمر فينظر فيه » .

واشتجر الخلاف بين أصحاب الإمام ، فتقدم واحد منهم فقال : « أيها الناس ، إن قتلانا لشهداء وإن أحياءنا لأبرار. وإن عليا لعلى بينة من ربه . ما أحدث إلا الإنصاف وكل محق منصف ، فمن سلم له نجا ، ومن خالفه هلك » .

وقام آخر من أصحاب الإمام فقال : « أيها الناس . إنا كنا دعونا أهل الشام إلى كتاب الله فان رددناه عليهم حل لهم منا ما حل لنا منهم . ولسنا نخاف أن يحيف الله علينا ولا رسوله . وأن عليا ليس بالراجع الناكص ، ولا الشاك الواقف ، وهو اليوم على ما كان عليه أمس ،وقد أكلتنا هذه الحرب . ولا نرى البقاء إلا فى الموادعة » .

وارتفع صوت من معسكر الشام : « بيننا وبينكم كتاب الله » . قال تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » . فصاح القراء من أصحاب على : « لا نعرض عن كتاب الله » .

فقام على كرم الله وجهه ، فقال : « عباد الله . إنى أحق من أجاب إلى كتاب الله ، ولكن معاوية وعمرو بن العاص وابن أبى سرح وغيرهم ليسوا بأصحاب قرآن ، وأنا أعرف بهم منكم . صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا شر أطفال وشر رجال ، إنها كلمة حق يراد بها باطل . إنهم والله ما رفعوا المصاحف لأنهم يعرفونها ويعملون بها ! ولكنها الخديعة والدهاء والمكيدة ! أعيرونى سواعدكم وجماجمكم ساعة واحدة ، فقد بلغ الحق مقطعه ، ولم يبق إلا أن يقطع دابر الذين ظلموا » .

ولكن أصحابه عادوا للجدال ، وأغلظ بعضهم لبعض ، وإنه لفى آلامه يعتصره الحزن على هذا الشقاق ، ويعذبه انخداع بعض رجاله بمكيدة معاوية وعمرو ، وإنه يبحث بعينيه عن شيوخ القراء من رجاله ، عسى شيوخهم أن يردوا من سئم الجهاد من أصحابه إلى الهدى ، إذ بعدة آلاف من شباب القراء قد أقبلوا : السيوف على العواتق ،

والدروع على الصدور ، جباههم المسودة فيها النتوء من كثرة السجود ومس الحصير ، فنادوا الإمام باسمه ، ولم ينادوه : « يا أمير المؤمنين » . .

قالوا فى جفاء وغلظة ونبرة متحدية متمردة : « يا على أجب القوم إلى كتاب الله » فقال لهم : « ويحكم ! أنا أول من دعا إلى كتاب الله ، وأول من أجاب إليه ، وليس يحل لى ولا يسعنى فى دينى أن أدعى إلى كتاب الله فلا أقبله ، إنى إنما قاتلتهم ليدينوا بحكم القرآن ، فانهم قد عصوا الله فيما أمرهم ، ونقضوا عهده ، ونبذوا كتابه ، ولكنى قد أعلمتكم أنهم قد كادوكم ، وأنهم ليسوا العمل بالقرآن يريدون » .

فتنحت عصابة من رؤساء القراء عنه ، وأخذوا يتحسسون رؤوسهم الحليقة وجباههم السوداء ، والامام على يتأمل وجوههم المتوترة المتجهمة . ما بالهم !؟ وأين رؤساؤهم الذين كان نورهم يضىء فى وجوههم ويسعى بين أيديهم !؟

وا أسفا عليهم !!! استشهدوا جميعا . . ولم يعد إلا هؤلاء بنظراتهم الزائغة الكابية !!

عاد رؤساء القراء فقالوا للإمام : « يا على أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه ، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم (أى سلمناك لمعاوية وأهل الشام) ، أو نفعل بك كما صنع بابن عفان ، إنه علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل إذا دعينا إليه ، والله لتفعلنها أو لنفعلنها » .

وجاشت نفس الإمام ، لقد تناهت الأمور ، وجرت إلى أقصى المدى !

إنه اليوم ليقود المساكين والمتقين ليجاهد بهم أهل الدنيا الحريصين عليها ، ويجاهد معهم هؤلاء الغلاة المتطرفين الذين أغلقوا عقولهم عن الحق فهم لا يهتدون !

لقد خولوا لأنفسهم حق فهم القرآن كما يشاءون ، وما يملكون أدوات الفهم الحق ، وما يتقنون غير العكوف على ظاهر النصوص !! . .

ذهب علمهم بموت أشياخهم ، وما عاد لهم إلا الشطط ، وما يغرهم به الجهل عن أنفسهم ، حتى ليبيحوا لأنفسهم أن يحكموا بالكفر على أئمة الهدى . .

أيكون هؤلاء هم الذين أنبأ الرسول ﷺ بهم ، وحذر منهم . . قال عليه الصلاة والسلام : « لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان دعواهما واحدة ، فبيناهم كذلك تمرق منهم مارقة ، تقتلهم أولى الفئتين بالحق ! » . . أيكون هؤلاء القراء المتبجحون هم أولئك المارقون !!

أهم الـذين قال ﷺ فيهم : (يخرج منكم قوم تحقـرون صلاتكم مع صلاتهم ، وصيامكم مع صيامهم ، وأعمالكم مع أعمالهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية) . . وقال : يخرجون على حين فرقة من الناس يقتلهم أولى الطائفتين بالله ! . .

أيكون هؤلاء المتمردون المارقون هم الخوارج الذين تنبأ بهم النبى ﷺ ووصفهم بأنهم يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم . وآيتهم أن رؤوسهم محلقة !

وروع أصحـاب الإمام إذ رأوا المتشددين قد أحاطوا بالإمام ، يعربدون عليه ، وحاولوا أن يكفوهم عنه ، ولكنهم عادوا فى توتر وتحد يلحون على الإمام ـ مهددين ـ أن يجيب دعوة معاوية إلى كتاب الله !!

قال الإمام : « فاحفظوا عنى نهيى إياكم ، واحفظوا مقالتكم لى ، فان تطيعونى فقاتلوا وإن تعصونى فاصنعوا ما بدا لكم » .

فقام رجل من القراء فصاح : « يا أمير المؤمنين اتق الله ، فانك قد أعطيت العهد ، وأخذته منا لنفنين أنفسنا أو لنفنين عدونا ، أويفىء إلى أمر الله ، وإنا نراك قد ركنت إلى أمـر فيه الفـرقة والمعصية لله ، والذل فى الدنيا ، فانهض إلى عدونا ، فلنحاكمه إلى الله بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم وهو خير الحاكمين ، لا حكومة للناس » .

ها هم أولاء القراء يختلون : غلاتهم يهددون عليا إن لم يستجب لما يطلبه معاوية من تحكيم كتاب الله ، وآخرون منهم يأبون إلا الحرب ، وكلهم يستطيل على الإمام ويصول !!

أما أصحاب الإمام الآخرون ، قد اختلفوا على التحكيم أيقبلون أم يرفضون !!

وسر معاوية بما حدث بين أصحاب على ، وأثنى على عمرو . . .

ولكن أغلب أصحاب الإمام مالوا إلى الموادعة . .

وسـأله أحد أصحابه : « ما رأى أمير المؤمنين » قال : « لم يزل أمرى معكم على ما أحب إلى أن أخذت منكم الحرب . قد والله أخذت منكم وتركت ، وأخذت من عدوكم فلم تترك . وإنها فيكم أنكى وأنهك . ألا إنى كنت أمس أميرا للمؤمنين ، فأصبحت اليوم مأمورا ، وكنت ناهيا فأصبحت منهيا . وقد أحببتم البقاء وليس لى أن أحملكم على ما تكرهون » .

وسكت وأخذ يتأمل هؤلاء القراء ذوى الجباه السوداء . .

ويحهم ما بالهم لا يهتمون إلا بظواهر الأمور ؟ ظاهر النص فى القرآن ، وظاهر أبدانهم . . ما هذه الثياب الرثة ؟! ما هذه المرقعات؟ . . أحسبوا أن هذه المظاهر هى النسك والزهادة . . لكم علمت أشياخهم وخيارهم أن الزهد ينبع من القلب ، وليس هو ما يعبر عنه الثوب ! . لقد علمتم أن الدين متين وأن المساكين والفقراء ليسوا هم الذين يلبسون المرقعات ، أو يهملون نظافة أبدانهم ، بل هم من تطهرت قلوبهم وأبدانهم ، وأحسوا أنهم فقراء إلى الله أغنياء عما عداه !! هم الذين جعلوا مكارم الأخلاق قوام الحياة ، وطريقهم الوضىء إلى محبة الله !

وقطعوا تأملات الإمام ونادوه : « يا على ابعث إلى الأشتر ليأتيك » .

وكان مصعب بن الزبير مع الإمام حينئذ فروى :

« كنت عنده حين بعث إلى الأشتر أن يأتيه ، وقد كان الأشتر أشرف على معسكر معاوية ليدخله ، فأرسل إليه على يزيد بن هانىء أن ائتنى ، فأتاه فبلغه فقال الأشتر : « ائت أمير المؤمنين فقل له : ليس هذه بالساعة التى ينبغى لك أن تزيلنى فيها عن موقفى . إنى قد رجوت الله أن يفتح لى فلا تعجلنى» فرجع يزيد بن هانىء إلى على فأخبره . فما هو أن انتهى إلينا حتى ارتفع الرهج وعلت الأصوات من قبل الأشتر ، وظهرت دلائل الفتح والنصر لأهل العراق ، ودلائل الخذلان والإدبار على أهل الشام . فقال له القوم : والله ما نراك إلا أمرته بقتال القوم . قال : « أرأيتمونى ساررت رسولى إليه ؟! أليس إنما كلمته على رؤوسكم علانية وأنتم تسمعون ؟ » قالوا : « فابعث إليه فليأتك ، وإلا فوالله اعتزلناك » . قال : « ويحك يا يزيد بن هانىء . قل للأشتر أقبل إلى فان الفتنة قد وقعت » . فأتاه فأخبره ، فقال الأشتر : ألرفع هذه المصاحف ؟! قال : نعم . قال : أما والله لقد ظننت أنها حين رفعت ستوقع اختلافا وفرقة ! إنها مشورة ابن النابغة - يعنى ابن العاص - ثم قال ليزيد : ويحك ! ألا ترى إلى ما يلقون ؟ ألا ترى إلى الذى يصنع الله لنا ؟ أينبغى أن ندع هذا وننصرف عنه ؟! فقال له يزيد : أتحب أنك ظفرت ها هنا وأن أمير المؤمنين بمكانه الذى هو به يسلم إلى عدوه ؟ . قال : سبحان الله ! لا والله ما أحب ذلك . قال : فإنهم قالوا : لترسلن إلى الأشتر فليأتينك أو لنقتلنك بأسيافنا كعثمان ، أو لنسلمك إلى عدوك . فأقبل الأشتر حتى انتهى إليهم فصاح فقال : يا أهل الذل والوهن ، أحين علوتم على القوم فظننوا أنكم لهم قاهرون ، ورفعوا المصاحف يدعونكم إلى

ما فيهـا ؟! قد والله تركـوا ما أمـر الله به فيها وتركوا سنة من أنزلت عليه ، فلا تجيبوهم أمهلونى فُوَاقاً (ما بين الحلبتين للناقة) فانى قد أحسست بالفتح . قالوا : لا . قال : فأمهلونى عدوة الفـرس فانى قد طمعت فى النصر . قالـوا : لا ، إذن ندخل معكَ فى خطيئتك . قال : « فحدثونى عنكم - وقد قتل أماثلكم وبقى أراذلكم - متى كنتم محقين ؟ أحين كنتم تقتلون أهل الشام ؟ فأنتم الآن حين أمسكتم عن القتال مبطلون ؟ أم أنتم الآن فى إمسـاككم عن القتـال محقـون ؟ فقتـلاكم إذن الذين لا تنكرون فضلهم وكانوا خيرا منكم ، فى النار ! قالوا : دعنا منك يا أشتر . قاتلناهم فى الله وندع قتالهم فى الله . إنا لسنا نطيعـك فاجتنبنا . قال : خدعتم والله فانخدعتم ، ودعيتم إلى وضع الحرب فأجبتم . يا أصحـاب الجبـاه السود ، كنا نظن أن صلاتكم زهادة فى الدنيا وشوق إلى لقاء الله ، فلا أرى فراركم إلا إلى الدنيا من الموت ، ألا فقبحا لكم ، ما أنتم برائين بعدها عزا أبدا ، فابعدوا كما بعد القوم الظالمون . فسبوه وسبهم ، وضربوا بسياطهم وجه دابته ، وضرب بسوطه وجوه دوابهم ، فصاح بهم على فكفوا . وقال الأشتر : ياأمير المؤمنين احمل الصف على الصف يصرع القوم . فتصايحوا : إن عليا أمير المؤمنين قد قبل الحكومة وقد رضى بحكم القرآن ، ولم يسعه إلا ذلك . قال الأشتر : إن كان أمير المؤمنين قد قبل ورضى ، فقد رضيت بما رضى أمير المؤمنين . فأقبل الناس يقولون قد رضى أمير المؤمنين ، قد قبل أمير المؤمنين ، وأمير المؤمنين ساكن لا يبض (لا ينبس) بكلمة ، مطرق إلى الأرض » .

فقـطع الأشعث الصمت بقوله : « يا أمير المؤمنين إن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد » . قال الإمام فى انكسار وسأم : « ذلك إليك ، فافعل إن شئت » .

فلما جاء الأشـتر إلى مسـاوية رحب به ! رب يوم أراد فيه أن يصـطنعه وأرسل إليه أخاه عتبة بن أبى سفيان ، فتعالى عليه ، واستطال !! وها هو ذا الآن عندك يا معاوية ! قال معاوية : « نرجع نحن وأنتم إلى كتاب الله وإلى ما أمر به فى كتابه ، تبعثون رجلا منكم ترضونه وتختارونه ، ونبعث برجل ونأخذ عليهما العهد أن يعملا بما فى كتاب الله ، وننقاد جميعا لما اتفقا عليه من حكم الله » .

* * *

واستبقى معاوية ضيفه الأشعث ، وأدخله إلى سرادقه ، وأكرمه ولم يدعه ينصرف إلى على ، حتى كان قد استـماله ، وقد عادت نفسه تهجس بأنه سيجذب ثقات على إليه ، وسيغلب بدنياه دين على !!

ثم أرسل معاوية إلى على كتابا قال فيه : كل واحد منا يرى أنه على الحق فيما يطلب من صاحبه ، وقد قتل بيننا خلق كثير ، ولن يعطى أحد منا طاعة للآخر ، وإنى أتخوف أن يكون ما بقى أشد مما مضى ، فهل لك فى أمر لنا ولك فيه حياة وعذر وبراءة : أن يحكم بيننا حكمان رضيان ، أحدهما من أصحابى والآخر من أصحابك ، فيحكمان بما فى كتاب الله بيننا . فانه خير لى ولك وأقطع لهذه الفتن ، وارض بحكم القرآن إن كنت من أهله » .

فكتب إليه الإمام : «من عبد الله أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان، أما بعد فان أفضل ما شغل به المرء نفسه اتباع ما يحسن به فعله ، ويستوجب فضله ، ويسلم من عيبه ، وإن البغى والزور يزريان بالمرء فى دينه ودنياه . . فاحذر الدنيا ! لا فرح فى شىء وصلت إليه منها ، وقد علمت أنك غير مدرك ما قضى فواته . وقد رام قوم أمرا بغير الحق فتأولوا على الله تعالى ، فأكذبهم ، ومتعهم قليلا ثم اضطرهم إلى عذاب غليظ ، فاحذر يوما يغتبط فيه من أحمد عاقبة عمله ، ويندم فيه من أمكن الشيطان من قياده ولم يحاده ، فغرته الدنيا واطمأن إليها . ثم إنك دعوتنى إلى حكم القرآن ، ولقد علمت أنك لست من أهل القرآن ، ولست حكمه تريد ، والله المستعان . وقد أجبنا القرآن إلى حكمه ولسنا إياك أجبنا . ومن لم يرض بحكم القرآن فقد ضل ضلالا بعيدا » .

فلما عاد الأشعث بكلام معاوية إلى الإمام ، قال أكثر أصحابه : « رضينا وقبلنا وسمعنا وأطعنا » .

وأشار الأشعث على الإمام بأن يبعث عنه أبا موسى الأشعرى .

فقال الإمام : « قد عصيتمونى فى أول هذا الأمر فلا تعصونى الآن ، إنى لا أرى أن أولى أبا موسى الأشعرى » .

فقال الأشعث ومن خرج على الإمام من القراء المتطرفين : لا نرضى إلا بأبى موسى !

قال الإمام : « ويحكم ! هو ليس لى بثقة ! لقد فارقنى وخذل الناس عنى ، ثم إنه هرب شهورا إلى مكة حتى أمنته ، لكن هذا عبد الله بن عباس أوليه ذلك » .

قال الأشعث والخوارج على الإمام : « والله لا يحكم فيها مضريان » فابن العاص وابن عباس من قريش فهما مضريان ، أما الأشعث وأغلب الخوارج فمن قحطان ، وبين مضر وقحطان عداء قديم وتنافس منذ الجاهلية !!

وعجب الإمام أن يعود ما كان فى الجاهلية مرة أخرى ليحكم فى مصائر الناس بعد الإسلام !!

فقال : « إن أبيتم ابن عباس ، فالأشتر » (وهو قحطانى مثلهم) .

قالوا : « وهل سعر الأرض ، وهاج هذا الأمر ، وأشعل ما نحن فيه إلا الأشتر ؟ لا نرضى بغير أبى موسى الأشعرى . . فانه حذرنا ما وقعنا فيه » . قال على : « إن معاوية لم يكن ليضع لهذا الأمر أحدا هو أوثق برأيه فى نظره من عمرو بن العاص ، وإنه لا يصلح للقرشى إلا مثله . فعليكم بعبد الله بن عباس فارموا به ، فان عمرو بن العاص لا يعقد عقدة إلا حلها عبد الله ، ولا يحل عقدة إلا عقدها » فقال الأشعث : « اجعله رجلا من أهل اليمن إذ جعلوا رجلا من مضر » قال الإمام ساخرا : « أخاف أن يخدع يَمَنِيُّكُم فان عمرو بن العاص ليس من الله فى شىء إذا كان له فى أمر هوى » قال الأشعث : « والله لأن يحكما ببعض ما نكره وأحدهما من أهل اليمن ، أحب إلينا من أن يكون بعض ما نحب فى حكمهما وهما مضريان » .

فقال الأحنف بن قيس : « يا أمير المؤمنين ، إنك قد رميت بحجر الأرض (الداهية من الرجال) ، ومن حارب الله ورسوله فى أول الإسلام وإنى عجمت أبا موسى وحلبت أشطره ، فوجدته كليل الشفرة وأنه لا يصلح لهؤلاء القوم إلا رجل يدنو منهم حتى يكون فى أكفهم ، ويتباعد عنهم حتى يكون بمنزلة النجم منهم » .

فقال الناس : « لا يكون إلا أبا موسى » .

وتذكر الإمام علىٌّ ما كان من أبى موسى الأشعرى ، عندما أرسل إليه ليخرج معه إلى معركة الجمل ، وكان أبو موسى إذ ذاك أميرا على الكوفة فأبى ومنع الناس من الانضمام لعلى ، وقال للناس أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « إنها ستكون فتنة ، القاعد فيها خير من القائم ، والقائم خير من الماشى ، والماشى خير من الراكب » ، فقال لهم عمار بن ياسر مغاضبا : « أيها الناس إنما قال الرسول ﷺ له وحده : أنت فيها قاعدا خير منك قائماً » .

فظل أبو موسى ينصح الناس ألاَّ يخرجوا مع الإمام ، حتى جاءه الأشتر أميرا على الكوفة فاحتل قصر الإمارة وطرده ، فهرب أبو موسى إلى الحجاز ، وخرج الناس مع عمار والأشتر والحسن بن على فوافوا الإمام قبل معركة الجمل !

لم يمر من الأعوام ما يكفى للنسيان !! ما مر إلا عامان فحسب . وها هو ذا الإمام يضطر إلى أن ينيب عنه أبا موسى الأشعرى .

أمضَّ الإمام أنهم أسرفوا عليه فى العصيان والتمرد واشتطوا ، فأرمضه هذا كله ، وأخذ يعض يديه ويقول :

« أُعصى ويُطاع معاوية !! » .

وارحمتا لك يا ولى الله !!

أيشعر القوم بما تعانيه منهم !؟ . . هيهات فقد كلت البصائر ، ومرضت الأهواء وسقمت الضمائر ، وفسدت السرائر !!

إن الإمام ليشعر بفداحة ما هم مقبلون عليه ، ويستوبل عاقبة الأمر ، فلن يعقب هذا كله إلا ندما ، وما ينتج إلا شرا !!

وحاول أن يبصرهم بما هم صائرون إليه ، ولكن هيهات !! . .

قال : « اصنعوا الآن ما أردتم ، وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه ! » .

فأرسلوا إلى أبى موسى الأشعرى فى مكة ، فقالوا له : « إن الناس قد اصطلحوا » . فقال : « الحمد لله » قالوا له : « وقد جعلوك حكما » قال : « إنا لله وإنا إليه راجعون » .

* * *

الفصل الرابع

اغتيال النصر . . !

أى امتحان هذا الذى كتبه الله عليك يا ابن أبى طالب ؟ ! ولكنه بلاء فى الله شديد ، فالحمد لله على كل حال !

لقد نهضت بمن أطاعك تجاهد من عصاك ، وهو جهاد فى سبيل الله ، لم ترد به إلا حماية الأمة من الفرقة ، والذود عن حوض الشريعة ، والمحاماة عن العدل فى الناس ، والمساواة بين الناس ، وإرساء قيم الدين الحنيف ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

لقد خاطبت فى الرجال والنساء ما أضاءت به الجوانح من ورع ، واستنفر سواك من أعماقهم نوازع الطمع !

وفى صراع الورع والطمع ، أصبح للباطل صولة ، وغلب حب الدنيا بعض الناس ، فحرك سواعدهم للبطش بمن يدعون إلى التنزه عن الدنايا .

ولكن المتقين الذين قدتهم لتنقذوا العالم من الفوضى ، وتستخلصوا الإسلام من الغاشية ، استطاعوا بإذن الله أن يهزموا أهل الأهواء !

تمكن الورع والتقوى وصدق الإيمان من صد طوفان الأهواء الذى أوشك فى اندفاعه العارم أن يجتاح العفة ، لتتحكم الشهوة ، فيتحول الإنسان إلى فريسة وصياد ، ويصبح الرجل شركا للرجل ، بدلا من أن يكون الإنسان أخا للإنسان ، كما أمر الإسلام . . ! . .

كاد أهل الورع الذين تقودهم يا ابن أبى طالب أن ينقذوا الأمة من التفرق ، والقلب من التمزق . وإذ بالقراء الذين كانوا أحرص الناس على طاعة الله ورسوله وطاعتك ، وأشدهم تفانيا فى الدفاع عن عقيدتك ، إذ بهم ينقلبون عصاة بغاة متمردين ! !

ها هم أولاء الورعون من أهل التقوى ينتصرون على الطامعين ممن يحركهم

الهوى . . فما بال هؤلاء الورعين يرفضون هذا النصر الذى ساقه الله إليهم بما جاهدوا فى الله حق جهاده ؟!

ويحهم هؤلاء القراء !!

ما بالهم ينخدعون بمكر المنهزمين ، الذين رفضوا أن يأخذوا ما آتاهم الرسول فى كتاب الله ، حتى إذا أيقنوا بالهزيمة ، وتجرعوا غصة الفشل ، رفعوا كتاب الله على أسنة الرماح ، ودعوا إلى الاحتكام إليه ، كيدا من عند أنفسهم ، ومكرا بالمنتصرين عليهم ، وفرارا من الهزيمة . . يا للمكيدة ! . .

إنها لمصيدة ، لا دعوة حق وصدق إلى كتاب الله . . !

فلو أن الذين رفعوا المصاحف كانوا يؤمنون بما فيها ، لما قاتلوكم أصلا ، ولما فرقوا جماعة المسلمين ، ولما سفكوا الدماء ، ليصعدوا على الأشلاء إلى العروش المشتهاة !

ولكن جندك يا إمام المتقين ، خذلوك وأنت تقدم لهم النصر . . !

لقد وقفت دونهم ، تبارز عنهم ، وتحمى صلحاءهم ، وتضن بهم على الموت وتقتحم أنت إليه الصفوف ، متخذا الأسوة من أستاذك العظيم ﷺ الذى كان إذا حمى الوطيس واحمر البأس ، قدم أهل بيته ، فوقى بهم أصحابه حر الأسنة والسيوف ! . . وإنك لتستقدم لتقى أصحابك بنفسك يا ابن أبى طالب ، وعلى الجانب الآخر ، يقف معاوية تحت ترس مذهَّب ليقيه حر الشمس ، وأمامه كل أصحابه يقاتلون عنه ليكفوه القتال ، ويقوه وقع النصال !!

ما كان الظن أن يقدر الطمع من الرجال على ما يعجز عنه الورع !! .

من أين اكتسب جند معاوية كل هذه القدرة على القتال ، وهم لا يملكون من الإيمان بعض ما يملكه جندك يا ابن أبى طالب ؟!!

كيف ظفر معاوية بهذه الطاعة ، ورجاله ، كما وصفهم هو نفسه ، لا يؤمنون بشىء ولا يعرفون غير العطاء . . ؟!

وكيف ابتليت أنت يا ابن أبى طالب برجال يعرفون الله حقا ، ويجاهدون فى سبيل الله جهاد صدق ، ويستشهدون دفاعا عما يؤمنون به ، وهم على الرغم من ذلك لا يطيعونك بقدر ما يجادلونك ؟!

لقد غرست تعاليمك فى قلوبهم . . وعلمتهم ألا يخروا صما وعميانا إذا تليت عليهم آيات ربهم ، بل عليهم أن يتدبروا فيها ، ليفقهوا ، ليعبدوا الله عن فهم . وعودتهم أن يتفكروا فإذا هم يتفكرون فى كل أمر تصدره ، حتى فى اللحظات الحاسمة من الحرب ، عندما يجب على الجند أن يسمعوا ، ويطيعوا ما يؤمرون !!

عود معاوية رجاله الطاعة فأطاعوه فى كل أموره . . وعودت رجالك يا ابن أبى طالب التفكير ، فخالفوك فيما لا يحق لهم خلافه من أوامرك !

وجندك مع ذلك يحبونك ، ومنهم من يفرط فى حبك وتمجيدك حتى ليجاوز الحدود !

وهأنتذا آخر الأمر تواجه النقيضين معا : فتواجه المتطرفين فى العبادة من جنودك ، وهم القراء العازفون عن الدنيا ، الذين اسودت جباههم من كثرة السجود ، واصفرت وجوههم من كثرة القيام وطول الصيام والحرص على الزهادة . . وأنت فى الوقت نفسه تواجه من الذين أتخموا من المتاع ، وملكهم حب الدنيا ، واسودت قلوبهم بما سكن فيها من أطماع !!

أنت تواجه الذين ذبلت أجسامهم من الزهد وشدة التعبد ،والذين ذبلت ضمائرهم من الحرص ، وحدة التطلع . .

وها هم أولاء المتطرفون من جندك الذين غالوا فى التشبه بك حتى نحلوا وذبلوا ، يغالون فى التنكر لك والتمرد عليك حتى ليوشكوا أن يضلوا . . !

وإنهم ليحملونك الآن على أن تقبل خديعة معاوية وتسقط بهم فى المصيدة ، وإلا أعملوا السيف فيك ، وفيمن ينتصر لك ، واضطروك إلى أن تشهر عليهم السيف !!

* * *

هكذا أخذ الإمام يفكر ويتململ ، منذ أغلظ له القراء ، وحملوه حملا على أن يقبل التحكيم ، وأيدهم فى ذلك وجرأهم عليه الأشعث قائد اليمانية الذين يشكلون جانبا ضخما من جيش الإمام . .

ولقد مضوا فى قهرهم الإمام إلى آخر مدى ، فاختاروا أبا موسى الأشعرى ، وحملوا الإمام على أن يقبله ، على الرغم من أنه لا يثق به ، ويعرف أن عمرو بن العاص يستطيع أن يمكر به كما يشاء !

ووارحمتا لإمام تأتيه الخلافة بعد فوات الوقت ، وقد نضجت الظروف لظهور ملك لا إمام !!

ووارحمتا لقائد جسور يتجاسر أتباعه على عصيانه، ويقهرونه على ما فيه خسرانه وخسرانهم !!

ووارحمتا لخلافة كانت تنتظر فارسا فى شجاعة على ، وتلتمس حكيما ورعا له مثل بصره بشئون الدين والدنيا ، وله مثل حكمته وقدرته ، ومثل حرصه على العدل والمساواة . . حتى إذا وجدت الخلافة من تشتاق إليه ، نضجت فى الأمة ظروف تجعل الحاجة إلى ملك يتعامل مع الدنيا ، أنسب من خليفة يتمسك بالدين !

وما كان على رضى الله عنه وكرم الله وجهه يصلح لأن يكون ملكا يرسم/له الدهاء أسلوب عمله . . فقد كانت تقواه تعصمه ، فما يصلح هو إلا للخلافة الراشدة ، والإمامة الورعة . . على هذا الخلق صاغه مربيه العظيم عليه الصلاة والسلام . .

وفى الحق أن الإمام عليا كابد ما لم يكابده أحد من أئمة الدين أو حكام الدنيا . .

فحين انتظر الخلافة انصرفت عنه ، وحين انصرف عنها سعت إليه ، فقبلها مرغما كارها مغلوبا على أمره . . غلبه على أمره إشفاقه على مصير الأمة . . ذلك أنه اكتوى بلهب الفتنة آخر عهد عثمان بالخلافة ، ولقد حاول الإمام جاهدا أن يجنب الأمة شر الفتنة ، ولكن الشر كان قد استطار ، وكأنما توافقت جميع الأطراف على أن تترك الفتنة تنفجر ، كلما وفر أحد الأطراف سببا ، تحداه طرف آخر ، ثم أتبع سببا . .

ولعله من العجيب حقا أن معاوية بن أبى سفيان ، زار ابن عمه عثمان رضى الله عنه ، عند بدء الفتنة ، فاقترح عليه أن يمده ببعض جند الشام ، ولكن الخليفة أبى لأنه لم يشأ أن يردع أهل مدينة رسول الله بجند الشام ، ولم يشأ أن ينفق عليهم من بيت المال ، فلم يحاول معاوية أن يتحمل نفقتهم من خراج الشام . . على الرغم من أن عثمان رضى الله عنه قد ترك لمعاوية أمر الشام كله ، بما يدر من أموال طائلة ، وكان معاوية يصطنع بهذا المال أنصارا له .

ومن الغريب حقا ، أن معاوية انصرف من عند ابن عمه عثمان راجعا إلى ملكه بالشام ، وما اهتم إلا بأن يطلب من عثمان أن يجعل حق طلب القصاص من قتلته ـ بعد أن يقتل ـ لمعاوية !!!

لماذا لم يقم معاوية مع ابن عمه ليقيه من القتل ؟ ! لماذا لم يرسل إليه جندا يتحمل هو من بيت مال الشام نفقته ؟!

ثم لماذا لم يبادر إلى نجدة عثمان عندما استصرخه المرة بعد المرة، لما حاصره الثوار، ومنعوا عنه الماء والطعام ، فلم يمده أحد بالماء والطعام إلا على ، الذى أرسل ولديه الحسن والحسين ليقوما مع بعض أبناء الصحابة على حراسة عثمان ؟! . . لماذا تربص معاوية بعثمان الدوائر ، وانتظر حتى يقتل ليطالب بدمه بدلا من أن يخف إلى نصرته وهو قادر عليها ؟!

ثم لماذا ضم معاوية إليه عمرو بن العاص ، ليستفيد بدهائه وشجاعته ، فى مواجهة ورع على ، وهو يعلم أن عمرو بن العاص كان من أشد المحرضين على عثمان ، وقد اعترف هو بذلك لكل الناس !؟

إذا كان معاوية يريد القصاص لعثمان حقا ، أما كان يجب عليه أن يقتص من عمرو الذى اعترف بأنه حرض على قتل عثمان ، منذ عزله عن مصر ، ورفض أن يعيده إليها . . ؟!

ولكن معاوية لا يجهل أنه لا يحق له أن يطالب بدم عثمان ، فالقصاص حق لولى الأمر الشرعى وهو الإمام على ، ولا يحق لأحد سواه . . وإلا كانت جاهلية مرة أخرى !!

كان يجب على معاوية أن يبايع لعلى ، كما بايع الناس ، ويترك له بعد ذلك أن يقيم الحد . .

ولكن معاوية انتزع لنفسه حقا ليس له ، وهو يعلم أنه ليس له ، واستصدر بذلك فتوى من بعض المتسبين إلى الدين ، أغرقهم بالمال ، فأفتوه بما يريد !!

وهؤلاء هم آفة الدين فى كل زمان ومكان . . ولقد كان الرجل منهم يستمتع بما يغدقه عليه معاوية ، فيصدر الفتوى كما يشاء معاوية ، بلا وازع من دين ، ولا خجل من الناس . . بل إن الواحد منهم ليزهو بغناه ويتباهى بما يملك وينفق ، ويستمتع بالطيبات ، ويصم أذنيه عن أنين المساكين ، ويطمئن ضميره الدينى إلى هذا الترف كله ، وفى الأمة جياع . .

وما كان الواحد من هؤلاء المرتشين بصاحب دين ، ما كان لأحد منهم سابقة فى الإسلام ، فكل أهل السابقة والمهاجرين والأنصار أجمعوا على لوم معاوية ، ووصفوه بالبغى

على الإمام الشرعى ، ووصموه بأنه يمزق الأمة ، ويحدث خرقا فى الإسلام ، واعتزل الأمر منهم أربعة نفر !

أما صنائعه المرتشون ، فما كانوا يستطيعون أن يخالفوا آراء المهاجرين والأنصار ، ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن يسكتوا عن اتهام سيدهم وولى نعمتهم بالبغى . . فلما رأوا إجماع الصحابة المهاجرين والأنصار على نبذ معاوية ، وعلى اتهامه بأنه وجنده الذين حاربوا عليا فى صفين ، هم الفئة الباغية ، لما رأى صنائع معاوية المرتشون هذا الإجماع من المهاجرين والأنصار صحابة الرسول ﷺ على اتهام معاوية بالبغى ، وعلى وصمه هو وعصبته بأنهم الفئة الباغية ، لجأ المرتشون إلى حيلة يضللون بها الجهلاء والطغام . . فزعموا أن معاوية فى حربه لعلى ، مجتهد أخطأ فله أجر من الله . . ! . . فالمجتهد مأجور : إن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد ! !

رأوا أن معاوية مأجور من الله لأنه خالف الله ، إذ بغى على الإمام الشرعى ، ومزق الأمة ، وخرج على الجماعة .

رأوا أن معاوية مأجور من الله لأنه بالخروج على الإمام طالبا الملك لنفسه ، وبقتاله عليا قد أهدر الدماء الزكية ، وتسبب فى قتل عدد من الضحايا على رأسهم عمار بن ياسر ، وتسبب فى قتل سبعين ألفا من خيرة المقاتلين المسلمين ! !

ولكن الذى رأى منهم أن معاوية مأجور من الله ، هو ما سخا به معاوية أجرا للفتيا ، وأجرًا للضمير ! . . هى المصالح لا الرجال ! !

* * *

وفى الحق أن عليا كرم الله وجهه ، كان قد وجد نفسه بعد استشهاد عثمان رضى الله عنه ، فى موقف صعب شائك : فقد اتجه إليه الناس يبايعونه ، وفى طليعتهم الثوار الذين حاصروا عثمان . . ولكنه ردهم ، فهددوه ، فأفهمهم أنه لا يريد الخلافة ، وأنه مهما يكن الأمر لا يقبل بيعتهم فليس لهم حق البيعة . إنما البيعة للمهاجرين والأنصار . . فلما ألح عليه المهاجرون والأنصار قبل البيعة لأنه إن رفضها دفع بالأمة إلى الفوضى ، إذ سيتركها بلا إمام ، وسيترك الثوار يحكمون ويتحكمون ، ويبطشون ، وسيترك الذين استفادوا من الجريمة يظلمون وينكلون وينهبون ، وسيترك الأمة الإسلامية نهبا للمتربصين والطامعين والأعداء المحيطين بها من كل أقطارها ، ومن يدرى فربما وثبوا عليها . .

قال الإمام كرم الله وجهه مشيرا إلى اتهام معاوية وعصبته : « إن شاءوا أن أحلف لهم عند مقام إبراهيم بالله ما قتلت عثمان ، ولا أمرت بقتله ، ولقد نهيتهم فعصونى ! اللهم إنى أبرأ إليك من دم عثمان ! لقد طاش عقلى يوم قتل عثمان ، وأنكرت نفسى ، وجاءونى للبيعة فقلت : « والله إنى لأستحيى من الله أن أبايع قوما قتلوا رجلا قال فيه رسول الله ﷺ : إنى لأستحيى ممن تستحيى منه الملائكة . وإنى لأستحيى من الله من أن أبايع وعثمان قتيل فى الأرض لم يدفن بعد ، فانصرفوا . فلما دفن بعد ثلاثة أيام رجع الناس يسألوننى البيعة . فقلت : اللهم إنى أشفق مما أقدم عليه . . ثم جاءت عزمة فبايعت ، فلما قالوا لى : (أمير المؤمنين) كان صدع قلبى !

وإنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان ممن قال الله تعالى فيهم : ﴿ **ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين** ﴾ إن عثمان ﴿ **كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا** ﴾ وهو أحد الذين نزلت فيهم هذه الآية الكريمة . وكان عثمان رضى الله عنه خيرنا ، وأوصلنا للرحم ، وأشدنا حياء ، وأحسننا طهورا ، وأتقانا للرب عز وجل » .

فقد كان الإمام دائما يفضل على نفسه من سبقه من الخلفاء الراشدين !

وكانت أول خطوة للإمام بعد البيعة خطواته إلى دار عثمان ، فسأل امرأته نائلة عمن قتله ، فلم تتعرف على أحد ممن دخلوا عليه وقتلوه غير أنها رأت محمد بن أبى بكر دخل عليه . . وكان علىٌّ زوج أمه ، وهو الذى ربَّى محمدا ، فناداه ، فسأل عما قالته امرأة عثمان فقال : « صدقت ، قد والله دخلت عليه فذكر لى أبى ، فقمت عنه وأنا تائب إلى الله تعالى . والله ما قتلته ، ولا أمسكته » قالت : « صدق » .

وأقسم على : « وأيم الله لو أمرنى بالقتال لقاتلت دونه ، أو أموت بين يديه ! ولقد رددت الناس عنه مرارا ، وأرسلت إليه الحسن والحسين بسيفيهما لينصراه ويموتا دونه ، فنهاهما عن القتال ، ونهى أهل الدار » .

على أن عليا لم يكد يبدأ ممارسة الحكم حتى استهل حكمه بعزل الولاة الغاشمين .

ثم طالب الذين ثارت حولهم الشبهات أن يرفعوا إليه حسابهم ، ورد إلى بيت المال كل ما أخذ من أموال بغير حق ، ونزع الإقطاعات من الذين لا يستحقونها . .

لقد شن حربا ضارية على أصحاب الأهواء ، وعلى الذين أثروا بغير حق ، وعلى

الذين ظلموا الرعية ، فألفوا حلفا عليه . . ثم أقسم أنه سيرد إلى بيت المال كل مال دفع بغير حق ، ولو كانوا قد تزوجوا به النساء ، واشتروا الإماء !

فأما الولاة الذين عزلهم أو طلب منهم أن يرفعوا إليه حسابهم ، فقد نهبوا ما فى بيت المال ، وفروا عنه بما سرقوه ، وانتهى بهم المطاف إلى معاوية ، فأقرهم على ما سرقوه ، وأفتى صنائعه من المنتمين إلى الدين بأن هذا المال المسروق حلال لسارقه !! . . وأغدق معاوية على مقترفى الحرام من الولاة المعزولين والهاربين إليه ، وعلى الذين حللوا الحرام ، ممن ارتضوا بعد ذلك أن يكونوا ـ وهم حملة القرآن ـ كلاب صيد لمعاوية يسلطها لتنبح أو تنهش عليا وبنيه وآل البيت . . !!

كان هؤلاء هم أخطر أصحاب معاوية شأنا ، وانضم إليهم كل الذين خشوا الإمام كرم الله وجهه على ما فى أيديهم ، والذين خافوه على أطماعهم . . !

وهكذا استنفر الإمام ضده كل الأثرياء ، وكل الحالمين بالثراء ، ولكنه استنفر إليه كل الذين يحبون الله ورسوله ، وكل الذين يدافعون عن العدل ويأتمرون بالإحسان ، وكل الذين يرضون بالمساواة ويناضلون فى سبيلها ، وكل المتقين والمساكين .

•

رفض معاوية البيعة لعلى ، ورفض الامتثال للأمر بعزله ، وجمع حوله كل الذين وصفهم من قبل بأنهم لا يعرفون الإسلام ، ولا يعرفون إلا العطاء ، وجعل راياتهم للولاة الظالمين السارقين الذي عزلهم على ، وللذين نهبوا خزائن الدولة ، وللذين انتهكوا الرعية ، وعدوا مصلحيها وهم أجراؤها ، وسجنوا وعذبوا معارضيهم ، وللذين حللوا له الحرام ! .

وهاشم جد على وأمية جد معاوية أخوان !

ومن عجب أن هاشم وأمية من بنى عبد مناف ، قد اختار كل منهما طريقه منذ الجاهلية فما حاد عنه ، وسار عليه بنوه بعد الإسلام . .

فقد اختلف الأخوان هاشم وأمية فى الجاهلية فقضى لهاشم ، وقضى على أمية أن يترك مكة عشر سنين ، فأقام فى الشام ؛ وهناك أثرى ثراء واسعا ، وكون له أسرة كبيرة فأصبح بنو أمية ملوك التجارة فى مكة والشام ، وكانوا أكثر قريش مالا ونفرا . .

أما هاشم فقد اهتم بأمور بيت الله الحرام وسقاية الحاج أكثر من الاهتمام بالتجارة . . واهتم بنو هاشم من بعده بأمور الدين بقدر ما اهتم بنو أمية بأمور الدنيا . .

حتى إذا جاء الإسلام واختار الله تعالى من بنى هاشم رسوله ليرسله بالهدى ودين

الحق ، وليظهره على الدين كله ، اضطرم بنو أمية حسدا على بنى هاشم ، وفزعوا من الدين الجديد ، وخافوا على تجارتهم ، ورأوا محمدا يبشر المعذبين والمستضعفين بأن الناس سواسية كأسنان المشط ، ويواجههم بما أوحى إليه الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .
فعربد عليه بنو أمية مع كبار المشركين من أهل مكة ، ممن يهدد الدين الجديد مصالحهم ، وسؤددهم ومكاسبهم ومكانتهم . . وإذ بهم يعذبون محمدا وأتباعه عذابا أيسره يذهل المرء عن نفسه . . وإذ بأئمة الكفر من بنى أمية وحلفائهم يضطرون بنى هاشم إلى جبل وعر ، ويمنعونهم الطعام والماء ، ويحرمون على أهل مكة التعامل معهم ، أو مصاهرتهم أو إطعامهم إلا أن يسلموا محمدا ، فإن لم يسلموه فلا أمن لهم ، ولا حق لهم فى الطعام أو الماء ، فليظلوا منبوذين بالعراء ! . .

وكتبوا بهذه المقاطعة صحيفة علقوها على الكعبة ، حتى إذا أكلتها الأرضة إلا كلمة « باسمك اللهم » وتراخت قبضة الحصار عن بنى هاشم ، عاد رءوس الكفر من بنى أمية وحلفائهم يؤذون محمدا والمسلمين ، حتى اضطروهم إلى الهجرة إلى يثرب .

وبعد حين ، « أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير » .

فقتل حمزة بن عبد المطلب وابن أخيه على بن أبى طالب من رءوس الكفر مقتلة عظيمة ، وكان معظم صرعاهم يوم بدر من بنى أمية . . فتأججت فى صدورهم نيران البغضاء . . !

وما زال أبو سفيان يحرض على محمد ويجمع الأحزاب ويستنفر الكفار من الأرض ليقتلوا النبى ، ويجتاحوا بنى هاشم ، ويستأصلوا المسلمين . . وكان أبو سفيان هو رئيس الأحزاب ، ولكن الله لم يخذل نبيه ، فقد نصر عبده ، وأيد جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، فارتدت الأحزاب عن المدينة خائبين . .

وكانت راية المسلمين فى معظم غزوات الرسول لعلى بن أبى طالب . . حتى جاءت البشارة : نصر من الله وفتح قريب . . فقاد الرسول ﷺ جيش الفتح إلى مكة . .

ويوم الفتح دخل الناس فى دين الله أفواجا ؛ وأسلم أبو سفيان ومعاوية وسائر بنى أمية ، وخافوا أن ينتقم منهم الرسول بما سلف من جرائمهم ، ولكنه صفح عنهم ، وقال لهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » فسموا « الطلقاء » .

وقد علم كل مسلم أن الطليق لا حق له فى الخلافة ؛ وأن الخلافة لا تحق

إلا للسابقين من صحابة رسول الله ﷺ ؛ واتفقوا على أنها للمهاجرين دون الأنصار ، لأن رسول الله أوصى المهاجرين بالأنصار خيرا ، فكأنه استخلف المهاجرين . .

كم من الأعوام قد مرت على هذه الأحداث ؟ ! ولكن بنى أمية لا ينسون ! !

ما كمن فى نفوسهم من بنى هاشم ظل كامنا . . وما حملوا من موجدة واضطغان على على بن أبى طالب ظل كما هو منذ قتل يوم بدر أئمة الكفر منهم ، لم تطفىء نار العداء ما شربته هند أم معاوية من دم حمزة ، ولا كبده التى مضغتها ! ! . . ومنذ لاكت أم معاوية كبد حمزة سيد الشهداء غلب عليها اسم آكلة الأكباد !

ولقد جهد الإمام أن ينزع من النفوس هذه الضغائن الجاهلية ، فالإسلام يجبُّ ما قبله ؛ ويجب أن يعمر الجميع قلوبهم بما جاء به الدين الحنيف من قيم فاضلة ، فيحب الواحد منهم لأخيه ما يحب لنفسه ، ويعبد الله كأنه يراه ، ويستقيموا كما أمروا ، ويذكروا نعمة الله عليهم إذ كانوا أعداء فألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمة الله إخوانا . . ولكن هيهات ! !

لم يكد المسلمون يبايعون لعثمان حتى أتاه أبو سفيان كبير بنى أمية فقال : « إنه الملك فاحرصْ عليه ؛ فما أعرف غيره ، ما أعرف ما الجنة ولا النار » .

فزجره عثمان رضى الله عنه . .

لكنه لم يزدجر ، بل مضى بنو أمية جميعا ؛ يعاملون الناس كما لو كانوا رعاياهم . . .

وعثمان كما وصفه على « أوصلنا للرحم » . من أجل ذلك فقد استغل ذوو قرباه من بنى أمية هذه الفضيلة فيه . . استغلوا عطفه عليهم ، وبره بذوى القربى ، كما أمر الله عباده ، فإذا بهم يستثيرون الناس عليه ، ويزداد الخليفة الورع برا بذوى قرباه ، ويزداد أولو قرباه استغلالا لهذا البر ، واستفزازا للرعية ، حتى اشتعلت الثورة على عثمان ، وتركه معاوية لقتلته يقتلونه ، ليستفيد هو من الموقف الجديد ، وليكون له سبيل على بنى هاشم ، وليستطيع أن يتعلل أمام المسلمين ، حين يرفض البيعة ، ويعلن العصيان ويبغى على إمامه ! تعلل بأنه يطالب بدم عثمان ، وهو فى الحق يطالب بالملك ! !

وقد واجه ابن عباس معاوية بهذا فأرسل إليه : « أما أنت يا معاوية ، فزينت له (لعثمان) ما صنع ، حتى إذا حوصر طلب نصرك ، فأبطأت عنه وتثاقلت وأحببت قتله وتربصت لتنال ما نلت ! » .

واعتزل الفتنة ثلاثة أو أربعة نفر من المهاجرين والأنصار، أما بقية الصحابة، فقد عملوا بقوله تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله » وقوله تعالى : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ﴾ فانضموا جميعا للإمام . .

أما المهاجرون والأنصار الذين اعتزلوا الفتنة ، فقد صفع كل منهم معاوية بهذه الحقيقة نفسها ، عندما استنصرهم معاوية ضد على ، وقالواله جميعاً أنه بغى على الإمام ، وأنه خذل عثمان حين استنجد به ،ليستفيد من قتله . . وقالوا له جميعاً أنه طليق لا حق له فى أن يطمع فى الخلافة ، وأن يوما واحدا من علىّ بمعاوية حيا وميتا . . وكلهم أزرى على معاوية ونصحه ألا يفرق جماعة المسلمين وألا يبغى على إمام الأمة ، وأن يتقى الله فى الدماء الزكية . .

هكذا أرسل إليه سعد بن أبى وقاص ، ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن عمر . .

ولقد أعلن عبد الله بن عمر قبل موته ندمه الشديد على اعتزاله ، فقد قاده اجتهاده إلى أنه كان يجب ألا يخذل ولى الأمر ، وألا يعتزل القتال الذى أمر الله تعالى به حين شرع للمسلمين ما يعملون إن فئتان من المسلمين اقتتلوا . .

وقد بكى ابن عمر فى آخر عهده بالدنيا وقال : ما أندم على شىء فى دنياى إلا لأنى لم أقاتل الفئة الباغية التى قاتلها أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

ولقد دخل أبو الطفيل على معاوية فقال له معاوية : « يا أبا الطفيل . أنت من قتلة عثمان » قال : « لا ، ولكنى ممن لم ينصره » قال : « وما منعك من نصره ؟ » قال : « منعنى أن المهاجرين والأنصار لم ينصروه ، ولا رأيت أحدا نصره » قال معاوية : « يا أبا الطفيل . أما طلبى بدمه نصرة له ؟ » فقال أبو الطفيل ضاحكا : « يا معاوية ، أنت وعثمان كما قال الشاعر :

لألفينك بعد الموت تندبنى وفى حياتك ما زودتنى زادى

* * *

إن الإمام ليتأمل كل الذى مر به ويعجب من تناوح الأيام والليالى على الأمة بكل هذه الغرائب ! وإنه ليبتسم من كل ذلك . . فهكذا قدر له . . ولقد عرف الظلم منذ كان

صغيرا . . وقال وهو يسخر من عبث الأيام : كنا ونحن صغار يخطىء أخى جعفر ، فيضربنى أخى عقيل على خطأ جعفر . . !

وها هو ذا قد قدر له أن يعيش ليجد معاوية بن أبى سفيان ينازعه ، ويثير الناس عليه ، ويسفح بينهما بحرا من دماء المسلمين !!

أشرف على وجيشه على النصر ، فاستشرف معاوية وعمرو إلى فتنة أصحاب على !

ونجحت حيلة رفع المصاحف فى تمزيق شملهم ، وفض اجتماعهم ، وحملوا عليا على ما يكره .

ثم جد معاوية فى أن يجذب إليه ثقات على ، والذين اعتزلوا القتال من رؤساء الناس . . لن يكتب مرة أخرى لأولئك الثلاثة من كبار الصحابة : سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة الأنصارى ، فقد أرسل إليهم من قبل ، فعيروه بأنه من الطلقاء ، وأنكروا دعوته ، وازدروا به ، ووصموه بأنه خرج على الجماعة ، واختفى وراء قميص عثمان طمعا فى الخلافة ، وهى لا تحق لأحد الطلقاء !

ها هو ذا استمال الأشعث ، ولكن لابد له من رجال آخرين . . واستشار عمرو ابن العاص فقال له : « إن بأرضك رجلا له شرف واسم ، والله إن قام معك استهويت به قلوب الرجال ، وهو عبادة بن الصامت » .

فبعث إليه معاوية ، فلما قدم عليه وكان عمرو بن العاص يجلس إلى جواره ، أجلسه معاوية بينه وبين عمرو ، وأخذ معاوية يثنى على عبادة ، ويعده بأن يغدق عليه الأموال والقطائع والجوارى الحسان . . ثم حدثه عن عثمان المظلوم ، وحض أبا عبادة على أن يكون معه فى الطلب بقتلة عثمان ، ثم أمن سرب عبادة ، فهو لا يريد منه أن يحارب عليا معه ، فقد انتهت الحرب إلى التحكيم ، ولكنه يريد تأييده .

ولوح له معاوية بأنه حين ينتصر سيوليه على ما شاء من الأمصار ، ويضاعف عطاءه ، ويغدق عليه الأموال والقطائع !

وابتسم عبادة ساخرا . . إن معاوية لا يتغير ، وهو منذ جعله عمر أميرا على دمشق يحسب أنه يستطيع أن يرشو من يشاء !! . .

ولكننى أنا عبادة بن الصامت يا معاوية !! أحد خمسة من الأنصار جمعوا القرآن فى زمن الرسول ﷺ . . أنا عبادة الذى حذره الرسول من الرشوة حين جعله أميرا على

الصدقات فى بعض الأمصار . . قال لى ﷺ : « اتق الله لا تأتى يوم القيامة ببعير تحمله له رغاء ، أو ببقرة لها خوار ، أو شاة لها ثؤاج (صوت الشاة) » .

صدق رسول الله . . إذا كان المرتشى ببقرة أو بعير أو شاة سيحمل ما ارتشى به على رأسه يوم القيامة ، فكيف بمن يرتشى بضيعة أو أكداس الذهب والفضة ؟! . . لك الله يا معاوية !! وأنت أيضاً يا عمرو !!

أتراودان مثلى على دينه !؟ . . أما تعلمان أنى من أوائل الذين بايعوا الرسول ﷺ ؟! والله لقد بايعته على ألا أخاف فى الله لومة لائم ! . .

رب يوم تخاصمنا فيه يا معاوية لما أرسلنى عمر أعلِّم أهلَ الشام القرآن وأنكرت عليك أمورا ، فلما أغلظت لى قلت لك : « لا أساكنك فى أرض أبدا » .

وعدت إلى المدينة ، فلما سألنى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « ما أقدمك ؟ » حكيت له عما كان منك ، فقال عمر على ملأ من المهاجرين ، وقومى الأنصار : « ارجع إلى مكانك فقبح الله أرضا لست فيها أنت ولا أمثالك » . .

أتذكر يا معاوية ؟ ! أتذكر يا عمرو ؟! كنت واليا على مصر حينئذ ، وكان عمر قد استقدمك لأن ابنك ضرب ابن أحد الأقباط ، فأعطى المضروب سوطا وقاله له : « اضرب ابن الأكرمين ! . . » أتذكر يا عمرو؟! ثم قال لك عمر : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟! . . » كان عمر يهدد من يظلم الرعية من عماله ، بأنه سيلقيه على الأرض ، ويضع قدم المظلوم على خده . . !! . . وبالله كم كان عماله يخشونه !! هكذا شاع العدل . ألم يكتب لك عمر يا معاوية يؤنبك على غلظتك معى ، ويرسم حدود العلاقة بيننا : « لا إمرة لك عليه » ؟! ما زلت أذكر يوم وقفت أخطب الناس وأنت حاضر يا أمير الشام . . أتذكر كلماتى ؟! كلمات مؤمن بايع الرسول على ألا يخاف فى الله لومة لائم . . وكنت أنا مروعا من أشكال فى البيع ظاهرها البيع وباطنها الربا ، فقلت « أيها الناس إنكم قد أحدثتم بيوعا لا أدرى ما هى . . ! ألا إن الفضة بالفضة وزنا بوزن ، والذهب بالذهب . ألا ولا بأس ببيع الذهب بالفضة يدا بيد والفضة أكثرهما ، ولا يصلح نسيئة . ولا بأس ببيع الحنطة بالشعير والشعير أكثرهما يدا بيد ، ولا يصلح نسيئة ، ولا بأس ببيع الحنطة بالحنطة مُدًّا بمدٍّ (مكيال أهل الشام) ، والملح بالملح مدًّا بمدٍّ ، فمن زاد أو ازداد فقد أربى (اقترف الربا) .

أتذكر فزع المرابين من أثرياء الشام إليك لتنهانى ؟! ولكنك صرفتهم عنك ، حتى إذا قتل عمر وتولى عثمان رضى الله عنهما وانفجرت الفتنة ، اعتزلت أمر الناس . . أتجىء اليوم وتدعونى أنت وعمرو ، وتلوحان لى بالرشوة ، لأغمس نفسى فى الفتنة بعد أن سالت دماء المسلمين !؟ ياللرجلين معاوية وعمرو حين يلتقيان ! !

لم يا معاوية خرجت على الإمام ورفضت البيعة !؟

لقد تسترت خلف قميص عثمان ، لتطلب الملك ، فأحدثت فى الأمة أمرا لا يلتئم صدعه ، ولا تسد ثلمته ! !

وأنت يا عمرو بن العاص لم تتردى فى الجهالة ، وتتسكع فى باطل معاوية ؟!

ما من أحد يجهل أن معاوية أرسل إليك حين أمر علىٌّ أمير المؤمنين بإعادة الإقطاعات التى أقطعها عثمان الخليفة المقتول ، ورد ما منحه من أموال طائلة إلى بيت المال فاستنفرك معاوية من أرض فلسطين إليه فى دمشق ، لتقاوم معه عليا قبل أن يأخذ منك أموالك وضياعك ! ! ليتكما اجتمعتما على حق ! . . ولكن رحم الله رسول الله ﷺ ، فما علمنا إلا صدقا ، وما كان قوله إلا حقا ! !

وانتظر معاوية وعمرو أن يجيب عبادة بن الصامت . . ولكنه ظل صامتا ، يتأمل أمره مع معاوية منذ عرف معاوية . . ولاحظ معاوية وعمرو شروده واستبطآ رده . . فألحا عليه أن يقول .

فقال : « قد سمعت ما قلتما . . ! أتدريان لم جلست بينكما فى مكانكما ؟ » قالا : « نعم ، لفضلك وسابقتك وشرفك » قال : « لا والله ، ما جلست بينكما لذلك ، وما كنت لأجلس بينكما فى مكانكما ، ولكن بينما نحن نسير مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك إذ نظر إليكما تسيران ، وأنتما تتحدثان ، فالتفت إلينا فقال : « إذا رأيتموهما اجتمعا ففرقوا بينهما ، فإنهما لا يجتمعان على خير أبدا ! » .

ثم صاح عبادة فيهما : « تفرقا » !

فوجم معاوية ونظر إلى عمرو بن العاص يؤنبه على اقتراحه دعوة عبادة وإذ هما يتبادلان النظرات ، انصرف عبادة .

ثم أرسل معاوية إلى أيمن بن خريم ليضمه إليه . وأيمن سيد قومه ، راجح العقل ، عابد مجتهد ، يأنس الناس إلى حكمته ، وكان معاوية قد أرسل له من قبل يغريه بالانضمام

إليه ، ويعده بأن يوليه فلسطين ، إن قاتل معه عليا ، فأرسل أيمن إلى معاوية يعنفه ويتهمه بأنه يحارب أهل القبلة ، طمعا فى الملك . قال :

ولســت بقــاتــل رجــلا يصــلى على سلطان آخـر من قريش
له سلطانــه وعــلى إثــمــى معــاذ الله من سفــه وطــيش
أأقــتــل مســلما فى غير جرم فليس بنــافــعى ما عشت عيشى

ولكن معاوية لا يدعو أيمن اليوم ليقاتل معه ، فقد انتهى القتال ، ولكن ليدفىء به ظهره ! . .

ولم يتلق معاوية ردا من أيمن . فقد اعتزل الأمر كله . .

* * *

ورأى الإمام أن يكتب إلى عمرو بن العاص، يناشده أن يتقى الله ، فكتب إليه : « أما بعد ، فان الدنيا مشغلة عن غيرها ، ولم يصب صاحبها منها شيئا إلا فتحت له حرصا يزيده فيها رغبة ، ولن يستغنى صاحبها بما نال عما لم يبلغه ، ومن وراء ذلك فراق ما جمع ، والسعيد من وعظ بغيره ، فلا تحبط أبا عبد الله أجرك ، ولا تجار معاوية فى باطله » .

فأجابه عمرو : « أما بعد ، فان ما فيه صلاحنا وألفتنا الإنابة إلى الحق ، وقد جعلنا القرآن حكما بيننا فليصبر الرجل منا نفسه على ما حكم عليه القرآن ، والسلام » .

فكتب إليه الإمام : « أما بعد ، فان الذى أعجبك من الدنيا مما نازعتك إليه نفسك ووثقت به منها لمنقلب عنك ، ومفارق لك ، فلا تطمئن إلى الدنيا فانها غرارة . ولو اعتبرت بما مضى لحفظت ما بقى ، وانتفعت بما وعظت به . والسلام » .

فرد عليه عمرو : « أما بعد ، فقد أنصف من جعل القرآن إماما ودعا الناس إلى أحكامه ، فاصبر أبا الحسن ، وأنا غير منيلك إلا ما أنالك القرآن » .

جاء عمرو إلى معاوية فى وفد من أصحاب معاوية لكتابة وثيقة التحكيم وكان الإمام يجلس مع بعض أصحابه ، فأملى الإمام : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين . . » فقال عمرو للكاتب : « بل اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم وليس أميرنا » فقال الأحنف للإمام : « لا تمح اسم أمير المؤمنين فانى أتخوف إن محوتها ألا ترجع إليك أبدا » ، فقال الإمام : « الله أكبر ! سنة بسنة ! والله إنى لكاتب رسول الله ﷺ يوم الحديبية ، فكتبت : محمد رسول الله . فقال سهيل بن عمرو مبعوث كفار

قريش إلى رسـول الله ﷺ : لو كنت رسـول الله لاتبعنـاك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك . فأمرنى رسول الله عليه الصلاة والسلام بمحوه ، فقلت : لا أستطيع ! فقال : يا على إنى لرسول الله ، وإنى لمحمد بن عبد الله ، ولن يمحو عنى الرسالة كتابى إليهم من محمد بن عبد الله . وأنك ستدعى إلى مثلها فتجيب ! فقلت لسهيل بن عمرو مبعوث كفار قريش : إنه لرسول الله وإن رغم أنفك . فقال رسول الله ﷺ : يا على اكتب محمد ابن عبد الله . إن لك مثلها ستعطيها وأنت مضطهد ! » .

وسكت على ثم أضاف : « فاليوم أكتبها إلى أبنائهم كما كتبها رسول الله ﷺ إلى آبائهم سنة ومثلا » فقال عمرو : « سبحان الله ، تشبهنا بالكفار ونحن مؤمنون !؟ » .

وما كان الإمام منشرح الصدر للحديث مع عمرو أو غيره ، وما كان يتهم معاوية ومن معه بالكفر ، وقد سمع القراء يتهمون معاوية وأصحابه بالكفر فقال : « إنما نقاتلهم على البغى ولا نقاتلهم على الكفر » .

إنهم فى رأيه لبغاة .

ولقد أجمع أهل السنة على أن معاوية مخطىء ، وأنه ومن معه هم الفئة الباغية !

ولقد وضع الإمام أصول التعامل مع الفئة الباغية : فلا يقتل منهم أسير ولا يفادى ، ولا يغنم منهم إلا ما يستعمل فى الحرب ، ولا يطارد من فر منهم فعسى أن يعود إلى الصواب .

نظر الإمام إلى عمرو ، ولم يجبه ثم أمر بأن تكتب صحيفة التحكيم . . فكتبوا : « هذا ما تقاضى عليه على بن أبى طالب عن أهل العراق وشيعته ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين ، ومعاوية بن أبى سفيان عن أهل الشام وشيعته ومن كان معه من المؤمنين والمسلمين ، أن ننزل عند حكم الله وكتابه ، وألا يجمع بيننا غيره ، وأن كتاب الله بيننا من فاتحته إلى خاتمته ، نحيى ما أحيا ونميت ما أمات ، والحكمان هما أبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص ، فما وجد الحكمان فى كتاب الله عملا به ، وما لم يجدا فى كتاب الله تعالى فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة . وأخذ الحكمان من على رضى الله عنه ومن معاوية ومن الجند من العهود والمواثيق أنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما وأموالهما ، والأمة لهما أنصار على الذى يتقاضيان عليه ، وعليهما عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الأمة ولا يرداها فى حرب ولا فرقة ، وألا يألوا اجتهاداً ، ولا يتعمدا جورا ، ولا يدخلا فى شبهة ، ولا يعدوا حكم الكتاب والسنة ، فان يفعلا برئت الأمة من حكمهما ولا عهد لهما

ولا ذمة ، وأجلا القضاء إلى رمضان ، ومكان قضيتهما مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام .

وشهد جماعة من الطائفتين .

ودعى الشهود ليوقعوا على الصحيفة : من كل جانب عشرة ، فلما دعوا الأشتر قال : لا صحبتنى يمينى ولا نفعتنى بعدها الشمال إن كتب لى فى هذه الصحيفة اسم على صلح أو موادعة . أو لست على بينة من ربى ، ويقينى من ضلالة عدوى ؟ أو لستم قد رأيتم الظفر إن لم تجمعوا على الخور ؟! .

فوثب الأشعث بن قيس ، فقال محتدا : « إنك والله ما رأيت ظفرا ولا خورا ، هلم فاشهد على نفسك ، وأقرر بما كتب فى هذه الصحيفة ، فإنه لا رغبة بك عن الناس » .

قال الأشتر : « بلى والله إن لى لرغبة عنك فى الدنيا للدنيا وفى الآخرة للآخرة . ولقد سفك الله بسيفى هذا دماء رجال ما أنت بخير منهم عندى ، ولا أحرم دما » فقال الأشعث : « ولكن قد رضيت بما صنع على أمير المؤمنين ، ودخلت فيما دخل فيه ، وخرجت مما خرج منه ، فانه لا يدخل إلا فى هدى وصواب » .

والأشتر فارس اشتهر بأنه عظيم الصولة ، صارم القلب ، شديد الإقدام وهو خواض غمرات .

فآثر الأشعث ألا يجادله أو يخاصمه ، وذهب ومعه عصابة من القراء إلى على ، فقال الأشعث : « يا أمير المؤمنين ، الأشتر لا يقر بما فى الصحيفة ، ولا يرى إلا القتال » .

وحاولوا أن يصوروا الأشتر مخالفا للإمام كارها لما رضيه القوم ، فقال الإمام : « وأنا والله ما رضيت ولا أحببت أن ترضوا ، فاذ أبيتم إلا أن ترضوا فقد رضيت ، وإذ رضيت فلا يصلح الرجوع بعد الرضا ولا التبديل بعد الإقرار ، إلا أن يعصى الله ويتعدى كتابه ، فتقابلوا من ترك أمر الله . وأما الذى ذكرتم من تركه أمرى وما أنا عليه فليس من أولئك ولست أخافه على ذلك . ياليت فيكم مثله اثنين ! ياليت فيكم مثله واحدا يرى فى عدوى ما أرى ! إذن لخفَّت علىَّ مؤنتكم ، ورجوت أن يستقيم لى بعض أُوَدِكم (الأود : العوج) . وقد نهيتكم فعصيتمونى ، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن (دريد بن الصمة الشاعر الجاهلى) :

وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

والله لقد فعلتم فعلة ضعضعت قوة ، وأسقطت منّة (قوة) ، وأورثت وهنا وذلة ، ولما كنتم الأعلين ، وخاف عدوكم الاجتياح ، واستحَرّ بهم القتل ، ووجدوا ألم الجراح ، رفعوا المصاحف فدعوكم إلى ما فيها ليفتنوكم عنهم ، ويقطعوا الحرب ، ويتربصوا بكم ريب المنون ، خديعة ومكيدة ، فأعطيتموهم ما سألوا وأبيتم إلا أن تهنوا وتغيروا ، وأيم الله ما أظنكم بعدها توفقون لرشد ، ولا تصيبون باب حزم » .

وخرج الأشعث بن قيس منتشيا بكتابة الصحيفة ، فقرأها على جند الشام فأقروها فرحين ، ثم قرأها على جند العراق ، فأقرها أقوام ، حتى إذا قرأها على جند من قبيلة عنزة هب منها شابان شقيقان من القراء فشهرا سيفيهما قائلين : « لا حكم إلا لله » ثم قاتلا جند الشام ، واخترقا الصفوف المنهكة حتى بلغا سرادق معاوية ، وهناك قتلهما حرسه على باب سرادقه .

ثم مر الأشعث على رايات بنى راسب فقال قراؤهم : « لا حكم إلا لله ، لا نرضى ولا نحكّم الرجال فى دين الله » .

ووقف الأشعث عند بنى تميم وقرأ الصحيفة فاندفع أحد قرائهم يصيح فى وجهه : « أتحكمون الرجال فى أمر الله ، لا حكم إلا لله . فأين قتلانا يا أشعث ؟ » ثم حمل بسيفه على الأشعث ، غير أنه كان قد انطلق بحصانه فوقعت الضربة خفيفة فمست مؤخرة الحصان . وثارت اليمانية لما وقع لرئيسهم الأشعث ، فأسرع إليه الأحنف بن قيس فى جماعة من رؤساء جند على ومعهم شيوخ تميم ، فاعتذروا جميعاً للأشعث ، قبل أن يتحرك اليمانية للفتك بتميم ومن ينصرهم من أصحاب الإمام .

وأسرع الأشعث فقال للإمام : « يا أمير المؤمنين . مررت بالصحيفة على أهل العراق فقالوا جميعا : قد رضينا ، حتى مررت برايات بنى راسب وبنى تميم ونَبْذ (جماعة قليلة) من الناس سواهم فقالوا : لا نرضى ، لا حكم إلا لله . فلنحمل بأهل العراق وأهل الشام عليهم فنقتلهم » فقال على : « هل هى غير راية أو رايتين ونبذ من الناس ؟ » قال : « بلى » قال : « دعهم » .

كان الإمام يحسب أن الذين رفضوا التحكيم جماعات قليلة من جنده لا خطر لهم .

وإنه ليفكر أن يخرج إليهم ليكلمهم ، إذ بنداءات الناس « لا حكم إلا لله » ترج الآفاق ، وإذ هم يتدفقون عليه من كل ناحية !

وعرف فيهم القراء الذين أرغموه منذ حين على قبول التحكيم ، وقهروه على قبول أبى موسى الأشعرى نائبا عنه . . ما بالهم اليوم يرفضون ما فرضوه عليه بالأمس . . ؟!

وخرج إليهم وعقله يكذب ما تسمعه أذناه ، وقلبه ينكر ما تراه عيناه . . إنهم لهم القراء الذين هددوه بالقتل آنفا إن لم يقبل التحكيم ، فما بالهم يتصايحون عليه : « الحكم لله يا على لا لك ! لا نرضى بأن يحكم الرجال فى دين الله . إن الله قد أمضى حكمه فى معاوية وأصحابه أن يقتلوا أو يدخلوا فى حكمنا عليهم » . . !!

ونظر على إليهم مؤنبا متعجبا . . ما خطبهم ما غيرهم من أقصى هذا الطرف إلى أقصى ذلك الطرف . . وفهموا ما يريد أن يقوله وهو يقلب يديه ، ويدير عينيه ممتعضا منكرا ما يسمع ويرى . فقالوا له : « قد كانت زلة منا حين رضينا بالحكمين ، فرجعنا وتبنا ، فارجع أنت يا على كما رجعنا ، وتب إلى الله كما تبنا وإلا برئنا منك » . فقال الإمام : « ويحكم ! أبعد الرضا والميثاق والعهد نرجع ؟ أوليس الله تعالى قال : ﴿ أوفوا بالعقود ﴾ ؟ وقال : ﴿ أوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ ؟! فقالوا : إذن نبرأ منك .

وانصرفوا عنه وبرئوا منه فبرىء منهم ، فجاءه سعيد بن قيس شيخ همدان فى جماعة من رؤساء قومه ، فقال سعيد : « هأنذا وقومى يا أمير المؤمنين لا نرد أمرك ، فمرنا بما شئت » .

فقال لهم : « أما لو كان هذا قبل سطر الصحيفة لأزلتهم عن عسكرهم . ولكن انصرفوا راشدين ، فلعمرى ما كنت لأعرض قبيلة واحدة لهم » .

* * *

لقد كتبوا وثيقة التحكيم فى صفر ، وكان موعد التقاء الحكمين بعد ثمانية أشهر فى رمضان فى دومة الجندل .

فعاد معاوية بجيشه إلى دمشق . وكان كل واحد فى جيشه له تابع يخدمه ، وفيهم من كان له نحو عشرة غير النساء والإماء !!

وعاد على إلى الكوفة ، فسلك طريقا غير الطريق الذى قدم منه وقال : « آئبون عائدون ، لربنا عابدون ، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى المال والأهل » .

وظل رجال من جيشه على طوال الطريق يتسابقون : فئة تؤيد التحكيم وأخرى ترفضه ، وتلعنه !

حتى إذا لاحت له بيوت الكوفة ، لقى شيخا شاحب الوجه فأقبل عليه الإمام حانيا وقال : « ما لى أرى وجهك منكفئا (متغيرا) أمن مرض ؟ » قال : « نعم » قال : « فلعلك كرهته » قال : « ما أحب أنه بغيرى » قال : « أليس احتسابا للخير فيما أصابك منه » قال : « بلى » قال : « أبشر برحمة ربك وغفران ذنبك ! من أنت يا عبد الله ؟ » قال : « أنا صالح بن سليم » قال : « ممن أنت ؟ » قال :- « أما الأصل فمن سلامان بن طيىء ، وأما الجوار والدعوة (النسب) فمن بنى سليم بن منصور » قال الإمام : « سبحان الله ، ما أحسن اسمك واسم أبيك واسم أدعيائك (يعنى حلفائك) واسم من اعتزيت إليه . هل شهدت معنا غزاتنا هذه ؟ » قال : « والله ما شهدتها ، ولقد أردتها ، ولكن ما ترى بى من لحب الحمى (إضعافها الجسم) عذلنى عنها » قال على : « قال الله عز وجل : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله ما على المحسنين من سبيل والله غفور رحيم) أخبرنى ما يقول الناس فيما كان بيننا وبين أهل الشام ؟ » قال : « منهم المسرور فيما كان بينك وبينهم ، وأولئك أغشاء الناس ، ومنهم المكبوث الأسف لما كان من ذلك ، فأولئك نصحاء الناس لك » قال على : « صدقت . جعل الله ما كان من شكواك حطا لسيئاتك ، فان المرض لا أجر فيه ، ولكن لا يدع للمرء ذنبا إلا حطه . إنما الأجر فى القول باللسان ، والعمل باليد والرجل ، وإن الله عز وجل يدخل بصدق النية والسريرة الصالحة . . عالما جما من عباده الجنة » .

والتفت على يتأمل جنده فوجدهم أقل بكثير من عدتهم يوم خرج بهم ، فقد استشهد الكثير ، وخرج عليه اثنا عشر ألفا لأنه قبل التحكيم بعد أن اضطروه إلى قبوله . . فاعتزلوا بحروراء غير بعيد من الكوفة . . وما انفك بعض القراء ينسحبون ، وينضمون إلى أولئك الخوارج عليه . . ! وإنه ليهز رأسه أسفا على موقف هؤلاء القراء منه إذ برجال من أصحابه يخفون إليه قائلين : « يا أمير المؤمنين ، فى أعناقنا بيعة ثانية ، نحن أولياء من واليت ، وأعداء من عاديت » .

فوثب بعض القراء قائلين : « استبقتم أنتم وأهل الشام إلى الكفر كفرسى رهان . . ! بايع أهل الشام معاوية على ما أحبوا وكرهوا ، وبايعتم أنتم عليا على أنكم أولياء من والاه وأعداء من عادى » .

فاعترضهم نفر من أصحاب الإمام ينكرون عليهم أنهم يكفرون من خالفوهم ! . . هذا التكفير منكر لا يقبله العقل ، ويغضب الله عز وجل . . إنهم ليتهمون عليا نفسه بالكفر ، وهل عرف منهم أحد كيف يقرأ القرآن إلا بفضل على ؟! ولكنهم يتلون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، وما يتدبرون ولا يعقلون !

فتشاتم الفريقان . . وأوشكوا أن يتشابكوا . . واختلطت أصواتهم ، جماعة تقول : « يا أعداء الله ، أرهنتم فى أمر الله عز وجل وحكمتم » . فترد الأخرى . . « فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا » .

فقال زياد بن النضر : والله ما بسط على يده فبايعناه قط إلا على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ . ولكنكم لما خالفتموه جاءته شيعته فقالوا : « نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت » ، ونحن كذلك . وهو على الحق والهدى ، ومن خالفه ضال مضل » .

فلم يجيبوه ، وتسللوا إلى حروراء فلحقوا بالخوارج !

ومضى الإمام بمن معه ، فقابله فى بعض الطريق على مشارف الكوفة أحد الذين ولاهم بعض الأمر من الأنصار ، فسأله الإمام على : « ما سمعت الناس يقولون فى أمرنا ؟ » قال : « منهم المعجب به ، ومنهم الكاره له ، كما قال عز وجل : (ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك) » قال : « فما قول ذوى الرأى ؟ » قال : « يقولون إن عليا كان له جمع عظيم ففرقه وكان له حصن حصين فهدمه ، فحتى متى يبنى ما هدم ، وحتى متى يجمع ما فرق ؟! فلو أنه كان مضى بمن أطاعه - إذ عصاه من عصاه - فقاتل حتى يظفر أو يهلك إذن كان ذلك هو الحزم » فقال الإمام : « أنا هدمت أم هم هدموا !؟ أنا فرقت أم هم فرقوا !؟ أما قولهم إنه لو كان مضى بمن أطاعه - إذ عصاه - فقاتل حتى يظفر أو يهلك ، إذن كان من الحزم ، فوالله ما خفى عنى ذلك ، وإن كنت لسخيا بنفسى عن الدنيا ، طيب النفس بالموت ، ولقد هممت بالإقدام على القوم ، فنظرت إلى هذين (الحسن والحسين) ، قد ابتدرانى (أى سارعا إلى السلاح قبلى) فعلمت أن هذين إن هلكا انقطع نسل محمد ﷺ من هذه الأمة ، فكرهت ذلك ، وأشفقت على هذين أن يهلكا . ونظرت إلى هذين قد استقدمانى (ابنه محمد المعروف بابن الحنفية وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب) (أى تقدمانى) وقد علمت أن لولا مكانى لم يستقدما . وأيم الله لئن لقيتهم بعد يومى هذا لألقينهم وليسوا معى فى عسكر ولا دار » .

ومضى فى طريقه . وإنه ليقترب من باب الكوفة ، إذ صكت أذنيه صرخات منتحبة ، وأنات فاجعة فوقف وسأل أحد كبراء الكوفة : « ما هذا ! » قال : « هذا البكاء على قتلى صفين » قال : « أيغلبكم نساؤكم !؟ ألا تنهون عن هذا الرنين ؟! » قال الرجل : «يا أمير المؤمنين لو كانت دارا أو دارين أو ثلاثة قدرنا على ذلك ، ولكن قتل من هذا الحى ثمانون ومائة قتيل . فليس دار إلا وفيها بكاء ، فأما نحن معشر الرجال فانا لا نبكى ، ولكن نفرح لهم ، ألا نفرح بالشهادة ؟! » قال الإمام : « رحم الله قتلاكم وموتاكم » .

ومشى الرجال إلى جوار الإمام والإمام يحث دابته ، فتوقف الإمام وقال لذلك الكبير من رجال الكوفة : « ارجع . فإن مَشْىَ مثلك مع مثلى فتنة للوالى ، ومذلة للمؤمن » .

وحانت التفاتة من علىٍّ فبصر بقبور لم تكن حين غادر الكوفة منذ أربعة أشهر . فسأل : « ما هذه القبور ؟ » قال له رجل من أهل الكوفة : « إن خباب بن الأرت توفى بعد مخرجك ، فأوصى بأن يدفن هنا ، وكان الناس إنما يدفنون فى دورهم وأفنيتهم . فدفن هنا رحمه الله ، ودفن الناس إلى جنبه » .

وشعر الإمام بالأسى لوفاة خباب بن الأرت رضى الله عنه . . وكما تلخص القوقعة الصغيرة هدير البحر العريض الزاخر المتلاطم ورائحته ، مرت فى خاطر الإمام صورة خاطفة استجمع فيها حياة خباب كلها: منذ أعتقته إحدى ثريات قريش ، فتحول إلى صناعة السيوف ، حتى أسلم ، فاستولى أئمة الكفر فى قريش على الحديد الذى يصنع منه السيوف ، وعذبوه فيه ، كنت صبيا ما تزال يا على تجلس إلى جوار رسول الله ﷺ وهو متوسد ببرد له فى الكعبة ، فجاء خباب يطلب من الرسول أن يسأل الله أن ينصره هو وسائر المعذبين مثله ، فجلس الرسول ﷺ وقد احمر وجهه وقال : « قد كان من قبلكم يؤخذ منهم الرجل ، فيحفر له فى الأرض ، ثم يجاء بمنشار فيجعل فوق رأسه ، ما يصرفه ذلك عن دينه . ويمشط بأمشاط الحديد ما يصرفه ذلك عن دينه . وليُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا الله عز وجل ، والذئب على غنمه ، ولكنكم تعجلون ! » .

وانصرف خباب متأسيا يواجه التعذيب بصمود غريب . . وأقبلت عليه القرشية الثرية التى أعتقته من قبل، فاشتركت فى تعذيبه ، وجعلت تكوى رأسه وظهره بالحديد المحمى حتى تهرأ جلده ، فمر به الرسول وهى تعذبه فقال : « اللهم انصر خبابا » . .

لقد شاهدت يا على تلك المرأة وقد عضها كلب فأصابها السعار بعد أيام ، فكانت تنبح كالكلاب وتعوى ، ولم يجدوا لها طبا إلا كى رأسها بالنار !! . .

وارحمتا لك يا خباب !! لكم تحملت ، ولكنك صبرت ، وعكفت على القرآن تعلم المسلمين الجدد ما نزل من آياته . . وإنك لتذكر يا على يوم قدم على الرسول ﷺ بعض المسلمين الجدد من سادة قريش وأثريائها ، فسألوا أن يخصص لهم يوما يلقاهم فيه وحدهم ، غير اليوم الذى يلقى فيه المستضعفين والفقراء . . أمثال خباب وعمار وبلال وصهيب . . فأنزل الله على رسوله : ﴿ **ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين . . وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين . . وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة** ﴾ .

فما كان الرسول بعد ذلك يلقى خبابا حتى يرحب به ويقول : « أهلا بمن أوصانى به ربى » .

وهاجر خباب ، وحضر المشاهد كلها مع رسول الله مجاهدا فى سبيل الله . ولما فاء الله على المسلمين الأموال الطائلة فى عهد عمر بعد الفتوحات الكبرى ، كان خباب أحد الذين ميزهم عمر لأنه من السابقين إلى الإسلام ومن أهل بدر ، فاشترى خباب دارا فى الكوفة من عطائه ، ووضع أمواله فى مكان بارز بالدار ، دل عليه أصحابه ليأخذ منه أهل الحاجة إن لم يكن خباب فى الدار !!

وارحمتا لك يا خباب !! لقد تركته يا على قبل أن تخرج إلى الكوفة ـ منذ نحو أربعة أشهر ـ وهو يشعر بدنو أجله ، وعندما زرته قبل الخروج إلى صفين بكى وأشار إلى المكان الذى يضع فيه أمواله وقال : « والله يا أمير المؤمنين ما شددت عليها من خيط ولا منعتها من سائل ! » .

فدعا له أمير المؤمنين ، وخرج بالجند إلى صفين ، ثم عاد ، وفى عزمه أن يكون أول من يلقى داخل الكوفة خباب بن الأرت ، فاذا به يلقى أول ما يلقى قبر خباب خارج الكوفة !!

واستعبر أمير المؤمنين وقال : « رحم الله خبابا ، فقد أسلم راغبا ، وهاجر طائعا ، وعاش مجاهدا ، وابتلى فى جسمه . إن الله لا يضيع أجر من أحسن عملا » .

ثم اتجه إلى سائر القبور المجاورة لخباب وقال : « السلام عليكم يا أهل الديار الموحشة ، والمحال المقفرة ، من المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، أنتم لنا سلف فارط ، ونحن لكم تبع ، بكم عما قليل لاحقون ، اللهم اغفر لنا ولهم ، وتجاوز بعفوك عنا وعنهم . الحمد لله الذى جعل منها خلقكم ، وفيها معادكم ، منها يبعثكم ، وعليها يحشركم ، طوبى لمن ذكر المعاد ، وعمل للحساب ، وقنع بالكفاف ، ورضى عن الله عز وجل » .

* * *

ولم يكد على يستقر فى داره بالكوفة ، حتى جاءه كريم قوم ذل ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، بى إليك حاجة فرفعتها إلى الله قبل أن أرفعها إليك ، فان أنت قضيتها حمدت الله وشكرتك ، وإن أنت لم تقضها حمدت الله وعذرتك » قال على : « اكتب حاجتك فانى أكره أن أرى ذل السؤال فى وجهك » فكتب الرجل : « إنى محتاج » فأمر الإمام صاحب بيت المال باحضار حلة ، فأخذها الرجل ولبسها . ثم أمر له بمائة دينار . فقال أحد الذين فى مجلس الإمام : « يا أمير المؤمنين حلة ومائة دينار ؟ » قال : « نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول : أنزلوا الناس منازلهم ، وهذه منزلة هذا الرجل عندى » .

ثم جاء عبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص والمغيرة بن شعبة ، يطلبون عطاءهم ، وكانوا جميعا قد اعتزلوا ، فلم يشهدوا الجمل ولا صفين ، وإن كانوا قد أغلظوا لمعاوية حين طلب منهم أن ينصروه على علىّ ، ووضحوا له فضل علىّ عليهم ، وعليه !

وكان على قد تركهم وشأنهم منذ اعتزلوا ولم يبايعوه ، ولكن عطاءهم كان يصلهم فى منازلهم .

سألهم معاتبا : «ما أخركم عنى؟ ألستم تعلمون أن الله عز وجل قد أمركم أن تأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر . فقال ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ﴾ » ؟

فقال سعد بن أبى وقاص : « إنا عارفون بفضلك يا أمير المؤمنين ولكن أعطنى سيفا يعرف الكافر من المؤمن . . ! . . أخاف أن أقتل مؤمنا فأدخل النار » .

قال الإمام : « إن عثمان كان إماما بايعتموه على السمع والطاعة ، فعلام خذلتموه إن كان محسنا ، وكيف لم تقاتلوه إن كان مسيئاً ؟! فان كان عثمان أصاب بما صنع فقد

ظلمتم إذ لم تعينوا من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، وقد ظلمتم إذ لم تقوموا بيننا وبين عدونا بها أمركم الله ، فانه قال : ﴿ **قاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله** ﴾ » .

فلم يرد أحد منهم . . وطال الصمت . . ثم انصرف الثلاثة راشدين .

وأقبـل رجـلان من شيوخ القبائل يهنئان أمير المؤمنين بالعودة وبالنصر ، فأراد أن يكرمهما ، فألقى إليهما بوسادتين فقعد أحد الرجلين على الوسادة ، ولم يقعد الآخر ، بل قعـد على الحصـير كما يقعد أمير المؤمنين ، فقال له الإمام مداعبا : « اقعد على الوسادة يا رجل ، فلا يأبى الكرامة إلا حمار ! » وضحكوا جميعا ، وقعد الرجل ، وذهبت مثلا !

* * *

الفصل الخامس

الخديعة و . . والتطرف !

اقترب رمضان ، سنة سبع وثلاثين للهجرة ، الموعد المضروب لالتقاء الحكمين ، فأرسل على كرم الله وجهه وفدا من أربعمائه رجل على رأسهم عبد الله بن عباس وشريح ابن هانىء، ومعهم أبو موسى الأشعرى . وأرسل معاوية وفدا من أربعمائه رجل ومعهم عمرو بن العاص .

والتقوا جميعاً فى (دومة الجندل) بين العراق والشام .

وكانت الرسائل تتردد بين معاوية فى دمشق وعمرو فى دومة الجندل ، فلا يعرف أحد من وفد الشام ما بعث به معاوية ولا ما رد به عمرو، ولا يحاول أحد أن يسأل ، فقد ألفوا أن يتركوا الأمر جميعاً لمعاوية منذ بايعوه على السمع والطاعة . .

أما وفد العراق فكانوا إذا علموا أن كتابا وصل من على وثبوا على ابن عباس يسألونه : « ما الذى كتب به إليك أمير المؤمنين؟» فاذا كتم عنهم شغبوا عليه وصاحوا غاضبين : « لماذا كتمتنا ما كتب به أمير المؤمنين ؟ أتراه كتب فى كذا أو فى كذا ؟ » . وضاق ابن عباس بالحاحهم وأخذ يؤنبهم : « أما تعقلون؟! إذا جاء رسول أمير المؤمنين قلتم بأى شىء جاء ؟ فاذا كتمتكم قلتم لم تكتمنا . أجاء بكذا وكذا ؟ وما تزالون تظنون حتى تصيبوا ، فليس لكم سر . . ! ألا ترون رسول معاوية يجىء ويرجع لا يعلم أحد بما جاء ورجع ، ولا يسمع لهم صياح ولا لغط ، وأنتم عندى كل يوم تظنون !؟ أما تعقلون ؟ » .

وكان رؤساء وفد العراق من أصحاب الإمام يشفقون من لقاء عمرو بأبى موسى ، فلم يألوه نصحا ورجاء أن يتحسب من مكر عمرو . .

أخذ شريح بيده وقال له : « يا أبا موسى إنك قد نصبت لأمر عظيم لا يجبر صدعه ، ومهما تقل شيئا لك أو عليك يثبت حقه ، وإن كان باطلا ، وإنه لا بقاء لأهل العراق إن

ملكها معاوية ، ولا بأس على أهل الشام إن ملكها على . وقد كانت منك تثبيطة أيام قدمت الكوفة ، فان تشفعها بمثلها يكن الظن بك يقينا ، والرجاء منك يأسا ! » .

فغضب أبو موسى من كلام شريح وقال :«ما ينبغى لقوم اتهمونى أن يرسلونى لأدفع عنهم باطلا أو أجر إليهم حقا ! » .

فقام شريح فى الناس فعظم أمر أبى موسى ، واسترضاه حتى رضى .

وكان الأحنف بن قيس يتوقع ما عساه يحدث بين أبى موسى وعمرو . والأحنف من أعرف الرجال بالرجال . ولكم شكا إلى الله ما شكاه عمر بن الخطاب : ضعف بعض أهل التقوى ، وقوة أهل الهوى . .

وكان الأحنف قد خرج يودع أبا موسى قبل أن يرحل فظل يترفق به ، وأمسك بيده وقال ناصحا فى إشفاق على مصير الإمام من عمرو : « يا أبا موسى ، اعرف خطب هذا الأمر ، واعلم أن له ما بعده ، وإنك إن أضعت العراق فلا عراق ! فاتق الله . وإذا لقيت عمرو بن العاص غدا فلا تبدأ بالسلام ، فانها وإن كانت سنة إلا أنه ليس أهلها ، ولا تعطه يدك فانها أمانة ، وإياك أن يقعدك على صدر الفراش فانها خدعة ، ولا تلقه وحده ، واحذر أن يكلمك فى بيت فيه مخدع تخبأ فيه الرجال والشهود . فان لم يستقم لك عمرو على الرضا بعلىٍّ فخيرهُ أن يختار أهل العراق من قريش والشام من شاءوا ، فانهم يولونا الخيار فنختار من نريد ، وإن أبوا اختار أهل الشام من قريش العراق من شاءوا ، فان فعلوا كان الأمر فينا » .

ولم يحفل أبو موسى بما قاله الأحنف ، ورد عليه بفتور : « قد سمعت ما قلت » .

وعاد الأحنف إلى على فقال له : « يا أمير المؤمنين . لا أرانا إلا بعثنا رجلا لا ينكر خلعك » قال الإمام ممتثلا : « يا أحنف ، إن الله غالب على أمره » قال الأحنف : « فمن ذلك نجزع يا أمير المؤمنين » .

وكان شرحبيل بن السمط قد سار مع عمرو بن العاص ووفد الشام فى خيل عظيمة حتى استقر عمرو بدومة الجندل ، فقال وهو يودعه : « يا عمرو إنك رجل قريش ، وإن معاوية لم يبعثك إلا ثقة بك ، وإنك لن تؤتى من عجز أو مكيدة ، وقد عرفت أنى وطأت هذا الأمر لك ولصاحبك ، فكن عند ظننا بك » .

فلما انصرف عنه عمرو ، جاءه شريح فقال : « يا عمر ، إن أمير المؤمنين عليا يقول

لك : إن أفضل الخلق عند الله من كان العمل بالحق أحب إليه وإن نقصه ، وإن أبعد الخلق من الله من كان العمل بالباطل أحب إليه وإن زاده . والله يا عمرو إنك لتعلم أين موضع الحق ، فلم تتجاهل ؟ أبأن أوتيت طعما يسيرا فكنت لله وأوليائه عدوا ؟! فكأن والله ما أوتيت قد زال عنك ، فلا تكن للظالمين ظهيرا . أما إنى لأعلم أن يومك الذى أنت فيه نادم هو يوم وفاتك ، وسوف تتمنى أنك لم تظهر لمسلم عداوة ، ولم تأخذ على حكم رشوة » .

ولم يكد شريح يفرغ من أداء رسالة على حتى احتقن وجه عمرو ، واضطرم غضبه وقال : « ومتى كنت أقبل مشورة على أو أنيب إلى أمره وأعتد برأيه ؟ » قال شريح محتدا : « وما يمنعك يا ابن النابغة أن تقبل من مولاك وسيد المسلمين بعد نبيهم ﷺ مشورته ؟ لقد كان من هو خير منك ، أبو بكر وعمر ، يستشيرانه ويعملان برأيه » قال عمرو : « إن مثلى لا يكلم مثلك » قال شريح : « بأى أبويك ترغب عن كلامى بأبيك الوشيظ (الدخيل والتابع) أم بأمك النابغة ؟! » .

فانصرفا متغاضبين . .

وكان عمرو ربما عَيرَّه الناس بأمه ، فيأبى عليه حلمه ودهاؤه أن يغضب !

سأله رجل عن أمه فقال : « هى سلمى بنت حرملة ، تلقب بالنابغة من بنى عنزة ، أصابتها رماح العرب ، فبيعت بعكاظ ، فاشتراها الفاكه بن المغيرة ، ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان ، ثم صارت إلى العاص بن وائل ، فولدت له ، فأنجبت ، فان كان جعل لك شىء فخذه » . (أسد الغابة) .

* * *

كان أصحاب على يخافون كيد عمرو على طيبة أبى موسى . . ذلك أن دهاء عمرو لا يعرف الحرج ولا حدودا يقف عندها ، ولا يتورع عن شىء ، وهو قادر على التأويل والتعلل : فهو فى حرب مع على ، وبما أن الحرب خدعة فقد تجيز عنده ما لا يجوز لمسلم !

أما أبو موسى فهو رجل ورع متحرج ، وطيبته تضع لأقواله وأعماله حدودا لا يتجاوزها ، بل لا يقع فيها ، لينأى بنفسه عن الشبهات .

من أجل ذلك كان أصحاب على يلحون فى تحذير أبى موسى من مكر عمرو به ، ويتمثلون ما عسى أن يبلغ دهاء عمرو منه ، فيقترحون عليه ما ينبغى له أن يرد به على عمرو !

وما كان أصحاب على وحدهم هم الذين يشفقون من مكر عمرو ودهائه هذا الدهاء الذى لا تردعه التقوى ! . . ولقد كان على يقول : « لولا التقوى لكنت أدهى العرب » . .

ولكن معاوية نفسه كان أيضاً يهاب دهاء عمرو ويتحسب له . .

إنهم جميعا ليعلمون أن عمرو بن العاص ما تولى ما تولاه من أمور المسلمين فى عهد الرسول والشيخين إلا لأنه الأصلح لا الأتقى . . فالسياسة الشرعية أسست قواعد الولاية على أنها للأصلح فالأصلح ، لا للأتقى فالأتقى . .

هكذا قاد خالد بن الوليد جيوشا فيها من هم أتقى منه وأعلم بالدين ، وهكذا تولى الإمرة عمرو ! ونصح الرسول أبا ذر ألا يتولى إمرة المسلمين لأنه لا يصلح ، وإن كان أصدقهم لسانا وأكثرهم تقوى !

وقد علم معاوية أن سبب انضمام عمرو إليه ، هو الخوف على ضياعه أو أمواله ، والنزوع إلى الملك !!

ونزوعه إلى الإمرة جعله يجاوز كل حد ، ولا يخجل من أى أحد ! لا من أبى بكر ولا من عمر ، ولا حتى الرسول نفسه ﷺ !!

فقد تحدث الذين شهدوا غزوة ذات السلاسل : أن عمرو بن العاص حين بعثه الرسول ﷺ يدعو أخوال أبيه العاص إلى الإسلام ، وقف على ماء يقال له السلاسل (ولهذا سميت الغزوة باسم ذات السلاسل) ، فلما كان عليه خاف ، فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى المهاجرين الأولين ، وفيهم أبو بكر وعمر ، وقال لأبى عبيدة : « لا تختلفا » . فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم عليه قال له عمرو : « إنما جئت مددا لى » فقال أبو عبيدة : « لا ، ولكنى أنا على ما أنا عليه ، وأنت على ما أنت عليه » ـ وكان أبو عبيدة رجلا سهلا لينا هينا عليه أمر الدنيا ـ فقال له عمرو : « بل أنت مدد لى » فقال أبو عبيدة : « يا عمرو إن رسول الله ﷺ قال لى : لا تختلفا ، وإنك إن عصيتنى أطعتك ! » فقال له عمرو : « فانى أمير عليك » قال : « فدونك » . فصلى عمرو بالناس . وجعل نفسه أميرا على أبى عبيدة وأبى بكر وعمر [1] .

---

(١) انظر : سيرة ابن هشام وأسد الغابة لابن الأثير والطبقات الكبرى لابن سعد .

فاذا كان قد صنع هذا بأبى عبيدة وهو أمين الأمة ، وأحد المبشرين بالجنة ، وأحد الذين عرض عليهم أبو بكر البيعة قبله ، فما باله إذن لا يصنع ما يشاء مع معاوية !

ولكم عذب هذا الخاطر معاوية !! رأى أن يذهب إلى مكان قريب من الحكمين ، ولكنه انتظر .

* * *

وجاء عبد الله بن عباس إلى أبى موسى يحذره مكر عمرو قبل أن يجتمع به ، قال : « يا أبا موسى أنت وافد أهل اليمن إلى رسول الله ﷺ ، وصاحب مغانم أبى بكر ، وعامل عمر بن الخطاب . واعلم أن معاوية طليق الإسلام ، وأن أباه رأس الأحزاب ، وأنه ادعى الخلافة من غير مشورة وليس فيه خصلة تقربه من الخلافة ، فإن صدقك فقد حل خلعه ، وإن كذبك فقد حرم عليك كلامه ، وإن ادعى أن عمر وعثمان استعملاه ، فلقد صدق ، استعمله عمر وهو الوالى عليه بمنزلة الطبيب من المريض ، يحميه مما يشتهى ، ويوجب عليه ما يكره ، ثم استعمله عثمان برأى عمر ، وما أكثر من استعملا ممن لم يدَّع الخلافة ! واعلم أن لعمرو مع كل شيء يسرك خبرا يسوءك ، وإن نسيت فلا تنس أن عليا بايعه الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان ، وأنها بيعة هدى ، وأنه لم يقاتل إلا عاصيا أو ناكثا » فقال أبو موسى : « رحمك الله ، أما والله ما لى إمام غير على ، وإنى لواقف عندما رأى ، ولرضاء الله تعالى أحب إلى من رضا الناس ، وما أنا وأنت إلا بالله تعالى » .

وكان معاوية قد أوصى عمرو بن العاص ، فقال له قبل أن يرحل عنه ليلتقى بأبى موسى : « يا عمرو ، إن أهل العراق أكرهوا عليا على أبى موسى ، وأنا وأهل الشام راضون بك ، وأرجو فى دفع هذه الحرب خصالا : قوة لأهل الشام ، وفرقة لأهل العراق ، وأمدادا لأهل اليمن ، وقد ضم إليك رجل طويل اللسْان ، قصير الرأى ، وله على ذلك دين وفضل ، فدعه يقل ، فإذا هو قال فاصمت ، واعلم أن حسن الرأى زيادة فى العقل . إن خوفك العراق فخوفه الشام ، وإن خوفك مصر فخوفه اليمن ، وإن خوفك عليا فخوفه بمعاوية ، ولا تلقه برأيك كله ، وإن أتاك بالجميل فأته بالجميل » .

فقال عمرو بغيظ : « أقلل الاهتمام بما قبلى ، وارج الله تعالى فيما وجهتنى له ، إنك من أمرك على مثل حد السيف ، لم تنل فى حربك مارجوت ، ولم تأمن ما خفت ، ونحن نرجو أن يصنع الله تعالى لك خيرا . وقد ذكرت لأبى موسى دينا ، وإن الدين منصور . أرأيت إن ذكر عليا وجاءنا بالإسلام والهجرة واجتماع الناس عليه ، ما أقول ؟ » قال معاوية مستسلما عاجزا منهزما أمام سؤال عمرو : « قل ما تريد وترى ! »

وكان معاوية وعمرو منذ التقيا بعد قتل عثمان قد ألفا أن يغيظ أحدهما الآخر . . كل واحد منهما فى حاجة إلى صاحبه : لا هو يستغنى عنه ، ولا هو يبدو مفتقرا إليه . . !

وعندما خرج عمرو وصحبه من عند معاوية قال لهم عمرو : « هل ترون ما أراد معاوية من تصغير أبى موسى ؟ » قالوا : « لا » قال : « تصغيرى أنا ، فقد عرف أنى خادعه فغالبه ! » .

فى أول لقاء ضم عمراً وأبا موسى ، قال عمرو : « يا أخى ، قبح الله أمرا فرق بيننا » .

ثم أقعد أبا موسى على صدر الفراش ، وتواضع له ، وكان فى أبى موسى حياء ، فكلما أراد أن يتساوى فى مجلسه مع عمرو قال له : « إنك قد سبقتنى إلى الإسلام ، وصحبت رسول الله ﷺ قبلى ، وأنت أكبر منى وأنت ضيف » .

ثم يتناجيان وحدهما .

والأيام تمضى ثقيلة على الناس جميعا ، وما اتفق الحكمان بعد . . حتى ضاق الناس بالانتظار .

فأقبل الأشعث بن قيس عليهما فقال : « يا هذان . إنا كرهنا هذه الحرب ، فلا ترداها إلينا ، فانها مرة الرضاع والفطام ، فكفّاها بما شئتما » .

ثم قال لهما سعيد بن قيس : « أيها الرجلان ، إنى أراكما قد أبطأتما بهذا الأمر ، حتى أيس القوم منكما ، فان كنتما اجتمعتما على خير فأظهراه ، نسمعه ونشهد عليه ، وإن كنتما لم تجتمعا رجعنا إلى الحرب !».

ثم أتاهما عدى بن حاتم فقال : « أما والله يا عمرو إنك لغير مأمون الغناء ، وأنك يا أبا موسى لغير مأمون الضعف ، وما ننتظر بالقول منكما إلا أن تقولا : والله مالكما مع كتاب الله إيراد ولا صدر ! » .

فقال أبو موسى مغضبا : « كفوا عنا ، ولا تتعجلونا ، فاننا إنما نقول فيما بقى ، ولسنا نقول فيما مضى » .

وقال جماعة من قريش الشام لمعاوية : « إن عمرو بن العاص قد أبطأ بهذه الحكومة ، وهو يريدها لنفسه ! » .

وما كان هذا الظن قد غاب عن ذهن معاوية ، فلم يشأ أن ينتظر قرار الحكمين فى قصره بدمشق ، وسار فى موكب عظيم ، فعسكر على مقربة منها : أدنى من أن يسمح لعمرو بخداعه ، وأبعد من أن يتهمه أحد بأنه يحرج الحكمين أو يضغط عليهما !

فلما لم يفصل الحكمان ، ضاق معاوية بهما ، وألح عليه الشك فى عمرو بن العاص . . فأرسل إلى جماعة من قريش يستميلهم إليه ، وكتب إليهم : « إن الحرب قد وضعت أوزارها ، والتقى هذان الرجلان بدومة الجندل ، فأقدموا علىَّ » .

فأتاه جماعة من قريش فيهم عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وجاءه المغيرة ابن شعبة الذى كان قد اعتزل بالطائف . فقال : « يا مغيرة ما ترى ؟ » قال : « يا معاوية ، لو وسعنى أن أنصرك لنصرتك . ولكن علىَّ أن آتيك بأمر الرجلين » .

فذهب إلى دومة الجندل ، فزار أبا موسى الأشعرى وقال له : « يا أبا موسى ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر وكره هذه الدماء ؟ » قال : « أولئك خيار الناس » ثم ذهب إلى عمرو بن العاص يزوره فقال له : « يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذا الأمر ، وكره هذه الدماء ؟ » قال : « يا مغيرة أولئك شرار الناس ، لم يعرفوا حقا ولم ينكروا باطلا ، فهم خلف الأبرار وأمام الفجار ! » .

فعاد المغيرة إلى معاوية فقال : « قد ذقت الرجلين : أما أبو موسى فخالع صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد هذا الأمر ، وهواه فى زوج ابنته عبد الله بن عمر . وأما عمرو فهو صاحبك الذى تعرف . وإن ظن الناس أنه يرومها لنفسه ، وأنه لا يرى أنك أحق بهذا الأمر منه ! » .

وانتظر معاوية مقدم سعد بن أبى وقاص . . لو أنه قبل دعوته !! . . لم يبق على ظهر الأرض من العشرة المبشرين بالجنة غير سعد بن أبى وقاص وعلى بن أبى طالب ، وما بقى من أهل الشورى الستة الذين زكاهم عمر للخلافة من بعده غير سعد وعلى !!

لو أن سعدا انحاز إليك يا معاوية ، أو حتى قبل دعوتك وقدم عليك ، لعرفت كيف تفيد من وجوده معك ، ولمال مقدمه ببعض أنصار علىٍّ إليك !!

ولكن سعد بن أبى وقاص لم يجب ! فأتاه ابنه عمر بن سعد ، فقال له : « يا أبى ، التقى الناس بصفين فكان بينهم ما قد بلغك ، حتى تفانوا ، ثم حكموا الحكمين أبا موسى الأشعرى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص . وقد حضر ناس من قريش عندهما ، وأنت

من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أهل الشورى . ولم تدخل فى شىء تكرهه هذه الأمة ، فاحضر دومة الجندل فانك صاحبها غدا » قال سعد : « مهلا يا عمر ! إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون بعدى فتنة خير الناس فيها الخفى التقى . وهذا أمر لم أشهد أوله ، فلا أشهد آخره . ولو كنت غامسا يدى فى هذا الأمر لغمستهامع علىٍّ » فرجع عمر بن سعد خائبا . . !

* * *

حين كان معاوية بالقرب من دومة الجندل يحكم خططه ، كان على بعيدا فى الكوفة يعالج أمورا مضطربة . . وكان لديه من أمور الدولة ما يجب أن ينهض به . فقد انتهز أقوام فرصة الانشغال بالحرب التى أشعلها معاوية ، وانقضوا على بعض أطراف الدولة !! ثم إن هناك أمصارا فى الدولة أهمها مصر بلا أمير ، منذ تركها قيس بن سعد بن عبادة .

وهناك أيضاً عصابة من أتباعه توشك أن تشعل الفتنة فى العراق ، وهم هؤلاء القراء المتعصبون المتطرفون الذين يتحاورون مع الناس بتكفيرهم ، فقد اضطروه آنفا إلى القبول لما رفع معاوية وعمرو المصاحف حين تأكدت له الهزيمة ، فلما حاول أن يقنعهم بأنها ليست الدعوة إلى حكم القرآن ما يريد معاوية وعمرو بل هى المكيدة والخديعة ، هددوه بالقتل ، وهو إمامهم وأستاذهم . . فلما أذعن لهم ، وقبل التحكيم ، اتهموه بالكفر !! واعتزل منهم نحو اثنى عشر ألف مقاتل ، يضللون الناس . . وجاءه منهم فتيان فقالا : « لا حكم إلا لله يا على » . فقال على : « لا حكم إلا لله » قال أحدهما واسمه حرقوص : « تب من خطيئتك ، وارجع عن قضيتك ، وارجع بنا إلى عدونا نقاتلهم حتى نلقى ربنا » قال الإمام : « قد أردتكم على ذلك فعصيتمونى ، وقد كتبنا بيننا وبين القوم كتابا ، وشرطنا شروطا ، وأعطينا عليها عهودا وقد قال الله تعالى : ﴿ وأوفوا بالعهد إذا عاهدتم ﴾ » .

فقال الفتى الثانى واسمه زرعة بن برج : « ذلك ذنب ينبغى أن تتوب منه يا على » قال : « ما هو ذنب ولكنه عجز من الرأى، وقد نهيتكم» قال الفتى لأمير المؤمنين كرم الله وجهه : « يا على ، لئن لم تدع تحكيم الرجال لأقاتلنك أطلب وجه الله » قال الإمام : « بؤسا لك ! ما أشقاك ! كأنى بك قتيلا تسفى عليك الرياح ! » قال الفتى : « وددت لو كان ذلك ! » .

وخرجا من عند الإمام يتهمانه بالكفر ، ويكفرون من لم يخرج عليه !!

وصعد على منبر مسجد الكوفة ليخطب الناس ، فارتجت جوانب المسجد بصيحات المتطرفين الخوارج عليه : « لا حكم إلا لله يا على » قال الإمام : « الله أكبر ! كلمة حق يراد بها باطل » فقال له أحد القراء : « نهيتنا عن الحكومة ثم أمرتنا بها فما ندرى أى الأمرين نختار » وقال رجل آخر من القراء : « جزعت من البلية ، ورضيت بالقضية (بالتحكيم) ، وقبلت الدنية » .

فصفق الإمام إحدى يديه على الأخرى أسفا وندما وقال : « هذا جزاء من ترك العقدة (التعاقد على حرب الذين رفضوا بيعته وهم معاوية وعمرو وأهل الشام) . أما والله لو أنى حين أمرتكم بها أمرتكم به حملتكم على المكروه الذى يجعل الله فيه خيرا ، فان استقمتم هديتكم ، وان اعوججتم قومتكم ، وإن أبيتم تداركتكم ، لكانت الوثقى ، ولكن بمن ؟! وإلى من ؟! أريد أن أداوى بكم وأنتم دائى ! . . . أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه ، وقرأوا القرآن فأحكموه ، وهيجوا إلى القتال فولهوا له ، وسلبوا السيوف أغمادها ، وأخذوا بأطراف الأرض زحفا وصفا صفا ؟! بعض هلك وبعض نجا . . . مرُّ العيون من البكاء ذبُل الشفاه من الدعاء (ذبل جمع ذابل) ، خُمص (ضوامر) البطون من الصيام ، صفر الألوان من السهر . . . أولئك إخوانى الذاهبون ، فحق لنا أن نظمأ إليهم ، ونعض الأيدى على فراقهم . إن الشيطان يسهل لكم طرقه ، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة ، ويعطيكم بالجماعة الفرقة ، فاصدفوا عن نزعاته ونفثاته ، واقبلوا النصيحة ممن أهداها إليكم ، واعقلوها فى أنفسكم » .

فانصرفوا يتفكرون فيما قاله الإمام . .

حتى إذا كان اليوم التالى ، أراد الإمام أن يخطب فشغبوا عليه . . لقد اضطربت الأمور ، وها هى ذى عصابة من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه تتحداه ، وتكاد تمنعه من مخاطبة الرعية ، وتسىء الأدب فى محادثته ، وتتهمه بالكفر . . !

دوت آفاق الكوفة بالهتافات : « لا حكم إلا لله » قال الإمام مرة أخرى : « كلمة حق يراد بها باطل » .

وغضب أصحاب الإمام ، وطالبوه أن يأذن لهم فيؤدبوا هؤلاء الخوارج ويلزموهم الطريق الصواب ، فرفض الإمام أن يبدأهم بقتال ، وقال لأصحابه : « إن سكتوا غممناهم (سترناهم) ، وإن تكلموا حججناهم (غلبناهم بالحجة) ، وإن خرجوا علينا قتلناهم » فوثب فتى طويل اللحية مهترىء الجبهة ، متجهم الوجه ، متوتر القسمات ،

فصاح بصوت أجش منكر : « يا على ! أبالقتل تخوفنا ؟ ، أما إنى لأرجو أن نضربكم بها عما قليل ، ثم لتعلم أينا أولى بها صليا . اللهم إنا نعوذ بك من إعطاء الدنية فى ديننا ، فان إعطاء الدنية فى الدين إرهاث فى أمر الله ، وذل راجع بأهله إلى سخط الله » . .

هكذا كان يخاطبه المتطرفون من تلاميذه ، وقد علموا أنه باب مدينة العلم ، وأنه إمام المتقين !

وفى يوم آخر حاول أن يخطب ويعظ الناس ، فعادت أصوات فتيان القراء وأهل التطرف منهم تهدر : « لا حكـم إلا لله ! » فقال الإمام : « الله أكبر . كلمة حق أريد بها باطـل ! أما إن لكم عندى ثلاثا ما صحبتمونا : لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم الفىء ما دامت أيديكم مع أيدينا ، ولا نقاتلكم حتى تبدأونا ، وإنما ننتظر فيكم أمر الله » .

وتسلل عدد من هؤلاء إلى حروراء من ضواحى الكوفة ، فانضموا إلى من سبقوهم ، حتى بلغت عدتهم ستة عشر ألفا . . !

فرأى الإمام أن يرسل إليهم عبد الله بن عباس ، وكان ابن عباس أفقه أصحاب على وتلاميذه ، وما جلس إليه عالم قط إلا خضع له ، وكانوا يسمونه البحر لسعة علمه ، وكان على صغر سنه أعلم الناس بالتفسير والحديث وقضاء أبى بكر وعمر وعثمان ، حتى لقد جلس إليه طاووس ، وترك كبار الصحابة فقيل له : « لزمت هذا الغلام وتركت الأكابر من صحـابـة رسـول الله ﷺ ؟ » فقال : « إنى رأيت سبعين رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ إذا تدارءوا (اختلفوا) فى أمر صاروا إلى قول ابن عباس » .

وقد حفظ ابن عباس وصية عن رسول الله ﷺ كان يعلمها للناس قال : « كنت خلف رسول الله فى سفر فقال : يا غلام ، إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشىء، لم يضروك إلا بشىء قد كتبـه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف » .

وكـان ابن عبـاس وسيما مهيبـا طويل القامة ممتلىء الجسم صبيح الوجه . . قوى الحجة ، ذلق اللسان ، فكان من يجادله يحسب له ألف حساب .

قبل أن يمضى إليهم أوصاه الإمام : « لا تعجل إلى جوابهم وخصومتهم حتى آتيك » فلما أقبل إليهم ابن عباس فى حلة جميلة ، أنكروا عليه أن يلبسها ، ورأوها فتنة وكفرا . فلم يستطع أن يسكت عنهم فقال لهم : « يا حملة القرآن . تفكروا فى قوله عز وجل : قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » ثم سألهم : « ما نقمتم من الحكمين أما فقهتم قوله تعالى : ﴿ إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾؟ » قال هذا فى رجل وامرأة فكيف بأمة محمد ؟ وقوله تعالى : ﴿ يحكم به ذوا عدل منكم ﴾؟ .

فقال رجل : « أعدل عندك عمرو بن العاص ؟! » ثم قالوا : « إذا كان علىٌّ على حق ، فما باله حيث ظفر لم يسب ؟! » فقال لهم ابن عباس : « أفكنتم تسبون أمكم عائشة ؟! » فوضعوا أصابعهم فى آذانهم وقالوا : « أمسك عنا يا ابن عباس حرب لسانك فانه طلق ذلق غواص على مواضع الحجة » .

وأقام ابن عباس معهم فى حروراء ثلاثة أيام يجادلهم حتى اقتنع منهم أربعة آلاف ، فعاد بهم إلى الإمام بالكوفة ، فأرسل الإمام إلى من تبقى منهم بحروراء : « فقد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم ، فقفوا حيث شئتم حتى تجتمع أمة محمد . وبيننا وبينكم ألا تسفكوا دما حراما أو تقطعوا سبيلا أو تظلموا ذمة (أحد أهل الذمة) فان فعلتم ، فقد نبذنا إليكم الحرب على سواء (إن الله لا يحب الخائنين) » .

وأذن مؤذن على ألا يدخل على أمير المؤمنين رجل إلا رجلا حمل القرآن . فجاءه القراء الخوارج الذين عاد بهم ابن عباس ، فلما امتلأ بهم الجامع والرحبة أمامه دعا أمير المؤمنين بمصحف ضخم ، فلما وضعوه أمامه قال : « أيها المصحف حدث الناس ! » . فقالوا له : « يا أمير المؤمنين ! إنما هو مداد فى ورق ، ونحن نتكلم بما روينا منه فماذا تريد ؟ » قال : « أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا على ، بينى وبينهم كتاب الله . يقول الله تعالى فى كتابه فى امرأة ورجل : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾ . فأمة محمد أعظم دما وحرمة من امرأة ورجل ! ونقموا على أنى كتبت فى صحيفة التحكيم على بن أبى طالب ، بدلا من أمير المؤمنين ، وقالوا انسلخت من قميص ألبسكه الله ، واسم سماك الله به ، وقد جاءنا سهيل بن عمرو ونحن مع رسول الله فى الحديبية حين صالح قريشا فقال لى رسول الله : اكتب باسم الله الرحمن الرحيم ، فقال سهيل : لا تكتب هذا بل اكتب باسمك اللهم ، ثم قال لى رسول الله : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله . فقال سهيل : لا ، لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك ، بل اكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله قريشا . فأمرنى رسول الله أن أمحو بسم

الله الرحمن الرحيم وأكتب باسمك اللهم ، وأن أمحو (محمد رسول الله) وأكتب محمد بن عبد الله . يقول الله فى كتابه : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾ » .

فانصرفوا راضين بما سمعوه من الإمام . .

* * *

ثم خرج الإمام إلى من بقى منهم بحروراء وكانوا نحو اثنى عشر ألفا . . وكان قد عرف أن من رؤسائهم يزيد بن قيس ، فأتاه فى سرادقه ، وصلى ركعتين ثم قال : « اللهم هذا مقـام من يفلح فيه كان أولى بالفلج (الفـوز) » . ثم سألهم : « من زعيمكم ؟ » قالـوا : « ابن الكواء » قال : « ما أخرجكم علينا ؟! » قالوا : « حكومتك يوم صفين » قال : « أنشدكم الله ، أتعلمون أنهم حيث رفعوا المصاحف وقلتم : نجيبهم ، قلت : لكم إنهم ليسوا بأصحاب دين ؟ » .

وظل يذكرهم بما نصحهم به آنفا ، وهم يهددونه إن لم يقبل التحكيم أن يصنعوا به كما صنع بعثمان . . فوجموا !

فقال لهم الإمام : « قد اشترطت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن ، فان حكما بالقرآن فليس لنا أن نخالف ، وإن أبيا فنحن من حكمهما براء » .

قالوا : « أتراه عدلا تحكيم الرجال فى الدماء ؟ » .

قال : « إنا لسنا حكّمنا الرجال إنما حكّمنا القرآن ، وهذا القرآن إنما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق إنما يتكلم به الرجال » قالوا : « فخبرنا عن الأجل لم جعلته بينكم ؟ » قال : « ليعلم الجاهل ويثبت العالم ، ولعل الله يصلح فى هذه الهدنة هذه الأمة . ادخلوا مصركم رحمكم الله » .

وشعـر أن بعضهم هدأت حدتـه ، وأن الآخرين ما زالوا فى توترهم . فسألهم : « أكلكم شهد معنا صفين ؟ » قالوا : « منا من شهد ومنـا من لم يشهد » قال : « فامتازوا فرقتين ، فليكن من شهد صفين فرقة ، ومن لم يشهدها فرقة ، حتى أكلم كلا بكلامه » .

وحدث هرج ، واختلطت أصوات ، فنادى الإمام الناس : « أمسكوا عن الكلام ، وأنصتوا لقولى ، وأقبلوا بأفئدتكم إلى ، فمن ناشدناه شهادة فليقل بعلمه فيها » .

واتجه إلى الفرقة التى شهدت صفين فقال : « ألم تقولوا عن رفعهم المصاحف حيلة وغيلة ومكرا وخديعة : إنهم إخواننا وأهل دعوتنا ، استقالونا واستراحوا إلى كتاب الله سبحانه ، فالرأى القبول منهم والتنفيس عنهم !؟ » فقلت لكم : هذا أمر ظاهره إيمان وباطنه عدوان ، وأوله رحمة وآخره ندامة ، فأقيموا على شأنكم ، والزموا طريقتكم ، وعضوا على الجهاد بنواجذكم ، ولا تلتفتوا إلى ناعق نعق ، إن أجيب أضل ، وإن ترك ذل . . وإن الكتاب لمعى ، ما فارقته منذ صحبته . فلقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإن القتل ليدور على الآباء والأبناء والإخوان والقرابات ، فما نزداد على كل مصيبة وشدة إلا إيمانا ، ومضيا على الحق ، وتسليما للأمر ، وصبرا على مضض الجراح . ولكنا إنما أصبحنا نقاتل إخواننا فى الإسلام على ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل . . فاذا طمعنا فى خصلة يلم الله به شعثنا ونتدانى إلى البقية فيما بيننا رغبنا فيها وأمسكنا عما سواها » .

وسكتوا . . فقال لهم : « ادخلوا مصركم رحمكم الله » وركب . . فركبوا . . وعاد بهم إلى مصرهم : الكوفة ، فدخلوا الكوفة آمنين . . وبايعوه على السمع والطاعة . .

وعذب معاوية الشك فى عمرو بن العاص ! . . إن وراء هذا الإبطاء لأمرا ، فهو يعرف عمرا . . !

وأرسل معاوية إليه شعرا جاء فيه :

وقال رجال إن عمرا يريدها	فقلت لهم عمرو لى اليوم تابع
فان تك قد أبطأت عنى تبادرت	إليكم بتحقيق الظنون الأصابع

ثم إنه أمر بسرادق فخيم فضرب له على مشارف (دومة الجندل) أقرب من أن يعتبر غائبا فينتهز عمرو غيابه ، وأبعد من أن يكون شاهدا ، فيتهم بالتأثير على الحكمين !

* * *

أما الإمام فقد آثر أن يظل بالكوفة بعيدا ، لينظر فيما أفسدته الحرب من أمور الدولة : فها هم أقوام من أهل خراسان قد امتنعوا عن أداء الزكاة والخراج ، وتناجوا فيما بينهم : « إذا كان المسلمون يقاتل بعضهم بعضا وفيهم من يعلنون العصيان على إمامهم ويحاربونه ، وإذا كان أتباع محمد قد أذاقهم ربهم بأس بعضهم بعضا ، فمن الخير أن نعود إلى ملتنا التى وجدنا عليها آباءنا » . . وهكذا خرجوا من الطاعة ، ومن الإسلام جميعا . .

وهذا هو بعض ما غرسته الفئة الباغية : خروج من خرج على الإسلام وارتدادهم إلى ما كانوا عليه ، ثم خروج بعض أطراف الدولة على إمام المسلمين ، ثم خروج القراء المتطرفين على معلمهم واتهامه بالكفر لأنه فى رأيهم قبل التحكيم فى أمر الله ، وأجاب دعوة كفار ! !

والإمام يحاول بكل ما وهبه الله من صبر وشجاعة وحكمة وتقوى أن يؤمن ما اضطرب من سرب الأمة ، ويجهد فى رأب الصدع وجمع الشتات ، عسى أن يعتدل الميل . .

أما المتطرفون من القراء الذين أصبحوا خوارج عليه ، فقد تجافى عن عصيانهم ، وأقنعهم بالحكمة والموعظة الحسنة أن يعودوا من حروراء ـ حيث كانوا قد اعتزلوا ـ إلى أهلهم بالكوفة ، فعادوا ، ودخلوا فى الجماعة . .

ثم إنه أرسل جندا إلى خراسان حيث ارتد أهل نيسابور وامتنعوا عن إيتاء الزكاة وأداء الخراج ، فهزموا جند الإمام ، فسير إليهم جندا كثيفا على رأسهم خليد بن قرة وهو من أشجع قواده ، فحاصر أهل نيسابور حتى اضطرهم إلى التسليم ، وعادوا إلى الإسلام ودفع ما عليهم هم وكل من خرج من أهل خراسان ، فدخلوا فى الجماعة ولزموا الطاعة . .

ونظر فى أمر سائر الأمصار ، فوجد أن مصر وهى أكبرها وأخطرها وأغناها وأهمها لخصومه ، قد أصبحت بلا وال ، منذ قتل محمد بن أبى حذيفة . .

وكان محمد بن أبى حذيفة أثناء الثورة على عثمان ، قد وثب على حكم مصر ، فلما قتل عثمان وبويع لعلى ، خف معاوية إلى مصر ليستولى عليها ، وبلغ عين شمس ، ولكن محمد بن أبى حذيفة قام فى وجهه ومعه المصريون وكانوا من أشياع على ، فاضطروا معاوية إلى الانسحاب . .

واحتال معاوية على محمد بن أبى حذيفة ورؤساء مصر ، فاستدرجهم إلى فلسطين . . حيث سجنوا . . ثم قتلوا ، وعاد إلى دمشق ليغلبه على الاهتمام بمصر ، أمر حرب صفين . .

فرأى الإمام أن يستعمل محمد بن أبى بكر على مصر ، وكان الإمام من قبل قد ولى قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى ، ثم عزله ، فلما لحق به قيس فى صفين أكرمه ، وقدمه ، وكان من أشجع قواده .

وللأنصار عند الرسول وعلى وفاطمة مكانة خاصة : فقد أوصى بهم الرسول ، وقالت فاطمة لهم : أنتم حضنة الإسلام وأعضاد الملة . .

ولقى الوالى المعزول قيس بن سعد الأنصارى الوالى الجديد محمد بن أبى بكر فنصحه : « إنه لا يمنعنى نصحى لك ولأمير المؤمنين عزله إياى ، فقد عزلنى من غير وهن ولا عجز . فاحفظ مما أوصيك به . فأنا من أمرك هذا على بصيرة : فدع معاوية بن خديج ومسلمة بن مخلد ومن انضم إليهما على ما هم عليه . وأنزل الناس على قدر منازلهم . وإن استطعت أن تعود المرضى وتشهد الجنائز فافعل ، فإن هذا لا ينقصك ، وإذا لم تفعل فانك لتظهر الخيلاء ، وتحب الرياسة ، وتسارع إلى ما هو ساقط عنك ، والله موفقك » .

وقد عزل قيس بن سعد لأنه وجد بمصر رجالا أعلنوا أن هواهم مع قرية خربتا بالبحيرة ! فآثر قيس أن يسالمهم ما سالموه ، وأجرى عليهم ما يستحقونه من أرزاق . .

وثقل على معاوية وجود قيس بن سعد فى مصر ، وهو من هو شجاعة وإقداما وحسن رأى وعظم مكانة ، ووجد نفسه محاصرا بين على فى العراق وقيس فى مصر ، فحاول أن يستميل قيسا بكل المغريات ، ولكن قيسا رده ردا منكرا . . فلجأ معاوية إلى الخديعة ونجح !

فكان يفخر بذلك ويقول : « ما ابتدعت من مكايدة قط أعجب إلى من مكايدة كدت بها قيس بن سعد . قلت لأهل الشام : لا تسبوا قيسا ولا تدعوا إلى غزوه ، فان قيسا لنا شيعة ، تأتينا كتبه ونصيحته ! ألا ترون ماذا يفعل باخوانكم النازلين عنده بخربتا ؟ يجرى عليهم أرزاقهم ! وطفقت أكتب بذلك إلى شيعتى بالعراق ، فسمع بذلك جواسيس على بالعراق ، فأنهاه إليه محمد بن أبى بكر ، فبعث علىٌّ إلى سعد يأمره بقتال أهل خربتا ! فأبى قيس أن يقاتلهم ، وكتب إلى على : « إنهم قد رضوا منى بأن أؤمن سربهم ، وأجرى عليهم أعطياتهم وأرزاقهم ، وقد علمت أن هواهم مع معاوية ، فلست مكايدهم بأمر أهون من الذى أفعل بهم . فان كنت تتهمنى فاعزلنى وابعث غيرى » .

ثم إن معاوية أذاع أن قيسا بايعه ، فعزله على . . ولكن قيسا سار إلى على وكشف له كيد معاوية . . فكان من قواد صفين . .

وسار محمد بن أبى بكر إلى مصر فبلغها فى منتصف رمضان سنة سبع وثلاثين ، والحكمان مازالا يتداولان فى دومة الجندل ، لم يعلنا قرارهما بعد !

كان محمد بن أبى بكر فى السادسة والعشرين من عمره ، فلما قدم مصر قرأ على الناس كتاب أمير المؤمنين بتوليته : « هذا ما عهد عبد الله على أمير المؤمنين إلى محمد بن أبى بكر حين ولاه مصر ، أمره بتقوى الله فى السر والعلانية ، وخوف الله تعالى فى المغيب

والمشهد ، وبالإنصاف للمظلوم ، وبالشدة على الظالم ، وبالعفو عن الناس ، وبالإحسان ما استطاع ، والله يجزى المحسنين . وأمره أن يدعو من قبله إلى الطاعة والجماعة ، فان لهم فى ذلك من العاقبة وعظم المثوبة ما لا يقدر قدره ولا يعرف كنهه ، وأمره أن يجبى خراج الأرض على ما كانت تجبى عليه من قبل ، ولا ينتقص ولا يبتدع ، ثم يقسمه بين أهله كما كانوا يقسمونه من قبل ، وإن تكن لهم حاجة ، يواسى بينهم فى مجلسه ووجهه ، ليكون القريب والبعيد عنده على سواء . وأمره أن يحكم بين الناس بالحق ، وأن يقوم بالقسط ، ولا يتبع الهوى ، ولا يخاف فى الله لومة لائم ، فان الله مع من اتقاه وآثر طاعته على من سواه » .

ثم قرأ محمد ما كتبه أمير المؤمنين إلى أهل مصر ومنه نصح له : « أما بعد ، فانى أوصيكم بتقوى الله فى سر أمركم وعلانيته ، وعلى أى حال كنتم عليها ، وليعلم المرء منكم أن الدنيا دار بلاء وفناء ، والآخرة دار جزاء وبقاء ، فمن استطاع أن يؤثر ما يبقى على ما يفنى فليفعل ، فان الآخرة تبقى ، والدنيا تفنى . رزقنا الله وإياكم بصرا لما بصرنا ، وفهماً لما فهمنا ، حتى لا نقصر عما أمرنا ، ولا نتعدى إلى ما نهانا . واعلم يا محمد أنك وإن كنت محتاجا إلى نصيبك من الدنيا إلا أنك إلى نصيبك من الآخرة أحوج ، فان عرض لك أمران : أحدهما للآخرة والآخر للدنيا ، فابدأ بأمر الآخرة ، ولتعظم رغبتك فى الخير ، ولتحسن فيه نيتك ، فان الله عز وجل يعطى العبد على قدر نيته ، وإذا أحب الخير وأهله ولم يعمله ، كان إن شاء الله كمن عمله ، فان رسول الله ﷺ قال حين رجع من تبوك : إن بالمدينة أقواما ما سرتم من مسير ، ولا هبطتم من واد إلا كانوا معكم ، ما حبسهم إلا المرض ـ يقول كانت لهم نية ـ ثم اعلم يا محمد أنى قد وليتك أعظم أجنادى : أهل مصر ، ووليتك من أمر الناس ، فأنت محقوق أن تخاف فيه على نفسك ، وتحذر فيه على دينك ، ولو كان ساعة من نهار . فان استطعت ألا تسخط ربك لرضا أحد من خلقه فافعل ، فان فى الله خلفا من غيره ، وليس فى شىء خلف منه ، فاشتد على الظالم ، ولِن لأهل الخير ، وقربهم إليك ، واجعلهم بطانتك وإخوانك . والسلام » .

* * *

وبعد أن فرغ محمد من قراءة كتابى أمير المؤمنين قال : « الحمد لله الذى هدانا وإياكم لما اختلف فيه من الحق ، وبصرنا وإياكم كثيرا مما عمى عنه الجاهلون . ألا إن أمير المؤمنين ولانى أمركم وعهد إلىّ ما سمعتم وأوصانى بكثير منه مشافهة ، ولن آلوكم خيرا ، وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ، فان يكن ما ترون من أعمالى طاعة لله

وتقوى فاحمدوا الله على ما كان من ذلك . فانه هو الهادى له ، وإن رأيتم عملا بغير الحق فارفعوه إلىَّ وعاتبونى فيه ، فانى بذلك أسعد وأنتم جديرون . وفقنا الله وإياكم لصالح الأعمال » :

ولكن محمدا لم ينتصح بنصيحة قيس بن سعد ، فما كاد يستقر فى مصر حتى أرسل إلى أهل خربتا الذين وادعهم سعد ، فأنذرهم : « إما أن تدخلوا فى طاعتنا وإما أن تخرجوا من بلادنا ! » فردوا عليه : « إنا لا نفعل ، فدعنا حتى ننظر إلى ما يصير إليه أمر الناس » .

كانت مصر غنية ، ليس فى الأمة الإسلامية من له مثل غناها : كانت جنة خضراء وارفة الظلال ، تجرى تحتها الأنهار ، تؤتى أحسن الثمرات ، حتى لقد كانت قبل الفتح الإسلامى تطعم وتغذى الإمبراطورية الرومانية بأسرها فأسموها سلة فاكهة العالم ، ومخزن غلال أهل الأرض !

وكانت متقدمة فى صناعاتها وبصفة خاصة صناعة النسيج حتى لقد كانت كلُ بلاد الدنيا تحرص على استيراد الفاخر من منسوجات مصر ، وخاصة تلك التى تسمى القباطى . .

وكان أغلب أهل مصر لعلىٍّ شيعة ينصرونه ، أما معاوية ، فلم يكن له إلا الذين اعتزلوا فى خربتا ، وما شايعوا معاوية إلا لأن فيهم بعض ذوى قرباه ، وإلا لأنهم انخدعوا بأن معاوية يحارب عليا مطالبا بقتلة عثمان حقا . . !

فلما أرسل إليهم محمد بن أبى بكر يطلب منهم البيعة أو الخروج من مصر ليلحقوا بمعاوية ، آثروا أن يتريثوا ليروا ما يكون من أمر الحكمين ، فى دومة الجندل . . !

كانت الأمة الإسلامية كلها تنتظر الحكمين بدومة الجندل ، ذلك المكان الهادىء من الدنيا الذى يتوسط الطريق بين الكوفة ودمشق .

فلما علم الإمام أن محمدا يشتد على أهل خربتا فى طلب البيعة وهم يماطلونه ، رأى أن يوجه كتابا إلى أهل مصر وأغلبهم شيعته ، وإلى محمد وهو ربيبه الذى تربى فى حجره . إذ تزوج أمه أسماء بعد أن مات عنها أبو بكر ومحمد طفل ، فما عرف له أباً غير على . .

فى تلك الأيام المضطربة التى تشرئب فيها الأطماع إلى دنيا معاوية ، ويختلط فيها الفجور بالتقوى ، وتميل الموازين ، كتب الإمام إلى أهل مصر وأميرهم محمد بن أبى بكر يعظهم ويعلمهم : « أما بعد ، فانى أوصيكم بتقوى الله والعمل بما أنتم عنه مسؤولون ،

فأنتم به رهن ، وإليه صائرون ، فان الله عز وجل يقول: ﴿ **كل نفس بما كسبت رهينة** ﴾ وقال : ﴿ **ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير** ﴾ ، وقال : ﴿ **فوربك لنسألهن أجمعين ، عما كانوا يعملون** ﴾ فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصغير من أعمالكم والكبير ، فان يعذب فنحن الظالمون ، وإن يغفر ويرحم فهو أرحم الراحمين ، واعلموا أن أقرب ما يكونَ العبد إلى الرحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة الله ومناصحته فى التوبة ، فعليكم بتقوى الله عز وجل ، فإنها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها ، ويدرك بها من الخير ما لا يدرك بغيرها : خير الدنيا وخير الآخرة ، يقول سبحانه : ﴿ **وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين** ﴾ . واعلموا عباد الله أن المؤمنين المتقين قد ذهبوا بعاجل الخير وآجله ، أشركوا أهل الدنيا فى دنياهم ، ولم يشاركهم أهل الدنيا فى آخرتهم . يقول الله عز وجل : ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾ سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت ، وأكلوها بأفضل ما أكلت ، شاركوا أهل الدنيا فى دنياهم فأكلوا من أفضل ما يأكلون ، وشربوا من أفضل ما يشربون، ويلبسون من أفضل ما يلبسون ، ويسكنون من أفضل ما يسكنون ، أصابوا لذة أهل الدنيا مع أهل الدنيا ، مع أنهم غدا من جيران الله عز وجل ، يتمنون عليه ، لا يرد لهم دعوة ، ولا ينقص لهم لذة . أما فى هذه ما يشتاق إليه كل من له عقل ؟! » .

واعلموا عباد الله أنكم إذا اتقيتم ربكم ، وحفظتم نبيكم فى أهل بيته ، فقد عبدتم الله بأفضل ما عبد ، وذكرتموه بأفضل ما ذكر ، وشكرتموه بأفضل ما شكر ، وأخذتم بأفضل الصبر ، وجاهدتم بأفضل الجهاد ، وإن كان غيركم أطول صلاة منكم ، وأكثر صياما ، إذا كنتم أتقى لله وأنصح لأولياء الله من آل محمد صلى الله عليه وآله ـ وأخشع . . . . أما أنَّا لو لم نخوف إلا ببعض ما خوفنا به لكنا محقوقين (حقيق بنا) أن يشتد خوفنا مما لا طاقة لنا به ، ولا صبر لنا عليه ، وأن يشتد شوقنا إلى ما لا غنى لنا عنه ولابد لنا منه ، فان استطعتم عباد الله أن يشتد خوفكم من ربكم فافعلوا ، فان العبد إنما تكون طاعته على قدر خوفه ، وإن أحسن الناس لله طاعة ، أشدهم خوفا .

وانظر يا محمد صلاتك كيف كنت تصليها ، فإنما أنت إمام ينبغى لك أن تتمها وأن تخففها وأن تصليها لوقتها ، فإنه ليس من إمام يصلى بقوم فيكون فى صلاته وصلاتهم نقص إلا كان إثم ذلك عليه ، ولا ينقص من صلاتهم شيئا .

واعلم أن كل شيء من عملك يتبع صلاتك ، فمن ضيع الصلاة فهو لغيرها أشد تضييعا ، ووضوءك من تمام الصلاة ، فأت به على وجهه ، فالوضوء نصف الإيمان . أسأل الله الذى يَرى ولا يُرى وهو بالمنظر الأعلى أن يجعلنا وإياك من المتقين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

فإن استطعتم يَا أهل مصر أن تصدق أقوالكم أفعالكم ، وأن يتوافق سركم وعلانيتكم ، ولا تخالف ألسنتكم قلوبكم فافعلوا ، عصمنا الله وإياكم بالهدى ، وسلك بنا وبكم المحجة الوسطى ، وإياكم ودعوة الكذاب ابن هند ! وتأملوا واعلموا أنه لا يستوى إمام الهدى وإمام الرأى ، ووصى النبى وعدو النبى ، جعلنا الله وإياكم ممن يحب ويرضى . ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إنى لا أخاف على أمتى مؤمنا ولا مشركا ، أما المؤمن فيمنعه الله بإيمانه ، وأما المشرك فيجزيه الله بشركه ، ولكنى أخاف عليهم كل منافق اللسان ، يقول ما تعرفون ، ويفعل ما تنكرون » .

واعلم يا محمد أن أفضل الفقه الورع فى دين الله ، والعقل بطاعته ، فعليك بالتقوى فى سر أمرك وعلانيته ، أوصيك بسبع هن جوامع الإسلام : اخش الله ولا تخش الناس ، وخير القول ما صدقه العقل ، ولا تقض فى أمر بقضاءين مختلفين فيتناقض أمرك وتزيغ عن الحق ، وأحب لعامة الرعية ما تحبه لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك . وأصلح أحوال رعيتك ، وخض الغمرات إلى الحق ، ولا تخف فى الله لومة لائم ، وانصح لمن استشارك ، واجعل نفسك أسوة لقريب المسلمين وبعيدهم . جعل الله خلتنا ودنا خلة المتقين ، وود المخلصين ، وجمع بيننا وبينكم فى دار الرضوان ، إخوانا على سرر متقابلين . إن شاء الله » .

وكان محمد قد تعود أن يتأدب بكل ما يعظه به على ، فأخذ يقرأ هذا الخطاب لنفسه وعلى الناس . .

واستبطأ محمد بن أبى بكر رد الذين فى خربتا ، فبعثوا إليه يسألونه مهلة أخرى ، وسيردون عليه بعد أن يتشاوروا فيما يدعوهم إليه من البيعة لعلى أو الخروج إلى معاوية !

وفى الحق أنهم كانوا ينتظرون قضاء الحكمين ، كما كانت الأمة كلها تنتظر . .

* * *

وجاء يوم إعلان رأى الحكمين بعد أن طال انتظار الناس .

اجتمع أبو موسى الأشعرى ، وعمرو بن العاص ، فعظم عمرو أبا موسى وأثنى على سابقته فى الإسلام ، وحسن رأيه وورعه وتقواه - ثم قال : « يا أبا موسى ، ألست تعلم أن عثمان قتل مظلوما ؟ » قال : « بلى » . قال : « فما يمنعك يا أبا موسى من معاوية ولى دم عثمان ، وبيته فى قريش ما قد علمت ؟ فان خشيت أن يقول الناس ولىُّ معاوية وليست له سابقة فى الإسلام فإن لك بذلك حجة ، تقول : إنى وجدته ولى عثمان الخليفة المظلوم ، والطالب بدمه ، الحسن السياسة ، الحسن التدبير ، وهو أخو أم حبيبة بنت أبى سفيان أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ ، وقد صحبه وهو أحد الصحابة » .

وسكت أبو موسى يفكر .

فاستمر عمرو يقول ، وقد التمعت عيناه : « فان ولى معاوية الأمر أكرمك كرامة لم يكرمك أحد قط مثلها يا أبا موسى » .

فقال أبو موسى مغضبا : « اتق الله يا عمرو ! أما ذكرك شرف معاوية فان هذا الأمر ليس على الشرف يولاه أهله . إنما هو لأهل الدين والفضل . مع أنى لو كنت أعطيه أفضل قريش شرفا أعطيته على بن أبى طالب . وأما قولك أن معاوية ولىُّ عثمان فولِّه هذا الأمر فإنى لم أكن أوليه معاوية وأدع المهاجرين الأولين . أما تعريضك بالسلطان فوالله لو خرج لى من سلطانه ما وليته . ولا كنت لأرتشى فى الله ، ولكن والله لو استطعت لأحيين اسم عمر بن الخطاب » . . .

وطرب عمرو ، فها هو ذا أبو موسى ، لا يتشبث بعلى بن أبى طالب .

وانقض عمرو على هدفه : « إذا كنت تعدل عن على بن أبى طالب وتريد أن تبايع ابن عمر ، فما يمنعك من ابنى عبد الله وأنت تعرف فضله وصلاحه ؟ » قال أبو موسى : « إن ابنك رجل صدق ، ولكنك قد غمسته فى هذه الفتنة ، إن شئت ولينا الطيب ابن الطيب عبد الله بن عمر بن الخطاب » .

فقال عمرو : « إن هذا أمر لا يصلح له إلا رجل له ضرس يأكل ويطعم وإن عبد الله ابن عمر ليس هناك » فافترقا .

وعلم خاصة الناس بما دار بين أبى موسى وعمرو ، فذهب عبد الله بن الزبير - وكان قد حارب عليا يوم الجمل - إلى ابن عمر . فقال : « اذهب إلى عمرو بن العاص فارشه » قال ابن عمر : « لا والله ما أرشو عليها أبدا . . » .

وكان عمر بن الخطاب فى آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة قد أوصى المسلمين ألا يفكروا فى بيعة ابنه عبد الله ، وأوصى عبد الله ألا يفكر فى الخلافة ، فما فكر فيها قط !

ومضى ابن عمر إلى عمرو بن العاص يؤنبه : « ويلك يا ابن العاص ! إن العرب قد أسندت إليك أمرها بعد ما تقارعت بالسيوف وتشاجرت بالرماح ، فلا تردهم فى فتنة واتق الله » .

وفى ذلك اليوم صمم الحكمان على أن ينتهيا إلى اتفاق فقد سئم الناس أمرهما ، وها هو ذا ابن عمر يتهم أحد الحكمين أنه يوشك أن يرد الناس إلى فتنة !

فأجلس عمرو أبا موسى فى صدر المكان ، وقال له : « يا أبا موسى ليس أهل العراق بأوثق بك من أهل الشام ، لغضبك لعثمان وبغضك للفرقة ، وقد عرفت حال معاوية فى قريش وشرفه فى بنى عبد مناف . فما ترى ؟ » قال أبو موسى : « أرى خيرا . أما غضبى لعثمان فلو شهدته لنصرته ، وأما بغضى للفتن فقبح الله الفتن . وأما معاوية فليس بأشرف من على فى قريش أوفى بنى عبد مناف » وأبو موسى يريد زوج ابنته عبد الله بن عمر ، وعمرو قد أطمعه تخلى أبى موسى عن على فى أن يوليها ابنه عبد الله . ولكن أبا موسى يأبى إلا ابن عمر لا لأنه زوج ابنته فحسب ، ولكن لمزايا فيه .

فلما التقيا مرة أخرى قال أبو موسى وقد عز عليه أنهما لم يتفقا : « يا عمرو هلم إلى أمر يجمع الله به الألفة ، ويلم الشعث ، ويصلح ذات البين » . فقال عمرو : « جزاك الله خيرا يا أبا موسى ، غير أن للكلام أولا وآخرا ، ومتى تنازعنا الكلام خطبا لم نبلغ آخره حتى ننسى أوله» ، فاجعل ما كان بيننا من كلام فى كتاب يصير إليه أمرنا » قال أبو موسى : « فاكتب » . فأمر عمرو بصحيفة ودعا غلامه ليكتب . فقال عمرو : « اكتب يا غلام : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما تقاضى عليه فلان وفلان » فكتب الغلام : « هذا ما تقاضى عليه عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى عبد الله بن قيس » فزجر عمرو غلامه قائلا : « لا أم لك ! أتقدمنى قبل أبى موسى كأنك جاهل بحقه ؟! » وأملى فبدأ باسم أبى موسى ثم استمر يملى على غلامه : « تقاضيا على أنهما يشهدان أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن أبا بكر خليفة رسول الله ﷺ حتى قبضه الله إليه ، قد أدى الحق الذى عليه ، وكذلك خليفته عمر . وأن عثمان ولى هذا الأمر بعد عمر على إجماع من المسلمين وشورى من أصحاب رسول الله ﷺ ورضا منهم ، وإنه كان مؤمنا » .

فقال أبو موسى : « ليس هذا مما قعدنا له » قال عمرو : « والله لا بد أن يكون مؤمنا أو كافرا » فقال أبو موسى : « كان مؤمنا » فقال عمرو : « فظالما قتل أم مظلوما ؟ » قال أبو موسى : « بل مظلوما » قال عمرو : « أفليس قد جعل الله لوليه سلطانا يطلب دمه ؟ » قال أبو موسى : « بلى » قال عمرو : « فهل تعلم لعثمان وليا أولى من معاوية ؟ » قال : « لا » قال : « أفليس لمعاوية أن يطلب قاتله حيثما كان حتى يقتله أو يعجز عنه ؟ » قال أبو موسى مستسلما : « بلى » .

فوثب عمرو قائلا : « إذن قل أنت للكاتب فليكتب هذا ، فإنَّا نقيم البينة على أن عليا قتل عثمان » قال أبو موسى : « إنما اجتمعنا لغير هذا » . .

فأمر عمرو غلامه فكتب ما قاله أبو موسى ، ثم أخذ عمرو الصحيفة بعد أن وقعا عليها وختماها ووضعها فى جيبه . ثم قال : « يا أبا موسى ، إنك شيخ أصحاب رسول الله ﷺ وذو فضلها وذو سابقتها ، وقد ترى ما وقعت فيه هذه الأمة من الفتنة العمياء التى لا بقاء معها ، فهل لك أن تكون ميمون هذه الأمة فيحقن الله بك دماءها ، فانه يقول فى نفس واحدة : ﴿ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ . فكيف بمن أحيا أنفس هذا الخلق كله ؟ ! » .

قال له أبو موسى : « وكيف ذلك ؟ » قال : « تخلع أنت على بن أبى طالب ، وأخلع أنا معاوية ، ونختار لهذه الأمة رجلا لم يحضر فى شىء من الفتنة ، ولم يغمس يده فيها وهو عبد الله بن عمر الذى تريده » .

وعجب أبو موسى لتحول عمرو إلى الموافقة على عبد الله بن عمر، ولكن كل الذى كان يريده عمرو هو أن يعلن أبو موسى أنه يتخلى عن على .

قال أبو موسى : « ولكن يا عمرو كيف لى بالوثيقة منك على أن تجعلها لعبد الله ابن عمر» قال: « ألا بذكر الله تطمئن القلوب . خذ من العهود والمواثيق حتى ترضى » وأعطاه عمرو من المواثيق ما أذهله .

وخرجا إلى الناس الذين كانوا ينتظرون فى قلق . . وقدم عمرو بن العاص أبا موسى ، وعظمه ، وتأخر هو ، ثم قال له : يا أبا موسى أعلم الناس أن رأينا قد اتفق » فقال أبو موسى : « أيها الناس إن رأينا قد اتفق على أمر نرجو أن يصلح الله به أمر هذه الأمة » فقال عمرو : « صدق وبر تقدم يا أبا موسى » وابتسم عمرو والتمعت عيناه ! ولاحظه ابن عباس فوثب يحاول منع أبى موسى من الكلام ، وكأنه استشعر الخديعة

فقال : « يا أبا موسى . ويحك ! والله إنى لأظنه قد خدعك ، إن كنتما قد اتفقتما على أمر فليتكلم به قبلك، فإنه رجل غادر ، ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضى بينكما ، فإذا قمت فى الناس خالفك » .

فأسرع عمرو قبل أن يجيب أبو موسى فقال : « يا أبا موسى تقدم أنت ، فأنت أسبق منى فى الإسلام ، وأنت شيخ أصحاب رسول الله ﷺ وأسن منى ، فتكلم » فصاح ابن عباس مرة أخرى : « ويحك يا أبا موسى ! » فقال أبو موسى مغضبا : « إيها عنك يا ابن عباس ، إنا قد اتفقنا » .

ثم حمد الله وأثنى عليه وقال : « يا أيها الناس ، إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها ، من أمر قد أجمع رأيى ورأى عمرو عليه : أن نخلع عليا ومعاوية ، ونجعلها لعبد الله بن عمر » .

ثم قعد ، ووقف عمرو فقال : « إن هذا قال ما قد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه عليا كما خلعه ، وأثبت صاحبى معاوية فى الخلافة . فانه ولى عثمان والطالب بدمه ، وأحق الناس بمقامه » .

وتصايح الناس واختلطت الأصوات : دهش أصحاب على ، وصفق أصحاب معاوية .

وانقض أبو موسى على عمرو فقال له : « مالك لا وفقك الله ، قد غدرت وفجرت » . . فضحك عمرو ، وعيناه تلمعان بنظرات ظافرة . .

فقال سعد بن عبادة : « ما أضعفك يا أبا موسى عن عمرو ومكايده ! » فقال أبو موسى : « فما أصنع ؟ وافقنى على أمر ثم نزع عنه » قال ابن عباس منكسر القلب : « لا ذنب لك يا أبا موسى ! الذنب ذنب من قدمك فى هذا المقام ! » . . وقال لمن حوله : « لقد حذرته وهديته إلى الرأى فما عقل » .

وصاح أبو موسى فى ندم : « لقد حذرنى ابن عباس غدرة الفاسق ولكنى اطمأننت إليه ، وظننت أنه لن يؤثر شيئا على نصيحة الأمة » .

وصاح عبد الله بن عمر يؤنب الحكمين . . فما الزج باسمه فيما لا شأن له به ؟!

ووقف عمرو وسط وفد أهل الشام يضحكون ويتصايحون طربا ، واهتز بدن عمرو من الضحكات ، وهو ينظر إلى أصحاب على يحتدمون غيظا ، فانقض منهم شريح

ابن هانىء على عمرو فعلاه بالسوط، فقام لشريح ابن لعمرو فرفع سوطه غير أن الناس قاموا بينهما ، فقال شريح : « ليتنى علوته بالسيف ! » وصاح سعيد بن قيس فى الحكمين أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص : « ما ضلالكما بلازمنا ، وما رجعتما إلا بما بدأتما ، وإنا اليوم لعلى ما كنا عليه بالأمس » .

فقام يزيد بن أسد من أصحاب معاوية فقال : « يا أهل العراق ، اتقوا الله ، لقد شخصت الأبصار إلى الصلح ، وأشرفت الأنفس على الفناء ، وأصبح كل امرىء يبكى على قتيل . ما لكم رضيتم بأول أمر صاحبكم وكرهتم آخره . إنه ليس لكم وحدكم الرضا » .

ووقف ابن عمر يتململ وهو يتأمل أبا موسى يتغيظ على عمرو وعمرو يضحك مزهوا بنجاح الخديعة ، فقال ابن عمر حزينا : « انظروا إلى ما صار إليه أمر هذه الأمة : إلى رجل لا يبالى ما صنع وآخر ضعيف » .

وهرب أبو موسى إلى مكة حيث اعتزل يتعبد ندما . . أما عمرو وأهل الشام فانطلقوا إلى معاوية وهو ينتظر فى سرادقه الفخيم غير بعيد ، فسلموا عليه بالخلافة ، وعاد أصحاب على إليه كاسفى البال ، يتمزقون من الغيظ . . !

أما المتطرفون الذين قبلوا التحكيم إذ الامام يرفضه ، وتمسكوا بأن يكون أبو موسى هو مندوب على ، واضطروه إلى قبوله ، فقد عادوا يلومون الإمام لأنه قبل التحكيم ، ثم لأنه قبل أبا موسى !! . . لاموا الإمام لأنه لم يقهرهم على الصواب ، وتركهم يقهرونه على الخطأ . . ! . . ونسوا أنهم إنما هددوه بالقتل إذا لم يذعن لما يفرضه تطرفهم وتوترهم !!

وأقيمت الأفراح بدمشق ، وبدأ عمرو يستنجز معاوية وعده : أن يعطيه مصر طعمة . . (أى هدية له ، خراجها كله له) وكان معاوية قد أخذ يوزع الهدايا على رجاله .

وكتب معاوية إلى أبى موسى فى مكة : « سلام عليك ، أما بعد ، فالحق لمن نصب له فأصابه ، وليس لمن عرض له فأخطأ ، وقد كان الحكمان إذ حكما على علىٍّ لم يكن له الخيار عليهما ، وقد اختاره القوم عليك ، فاكره منهم ماكرهوا منك ، وأقبل إلى الشام ، فانى خير لك من على ، ولا قوة إلا بالله » .

فكتب إليه أبو موسى : « سلام عليك ، فإنى لم يكن منى فى على إلا ما كان من عمرو فيك ، غير أنى أردت ما صنعت ما عند الله ، وأراد به عمرو ما عندك ! . . وقد كان بينى وبين عمرو شروط وشورى عن تراض ، فلما رجع عمرو رجعت . أما قولك أن

الحكمين إذا حكما على رجل لم يكن له الخيار عليهما ، فإنما ذلك فى الشاة والبعير والدينار والدرهم . فأما أمر هذه الأمة ، فليس لأحد فيها يكره حكم ، ولن يذهب الحق عجز عاجز ولا خدعة فاجر . وأما دعاؤك إياى إلى الشام فليس بى رغبة عن حرم إبراهيم » .

فكتب الإمام إلى أبى موسى : « سلام عليك ، أما بعد . فإنك امرؤ ظلمك الهوى واستدرجك الغرور ـ حقق بك حسن الظن لزومك بيت الله الحرام غير حاج ولا قاطن ، فاستقل الله يقلك ، فإن الله يغفر ولا يغفل ، وأحب عباده إليه التوابون » .

فأجابه أبو موسى : « أما بعد ، فإنه والله لولا أنى خشيت أن يرفعك منى منع الجواب إلى أعظم مما فى نفسك لم أجبك ، لأنه ليس لى عندك عذر ينفعنى ولا قوة تمنعنى ، وأما قولك : لزومى بيت الله الحرام غير حاج ولا قاطن ، فإنى اعتزلت أهل الشام ، وانقطعت عن أهل العراق ، وأصبت أقواما صغروا من ذنبى ما عظمتم ، وعظموا من حقى ما صغرتم ، إذ لم يكن لى منكم ولىٌّ ولا نصير » .

* * *

أما المتطرفون من أصحاب الإمام وتلاميذه القراء الذين كانوا قد عادوا من حروراء ، فقد لقى بعضهم بعضاً حين علموا بما كان من أمر الحكمين واجتمعوا فى منزل عبد الله ابن وهب الراسبى فحضهم على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ثم دعاهم إلى الهجرة من الكوفة وقال لهم : « يا حملة القرآن ، اخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها إلى الجبال ، منكرين لهذه البدع المضلة » فقال عرقوص : « إن المتاع بهذه الدنيا قليل ، وإن الفراق لها وشيك ، فلا تدعونكم زينتها وبهجتها إلى المقام بها ، ولا تلفتنكم عن طلب الحق وإنكار الظلم ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

وكان لابد لهم من أمير ، فبايعوا عبد الله بن وهب أميرا عليهم ، وكان يقال له : « ذو الثَّفِنَات » ، والثفنة هى الركبة ، وكان طول السجود قد ترك فى ركبتيه آثارا واضحة .

فلما اختاروه أميرا قال : « والله لا آخذها ريبة فى الدنيا ، ولا أدعها فرقا من الموت . . فاشخصوا بنا إلى بلدة نجتمع فيها لإنفاذ حكم الله فانكم أهل الحق » فقال رجل منهم : « نخرج إلى المدائن ، فننزلها، ونأخذ بأبوابها ، ونخرج منها سكانها ، ونبعث إلى إخواننا من أهل البصرة فيقدمون علينا » فقال أحد زعمائهم : « إنكم إن خرجتم مجتمعين تبعوكم . ولكن اخرجوا وحدانا مستخفين . فأما المدائن فإن بها من يمنعكم ، ولكن سيروا حتى تنزلوا النهروان وتكاتبوا إخوانكم من أهل البصرة » قالوا : « هذا هو الرأى » .

فكتبوا إلى أهل البصرة ليوافوهم بالنهروان .

* * *

واجتمعوا ليلة قرروا الخروج فى مكان فسيح خارج الكوفة ، فتعبدوا طوال الليل ، وخرجوا قبيل الفجر ، وهم يتلون : ﴿ **فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين * ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل** ﴾ .

وحاول بعض الشباب أن يلحق بهم ، فمنهم من رده أهله ، ومنهم من أفلت وخرج معهم . . وكان ممن أفلت معهم طرفة بن عدى بن حاتم .

وشعر معاوية أن عمرو بن العاص يتطاول عليه بما حققه له ، ويزهو بحضور ذهنه ، ويكاد يعيره بأنه هو الذى جاء له بالخلافة . . وأنه يطلع الناس خفية على الصحيفة التى وقع عليها أبو موسى . .

فأراد معاوية أن يصغر من شأن عمرو ، وأن يضعه فى مكان التابع فى حدود لا يتجاوزها ، وبالحجم الذى يريده له أميره ! . . فلما دخل عمرو ، ومع معاوية رؤساء الشام ووجوه بنى أمية ، التفت إلى عمرو ، وصفق بيديه وأشار إليه وهو يضحك !

والتفت الجميع إلى عمرو فضحكوا . .

وعجب عمرو . . فقال لمعاوية : « مم تضحك يا أمير المؤمنين ، أضحك الله سنك !؟ » قال : « أضحك من حضور ذهنك عند إبداء سوأتك يوم ابن أبى طالب ، والله لقد وجدته منانا كريما ، ولو شاء أن يقتلك لقتلك » .

فقال عمرو : « يا أمير المؤمنين ، أما والله إنى لعن يمينك حين دعاك لتبارزه فاحولت عيناك ، وانتفخ سَحْرُك (رئتك) ، وبدا منك ما أكره ذكره لك ، فمن نفسك فاضحك أو فدع » .

ولم يغضب معاوية وأبدى لعمرو وللناس أن حلمه يسع ما يقوله عمرو ، واستمر يضحك ، وترجرج جسده المترهل ، وضحك الحاضرون ، وارتجت بالضحكات جنبات القصر العظيم المتلألىء بالأنوار الساطعة .

وسرى شعاع سراج خافت فى دار أمير المؤمنين بالكوفة ، وهو جالس على الحصير ، يفكر فى قضاء الله بعد أن سمع أنباء الخديعة . .

وقام ليله يتهجد ويتعبد ، وذكر الله كثيرا . . وحمد الله الذى لا يحمد على مكروه سواه . .

وخشى أن يكون قد نبت منه خلجة سخط ، وكان فى أعماقه يضطرم سخطا على كل ما يمزق الأمة من الخديعة والتطرف ، فاتجهٔ إلى الله يدعوه : « اللهم اغفر لى ما أنت أعلم به منى ، فانى عدت فعد على بالمغفرة ، اللهم اغفر لى ما وأيت (وعدت) من نفسى ، ولم تجد له وفاء عندى » .

اللهم اغفر لى ما تقربت به إليك بلسانى ، ثم خالفه قلبى . اللهم اغفر رمزات الألحاظ (الاشارة بالعين) ، وسقطات الألفاظ ، وسهوات الجنان وهفوات اللسان » .

* * *

الفصـــل الســـادس

مـا كذبــت ولا كذبــت !

جلس على بين أصحابه فى مسجد الكوفة ، وكلهم حزين واجم !

وتصفح الإمام وجوه أصحابه ، فقرأ فيها الندم !

ما من أحد منهم يستطيع أن ينظر فى عينى صاحبه .

لقد أكرهوا الإمام على ما كان يرفضه ، وها هى ذى العقبى !!

وقـطع الإمـام الصمت المثقـل بالندم بقوله : « إنى كنت تقدمت إليكم فى هذه الحكومة ونهيتكم عنها ، فأبيتم إلا عصيانى ، فكيف رأيتم عاقبة أمركم إذ أبيتم على ؟! والله إنى لأعرف من حملكم على خلافى والترك لأمرى ولو أشاء أخذه لفعلت ، ولكن الله من ورائه » .

واتجهت الأنـظار إلى الأشعث بن قيس ، وهـو يكـاد يستغشى ثيابه ليختفى عن الأنظار ، هربا من العار !..

عار عليك يا أشعث .. !! أنت الذى دفعت أمير المؤمنين إلى ما هو فيه الآن : أصررت على التحكيم إصرارا ، وألَّبت القراء المتطرفين أيها الرجل الحكيم ، ثم استكبرت استكبارا ، فأبيت أن تقبل حكما عن الإمام إلا أبا موسى الأشعرى ، لأنه يَمَنِىٌّ مثلك ، وما ينبغى أن يكون الحكمان من مضر !!..

ياللعصبية الجاهلية.. !.. كيف لم يطهر الإسلام منها قلبك ؟!

ولكن أهى العصبية الجاهلية فحسب ، أم صبوت إلى دنيا معاوية بما فيها من ترف وجاه وسلطة ، وهذه الأشياء التى تثير الكبرياء والعزة فى النفس ، ألم تعلم بأن الكبرياء والعزة لله جميعاً ؟!

وقام رؤساء القبائل والعشائر ، يذمون سوء مكر عمرو ، ويتهمون أبا موسى الأشعرى بالغفلة !

والإمام صامت . . !

فقال أحد رؤوس العشائر : « ما منع أمير المؤمنين أن يأمر بعض أهل بيته فيتكلم . فإنه لم يبق أحد من رؤساء العرب إلا وقد تكلم ؟! » .

قال الإمام لأكبر أبنائه الحسن : « قم يا حسن فقل فى هذين الرجلين : أبى موسى الأشعرى عبد الله بن قيس ، وعمرو بن العاص » .

فقام الحسن فقال : « أيها الناس إنكم قد أكثرتم فى هذين الرجلين ، وإنما بعثا ليحكما بالكتاب على الهوى ، فحكما بالهوى على الكتاب ! ومن كان هكذا لم يسم حكما ، ولكنه محكوم عليه . وقد أخطأ أبو موسى إذ جعلها لعبد الله بن عمر ، فأخطأ فى ثلاث خصال : واحدة أنه خالف أباه عمر بن الخطاب إذ لم يرضه لها ، ولا جعله من أهل الشورى ، وأخرى ، أنه لم يستأمر ابن عمر فى نفسه ، وثالثة ، أنه لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس » .

فلما جلس الحسن ، قال على لعبد الله بن عباس : « قم » ، فوقف خطيبا فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : « إن للحق أهلا أصابوه بالتوفيق ، فالناس بين راض له وراغب عنه ، فإنه بعث أبا موسى بهدى إلى ضلالة ، وبعث عمرو بن العاص بضلالة إلى هدى ، فلما التقيا رجع أبو موسى عن هداه وثبت عمرو على ضلاله ، لعمر الله لئن كانا حكما بما سارا به ، لقد سار أبو موسى وعلى إمامه ، وسار عمرو ومعاوية إمامه ، فما بعد هذا من عيب ينتظر ؟! » .

وجلس ، فأمر الإمام ابن أخيه عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بأن يقول ، فقام فقال : « أيها الناس ، إن هذا الأمر كان النظر فيه إلى أمير المؤمنين ، والرضا إلى غيره ، فجئتم إلى أبى موسى فقلتم لا نرضى إلا به . وأيم الله ما استفدنا به علما، ولا انتظرنا منه غائبا ، وما نعرفه صاحبا ! وما أفسد الحكمان بما فعلا أهل العراق ، وما أصلحا أهل الشام ، ولا وضعا حق على ، ولا رفعا باطل معاوية ، ولا يذهب الحق رقية راق ، ولا نفخة شيطان ، ونحن اليوم على ما كنا عليه أمس » ثم جلس .

* * *

وأمر الإمام عماله الذين كانوا معه فى صفين أن يعودوا إلى ولاياتهم ، فعاد عبد الله ابن عباس إلى البصرة ، وعاد الأمراء الآخرون إلى أمصارهم !

الله وحده أعلم بما يمكن أن يحدث فى هذه الأمصار ، بعد أن مزق معاوية شمل الأمـة ، وأقسم أن يجذب إليه أصحاب على ، وأن يغلبهم على دينهم بدنياه !! إلى أين انتهت بالمسلمين الأمور إذن ؟! ها هى ذى الأمة الإسلامية تمزقت دولتين : دولة فى الشام يحكمها معاوية وينادونه فيها : « أمير المؤمنين » ، ويلقبونه « الملك » ، وهو يقول فى زهو أنـه فى الإسـلام أول الملوك !.. ثم دولـة أخـرى يحكمهـا على بورع الإمامة ، وتقوى الخلافة ، وزهد العارفين بالله ، وهو يخاف على كل من فيها صولة الباطل وفتنة المال والجاه .. !

أما زال فى الأمة من يؤمن حقا بأن معاوية يريد « قتلة عثمان ؟.. » لو أن معاوية يطالب بقتلة عثمان عن خطأ فى فهم الدين ، ولو أن الذين اصطنعهم من أهل العلم لم يفهموا الآية الكريمة : ﴿ ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا ﴾ .. ! لو كان هو الخطأ فحسب لعذرتهم يا على ، ولكان معاوية حريا أن ينيب إلى الصواب بعد ما أرسلت له مراراً وتكراراً تعظه وتوضح له معنى الآية الكريمة التى تجعل القصاص لولى الأمر !..

ولكنـه ليس الخـطأ فيثـوبـوا إلى الصواب ، بل هو الضلال ، وأنت لا تهدى من أحببت .. ! وما أشنع ما يصنعه الذين يزينون له ما يفعله !

أعلى وجه الأرض مسلم واحد يجهل أن معاوية ومن معه هم الفئة الباغية ؟! ما عذر العلماء الذين معه وهم يعلمون !!؟ لكم تزرى الأطماع بالرجال .. حتى العلماء !

إن معاوية ليخوض هذا الطوفان من الدماء على أشلاء آلاف الشهداء إلى هدف واحد : الملك !!؟

معاوية نفسه قال لوزيره المتسكع فى ضلاله عمرو بن العاص ثم كرر ما قاله ، إذ يحاول عمرو أن يشجعه على مبارزتك يا على : « يا عمرو ، إنك لتعرف أن ابن أبى طالب ما صارع أحدا إلا قتله ، ولكنك طمعت فى الخلافة ، يا عمرو ! » .. ويكرر : « طمعت فيها بعدى » .

معاوية نفسه طلب أن أقره على الشام ، وولاية مصر ، ثمنا للطاعة والدخول فى الجماعة !.. ولاية مصر !؟ أيكافىء بها معاوية عمرو بن العاص كما تعاهدوا من قبل ؟! ومعاوية نفسه اكتفى بأن أقره على الشام لما استيقن أن الدائرة فى الحرب ستدور عليه ..

وإذن فأين الطلب بدم عثمان ؟! . . كل المسلمين يعرفون أنه طلب الجاه والسلطة والملك !!

لو أنك لم تعزله من على الشام أول ما توليت يا ابن أبى طالب ، ولو لم تطالبه برد ما امتلكه بغير حق إلى بيت المال ، لما رفع الرأس بالعصيان ولما خرج على الجماعة زاعما أنه يخرج طلبا بدم عثمان !!

لقد نصحك الخلصاء بأن تترك معاوية ولا تعزله ، ولاتسترد منه ما ملكه بغير حق ، وسيبايع هو ومن معه من أهل الشام ، وصنائعه من أهل الفتوى !!

ولكن . . أكنت تتنازل عن دينك من أجل دنياك وسلطانك ؟! وإذن فكيف تأمر بعد ذلك بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟! كيف تقيم العدل بين الناس ؟! كيف كنت تستطيع أن تقسم الأموال بالسوية ؟!

لو أنك تركت معاوية لتكسب منه طاعته وطاعة من معه ، لخسرت إذن دينك من أجل دنياك ، ولأزريت بأهل التقوى ، وسحقت آمالهم فى العدل ، ولأذعنت لأهل الدنيا ، فنافقت أهواءهم وولعهم بالجاه والترف !!

إنه لقدرك يا على أن تكون مثلا لأهل التقوى : فتشق بيدك طريق الهداية لا تبالى بما يثيره شق الطريق من غبار ، وإن امتلأ به صدرك ، وغص به حلقك ، وأن تسلك طريق النور وإن لوحتك الشمس ، وأدمت قدميك الأشواك والصخور ، وسفت عليك رياح السموم بوهجها ، لأنك آخر الأمر ، تقود الركب إلى الظل الظليل . . إلى واحة الحقيقة ، وراحة اليقين . . !

وكلما وجدت بعض حملة القرآن يرتشون فى القرآن ، ويبيعون دينهم بدنيا الآخرين ، أصبح من المعين عليك أنت ومن معك من المتقين والمساكين ، أن تكابدو لتحاموا عن القرآن وتدافعوا عن الدين صولة الباغين ، وزيف المترفين !!

وانتهى إلى سمع الإمام صوت جليل يكاد يغيض فى دموع الندم . . لكم هو صادق ورائع هذا الندم الذى يخفق به الصوت ! . . ولكم هى حرّى تلك الدموع ! : « لقد عصيناك يا إمام المتقين . . ألنا توبة فيغفر الله لنا ؟! . . ما كان يجب علينا أن نقهرك على قبول أبى موسى الأشعرى » .

قال الإمام فى رنين حزين : « عفا الله عنكم . . اختار القوم لأنفسهم أقرب الناس

ممن يحبون وهو عمرو بن العاص ، واخترتم لأنفسكم أقرب الناس ممن تكرهون وهو قيس ابن عبد الله أبو موسى الأشعرى! » وسكت وسكتوا . . لا شىء غير هفيف الزفرات !!

وأخيرا قام الإمام خطيبا فقال : « الحمد لله وإن أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . أما بعد . . فان المعصية تورث الحسرة ، وتعقب الندم ، وقد كنت أمرتكم فى هذين الرجلين وفى هذه الحكومة أمرى ، ونحلتكم (أعطيتكم) رأيى ، لو كان لقصير أمر ! (قصير رجل عربى كان له صديق يحب ملكة وأراد أن يتزوجها فنصحه قصير أن يبتعد عنها ، ولكنه ذهب إليها فقتلته) ولكن أبيتم إلا ما أردتم ، فكنت أنا وأنتم كما قال أخو هوازن (دريد بن الصمة الشاعر الجاهلى) :

أمرتهمو أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد!
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد؟!

ألا إن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين ، قد نبذا حكم القرآن وراء ظهورهما ، وأحييا ما أمات القرآن ، واتبع كل واحد منهما هواه . بغير هدى من الله ، فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية ، واختلفا فى حكمهما ، وكلاهما لم يرشد ، فبرىء منهما الله ورسوله وصالح المؤمنين . فاستعدوا وتأهبوا للسير إلى الشام ، وأصبحوا فى معسكركم إن شاء الله يوم الاثنين » .

وارتفعت الرؤوس المنكسة ، وسطع أمل جديد فى الأعماق التى غشيتها ظلمات الخيبة واليأس والعار والندم ، فتعانقت النداءات : « الله أكبر الله أكبر . . لبيك يا أمير المؤمنين » .

وأرسل الإمام إلى الذين خرجوا عليه وساروا إلى النهروان : « من عبد الله أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى عبد الله بن وهب وزيد بن حصن ومن معهما من الناس ، أما بعد ، فإن الرجلين اللذين ارتضينا حكمين قد خالفا كتاب الله تعالى ، واتبعا أهواءهما بغير هدى من الله ، فلم يعملا بالسنة ، ولم ينفذا للقرآن حكما ، فبرىء الله منهما ورسوله والمؤمنون . فإذا بلغكم كتابى هذا فأقبلوا إلينا ، فإنا سائرون إلى عدونا وعدوكم ، ونحن على الأمر الأول الذى كنا عليه » .

فأجابوه : « أما بعد ، فإنك لم تغضب لربك ، وإنما غضبت لنفسك فإن شهدت

على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة ، نظرنا فيما بيننا وبينك ، وإلا نابذناك على سواء إن الله لا يحب الخائنين » .

ها هم أولاء بعد ما اعتدلوا يصيبهم العوج ، ويتطرفون مرة أخرى ، ويتهمون من خالفهم بالكفر !!

ألا في سبيل الله ما تلقى من الخادعين ومن الباغين الظالمين ومن الخارجين والمتطرفين على السواء !! ألا إنه بلاء شديد ، ولكنه بلاء في سبيل الله يا إمام المساكين !!

فلما قرأ الإمام كتاب الخوارج إليه رأى أن يتركهم إلى حين ، لقد استبد بهم الهوس ، وغرهم الجهل ، وضللتهم أمانيهم ، وحفظوا القرآن ، ولكنه لم يجاوز تراقيهم ، وغالوا في التعبد ، وهذا الغلو بالغ بهم هاوية الضلال من حيث أرادوا وديان الهدى !!

لقد هاجروا بأنفسهم عن مجتمع المسلمين ، وفي هذه الهجرة كفَّروا كل من يخالفهم حتى الإمام الذي علمهم هم وأساتذتهم هذا الدين !!

فليتركهم في بحرانهم ، وليحشد الناس إلى قتال معاوية وجنده ، عسى أن يستطيع إنقاذ الأمة بعد أن مزقها معاوية !

حتم عليه الآن أن يقاتل الفئة الباغية ، وإنه لجهاد في سبيل الله . . ولينصرن الله من ينصره . ووقف يخطب الناس في المسجد الجامع بالكوفة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد ، فإن من ترك الجهاد في الله وداهن في أمره كان على شفا هلكة ، إلا أن يتداركه الله بنعمته ، فاتقوا الله تعالى ، وقاتلوا من حادَّ الله ، وحاول أن يطفىء نور الله ، وقاتلوا الخاطئين الضالين القاسطين (الظالمين) ، الذين ليسوا بقراء القرآن ولا فقهاء في الدين ، ولا علماء بالتأويل ، ولا لهذا الأمر بأهل في سابقة الإسلام ، والله لو تولوا عليكم لعملوا فيكم بأعمال كسرى وهرقل ! تيسروا (تجهزوا) للمسير إلى عدوكم من أهل المغرب (يعني الشام فهو مغرب العراق) . وقد بعثنا إلى إخوانكم من أهل البصرة فإذا اجتمعتم شخصنا إن شاء الله تعالى . ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

* * *

شرع أمير المؤمنين يجيِّش الجيوش لقتال معاوية ، فأرسل إلى عبد الله بن عباس عامله على البصرة ، يطلب منه أن يستنفر مقاتلي البصرة إلى القتال ، وأن يرسلهم إلى معسكر أهل العراق بالنخيلة ، ليسيروا معا إلى قتال أهل الشام .

فلما استنفر ابن عباس أهل البصرة ، اثاقلوا إلى الأرض !!

فظل بهم يحرضهم على القتال ، فلم يجبه إلا ألف وخمسمائة على رأسهم الأحنف بن قيس . فقام ابن عباس خطيباً فقال : « يا أهل البصرة ، أمرتكم بالنفير إلى أمير المؤمنين ، فلم يشخص منكم إليه إلا ألف وخمسمائة . وأنتم ستون ألف مقاتل تأخذون العطاء (الراتب) سوى أبنائكم وعبيدكم . ألا انفروا إليه مع جارية بن قدامة السعدى ، ولا يجعلن رجل على نفسه سبيلا ، فإنى موقع بكل من وجدته متخلفا عن دعوته عاصيا لإمامه ، فلا يلومن رجل إلا نفسه » .

ونفر جارية ، ونفر معه ألف وسبعمائة ، فانضموا إلى من خرجوا مع الأحنف بن قيس ، فكانوا جميعاً ثلاثة آلاف ومائتين ، سيرهم ابن عباس إلى النخيلة . .

فلما وافوا الإمام حزن لقلة عددهم !!

واجتمع علىٌّ برؤساء أهل الكوفة ووجوه الناس ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « يا أهل الكوفة ، أنتم إخوانى وأنصارى وأعوانى على الحق وأصحابى إلى جهاد المحلين ، بكم أضرب المدبر ، وأرجو تمام طاعة المقبل ، وقد استنفرت أهل البصرة ، فأتانى منهم ثلاثة آلاف ومائتان !! فليكتب لى رئيس كل قبيلة ما فى عشيرته من المقاتلة الذين أدركوا القتال وعبدان عشيرته ومواليهم ، ويرفع ذلك إلينا » .

فقام سعيد بن قيس فقال : « يا أمير المؤمنين سمعا وطاعة ، أنا أول الناس أجاوب بما طلبت » وتكلم بمثل كلامه رؤوس العشائر جميعاً وفيهم عدى بن حاتم الطائى ، وحجر ابن عدى ، وأشراف الناس والقبائل . .

وقاموا فجمعوا له خمسة وستين ألفا .

وكتب الإمام إلى عامله على المدائن يطلب منه أن يرسل من عنده من المقاتلين ، فوافوه فى النخيلة ، فاجتمع له منهم جميعا جيش كثيف .

وتناجى بعض أصحابه : لو أن أمير المؤمنين رمى بنا هؤلاء الخوارج ، فإذا انتهينا من أمرهم سار بنا إلى الفئة الباغية فى الشام !

فلما بلغه ذلك وقف يحرض رجاله على الجهاد فقال : « إن غير هؤلاء أهم إلينا من الخوارج ، فسيروا إلى قتلة المهاجرين والأنصار قدما ، فإنهم طالما سعوا إلى إطفاء نور الله ، وحرضوا على قتال رسول الله ﷺ ومن معه . ألا إن رسول الله أمرنى بقتال القاسطين ،

وهم هؤلاء الذين سرنا إليهم ، والناكثين ، وهم هؤلاء الذين فرغنا منهم ، والمارقين ، ولم نلقهم بعد ! فسيروا إلى القاسطين فهم أهم علينا من الخوارج ، سيروا إلى قوم يقاتلونكم كيما يكونوا ملوكا جبارين يتخذهم الناس أربابا ، ويتخذون عباد الله خُوَلاً (أتباعا) وما لهم دولا » .

فتعالت الأصوات وتداخلت : « سر بنا يا أمير المؤمنين حيث أحببت » .

وقام أحد أصحابه فقال : « يا أمير المؤمنين نحن حزبك وأنصارك ، نعادى من عاداك ونشايع من أناب إلى طاعتك ، فسر بنا إل عدوك من كانوا وأينما كانوا ، فإنك إن شاء الله لن تؤتى من قلة عدد ولا ضعف نية الأتباع » .

وقال رجل آخر : « يا أمير المؤمنين ، إن قلب شيعتك كقلب رجل واحد فى الاجتماع على نصرتك ، والجد فى جهاد عدوك ، فأبشر بالنصر وسر بنا إلى أى الفريقين أحببت ، فإنا شيعتك الذين نرجو ـ فى طاعتك وجهاد من خالفك ـ صالح الثواب ، ونخاف ـ فى خذلانك والتخلف عنك ـ شدة الوبال » .

ورأى الإمام أن يرسل إلى الخوارج أحد أصحابه من أهل الشجاعة والحكمة فأرسل إليهم قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى ، وهو من أحكم العرب وأشجعهم ، وهو الذى حمل راية الأنصار يوم فتح مكة ، وكان رسول الله ﷺ يحبه ، وقد جعله منه كصاحب الشرطة . وهو صاحب مكيدة فى الحرب ، ورأى صائب . . وهو القائل : لولا أنى سمعت رسول الله يقول : المكر والخديعة فى النار ، لكنت من أمكر هذه الأمة . وكان عظيم الجود ، حتى لقد كان يستدين ويطعم الناس !

فسألهم أن يدخلوا فيما خرجوا منه فلم يسمعوه ، فذكرهم : ألم تعودوا من حروراء منذ أيام وتدخلوا فى الجماعة وتصلوا معنا خلف أمير المؤمنين على بن أبى طالب إمام الهدى وإمام هذه الأمة ؟ فما غيَّركم بعد أن عرفتم خديعة عمرو لأبى موسى ؟ ألا تذكر يا ابن الكواء إذ أنت إمام القوم فى حروراء أن أمير المؤمنين قال لك : إنه من أذنب فى هذا الدين ذنبا يكون فى الإسلام حدثا استتبناه من ذلك الذنب بعينه ، وأن توبتك أن تعرف هدى ما خرجت منه وضلال ما دخلت فيه ؟ فقلت لأمير المؤمنين : « إنا لا ننكر أنا قد فتنا » . ثم قال أحد زعمائكم : أدركنا والله هذه الآية : ﴿ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ﴾ ثم ندمتم على خروجكم ، فقال لكم أمير المؤمنين : عودوا إلى مصركم رحمكم الله . وركب فركبتم ، ودخلتم وراءه الكوفة ، وصليتم معنا الظهر ، كما قلت

آنفا ؟ فما يغيركم من ساعة لساعة رحمكم الله ؟ الحقوا بنا لنقاتل أعداءنا وأعداءكم ، والزموا الجماعة خلف أمير المؤمنين » .

فأخذوا يتجادلون فى رجوعهم خلف على من حروراء إلى الكوفة ، ولام بعضهم بعضا . . وقالوا : « إنما فتنا حين رجعنا إلى الكوفة وراء على وصلينا خلفه ! » .

وعجب لهم قيس بن سعد ، ما لهم كيف يحكمون ؟! . . ما لهم يندفعون من النقيض إلى النقيض فى ساعات . . يتطرفون من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ، ومن أقصى اليمين إلى أقصى اليسار بلا حجة أو برهان أو سلطان مبين ؟! . . فسكتوا ، ورفضوا أن يسترسلوا فى الكلام ، فعاد إلى النخيلة حيث كان أمير المؤمنين يستعد للخروج لقتال القاسطين .

وقبل أن يتحرك الإمام بجنده ، ارتفعت أصوات تلح عليه أن يحاول مرة أخرى أن يرسل إلى الخوارج من يراجعهم ليدخلوا فيما خرجوا منه . فأرسل إليهم أبا أيوب الأنصارى فاتاهم فقال لهم : « عباد الله إنا وإياكم على الحال الأولى التى كنا عليها . فعلام تقاتلوننا ؟ » فقالوا : « إنا لو تابعناكم اليوم حكمتم غدا ! » قال : « نشدتكم الله أن تعجلوا فتنة العام مخافة ما يأتى فى العام القادم » .

وعاد إلى أمير المؤمنين يصفق عجبا مما ركب هؤلاء القراء ، وكأنما أصابهم مس من الشيطان ، فهم يقولون ما لا يعقلون ، ويعجلون الفتنة .

ورأى الإمام أن يمضى بجنده إلى معاوية وجنده ، حتى إذا فرغ منهم وألزمهم الجماعة ، نظر فى أمر هؤلاء القراء المتطرفين الذين خرجوا عليه .

ولكن نبأ عظيما روع الإمام ! ذلك أن عبد الله بن خباب بن الأرت ، كان يسوق حمارا ركبته امرأته الحامل الوشيكة الوضع ، فمر بهؤلاء الخوارج الذين عسكروا بالنهروان . . فوثبوا إليه ففزع ، وفزعت امرأته ، فقالوا له : « من أنت ؟ » قال : « أنا عبد الله بن خباب » قالوا : « ابن خباب بن الأرت صاحب رسول الله ﷺ أأفزعناك وامرأتك ؟ » .

قال : « نعم » قالوا : « لا روع عليك ، فليأمن سربكما . أنتما آمنان » فشكرهم .

قالوا : « حدثنا عن أبيك الصحابى الجليل رحمه الله ورضى الله عنه حديثا سمعه من رسول الله ﷺ تنفعنا به » قال : « حدثنى أبى عن رسول الله ﷺ أنه قال : تكون فتنة

يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيها بدنه ، يمسى فيها مؤمنا ويصبح كافرا ، ويصبح فيها مؤمنا ويمسى كافرا » .

قالوا : « لهذا الحديث سألناك ! فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ » فأثنى عليهما .

ثم عرض لرجل منهم خنزير ، فلما قتله أقبل أصحابه الخوارج فلاموه وقالوا : « هذا فساد فى الأرض ! » .

فقال عبد الله بن خباب مبتسما لنفسه : « ما علىَّ منهم من بأس إذن فقد غضبوا لخنزير وأنا رجل مسلم ! إنهم لحملة القرآن حقاً ! » .

فقالوا لعبد الله : « أنت آمن السرب معنا . ولكن قل لنا : ما تقول فى عثمان فى أول خلافته وفى آخرها ؟ » قال : « إنه كان محقا فى أولها وآخرها » قالوا : « فما تقول فى على قبل التحكيم وبعده ؟ » قال : « أقول أنه أعلم بكتاب الله منكم ومنى وأنفذ بصيرة وأشد توقيا على دينه » قالوا : « إنك لست تتبع الهدى ، بل تتبع الهوى ، وتوالى الرجال على أسمائهم لا على أفعالهم . . والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحدا !؟ » .

فأخذوه فكتفوه ثم أنزلوا امرأته من على الحمار وهى تصيح وتولول !

وعرض لهم رجل من أهل الذمة فسألهم عما يفعلون ولماذا هم هنا ، فقال زعيمهم : « هاجرنا بديننا من أحكام هؤلاء الكفرة الجورة على ومعاوية وأصحابهم » ثم سألوا الذمى : « مع من أنت منهما ؟ » فلم يجبهم ، وقال لهم : « اتبعوا أنتم من شئتم منهما أو اتركوهما جميعا ودعونى فى حالى ، فأنا من أهل الذمة » .

واقترح رجل منهم أن يقتلوا الذمى ، فصاح فيه زعيمهم : « أتريد منا أن نكفر ؟ إن أهل الذمة فى ذمة الله ورسوله . ولهم حرمة ! » .

فاستبشر عبد الله بن خباب خيرا وقال لهم : « أنا وامرأتى مسلمان وأنتم حملة القرآن فما علينا منكم من بأس ! » ولكنهما لم يفكا وثاق عبد الله ، وأوثقا امرأته الحامل المتمة (فى شهرها التاسع) بنخلة على شاطىء النهر فسقطت رطبة فأكلها رجل منهم ، فصاح فيه رجل آخر : « أخذتها بغير حلها وبغير ثمن ! هذا فساد فى الأرض » .

ثم جاء صاحب الخنزير الذى قتلوه وهو رجل من أهل الذمة فعاتبهم فدفعوا له ثمن الخنزير مضاعفا ، وأرضوه ، فقال لهم عبد الله بن خباب :

« إن كنتم صادقين فيما أرى منكم فما على منكم من بأس ؟ إنى مسلم ما أحدثت فى الإسلام حدثا . ولقد أمنتمونى فقلتم لا روع عليك » .

ولكنهم ذبحوه ، فسال دمه حتى اختلط بماء النهر . وجاءوا بامرأته فصرخت فيهم : « أنا امرأة وفى بطنى نفس حية ألا تتقون الله وأنتم حملة القرآن » .

فبقروا بطنها وقتلوا الجنين ، ثم ذبحوها ، وجاء ثلاث نسوة يغثنها ، فقتلوهن جميعا . روع الإمام بهذه الأنباء عن فسادهم فى الأرض ، فبعث الإمام إليهم الحارث بن مرة العبدى وأوصاه بأن يتحسس من أمرهم ، ويتحقق عما بلغ الإمام عنهم ، فإن صح عنده ما بلغ الإمام ، فليطلب منهم تسليمه قتلة عبد الله بن خباب وامرأته والنسوة الثلاث . ولكن الحارث لم يكد يسألهم ذلك حتى قتلوه !

فلما علم أصحاب على بذلك ، وهو يتهيأ للمسير إلى معاوية وصحبه ، فزعوا إلى الإمام ، فقالوا : « يا أمير المؤمنين ! علام ندع هؤلاء وراءنا يخلفوننا فى عيالنا وأموالنا ؟! سر بنا إلى القوم الخوارج فإذا فرغنا منهم سرنا إلى عدونا من أهل الشام » .

فخرج إليهم على بنفسه يقود عددا من أصحابه الدارعين الشجعان ، فلما بلغهم أرسل إليهم : « ادفعوا إلينا القتلة منكم أقتلهم بمن قتلوه ، ثم أنا تارككم وكاف عنكم حتى ألقى أهل المغرب (الشام) فلعل الله يقلب قلوبكم ، ويردكم إلى خير مما أنتم عليه من أمركم » .

فأجابوه : « كلنا قتلهم ، وكلنا مستحل لدمائكم ودمائهم » .

فلما حاول أن يكلمهم ويعظهم وضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم واستكبروا استكبارا . ثم تنادوا بينهم : « لا تخاطبوهم ولا تكلموهم . وتهيئوا للقاء الله . الرواح الرواح إلى الجنة » .

فلما حاول أن يخطب فيهم ، شغبوا وعربدوا عليه قائلين : « جزعت من البلية ، ورضيت بالقضية (التحكيم) ، وقبلت الدنية » فقال : « حكم الله أنتظر فيكم » فقالوا مستشهدين بآية من القرآن الكريم : ﴿ **ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين** ﴾ . فرد عليهم بالآية الكريمة : ﴿ **فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون** ﴾ .

* * *

ورأى على أن يرسل إليهم رجلا يخجلون منه ، فاختار أبا أيوب الأنصارى ، وهو الذى نزل عليه الرسول صلى الله عليه لما قدم يثرب مهاجرا من مكة ، وقد آخى الرسول

بينه وبين مصعب بن عمير . وأبو أيوب من القلائل الذين بقوا من أهل بدر ، والذين شهدوا المشاهد كلها مع الرسول . . وكان الرسول حين دخل المدينة اعترضه قوم من أشرافها فأمسكوا بزمام ناقته وقالوا : « يا رسول الله هلم إلى العدد والعدة والقوة » فقال لهم : « خلوا سبيلها ، فانها مأمورة » فكلما مر بقوم قالوا مثل ذلك ، ويكرر الرسول ما قاله ، حتى مر بأخواله فبركت ، ثم قامت حتى بركت أمام دار أبى أيوب فلم تقم حتى نزل النبى عليه الصلاة والسلام ، فأدخله أبو أيوب بيته ، وحمل عنه رحله ، وأمر الرسول ببناء المسجد والحجرات وظل مقيما عند أبى أيوب حتى انتهى بناء المسجد والحجرات فانتقل إليها .

وكان أبو أيوب يتلو قوله تعالى : ﴿ انفروا خفافا وثقالا ﴾ فيقول : « فلا أجدنى إلا خفيفا أو ثقيلا » ثم ينفر إلى الجهاد .

وكانت لأبى أيوب الأنصارى عند هؤلاء الخوارج من القراء منزلة خاصة .

وأمره الإمام ألا يحاربهم بل يحاورهم . فسألهم لماذا خرجوا من حروراء وتبعوا أمير المؤمنين إلى الكوفة إن لم تكن هى التوبة النصوح ؟!

فإن كانت هى التوبة النصوح فما أخرجهم إلى النهروان ؟ وما قتلهم عبد الله ابن خباب وامرأته والنسوة الثلاث ؟ أيقتلونهم بغير حق ، وهم حملة القرآن ؟ فهم يعلمون أن من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعا . . !! أيعفون عن أكل ثمرة بغير حق ، ويندمون لقتل خنزير ، ثم يقتلون أربعة أنفس مؤمنة ؟! . . فليسلموا القتلة ، وكفى الله المؤمنين القتال ، أم أنهم يريدون أن يقاتلوا أمير المؤمنين ، بدلا من أن يقاتلوا ظالميهم وهم القاسطون من أهل الشام ؟

فتناجوا فيما بينهم ، فتنحت عصابة منهم فقالوا : « لا نقاتل عليا ولا نقاتل معه ! » فرحب بهم أبو أيوب ، وأمرهم أن يعودوا إلى أهلهم فى الكوفة أو البصرة . وكانوا كلهم شبابا من أهل التطرف والحماسة . وقالت جماعة أخرى : « بل نحارب الكفرة ! » .

وعاد أبو أيوب الأنصارى إلى الإمام يخبره بما كان من أمر الخوارج ، فأعطاه الإمام راية أمان ، وأمره أن يطلق منادين ينادون فى القوم : « من لم يقتل ولم يتعرض (أى يشترك) ، وجاء إلى هذه الراية فهو آمن ، ومن انصرف منكم إلى الكوفة أو إلى المدائن أو إلى بلده وخرج من هذه الجماعة فهو آمن ، لا حاجة لنا بعد أن نصيب قتلة إخواننا منكم فى سفك دمائكم » .

فقـال أحد زعماء الخوارج : « والله ما أدرى على أى شىء نقاتل عليا ؟! أرى أن أنصرف حتى تتضح لى بصيرتى فى قتاله أو أتابعه » .

فانصرف مئات من الفرسان إلى بلدة فى طرف النهروان تاركين سائر الخوارج . .

وعـادت جماعة بعد جماعة إلى الكوفة أو إلى المدائن أو إلى البصرة ، فلم يبق من الخوارج فى النهروان إلا نحو ألفين يقودهم عبد الله بن وهب ، كلهم فى الدروع لا يبين منهم غير حدق العيون ، وكل منهم متوتر قد اطمأن للحكم على الإمام ومن معه بأنهم كفرة ، وأن قتلهم واجب شرعى وأن من قتل من الخوارج فى معركة مع الإمام وأصحابه ، فهو شهيد كمن قتل فى سبيل الله !!

فأمر أمير المؤمنين أصحابه بالسير ، وتقدمهم فى القلب كعادته فى كل معركة ، فجعل على الميمنة حجر بن عدى ، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصارى وعلى الميسرة شيث بن ربعى ، وعلى أهل المدينة قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى .

وقال على لرؤساء جيشه : « كفوا عنهم حتى يبدءوكم » فقد كان يدعو الله أن يعودوا إلى الجماعة ، ويدخلوا فيما خرجوا عنه ، ويتوبوا ويثوبوا .

وزحف الإمـام ، فاعترضه أحد العرافين المنجمين فقال : « لا يا أمير المؤمنين ، لا تخرج فى هذه الساعة ، فانها ساعة نحس لعدوك عليك ، ولا تسر فى هذا الطريق ، فهو طريق نحس لك ! » .

فقال له الإمام : « إنى توكلت على الله ربى وربكم وعصيت رأى كل متكهن ، أنت تزعم أنك تعرف وقت الظفر من وقت الخذلان . إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربى على صراط مستقيم ، فمن صدقك بعد هذا فقد كذب القرآن ، المنجم كالساحر والساحر كالكافر ، والكافر فى النار . . سيروا على اسم الله » .

وزحف حتى واجههم ، وهم يهمون بالقتال .

فرأى أن يحاول حقن الدماء .

فليناظر أفقههم على مسمع من الجميع ، عسى أن يحقن الدماء .

وسأل عن ابن الكواء أهو فيمن انصرف راشدا ، أم مازال فى الخوارج ، فلما علم أنـه مازال فى الخـوارج ناداه ، فبرز له ، وأتبـاعـه الخـوارج قد اصـطفوا بقيادة عبد الله

ابن وهب ، وتهيئوا للقتال ، ورجل منهم يمشى بين الصفوف يحرضهم على القتال ، وصوته كالفحيح ، وريحه منتنة !!

قال الإمام : « يا ابن الكواء ما أخرجكم بعد رضاكم بالحكمين ومقامكم بالكوفة ؟!! » فتقدم ابن الكواء وكان أحد المتطرفين القلائل الذين يحتفظون بقدر من الحياء من على ، وبعلم أن الحياء شعبة من الإيمان فقال . « قاتلت بنا عدوا لا نشك فى جهاده ، فزعمت أن قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار ، فبينما نحن كذلك إذ أرسلت منافقا ، وحكمت كافرا » . فقال الرجل الذى يطلق صوتا كالفحيح : « بل قل له : يا على إنك كفرت ونافقت » .

فلم يحفل به ابن الكواء ، واستمر يقول للإمام : «وكان مما شكك فى أمر الله أن قلت للقوم حين دعوتهم : كتاب الله بينى وبينكم ، فإن قضى علىَّ بايعتكم وإن قضى عليكم بايعتمونى ، فلولا شكك لم تفعل هذا والحق فى يدك » .

فقال الإمام : « يا بن الكواء ، إنما الجواب بعد الفراغ ، أفرغت فأجيبك ؟ » قال : « نعم » .

قال أمير المؤمنين : « أما قتالك معى عدوا لا نشك فى جهاده ، فصدقت ولو شككت فيهم لم أقاتلهم . وأما قتلانا وقتلاهم ، فقد قال الله فى ذلك ما يستغنى به عن قولى ، وأما إرسالى المنافق وتحكيمى كافرا فأنت أرسلت أبا موسى مبرنسا (أى فى برنسه ، والبرنس ثياب النسك) ، ومعاوية حكَّم عمرو بن العاص ، أى (ما هما بمنافق وكافر) . أنت أتيت بأبى موسى مبرنسا فقلت : لا نرضى إلا أبا موسى ، فهلاَّ قام إلىَّ رجلٌ منكم فقال : يا على ، لا نعطى هذه الدنية فانها ضلالة ؟! وأما قولى لمعاوية إن جرنى إليك كتاب الله تبعتك ، وإن جرك إلى تبعتنى ، وزعمت إنى أعطى ذلك من شك ، فحدثنى ويحك عن اليهودى والنصرانى ومشركى العرب ، أهم أقرب إلى كتاب الله أم معاوية وأهل الشام ؟ » قال : « بل معاوية وأهل الشام أقرب » قال الإمام : « أفرسول الله كان أوثق بها فى يديه من كتاب الله أو أنا ؟ » قال : « بل رسول الله » .

فسكت الإمام مبتسما ، ثم قال : « مرحى يا ابن الكواء ، أفرأيت الله تبارك وتعالى حين يقول : ﴿ قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منه أتبعه إن كنتم صادقين ﴾ أما كان رسول الله يعلم أنه لا يؤتى بكتاب هو أهدى مما فى يديه ؟ » قال : « بلى » قال الإمام : « فلم أعطى رسول الله القوم ما أعطاهم ؟! » قال : « إنصافا وحجة » قال : « فإنى أعطيت القوم ما أعطاه رسول الله » .

قال ابن الكواء وقد زايله توتره وقد تفتح عقله وقلبه : « فانى اخطأت . هذه واحدة . زدنى » قال أمير المؤمنين مبتسما راضياً : « فما أعظم ما نقمتم علىّ ؟ » قال : « تحكيم الحكمين ، نظرنا فى أمرهما فوجدنا تحكيمهما شكا وتبذيرا » .

قال الإمام : « فمتى سمى أبو موسى حكما : حين أرسل أو حين حكَّم ؟ » قال ابن الكواء : « حين أرسل » قال : « أليس قد سار وهو مؤمن وأنت ترجو أن يحكم بما أنزل الله ؟! » قال : « نعم » قال الإمام : « فلا أرى الضلال فى إرساله » .

فقال ابن الكواء وقد أحس أنه محاصر : « بل سمِّى حكما حين حكم » قال : « نعم ، إذن فإرساله كان عدلا . أرأيت يا ابن الكواء لو أن رسول الله بعث رجلا إلى قوم مشركين يدعوهم إلى كتاب الله ، فارتد على عقبه كافرا ، كان يضر نبى الله شيئاً ؟! » قال : « لا » قال : « فما ذنبى إن كان أبو موسى ضل ؟ هل رضيت حكومته حين حكم أو قوله إذا قال ؟ » قال : « لا » .

وأدرك ابن الكواء أن الإمام سيبهته ويقيم عليه الحجة ، وكان ما يزال فى نفسه شىء من عناد فى أمر الحكمين ، فهو يرى أن أبا موسى منافق وأن ابن العاص كافر ، وقد أوشك الإمام أن يقنعه بأن أبا موسى ذهب إلى التحكيم وهو مؤمن ، ولكنه ضل فى عمله فلا ذنب لمن أرسله ، أما عمرو فهو ليس بكافر ولكنه مخادع ، وما يحمل وزر خديعته غير الذى أرسله .

أدرك ابن الكواء أن هذا ما يريد أن يصل إليه الإمام ، فقال له كأنه يريد أن يفلت من حجة الإمام عليه : « ولكنك جعلت مسلما وكافرا يحكمان فى كتاب الله ! » قال : « يا بن الكواء هل بعث عمرو بن العاص غير معاوية ؟! وكيف وحكمه على ضرب عنقى ؟ إنما رضى به صاحبه كما رضيت أنت بصاحبك ، وقد يجتمع المسلم وغير المسلم يحكمان فى أمر الله ؟ أرأيت لو أن رجلا مسلما تزوج يهودية أو نصرانية فخافا شقاق بينهما ، ففزع الناس إلى كتاب الله ، وفى كتاب الله : ﴿ فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها ﴾ فجاء رجل من اليهود أو رجل من النصارى ورجل من المسلمين الذين يجوز لهما أن يحكما فى كتاب الله ، فحكما » .

ولم يجد ابن الكواء ردا ، فتنهد وقال : « وهذه أيضاً ، أمهلنا حتى ننظر » .

فجعل ابن الكواء يناجى أصحابه ، والإمام ينتظر نهاية نجواهم ، وإذ بجماعات يقودها عبد الله بن وهب وحرقوص بن زهير وغيرهما تصيح : « إن الحكم إلا لله ! » .

واختفى ابن الكواء ، وتقدمت صفوفهم بالحراب المشرعة . .

فقال لهم الإمام : « إنكم أنكرتم على أمرا أنتم دعوتمونى إليه ، فنهيتكم عنه فلم تقبلوا ، وهأنذا وأنتم فارجعوا إلى ما خرجتم منه ، ولا تركبوا محارم الله ، فانكم قد سولت لكم أنفسكم أمرا تقتلون عليه المسلمين ، والله لو قتلتم عليه دجاجة لكان عظيما عند الله ، فكيف بدماء المسلمين ؟ فيا أيتها العصابة التى أخرجها المراء واللجاجة ، وصدها عن الحق الهوى ، وطمع بها النزق ، وأصبحت فى الخطب العظيم ! إنى نذير لكم أن تصبحوا تلعنكم الأمة غدا صرعى بأثناء هذا الوادى بغير بينة من ربكم ولا برهان مبين . ألم تعلموا أنى نهيتكم عن الحكومة ، ونبأتكم أنها مكيدة ، وأن القوم ليسوا بأصحاب دين ، فعصيتمونى ؟ فلما قبلت شرطت واستوثقت على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن ويميتا ما أمات القرآن ، فاختلفا وخالفا حكم الكتاب والسنة ، فنبذنا أمرهما ونحن على الأمر الأول . فمن أين أتيتم ؟! » فقال الرجل ذو الرائحة المنتنة والصوت الذى يشبه الفحيح : « إنا حكمنا فلما حكمنا أثمنا ، وكنا بذلك كافرين ، وقد تبنا ، فان تبت فنحن معك ومنك ، وإن أبيت فإنا منابذوك على سواء (منذروك بالحرب) » .

فقال الإمام : « أبعد إيمانى برسول الله ﷺ ، وهجرتى معه وجهادى فى سبيل الله أشهد على نفسى بالكفر ؟! لقد ضللت وما أنا من المهتدين ! لقد أنبأتكم أن القوم إنما طلبوا الحكومة (التحكيم) مكيدة ووهنا ، فأبيتم على إباء المخالفين ، وعندتم عناد النكداء العاصين ، حتى صرفت رأيى إلى رأيكم ، رأى معاشر والله أخفاء الهام (الرءوس) سفهاء الأحلام ، فلم آت لا أبالكم هجرا ! والله ما ختلتهم عن أموركم ، ولا أخفيت شيئا من هذا الأمر عنكم . . فبينوا لنا بماذا تستحلون قتالنا والخروج عن جماعتنا وتضعون أسيافكم على عواتقكم ثم تستعرضون الناس تضربون أعناقهم !؟ إن هذا لهو الخسران المبين ! » .

فقال رجل من الخوارج : « لا تكلموه » واندفع بهم إلى جسر النهر ، فقال بعض أصحاب الإمام : « إنهم قد عبروا النهر وسيفلتون ! » .

فقال : « لن يعبروا . وإن مصارعهم لدون الجسر ، ووالله لا يقتل منكم عشرة ولا يسلم منهم عشرة . لقد حدثنى خليلى رسول الله ﷺ فوصف ناسا إنى لأعرف صفتهم فى هؤلاء : يقولون الحق بألسنتهم ولا يجاوز حناجرهم ، من أبغض خلق الله منهم أسود مخدّع (يده أقصر من الأخرى) يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية . فيا أيها

الناس إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : سيخرج قوم من أمتى يقرءون القرآن ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشىء ، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشىء ، ولا صيامكم إلى صيامهم بشىء ، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم . . وآية ذلك أن فيهم رجلا له عضد وليس له ذراع ، على رأس عضده مثل حلمة الثدى عليها شعرات . وإنى لأرجو أن يكونوا هم هؤلاء القوم ، فانهم قد سفكوا الدم الحرام ؟ » .

فسأله أصحابه : « أسمعت هذا من رسول الله حقا ؟ » .

قال الإمام : « إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلأن أخرَّ من السماء أحبُّ إلى من أن أكذب عليه . . سمعت رسول الله يقول : « يخرج قوم من أمتى فى آخر الزمان أحداث الأسنان (صغار السن) سفهاء الأحلام ، يقولون من قول خير البرية ، يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم - إيمانهم لا يجاوز حناجرهم - يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم فان فى قتلهم أجرا لمن قاتلهم عند الله يوم القيامة ! . . » .

فأمن على قول الإمام صاحبه أبو سعيد الخدرى فقال أنه سمع رسول الله يصف هؤلاء الخوارج بقوله : « يخرجون على فرقة من الناس يقتلهم أولى الطائفتين بالله » .

وسكت الجميع . ثم استطرد أبو سعيد : وسمعت النبى عليه الصلاة والسلام يقول : « سيكون فى أمتى اختلاف وفرقة ، وقوم يحسنون القيل (القول) ويسيئون الفعل ، ويقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية . . هم شر الخلق والخليقة ، طوبى لمن قتلهم أو قتلوه ، يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه فى شىء ، من قاتلهم كان أولى بالله منهم » فسئل : يا رسول الله ما سيماهم ؟ فقال : فيهم رجل ذو ثدية ، محلقو رءوسهم .

وكان القراء الخوارج كلهم محلقى رءوسهم .

* * *

وقاد على جيشه فأدرك الخوارج قبل أن يعبروا الجسر ، وكان بعض الناس قد شك فيما قاله علىٌّ عن عدم عبور الخوارج الجسر ، فلما وجدوا الخوارج دون الجسر ، أحسوا بأن الله معهم وأن بشارة الإمام ستتحقق ، فكبروا مستبشرين .

وخشى عبد الله بن وهب قائد الخوارج أن يجادلهم على ، فيعود بالقراء الخوارج إلى الكوفة ليصلوا خلفه كما صنع يوم حروراء . . وحذر جنده أن يكونوا كالحرورية !! . .

وصاح فيهم الرجل صاحب الريح الكريه والصوت القبيح الذى يشبه الفحيح : « الرواح الرواح إلى الجنة ! » .

وتنادوا جميعا : « أقبلوا إلى لقاء الله تعالى . . الرواح الرواح إلى الجنة » .

وشهروا السيوف والرماح ، ورموا بالنبال واقتحموا جيش الإمام ، فاشتجرت الأسنة ، وأمر الإمام جيشه أن يتوزع فرقتين وأن يتركوا الخوارج يتقدمون ، وما أن تقدموا حتى أطبق عليهم الإمام من كل أقطارهم فطحنهم طحنا ، فلم ينج منهم غير ثمانية ، وكأنما قيل لهم : موتوا ، فماتوا ، ولم يقتل من جيش الإمام إلا سبعة .

وتفقد الإمام أرض المعركة ، فوجد بها أربعمائة جريح أمر باسعافهم ثم إرسالهم إلى عشائرهم ليتموا علاجهم . . ووزع على رجاله ما غنموه من سلاح ودروع ودواب ، وكل ما استخدمه الخوارج فى الحرب . . أما الأموال والإماء والعبيد والمتاع فقد رده إلى أهل الخوارج عندما رجع إلى الكوفة . .

وطاف أصحاب على بالقتلى ، فوجد عدى بن حاتم ابنه طرفة فيهم فدفنه ، وأمر علىٌّ أصحابه أن يبحثوا له عن المخدع ، وبحثوا مليا فلم يجدوه فأصر على أن يعاودوا البحث لأنه يجب أن يكون بين هؤلاء القتلى !

وبحث معهم حتى وجدوه كما وصفه رسول الله ﷺ ، فصفق الإمام وهتف : « الله ، أكبر ، صدق الله ورسوله ، والله ما كذَبْت ولا كُذِّبت » .

وسجد طويلا . .

فاذا بالمخدع هو صاحب الريح القبيح والصوت الذى يشبه الفحيح . الذى كان يحرض الخوارج على القتال ، حين أوشكوا أن يقتنعوا بكلام الإمام وهو يحاور ابن الكواء .

ولما تعرف أصحاب الإمام على الرجل المخدع ذى الثدية بعد أن انحسر وجهه ، عجبوا له وقالوا : « إنه رجل فقير متدين شديد التدين كان يشهد طعام المساكين مع أمير المؤمنين ، وكان كثير السجود ، وكان يرافقنا ويناظرنا ، وكان دائم الجلوس فى المسجد ليلاً ونهاراً ، وله ريح منتنة فهو يكاد لا يستحم ، وقد قحلت مواضع السجود من جسده لكثرة السجود كغيره من متطرفى القراء الذين صاروا خوارج » .

وقال جماعة من أصحاب الإمام : « الحمد لله الذى قطع دابرهم يا أمير المؤمنين » .

فسكت الإمام ، وسرحت نظراته والتمعت عيناه ، وكأنه يستقرىء . . إذ تظهر فى كل زمان ومكان طوائف من هؤلاء المتدينين المتطرفين الذين يهاجرون بعقولهم وربما بأجسادهم من المجتمع ، ويكفرون مخالفيهم ، ويلتقون مع القاسطين وهم ظالموهم ، ليقاتلوا جميعا حماة العدل ، ودعاة الهدى ، والمدافعين عن المظلومين !!

وبعد لحظات قال الإمام : « كلا ، والله إنهم لفى أصلاب الرجال وأرحام النساء » .

فسألوه : « أمشركون هم يا أمير المؤمنين » قال : « من الشرك فروا » قالوا : « أمنافقون ؟ » قال : « إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا ! » قالوا : « فمن هم يا أمير المؤمنين » قال : « إخواننا بغوا علينا فقاتلناهم على بغيهم . فاذكروا عنى إذا لقيتموهم من بعدى أنهم طلبوا الحق فأخطئوه ، أما القاسطون فقد طلبوا الباطل فأصابوه ! » .

* * *

فلما انصرف الإمام برجاله من النهروان بعد انتصارهم الساحق الماحق على الخوارج ، قام فى الناس خطيباً فقال بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة على رسول الله وآله « أما بعد ، فان الله قد أعز نصركم فتوجهوا من فوركم إلى عدوكم من أهل الشام » .

فوثب الأشعث بن قيس فقال : « يا أمير المؤمنين ، نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنتنا ، فانصرف بنا إلى مصرنا حتى نستعد بأحسن عدتنا ، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من فارقنا » .

ويحك يا أشعث ! لكأنك موكل بى لتقود رجالى إلى الطريق الخطأ ! . . أنت الذى ناديت بقبول التحكيم والناس منهكون من الحرب ، فشجعتهم على الوقوع فى الشراك ، والإذعان للخديعة ، وجرأت علينا القراء الذين أصبحوا خوارج ! . .

ويلك ! أنت الذى قادتك النعرة الجاهلية ففرضت أبا موسى الأشعرى حكما لأنه من قومك اليمانية ، وما كان أبو موسى ليصلح ، ولا هو بالذى يفطن لأحابيل عمرو ، وهكذا دفعتنا الخديعة مرة أخرى ، إلى أن نغمس سيوفنا فى مهج المسلمين ! . .

وها هو ذا ذو الفقار : السيف الذى دافع عن رسول الله ورسالته ، وسفك دماء المشركين ، يشهر مرة أخرى على هامات مسلمين ، بعضهم من خلف ذلك السلف من أئمة الكفر ! ولكنهم مسلمون !! مسلمون بغاة أهل شقاق ، فما يسد الثلم الذى أحدثوه ، إلا بأشلائهم هم وسائر البغاة وأهل الشقاق !!

ولم يكد الأشعث بن قيس يفرغ من إلقاء كلمته ، حتى تعالت الأصوات تطالب بمثل ما طالب به . . أن يعودوا إلى الكوفة ، فيستريحوا ويستعدوا بالعدة والعدد !

وأدار الإمام عنان جواده متجها إلى الكوفة ، وعلى مقربة منها حيث يقع المعسكر فى النخيلة ، نزل أمير المؤمنين ونزل رجاله بالنخيلة ، فأمرهم أن يلزموا معسكرهم ويوطنوا النفس على الجهاد ، وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم .

وإن هى إلا أيام حتى تسللوا إلا قليلا إلى بيوتهم فى الكوفة ، يتلذذون بنسائهم وأبنائهم . فدخل معسكرهم يتفقدهم فوجد المعسكر خاليا إلا من كبار قواده ، والأعزاء من أصحابه ، من المهاجرين والأنصار ، فأمرهم أن يعودوا إلى بيوتهم ، وعاد هو إلى الكوفة محزونا ، حتى إذا صلى بالناس قام يخطبهم بعد الصلاة ، فقال : « أيها الناس ، استعدوا للمسير إلى عدوكم ومن فى جهاده القربة إلى الله ، عز وجل ، ودرك الوسيلة عنده ، فهم حيارى من الحق ، جفاة عن الكتاب (القرآن) ، يعمهون فى طغيانهم ، فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلا وكفى بالله نصيرا » .

ونظر إليهم ، فوجد فيهم الأشعث بن قيس ، منكس الرأس . . لعله وراء انسحاب الرجال من معسكرهم بالنخيلة ليبيتوا فى دورهم بالكوفة مخالفين رأى الإمام . . كم من مرة حرض فيها الأشعث على مخالفة رأى الإمام فوجد من يتبعونه ؟!

وعادت ذاكرة الإمام إلى ما طواه الزمان منذ نحو عامين : حين كان الأشعث واليا لعثمان على أذربيجان ، فلما بويع على ، أرسل إليه كما أرسل لسائر عمال عثمان فأمرهم أن يرفعوا إليه حسابهم عما تحت أيديهم من أموال ، وجاء فى كتاب علىٌ إليه : « أما بعد ، فلولا هنات كن فيك كنت المقدم فى هذا الأمر قبل الناس . فلعل أمرا يحمل بعضه بعضا إن اتقيت الله . . وإن عملك ليس لك بطعمة (هدية) ، ولكنه أمانة فى عنقك ، والمال مال الله ، وأنت من خزَّانى عليه حتى تسلمه إلىَّ إن شاء الله ، وعلىَّ ألاَّ أكون شرا ولاتك » .

فلما تلقى الأشعث كتاب أمير المؤمنين ، دعا نصحاءه وقال لهم : « إن كتاب على جاءنى ، وهو آخذى بمال أذربيجان ،وأنا لاحق بمعاوية » فنصحه خلصاؤه : « الموت خير لك من ذلك ، أتدع مصرك وجماعة قومك وتكون ذنبا لأهل الشام ؟! » .

فردته العزة أن يكون تابعا لمعاوية وهو شيخ أهل اليمن وسيدهم ، فجمع الملأ من أهل أذربيجان وقادتهم العرب وخطبهم : « أيها الناس إن عثمان رحمه الله ولانى

أذربيجان ، وهلك وهى فى يدى ، وقد بايع الناس عليا ، وطاعتنا له لازمة ، وقد كان من أمره وأمر عدوه ما قد بلغكم ، وهو المأمون على ما غاب عنا وعنكم من ذلك » .

أما يزال الأشعث يصبو إلى اللحاق بمعاوية ؟! ربما !! فمعاوية يحقق له من الجاه والنفوذ والسطوة ما يأبى عليك دينك وعدلك أن تصنعه يا على وأنت تقود المتقين !

* * *

وأقبل إلى الإمام رجل من مكة ، فجاءه بنبأ كتاب أرسله عبد الله بن عمر يلوم فيه حماه أبا موسى الأشعرى على موقفه فى التحكيم ، ونبأ رد أبى موسى .

فقد كتب عبد الله بن عمر لحميه : « أما بعد يا أبا موسى ، فانك تقربت إلىَّ بأمر لم تعلم هواى فيه ! أكنت تظن أنى أبسط يداً إلى أمر نهانى عنه عمر ؟ أو كنت ترانى أتقدم على علىٍّ وهو خير منى ؟ لقد خبت إذن وخسرت وما أنا من المهتدين ، فأغضبت علىَّ بقولك وفعلك عليا ومعاوية . ثم أعظم من ذلك خديعة عمرو إياك ، وأنت حامل القرآن ، ووافد أهل اليمن إلى نبى الله ، وصاحب مغانم أبى بكر وعمر ، فقدمك عمرو للقول مخادعا ، حتى خلعت عليا قبل أن يخلع معاوية ، ولعمرى ما يجوز لك على علىٍّ ما جاز لعمرو على معاوية » .

أتى كتاب ابن عمر أبا موسى وهو فى مكة ، معتزل متنسك بجوار الحرم ، لا يخاطب أحدا ولا يرد على أحد ، فكتب أبو موسى : « أما بعد فإنى والله ما أردت بتوليتى إياك وبيعتى لك القربة إليك ، ما أردت بذلك إلا الله عز وجل ، وما تقلدى أمر هذه الأمة غير مستكره ، فانهم كانوا على مثل حد السيف ، فقلت : إن يصطلحوا فهو الذى أردت ، وإلا لم يرجعوا لأعظم مما كانوا فيه ، وأما إغضابى عليك عليا ومعاوية ، فقد غضبا عليك قبل ذلك ، وأما خديعة عمرو إياى ، فوالله ما ضر بخديعته عليا ولا نفع معاوية ، وقد كان الشرط ما اجتمعنا عليه لا ما اختلفنا فيه ، وأما نهى إليك (إخبارك باختيارك خليفة) ، فوالله لو تم الأمر لأكرهت عليه ! » .

وأخذ الإمام يصفق عجبا من أبى موسى ، وما صنعه !!

على أن عليا لم يكد يستقر فى الكوفة ، حتى وافته الأنباء من كل أقطار الدولة عن قوم خرجوا عاصين . . كان ذلك فى ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين . خرج رجال حتى قدموا الأنبار ، وآخرون قرعوا باب المدائن ، وآخرون فى أقصى الدولة من الشرق ، وهبت

عصابات هنا وهناك تعيث فى الأرض فسادا وتتهم عليا بالكفر ، وتحرض الناس على ألا يؤدوا الخراج ، فوجه الإمام إليهم الحملات ، فهزمهم أصحاب على ، وقتلوا قواد الخوارج . .

ثم خرج رجل يقال له السعدى ، وقاد جماعة كبيرة من الموالى ، استطاع أن يضللهم ويستنفرهم للحصول على حقوقهم التى زعم لهم أن عليا نهبها . . وما كان على يعانى ما يعانى إلا ليرد الحقوق ، ويقيم العدل . . ولكن السعدى استطاع أن يخدع هؤلاء الموالى فساق منهم جيشا ليس فيه خمسة رجال من العرب وزحف إلى الكوفة ،! وكلما زحف ونادى بالثورة من أجل حقوق الفقراء والمساكين تبعه رجال مخدوعون ، ليحارب بهم إمام المساكين !

لكم تعانى يا ابن أبى طالب !! . . لك الله يا ولى الله !! حتى الذين تسهر وتشقى وتتعذب من أجل إسعادهم ، ثاروا عليك ، وأصبحوا فى الحق سندا لظالميهم وظالميك ، لعدوكم جميعاً !! وهل سخط عليك من سخط إلا لأنك سويت فى القسمة بين العرب والموالى ؟!

وتقدم السعدى برجال صب فى عروقهم شجاعة خارقة ، جعلتهم قادرين على أن يقتحموا الخطر والمجهول ، لينتزعوا ما زعموا أنه قد استلب من حقوقهم . وأوشكوا أن يبلغوا ضواحى الكوفة ، فأرسل إليهم أمير المؤمنين يعظهم وينصحهم ، ويدعو قائدهم إلى البيعة والعودة إلى داره بالكوفة ولكنه قال لرسول أمير المؤمنين : « ليس بيننا غير الحرب » .

فوجه إليهم الإمام حملة لتصدهم عن الكوفة ، فهزموها ، واضطروا قائدها شريح ابن هانىء إلى الالتقاء فى قرية خارج الكوفة بعد أن تفرق عنه رجاله !!

فخرج إليهم الإمام بنفسه يقود جماعة من أصحابه ، وبعث إليهم جارية السعدى يدعوهم إلى الطاعة ، فأبوا ، ودعاهم الإمام ، فحملوا عليه يريدون قتله هو وأصحابه ، فانقض عليهم الإمام وجيشه ، فلم ينج منهم غير أربعين سقطوا جرحى ، فأمر الإمام بحملهم إلى الكوفة لعلاجهم .

ولم يكد الإمام يعود من حربه تلك ، حتى جاءه الخريت بن راشد التميمى ، وهو أحد أصحابه الذين شهدوا معه الجمل وصفين ، وكان عزيزا عليه حبيبا إليه ، فلم يدع الإمام : « يا أمير المؤمنين » بل ناداه باسمه فى غلظة ومن خلفه فرسان دارعون فى عدة

الحـرب ، الرماح فى الأيدى ، والأيدى الأخرى على سيوف ينعكس على مقابضها وهج الشمس ، والخوذات تخفى الرءوس والوجوه فما يبين غير العيون . .

ألقى الإمام نظرة عريضة تتصفح الفرسان الدارعين فى ملابس القتال ، فعاد الرجل يقول : « يا على ، والله لا أطيع لك أمرا ، ولا أصلى خلفك ، وإنى غدا مفارق لك ! » .

وأجفل على من الدهشة والمباغتة ثم قال : « ثكلتك أمك ! إذن تعصى ربك ، وتنكث عهدك ، ولا تضر إلا نفسك ! خبرنى لم تفعل ذلك ؟ » قال : « إنك حكمت الرجال ، وضعفت عن الحق ، وركنت إلى القوم الذين ظلموا . فأنا عليك زار وعليهم ناقم ، ولكم جميعا مباين » فقال على : « هلم أدارسك الكتاب ، وأناظرك فى السنن ، وأفاتحك أمورا أنا أعلم بها منك ، فلعلك تعرف ما أنت له الآن منكر » قال : « فإنى عائد إليك » فقال له الإمام ناصحا : « لا تستهوينك الشياطين ، ولا يستخفنك الجهال ! والله لئن استرشدتنى وقبلت منى لهديتك سبل الرشاد » .

ولكن الخريت ، لم يعد كما وعد ، بل خرج من الكوفة ومعه نحو ثلثمائة فارس من أشجع فرسان على ، فأعلنوا العصيان ، وخلعوا البيعة ، وزعموا أن عليا كفر !

وحزن الإمام لخروجهم ، وياطالما دعا الله أن يجنب المسلمين سفك الدماء . . حتى معاوية كان يدعو له الله أن ينقذه مما هو فيه من ضلال ، فلا يطمع فى الخلافة وهو الطليق ، ويعود إلى الجماعة ، ويستجيب إلى دعوة الإمام لحقن الدماء ورأب الصدع .

وشعر الإمام أن وراء خروج الخريت أصابع معاوية ! وربما كانت مكايد معاوية هى التى حركت كل الذين خرجوا على الجماعة بعد معركة النهروان . . ! . . فلو أنه كان التطرف وحـده ، لاجتمعوا معا فى النهروان ولكن ما بال هؤلاء الذين خرجوا عليه أخيراً ، كانوا ينكرون على أصحاب حروراء وعلى أصحاب النهروان خروجهم ؟! إذن !؟ ما غيرهم إن لم يكن هو إغراء معاوية الذى أقسم أن يجذب إليه خاصة رجال على ، وأن يغلب بدنياه دين على . . !؟

وفى الحق أنه نجح مع بعض الرجال ، ومازال آخرون تضطرب فى صدورهم الأهواء والنوازع ، وتشرئب فى أعماقهم الأطماع ! . . ولكن الخريت من أهل التقوى ، أتفتنه دنيا معاوية ؟! . . بل إن أمرا بدا له ؟!

وشعر أصحاب الإمام بما يعانيه بعد خروج الخريت بن راشد التميمى ، وهو كما يراه الإمام رجل صاحب علم ودين وتقوى ، جدير بأن يدارسه الإمام القرآن ، حرى بأن يناظره فى السنن .

وأقبل زياد بن خصفة البكرى ، وهو من أشجع الفرسان وأحكم الرجال يهوِّن على الإمام ما يلقى من البرحاء ، فقال : « يا أمير المؤمنين إنهم لم يعظم علينا فقدهم فنأسى عليهم ، إنهم قلما يزيدون فى عددنا لو أقاموا ، ولقلما ينقصون من عددنا بخروجهم عنا ! ولكننا نخاف أن يفسدوا جماعة كثيرة من أهل طاعتك ممن يقدمون عليه (على الخريت) . فأذن لى فى اتباعهم حتى أردهم عليك » .

فسأله أمير المؤمنين : « تدرى أين توجهوا ؟ » قال : « لا ، ولكنى أسأل وأتبع الأثر » فقال : « اخرج يرحمك الله ، وانزل دير أبى موسى ، وأقم حتى يأتيك أمرى » .

فجمع زياد بن خصفة البكرى رجاله ، وخرج بهم يتبع أثر الخريت وعصبته ، حتى علم أين نزلوا . . وبلغ أمير المؤمنين أنهم قتلوا أحد الدهاقين (وهم رؤساء الفرس) وكان الدهقان قد أسلم ، وأن الخريت أغرى رجالا آخرين فانضموا إليه ، فأرسل أمير المؤمنين إلى زياد بن خصفة البكرى مددا ، وبعث مع قائد المدد بكتاب إلى زياد يخبره فيه أنهم قتلوا الدهقان الذى أسلم ، ويأمره بأن يردهم إليه ليدخلوا فى الجماعة ، ويسلموا الإمام قاتل الدهقان ، فان لم يطيعوا زيادا قاتلهم . .

وجهد زياد فى تتبعهم حتى أدركهم ، وقد تعب رجاله ، وكلت خيله ، فسأله الخريت : « أخبرونى ما تريدون » فشحذ زياد البكرى حكمته فأملت عليه قوله : « قد ترى ما بنا من التعب ، والذى جئناك له لا يصلحه الكلام علانية . ولكن ننزل ثم نخلو جميعا فنتذاكر أمرنا ، فان رأيت ما جئناك به حظا لنفسك قبلته ، وإن رأينا فيما نسمع منك أمرا نرجو فيه العافية لم نرده عليك » .

فوافق الخريت ، فنزل زياد وفرسانه ، فطعموا مما حملوه من زاد وميرة وشربوا من الماء الذى نزلوا عليه وسقوا الخيل ، وعلفوها . فلما أسفر الصباح كان زياد ورجاله قد استراحوا ، فقال زياد لبعض أصحابه : « إن عدتنا كعدتهم وأرى أمرنا يصير إلى القتال ، فلا تكونوا أعجز الفريقين » .

وسمع زياد أصحاب الخريت يتناجون فيما بينهم : « جاءنا القوم وهم كالون تعبون فتركناهم حتى استراحوا ، هذا والله سوء الرأى » .

وخلا زياد والخريت ليتذاكرا أمرهما فقال زياد : « ما الذى نقمته على أمير المؤمنين وعلينا حتى فارقتنا ؟ » قال : « لم أرض صاحبكم إماما ، ولا سيرتكم سيرة ، فرأيت أن أعتزل وأكون مع من يدعو إلى الشورى » قال زياد : « وهل يجتمع الناس على رجل يدانى صاحبك الذى فارقته علما بالله وكتابه وسنة نبيه ، مع قرابته من رسول الله ﷺ ، وسابقته فى الإسلام ؟ » .

وسكت الخريت هنيهة ثم قال : « ذلك ما قال لك ! » فسأله زياد : « ففيم قتلت هذا الرجل المسلم (يعنى الدهقان) ؟ » فأجاب : « ما قتلته ، إنما قتله طائفة من أصحابى » قال زياد : « فادفعهم إلينا » قال : « ما إلى ذلك سبيل » .

وإنهما ليتحاوران إذ أقبل أصحاب كل واحد منهما ، فاقتتلوا أعنف قتال حتى فصل بينهما الليل ، وأصبحوا فاذا الخريت قد مضى برجاله تحت جنح الليل ، وإذا زياد بن خصفة البكرى جريح ، فحمله رجاله إلى البصرة أقرب المدن إليه ليعالج فيها .

وانفلت الخريت إلى الأهواز ، فلحق به كل الذين أرادوا التحلل من الخراج ، وتضخم جيشه بهم وبأوشاب من العرب واللصوص لحقوا به حتى أتوا فارس فأخرجوا عامل علىّ عليها : سهيل بن حنيف الأنصارى وهو بدرى شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ ، وثبت معه فى أحد حين انهزم الناس وفروا ، وبايعه على الموت ، وأخذ يرمى النبل دفاعا عن رسول الله .

فقال ابن عباس لعلىّ : « أنا أكفيك فارس بزياد ابن أبيه» وكان زياد ابن أبيه جسورا ، حاذقا عنيفا .

أقبل زياد بن أبيه فى جند كثيف على فارس ، ففر منها رجال الخريت وأدى أهلها الخراج الذى كسروه من قبل .

ومضى الخريت إلى مكان آخر يتلاحق به من يريدون التحلل من أداء الخراج ، وبعض اللصوص والصعاليك ، ووصل أمير المؤمنين كتاب من زياد بن خصفة البكرى ، أنبأه فيه أنه فى البصرة يعالج هو وسائر الجرحى ، وقص عليه ما آل إليه أمر الخريت ومن تلاحقوا إليه من شر مستطير . . ! فوثب معقل بن قيس فقال : « يا أمير المؤمنين ، كان ينبغى أن يكون مع من يطلب هؤلاء مكان كل واحد عشرة ، فاذا لحقوهم استأصلوهم وقطعوا دابرهم » .

فوجه إليهم أمير المؤمنين جيشا كثيفاً بقيادة معقل بن قيس وأوصاه بقوله : « اتق الله ما استطعت ، ولا تبغ على أهل القبلة ،ولا تظلم أهل الذمة ،ولا تتكبر فإن الله لا يحب المتكبرين » .

وأمر الإمام عبد الله بن عبَّاس عامله على البصرة أن يمد معقل بن قيس بألفى رجل على رأسهم رجل شجاع صالح ، فإذا أتى معقلا كان معقل هو أمير الجيش كله ، ثم كتب إلى زياد بن خصفة ، يحمد الله إليه ، ويطلب منه العودة من البصرة .

* * *

فلما بلغ معقل الأهواز انتظر خارجها مقاتلى البصرة حتى توافوا عليه بعد يوم واحد في نحو ألفى رجل بقيادة خالد بن معدان الطائى ، فساروا جميعا تحت إمرة معقل ابن قيس ، فالتقوا بالخريت وأصحابه . . واصطفوا للقتال ، ودعاهم معقل إلى الدخول فى الطاعة فرفض الخريت ورفضوا ، وكان قد صف من معه من العرب من ناحية فجعلهم ميمنة جيشه ، وجعل الأكراد وأهل البلد وغيرهم ميسرته . . والتحم الجيشان ، وقتل معقل وأصحابه سبعين من العرب وثلثمائة ممن عداهم ، وانهزم الخريت بمن بقى ، وسار بهم إلى شاطىء البحر ، وكلما سار دعا إلى العصيان ومنع الخراج ، وأفتاهم بأن الهدى فى حرب على ، فاتبعه خلق كثير ، من الذين سرهم ألا يؤتوا الزكاة ، والذين لا يحبون أن يدفعوا الجزية ، فأقاموا بعيدا على ساحل البحر .

وأرسل معقل من معسكره بالأهواز إلى أمير المؤمنين بالكوفة ينبئه بهزيمة الخريت وفراره إلى ساحل البحر . .

فقرأ عليٌ الكتابَ على أصحابه ، واستشارهم كما عودهم فى كل أموره فأجمعوا على رأى واحد . . قالوا : « يا أمير المؤمنين ، نرى أن تأمر معقلا أن يتبع آثار الفاسق حتى يقتله أو ينفيه فإنا لا نأمن أن يفسد عليك الناس » .

فأرسل أمير المؤمنين إلى معقل شكره هو ومن معه على حسن بلائهم فى قتالهم الخريت ، ويأمره أن يطارده حتى يتوب وينيب إلى أمر الله ويدخل فى الجماعة ، ويؤدى من معه الزكاة والخراج ، وكل ما امتنعوا عن أدائه . .

فلما بلغ الخريت ما أمر به على جاء إلى طوائف جيشه ، فخاطب كل طائفة بما يرضيها : أما الخوارج فقال لهم : « أنا معكم أن عليا قد كفر حين حكم الرجال ، وقد خلعه الحكمان فلا إمرة له » .

ثم دعا صنائع معاوية فقال لهم : « أنا والله على رأيكم . . وقد قتل عثمان مظلوما وقد جعل الله لوليه ـ وهو معاوية ـ سلطانا ! ! » .

ودعا الذين أسلموا ثم امتنعوا عن أداء الزكاة وتناجوا فيما بينهم قائلين : « والله لديننا الذى خرجنا منه خير من دين هؤلاء ، فدينهم لا ينهاهم عن سفك الدماء ! » فقال لهؤلاء الـذين أرادوا أن يرتـدوا عن الإسـلام : « ويحكم ! لا ينجيكم من القتل إلا قتل هؤلاء والصبر ، فإن حكمهم فيمن أسلم ثم ارتد أن يقتل ولا يقبلون منه توبة ولا عذرا » .

فلما تراءى الجمعان ، أمر معقل براية أمان فرفعت على مرتفع من الأرض وقال : « من أتاها من الناس فهو آمن » فأوى إلى الراية جمع كبير ، ولم يبق مع الخريت إلا قومه من بنى ناجية وجمع من غير المسلمين ، ومن الذين أسلموا حديثا ومنعوا الزكاة !

وأنذرهم معقل ، ودعاهم إلى التوبة وتسليمه قتلة الأبرياء ، والدخول فى الجماعة ، فما كان من الخريت إلا أن حمل برجاله على معقل وأصحابه ، فاشتجرت القنا ، وتقارعت السيوف ، ولم يعد يسمع إلا صلصلة الحديد إذ يقع على الحديد ، وسقط الخريت قتيلا ، وقتـل من أصحـابـه نحـو مائة وسبعين رجلا ، وتفرق الآخرون هاربين ، ولكن معقلا حاصرهم فلم يتمكن الآخرون من الفرار ، فاستأسر بعضهم ، وأسر هو رجالا آخرين ، وسبى النساء والذرارى .

فأما من كان مسلما فأطلقه ، وأخذ بيعته ، وترك نساءهم وأبناءهم ، وأما من ارتد فعرض عليه الإسلام ، فمن أسلموا أطلق سراحهم وجبى زكاة وخراج عامين : عامهم هذا ، وما تأخر عليهم من زكاة وخراج عن العام الماضى . . عام صفين . .

وسـاق الأسرى الآخـرين ومعهم السبـايا والأولاد ، وتعالى عويل النساء وصراخ الأطفال ونشيج الرجال ، حتى مروا على أردشير ، فاستصرخوا مصقلة بن هبيرة الشيبانى عامـل على عليهـا ، واستغـاثـوه : « يا أبـا الفضـل ، يا حامى الرجال ، وفكاك العناة (الأسرى) . امنن علينا فاشترنا وأعتقنا » فقال مصقلة : «أقسم بالله لأتصدقن عليكم إن الله يحب المتصدقين » .

فساوم عليهم معقل بن قيس ، فطلب خمسمائة ألف ، وكانوا خمسمائة من الرجال والنساء والأطفال ، فقبل مصقلة . فقال له معقل : « عجل المال إلى أمير المؤمنين » .

فلما بلغ معقل بن قيس الكوفة أخبر أمير المؤمنين بما كان بينه وبين مصقلة ، فوافقه الإمام ، واستحسن صنيعهما .

وكـان مصقلة قد تحمل فدية الأسرى كلها من ماله، لم يسأل أحدا من الأسرى معونة ولا مساعدة ، وخشى علىٌّ ألا يستطيع مصقلة الوفاء ، فأرسل إليه ، فلما أتاه مدح فعله ، ثم سأله أن يؤدى ما عليه من مال الفدية ليودعه بيت المال ، فأودع مصقلة مائتى ألف . .

واستدعى مصقلة من ليلته صديقا له يدعى ذهل بن الحارث فطعما معا ، ثم قال له مصقلة يستشيره : « إن أمير المؤمنين يسألنى هذا المال ولا أقدر عليه ! » فقال له صاحبه ينصحه : « والله لو شئت ما مضت جمعة حتى تحمله » قال : « والله ما كنت لأحملها قومى ! أما والله لو كان ابن هند يعنى معاوية ما طالبنى بها ، ولو كان ابن عفان لوهبها لى » فقال له صاحبه : « إن أمير المؤمنين لا يرى ذلك الرأى ، فهذا فى رأيه حق لبيت المال » .

وقبل أن ينقضى الليل ، كان مصقلة فى طريقه إلى الشام هاربا إلى معاوية !

فلما علم الإمام بذلك قال متعجبا ضاحكا : « قبح الله مصقلة ! فعل فعل السيد وفر فرار العبد ، وخان خيانة الفاجر ! والله لو علمنا عسره لأنظرناه فإن عجز عافيناه » .

إن مصقلة لا ينسى كتاب الإمام على له بعد أن ولاه أردشير خُرَّه بأشهر فقد كتب إليه : « بلغنى عنك أمر إن كنت فعلته فقد أسخطت إلهك ، وأغضبت إمامك : إنك تقسم فى المسلمين الذين حازته رماحهم وخيولهم ، وأريقت عليه دماؤهم ، فيمن اعتامك (اختارك) من أعراب قومك ، فوالذى خلق الحبة ، وبرأ النسمة ، لئن كان ذلك حقا لتجدن بك علىَّ هوانا ، ولتخفن عندى ميزانا، فلا تستهن بحق ربك ، ولا تصلح دنياك بمحق دينك ، فتكون من الأخسرين أعمالا ،

ألا وإن حق من قِبَلك وقِبَلنا (عندك وعندنا) من المسلمين فى قسمة هذا الفىء سواء . . » .

إن عليا ليتشدد فى المساواة بين المسلمين فى قسمة الفىء ، تشددا يصرف عنه الذين يحبون أن يمتازوا . . أما معاوية فهو يعرف كيف يرضى هؤلاء . .

ثم إن مصقلة ليشعر أنه غير آمن فى عمله مع على ، فربما كتب إليه كما كتب إلى غيره : ارفع إلى حسابك . . أما معاوية فهو يغدق بلا حساب !!

وكان أخو مصقلة نعيم بن هبيرة من شيعة على ، فبعث إليه فى دمشق كتابا يلومه على هربه إلى معاوية ! ولكن مصقلة كتب إليه يغريه باللحاق به : « إن معاوية قد وعدك بالإمارة والكرامة ، فأقبل ساعة يلقاك رسولى والسلام » .

فاجتمع أخوه وملأ من رءوس العراق فأجمعوا أمرهم على أن يعتذروا لأمير المؤمنين عما صنعه مصقلة ، فأتوه فقالوا : « يا أمير المؤمنين ، إن نعيما أخا مصقلة يستحى منك لما صنع مصقلة ، وقد أتانا اليقين أنه لا يمنع مصقلة من الرجوع إليك إلا الحياء ! ولم يبسط منذ فارقنا لسانه ولا يده ، فلو كتبنا إليه كتابا ، وبعثنا من قِبَلِنَا رسولا ، فانا نستحى أن يكون فارقنا مثل مصقلة من أهل العراق إلى معاوية ! » .

فقال على : « اكتبوا » .

فكتبوا إلى مصقلة : « أما بعد ، فقد علمنا أنك لم تلحق بمعاوية رضا بدينه ، ولا رغبة فى دنياه ، ولم يعطفك عن علىٍّ طعن فيه ، ولا رغبة عنه ، ولكن توسطت أمرا فقويت فيه الظن ، وأضعفت فيه الرجاء ، فكان أولاهما عندك أن قلت : أفوز بالمال ، وألحق بمعاوية ! ولعمرنا ما استبدلت الشام بالعراق ، ولا السكاسك (أسرة بالشام ذات ثراء هائل ، ومنهم الذى قتل عمار بن ياسر والذى قطع رأسه) بربيعة ، ولا معاوية بعلى ، ولا أصبت دنيا تهنأ بها ، ولا حظا تحسد عليه ، وإن أقرب ما تكون مع الله ، أبعد ما تكون مع معاوية ، فارجع إلى مصرك ، فقد اغتفر أمير المؤمنين الذنب ، واحتمل الثقل ، واعلم أن رجعتك اليوم خير منها غدا ، وكانت أمس خيرا منها اليوم . وإن كان عليك حياء من أبى الحسن ، فما أنت فيه أعظم ! فقبح الله أمرا ليس فيه دنيا ولا آخره ! » .

فلما حمل رسول رؤساء العراق كتابهم إلى مصقلة بالشام ، قال له : « يا مصقلة ، انظر من جاورت ، ومن زايلت ، ثم اقض بعقلك دون هواك ! » فقرأ مصقلة على معاوية كتاب رؤساء العراق ، فقال له معاوية : « يا مصقلة إنك عندى غير ظنين ، فإذا أتاك شىء فاستره عنى ! » .

فقال مصقلة لرسول قومه : « يا أخا بكر ، إنما هربت بنفسى من على ولا والله ما يطول لسانى بغيبته ، ولا قلت فيه قط حرفا بسوء ، اذهب بكتابى هذا إلى قومى » .

وكان كتابه إلى قومه : « أما بعد ، فقد جاءنى كتابكم ، وإنى أخبركم أن من لم ينفعه القليل لم ينفعه الكثير ، وقد علمتم الأمر الذى قطعنى من على وأضافنى إلى معاوية ، وقد علمت أنى لو رجعت إلى علىٍّ وإليكم لكان ذنبى مغفورا ، ولكنى أذنبت إلى علىٍّ وصحبت معاوية ، فلو رجعت إلى علىٍّ أحدثت عيبا ، وأحييت عارا ، وكنت بين أمرين : أولهما خيانة وآخرهما غدر ! ولكنى أقيم بالشام ، فإن غلب معاوية فدارى العراق ، وإن

غلب على فدارى أرض الروم . . وكانت فرقتى عليا على بعض العذر أحب إلى من فرقتى معاوية ولا عذر لى » .

ثم همس لرسول قومه وهو يسلمه الكتاب أن يسأل أهل الشام عن قوله فى على ، فقال الرسول : « قد سألت فقالوا خيرا » قال مصقلة : « فإنى والله على هذا القول الحسن فى علىٍّ حتى أموت » .

فلما عاد الرسول إلى العراق قال لمن بعثوه : « كفوا عن صاحبكم ، فليس براجع حتى يموت ! » قالوا : « أما والله ما به إلا الحياء » ولكنهم أسفوا ، لأنه حكيم ، ذو نجدة ، ولعشيرته فى الكوفة شأن كبير . .

* * *

جلس الإمام بين أصحابه بعد الصلاة يحاورهم ويعظهم ويفقههم ، كما تعود .

سأله رجل : « أكان سيرنا إلى الشام بقضاء من الله وقدر ؟ » قال الإمام : « ويحك ! لعلك ظننت القضاء قضاء لازما ، والقدر قدرا حاتما (من الحتم) ؟! ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد . إن الله سبحانه أمر عباده تخييرا ، ونهاهم تحذيرا ، وكلف يسيرا ، ولم يكلف عسيرا ، وأعطى على القليل كثيرا ، ولم يعص مغلوبا ، ولم يطع مكرها ، ولم يرسل الأنبياء لعبا ، ولم ينزل الكتاب للعباد عبثا ، ولا خلق السماوات والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار ! » .

ثم إنه نهى الناس عن التفكير فى القضاء والقدر ، فماذا يعود عليهم من مثل هذا الكلام ؟! قال عن القدر : « طريق مظلم فلا تسلكوه ، وبحر عميق فلا تلجوه ، وسر الله فلا تتكلفوه . . ولكن اعلموا أن من أصبح على الدنيا حزينا فقد أصبح لقضاء الله ساخطا ، ومن أصبح يشكو مصيبة نزلت به ، فقد أصبح يشكو ربه ! . . تذل الأمور للمقادير ، حتى يكون الحتف فى التدبير» .

وقال كرم الله وجهه : « لا يقولن أحدكم : اللهم إنى أعوذ بك من الفتنة لأنه ليس أحد إلا وهو مشتمل على الفتنة (أى الاختبار) ، ولكن من استعاذ فليستعذ من مضلات الفتن ، فإن الله سبحانه يقول : (واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة) ومعنى ذلك أنه يختبرهم بالأموال والأولاد ليتبين الساخط لرزقه ، والراضى بقسمه ، وإن كان سبحانه أعلم بهم من أنفسهم . ولكن لتظهر الأفعال التى بها يستحق الثواب والعقاب . . . وإن الله

جعل لكل شيء قدرا ، ولكل قدر أجلا ، ولكل أجل كتابا . . أمره قضاء وحكمة ، ورضاه أمان ورحمة ، يقضى بعلم ، ويعفو بحلم . . ولا ولجت عليه شبهة فيما قضى وقدر ، بل قضاء متقن ، وعلم محكم ، وأمر مبرم » .

ثم قال يعظهم : « إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لخلقان من خلق الله عز وجل ، فمن نصرهما نصره الله ، ومن خذلهما خذله الله . . فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر . . وأفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر » .

ورأى الإمام أن بعض العلماء من الذين اصطنعهم معاوية ، لم يكتفوا بتأويل القرآن على هوى معاوية ، ليخدم دنياهم ودنياه ، ولكنهم تجاسروا على رسول الله ﷺ فوضعوا الأحاديث ، ليمجدوا بها معاوية وقومه ! . .

وكان أبو بكر وعمر لا يقبلان الحديث إلا إذا شهد عليه شاهدان ، أما عثمان فعدل عن هذا الشرط ، ولهذا أسرف في رواية الحديث رجال كان عمر يضربهم ويحبسهم إذا أسرفوا فى رواية الحديث ، فامتنعوا خوفا ، حتى إذا قبض عمر ، وثارت الفتنة الكبرى بين على ومعاوية ، أوبين بنى هاشم وبنى أمية ، أكثر بعض الرواة فى رواية الأحاديث ، طمعا . . وكان على كرم الله وجهه ينهى عن الإكثار فى رواية الأحاديث الشريفة ، ولا يقبل الحديث إلا بشهادة ويمين .

وإنه ليعظ ذات يوم فى مسجد الكوفة إذ سأله رجل : « يا أمير المؤمنين أخبرنا عن أحاديث البدع » قال : « نعم . سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الأحاديث ستظهر من بعدى حتى يقول قائلهم : قال رسول الله ، وسمعت رسول الله ﷺ ! كل ذلك افتراء علىَّ ! والذى بعثنى بالحق لتفترقن أمتى على أصل دينها ، فإن كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل ، فإن فيه نبأ من كان قبلكم ، ونبأ ما يأتى بعدكم ، والحكم فيه بين ، من خالفه من الجبابرة قصمه الله ، ومن ابتغى العلم فى غيره أضله الله ، فهو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، وشفاؤه النافع ، وعصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يعوج فيقام ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلقه كثرة الرَّدِّ (لا تبليه كثرة تكرار التلاوة) . هو الذى سمعته الجن فولوا إلى قومهم منذرين قالوا : (يا قومنا ، إنا سمعنا قرآنا عجبا) . من قال به صدق ، ومن تمسك به هُدِىَ إلى صراط مستقيم » .

وسأله سائل : « يا أمير المؤمنين ، من هم أولياء الله ؟ » قال : « إن أولياء الله هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا إذا نظر الناس إلى ظاهرها ، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغل الناس

بعـاجلها ، فأماتوا ما خشوا أن يميتهم ، وتركوا منها ما علموه أن سيتركهم . . لا يرون مَرْجُوًّا فوق ما يرجون ، ولا مخوفا فوق ما يخافون » .

جاءه من يخبره بأن معـاوية هو الذى حرض هؤلاء الذين خرجوا عليه فى أطراف الدولة ، وقد شجعهم على كسر الخراج .

وسمع الإمام أن معاوية يغرى عامله على فارس زيادا المعروف بابن أبيه . . وقد وعده معاوية بأنه سيصحح نسبه ، ويعترف بأخوته ، ويجعله زياد بن أبى سفيان .

ولم يصدق الإمام أن معاوية يمكن أن يهدر مبادىء الدين إلى هذا الحد . . فمعاوية يعرف أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقد أبى الله أن ينسب مثل هذا لأب !

ولكن الإمام تدبر الأمر ، ورأى أن معاوية يتجاسر على أى شىء ولا يبالى ! فإذا كان قد تجاسر على القـرآن وأساء تأويله ، ووجد علماء يرتشون فى الدين ، ويقرونه على هذا التأويل ، فرفع راية العصيان زاعما أنه ولى دم عثمان وصاحب الحق فى الثأر له ؟! وإذا كان معاوية قد تجاسر على الله ، وأضرم الفتنة وأشعل حربا سفكت فيها دماء آلاف المسلمين ، ولم يحفل بشىء فى طلبه الملك ، وإذا كان معاوية قد خالف رسول الله وتحداه ، حيث أمر ﷺ أمته بأن يقتلوا من دعا إلى نفسه أو لغيره وعلى الأمة إمام ؟! . . فما الذى يردعه عن إلحاق زياد بأبيه ؟! . . ألأن هذا يخالف مبادىء الإسلام ؟! وأى عمل اقترفه معاوية منذ رفض البيعة وافق ما يدعو إليه الإسلام ؟!

من أجل ذلك رأى الإمام أن من الحكمة أن يرسل إلى زياد يعظه ، ويحذره ، وكان زياد على قدر كبير من الشجاعة والحكمة والدهاء . . وهذه الخصال تجعل معاوية يسترخص أى شىء ليضمه إليه !

وقالوا للإمام أن العلماء الذين يرشوهم معاوية ليفتوه بما يشاء ، سيحللون لمعاوية إلحاق زياد بأبيه ! فتساءل ساخرا إن كان هؤلاء علماء حقا !!؟ . . ثم مضى يصف للناس العـالم الحق : « هو من اليقين على مثل ضوء الشمس ، مصباح ظلمات ، وكشاف عشوات ، مفتاح مبهمات ، دَفّاع معضلات ، دليل فلوات ، يقول فيُفهم ، ويسكت فيسلم : قد أخلص لله فاستخلصه ، فهو من معادن دينه ، وأوتاد أرضه . قد ألزم نفسه العدل ، فكان أول عدله نفى الهوى عن نفسه ، يصف الحق ويعمل به ، لا يدع للخير غاية إلا أمها (قصدها) ، ولا مظنة إلا قصدها ، قد أمكن الكتاب (القرآن) من زمامه فهو قائده وإمامه » . .

ثم وصف الإمام نوع العالم الذى يصطنعه معاوية فقال : « وآخر قد تسمى عالما وليس به ، فاقتبس جهائل من جهال ، وأضاليل من ضلال ، ونصب للناس شركا من حبائل غرور ، وقول زور ، قد حمل الكتاب على آرائه ، وعطف الحق على أهوائه ، يؤَمِّنُ من العظائم ، ويهون كبير الجرائم يقول : أقف عند الشبهات ، وفيها وقع ، ويقول : وأعتزل البدع ، وبينها اضطجع ، فالصورة صورة إنسان ، والقلب قلب حيوان ! لا يعرف باب الهدى فيتبعه ، ولا باب العمى فيَصُدَّ عنه ، فذلك ميت الأحياء ! » .

ثم كتب إلى زياد بن أبيه : « قد عرفت أن معاوية قد كتب إليك يستزل لبك ، ويستفل غربك (يثلم نشاطك) فاحذره ، فإنما هو الشيطان : يأتى المؤمن من بين يديه ومن خلفه ، وعن يمينه وعن شماله ، ليقتحم غفلته ، ويستلب غِرَّته . وقد كان من أبى سفيان فى زمن عمر بن الخطاب فلتة من حديث النفس ، ونزعة من نزعات الشيطان (وهى قوله إنى أعلم من وضعه فى رحم أمه ، يريد نفسه) وهذه لا يثبت بها نسب ، ولا يستحق بها إرث ، والمتعلق بها كالواغل المُدَفَّع (الواغل الذى يقتحم المجلس على الجالسين ، المدفع أى من يطرد ويدفع من المجلس) ، والنوط المذبذب (النوط ما يناط برجل الراكب من قدح أو ما أشبه ذلك فهو أبدا يتذبذب إذا استعجل سيره) » .

وسأله رجل : « يا أمير المؤمنين ، ما أفضل الإيمان » قال : « قال رسول الله ﷺ : فضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت » وسئل : « وما التقى » . قال : « رئيس الأخلاق » وسئل : « ما تواضع الأغنياء وتيه الفقراء » قال : « ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبا لما عند الله ، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله » .

* * *

وعلم أن معاوية يعد لغزو البصرة وغزو مصر . . فقد جاءه نبأ ذلك من عيونه بدمشق . . فأهاب بالناس أن يستعدوا للزحف على معاوية وجنده فى الشام ، ليلزموهم المحجة ، ويردوهم إلى الجماعة ، قبل أن يقتطع معاوية أطراف الدولة . . وكفى ما كان !

ولكنه وجد تثاقلا وفتورا وتهاونا . . فوجد موجدة عظيمة ، ودعا رؤساء الكوفة فحذرهم من التمزق والتفرق ، وحسبهم ما سمعوه عن الإسلام من حديثى العهد بالإسلام ، على الرغم من أنهم يعرفون أن الإسلام دين يدعو إلى الوحدة والأخوة واجتماع الشمل والمساواة والعدل ! . . ولكنه معاوية بأطماعه فى الملك ، هو الذى يلطخ وجه الإسلام بالدماء ! !

أى ملك يطمع فيه وهو طليق ، ومن المؤلفة قلوبهم ، الذين أعطاهم الرسول ثم أبو بكر ليتألف قلوبهم ، حتى إذا جاء عمر فوجد الإسلام قويا ، ولا حاجة به إلى تأليف قلوب الذين لم يرسخ إيمانهم بعد ، حرمهم من العطاء !؟

رحم الله عمر بن الخطاب ، فهو الذى قال حين رأى معاوية وهو وال على دمشق وحدها : هذا كسرى العرب !! ماذا تريد بعد وقد ولاك عثمان الشام كله ؟! ولكنك أنت الذى تقول يا معاوية : مازلت أطمع فى الخلافة منذ قال لى رسول الله : « إن وليت فأحسن » .

ومن عجب أن فى المسلمين من بايعك على الخلافة ، وأعانك على تمزيق الوحدة !! لقد خالفوا فيك الله ورسوله ! ولكنهم لم ينسوا قول عمر : هذا الأمر (الخلافة) فى أهل بدر ما بقى منهم أحد ، ثم فى أهل أحد ما بقى منهم أحد ، ثم فى أهل كذا وكذا (غزوات الرسول) وليس فيها لطليق ولا لولد طليق ولا لمسلمة الفتح شىء (مسلمة الفتح الذين أسلموا يوم فتح مكة وعلى رأسهم أبو سفيان وابنه معاوية) » .

فكيف استطاع معاوية أن يخدع المسلمين عن حقيقته ؟! كان معاوية قد ركب البحر فى زمن عثمان ، وفتح بعض جزيرة قبرص التى كان يسكنها الروم ويهددون منها أطراف الدولة فى الشام . . هذا فضل لا يجحد لمعاوية ، ولكنه أغرقه فى طوفان دماء المسلمين التى سفحها . . اخفى مآثره تلك فى الثلم الذى صدع به اجتماع الأمة !!

إنه فى سبيل الملك يفرق الأمة إلى دولتين ، ويشهر سيف المسلم على أخيه المسلم . .

لابد من تدارك الأمر قبل أن يتفاقم يا على ، وأنت ولى كل مسلم بعد رسول الله ، كما قال رسول الله ﷺ لك ! . .

وعاد الإمام يأمر المقاتلين أن يتجهزوا للزحف على معاوية ، ولكنه وجد فيهم تكاسلا ، فلا هم تجهزوا ، ولا هم نفروا إلى معسكرهم بالنخيلة ، وإنما أقاموا بين نسائهم وأولادهم ، واستطابوا لين الحياة ، والسمر مع الإخوان !

فجمع الإمام رؤساء الكوفة ووجوهها ، وسألهم عن سبب تكاسلهم ، فنشط منهم نفر وحشدوا رجالهم ، أما أكثرهم فتعلل وتكاسل ، أو نفر محرجا مرغما كارها .

فقام الإمام فيهم خطيبا ، فقال : « عباد الله ، ما بالكم إذا أمرتكم أن تنفروا اثاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة بدلا ، ورضيتم بالذل والهوان من العز

خلفا ؟ وكلما ناديتكم إلى الجهـاد دارت أعينكم كأنكم من الموت فى سكرة ! لله أنتم ! ما أنتم إلا أسْـد الشرى فى الـدعة ، وثعالب رواغة حين تدعون إلى البأس !.. إنكم تُكادون ولا تكيدون ، ولا ينام عنكم وأنتم فى غفلة سادرون !.. » .

وسكت قليلا فوجدهم واجمين .. ثم قال : « أما بعد فإن لى عليكم حقا وإن لكم عَلىّ حقـا . فأمـا حقكم علىّ فالنصيحـة لكم ما صحبتكم ، وتـوفـير فيئكم عليكم ، وتعليمكم كيلا تجهلوا ، وتـأديبكم كى تتعلمـوا ، وأمـا حقى عليكم فالـوفاء بالبيعة ، والنصح لى فى المغيب والمشهد ، والإجابة حين أدعوكم ، والطاعة حين آمركم ، فان يرد الله بكم خيرا تنزعوا عما أكره ، وترجعوا إلى ما أحب فتنالوا ما تطلبون وتدركوا ما تأملون .

أيهـا النـاس المجتمعـة أبـدانهم المختلفة أهواؤهم ، ما عزّتْ دعوة من دعاكم ، ولا استراح قلب من قاساكم ، كلامكم يوهى الصم ، وفعلكم يطمع فيكم عدوكم . إذا أمـرتكم بالمسـير قلتم كيت وكيت ، أعاليل بأضاليل ، هيهات ألا يدرك الحق إلا بالجد والصـبر ! أى دار بعـد داركم تمنعـون ؟ ومع أى إمام بعدى تقاتلون ؟ المغرور والله من غررتموه ، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب . أصبحت لا أطمع فى نصرتكم ، ولا أصدق قولكم ، فرق الله بينى وبينكم ، وأعقبنى بكم من هو خير لى ، وأعقبكم بعدى من هو شر لكم منى .

أما إنكم ستلقون بعدى ذلا شاملا ، وسيفا قاتلا ، وأثرة يتخذها الظالمون بعدى عليكم سُنّة ، تُفرق جماعتكم ، وتُبكى عيونكم ، وتُدخل الفقر بيوتكم تمنون والله عندها أن رأيتمـونى ونصرتمونى ، وستعرفون ما أقول لكم عما قليل . استنفرتكم فلم تنفروا ، ونصحت لكم فلم تقبلوا ، وأسمعتكم فلم تعـوا . فأنتم شهود كأغياب ، وصُمٌّ ذوو أسماع ، أتلو عليكم الحكمـة ، وأعـظكم بالمـوعظة النافعة ، وأحثكم على جهاد المحلين الظلمة الباغين ، فلا آتى على آخر قولى حتى أراكم متفرقين ، إذا تركتكم عدتم إلى مجالسكم ، تتنـاشـدون الأشعـار ، وتضربون الأمثال ، وقد نسيتم الحرب واستعدادها ، وأصبحت قلوبكم فارغة عن ذكرها ، وشغلتموها بالأباطيل والأضاليل !..

ويحكم ! اغـزوا عدوكم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غزى قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا ، وأيم الله ما أظنكم تفعلون حتى يفعل بكم ! وأيم الله لوددت أنى قد رأيتهم فلقيت الله على نيتى وبصيرتى ، فاسترحت من مقاساتكم ومداراتكم ، ويحكـم ! ما أنتم

إلا كإبل جامحة ضل عنها رعاؤها (رعاتها) ، فكلما ضمت من جانب انتشرت من جانب !.. ووالله لأغزونهم ولو لم يبق أحد غيرى لجاهدتهم » .

فقام الأشعث بن قيس !!.. الأشعث أيضاً ؟! ماذا يريد ؟ ألديك شيء جديد بعد إصرارك على قبول التحكيم ثم إصرارك على تعيين أبى موسى ، ثم إصرارك على الا يخرج الجند لقتال أهل الشام حتى يستريحوا ؟! ألديك بعد جديد ؟!

وقف الأشعث ، وأمير المؤمنين يقتحمه بنظراته ، كاتما زفرات حرى مما يعانيه من مضض .. وقال الأشعث : « يا أمير المؤمنين ، هلا فعلت كما فعل عثمان ؟! » فقال : « ويلك ! والله إن رجلا أمكن عدوه من نفسه فنهش عظمه ، وسفك دمه ، لعظيم عجزه ! ويلك ! أنت يا ابن قيس فكن ذلك ، أما أنا فوالله دون أن أعطى ذلك ضرب بالمشرفى (السيف) والله يا أهل العراق ما أظن هؤلاء القوم (أهل الشام) إلا ظاهرين عليكم ! » .

قالوا : « أبعلم تقول ذلك يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، إنى أرى أمورهم قد علت ، وأرى أموركم قد خبت ، وأراهم جادين فى باطلهم ، وأراكم وانين فى حقكم ، وأراهم مجتمعين ، وأراكم متفرقين ، وأراهم لصاحبهم معاوية مطيعين ، وأراكم لى عاصين ، أما والله إن ظهروا عليكم بعدى لتجدنهم أهل سوء ! كأنهم والله عن قريب قد شاركوكم فى بلادكم ، وحملوا إلى بلادهم منكم ، وكأنى أنظر إليهم يقتلون صلحاءكم ، ويخيفون علماءكم ، وكأنى أنظر إليكم يحرمونكم ويحجبونكم ، ويدنون الناس دونكم ، فلو قد رأيتم الحرمان ، ولقيتم الذل والهوان ، ووقع السيف ونزل الخوف ، لندمتم وتحسرتم على تفريطكم فى جهاد عدوكم ، وتذكرتم ما أنتم فيه من الخفض (الدعة) والعافية حين لا ينفعكم التذكار » .

وعز على أصحابه الثقات ما هو فيه من كرب ، وما استشعروه من كلماته من عذاب !.. لم تكن كلمات ، ولكنها كانت خفقات قلب يتمزق ، ونفثات صدر يحترق !!

فقام الصحابى الجليل أبو أيوب الأنصارى وكان جسيما مهيبا ، فقال : « يا أهل العراق إن أمير المؤمنين أكرمه الله قد أسمع من كانت له أذن واعية وقلب حفيظ ! إن الله قد أكرمكم به كرامة ما قبلتموها حق قبولها ، حيث نزل بين أظهركم ابن عم رسول الله ﷺ ، وخير المسلمين وأفضلهم بعده يفقهكم فى الدين ، ويدعوكم إلى جهاد المحلين ، فوالله لكأنكم صم لا تسمعون، وكأن قلوبكم غلف مطبوع عليها فلا تستجيبون ! عباد

الله ، أليس إنما عهدكم بالجور والعدوان أمس ، وقد شمل العباد وشاع فى الإسلام ، فذو حق مهزوم ، ومشتوم عرضه ، ومضروب ظهره ، وملطوم وجهه ، وموطوء بطنه ، وملقى بالعراء ؟! فلما جاء أمير المؤمنين صدع بالحق ، ونشر العدل وعمل بالكتاب ، فاشكروا نعمة الله عليكم ، ولا تتولوا مجرمين ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وأطعنا وهم لا يسمعون . اشحذوا السيوف ، وجددوا آلة الحرب ، واستعدوا للجهاد ، فإذا دعيتم فأجيبوا ، وإذا أمرتم فأطيعوا تكونوا بذلك من الصادقين » .

فقام الأشعث بن قيس مرة أخرى !!

ماذا يريد شيخ أهل اليمن ؟! قال : « يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال ، وفضل هؤلاء الأشراف من العرب ، ومن قريش ، على الموالى (أهل البلاد المفتوحة) ، ممن تخاف أن يختلف معك أو يفارقك » .

وقام شيخ آخر لإحدى العشائر فقال : « وهذا هو الذى يصنعه معاوية بمن أتاه » .

فقال شيخ لإحدى القبائل : « يا أمير المؤمنين ، إنما عامة الناس همهم الدنيا ، ولها يسعون ، وفيها يكدحون ، فأعط هؤلاء الأشراف » .

وأضاف رابع : « فإذا استقام لك ما تريد عدت إلى أحسن ما كنت عليه من القَسْم ! » .

وعجب الإمام : أقسمة الفىء بالسوية بينكم بلا تمييز ، وبلا محاباة للعرب على الموالى ، هو ما ينفركم منى ، ويشدكم إلى معاوية !؟ . . ولكن هذا هو الدين يا أيها الذين آمنوا . . !!

قال لهم على : « أتأمرونىّ أن أطلب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟! فوالله لا أفعل ذلك ما لاح فى السماء نجم ، والله لو كان لهم مال لسويت بينهم ، فكيف وإنما هو مال الله ؟ » .

وإنه لينصرف حزينا من المسجد ، إذ جاءه كتاب من مصر . . إنه من عامله عليها محمد بن أبى بكر ينبئه أن معاوية وعمراً أرسلا إليه كتابى تحذير أن يتخلى ويتنحى لهما عن مصر وإلا قتلاه .

كتب محمد : « أما بعد يا أمير المؤمنين ، فإن العاصى بن العاص ، قد نزل أدانى مصر ، واجتمع إليه من أهل البلد من كان يرى رأيهم ، وقد رأيت ممن قبلى بعض الفشل ، فإن كان لك فى أرض مصر حاجة فأمدونى بالأموال والرجال ، والسلام » .

وفى الحق أن معاوية بعد صفين لم يكن يخشى إلا مصر ، كان يطمع فيها لعظم خراجها ، ولكى يكسر أهلها ، فأغلبهم شيعة على ، فكان معاوية يخافهم . .

وحاول أن يخيف محمد بن أبى بكر فأرسل إليه يتهمه بقتل عثمان ، وبأنه إن ظفر به سيقتله بعثمان ! . . ثم قال : « ومع ذلك فإنى أكره قتلك ، ولا أحب أن أتولى ذلك منك . ولن يسلمك الله من النقمة أين كنت أبدا ، فتنح وانج بنفسك » كما كتب عمرو إلى محمد يروعه ، ويحاول أن يحمله على الفرار : « أما بعد ، فتنح عنى بدمك يا ابن أبى بكر ، فإنى لا أحب أن يصيبك منى ظفر ، وإن الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض أمرك ، وندموا على اتباعك وهم مسلموك ، واخرج منها فانى لك من الناصحين » .

وما كان أحد قد خالف محمدا إلا الذين اعتزلوا فى خربتا ، فقد جاهروا بالعصيان ، منذ عرفوا قرار الحكمين بدومة الجندل ، ثم إن عددا آخر من رؤساء العشائر اشرأبت أطماعهم إلى ما يرشوهم به معاوية ، من أموال وضياع ومناصب وسبايا حسان ! . .

ولكن أهل مصر ظلوا على ولائهم لأمير المؤمنين ، زارين على كل ما يحدث حولهم من خيانات ، ورشوة ، وعصيان ، وتمزق لوحدة الأمة . . !

فلما فرغ أمير المؤمنين من دراسة ما أرسله إليه محمد بن أبى بكر كتب إليه : « أما بعد ، فقد أتانى رسولك بكتابك ، تذكر أن ابن العاص قد نزل فى جيش جرار ، وأن من كان على مثل رأيه قد خرج إليه . وخروج من كان يرى رأيه خير له من إقامته عندك . وذكرت أنك قد رأيت ممن قبلَك فشلا ، فلا تفشل وإن فشلوا ، حَصِّن قريتك ، واضمم إليك شيعتك ،وأذك الحرس فى عسكرك ، واندب إلى القوم كنانة بن بشر المعروف بالنصيحة والتجربة والبأس . وأنا نادب إليك الناس على الصعب والذلول ، فاصبر لعدوك وامض على بصيرتك ، وقاتلهم على نيتك ، وجاهدهم محتسبا لله سبحانه ، وإن كانت فئتك أقل الفئتين ، فإن الله يعين القليل ويخذل الكثير ، وقد قرأت كتابى الفاجرين المتحابين على المعصية ، والمتلائمين على الضلالة والمرتشين على الحكومة (التحكيم) ، والمتكبرين على أهل الدين ، والذين استمتعوا بخلاقهم كما استمتع الذين من قبلهم بخلاقهم ، فلا يضرنك إرعادهما وإبراقهما . وأجبهما إن تكن لم تجبهما بما هما أهله والسلام » .

ثم أمر بأن ينادى فى الناس : « الصلاة جامعة » فلما اجتمع الناس بالمسجد صعد المنبر فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وآله : « أما بعد فهذا صريخ

(استغاثة) محمد بن أبى بكر وإخوانكم من أهل مصر ، قد سار إليهم ابن النابغة عدو الله وعدو من والاه ، وولى من عادى الله ، فلا يكونن أهل الضلال إلى باطلهم والركون إلى سبيل الطاغوت أشد اجتماعا على باطلهم وضلالتهم منكم على حقكم . فكأنكم بهم وقد بدءوكم وإخوانكم بالغزو ، فاعجلوا إليهم بالمواساة والنصر عباد الله ، إن مصر أعظم من الشام وخير أهلا فلا تغلبوا على مصر ، فان بقاء مصر فى أيديكم عز لكم ، وكبت لعدوكم . أخرجوا إلى الجَرَعة (مكان بين الحيرة والكوفة) لنتوافى هناك كلنا غدا إن شاء الله » .

ولكن لم يواف عليا فى الجرعة إلا مائة رجل ، ومقاتلو الكوفة نحو ستين ألفا يتقاضون عطاءهم ، وعاد إلى الكوفة ، فبعث إلى رؤسائها، فقال لهم والأسى يعتصره ، من خيبة أمله فى رجال الكوفة : « الحمد لله على ما قضى من أمر ، وقدَّر من فعل ، وابتلانى بكم أيتها الفرقة التى لا تطيع إذا أمرتها ، ولا تجيب إذا دعوتها ، لا أبا لغيركم ! ماذا تنتظرون بنصركم، والجهاد على حقكم ؟! الموت خير من الذل فى هذه الدنيا .. والله إن جاءنى المــوت ـ ولـيأتـينـى ـ لتجـدنـنـى لصحبتكم جدُّ قال ! ألا دين يجمعكم !؟ ألا حمية تغضبكـم !؟ ألا تسمعون بعدوكم ينتقص بلادكم ويشن الغارة عليكم ! أوليس عجبا أن معاوية يدعو الجفاة الطغام الظلمة ، فيتبعونه ، ويجيبونه فى السنة المرة والمرتين والثلاث ، إلى أى وجه شاء ؟! ثم أنا أدعوكم ـ وأنتم أولو النهى وبقية الناس ـ فتختلفون وتفترقون عنى ، وتعصوننى وتخالفون علىَّ ؟! » .

فوثب مالـك بن كعب الأرحبى فقال : « يا أمير المؤمنين إنا نسير إليهم ، اندب الناس معى فإنه لا عطر بعد عروس ! وأنتم أيها الناس : اتقوا الله وأجيبوا دعوة إمامكم ، وانصروا دعوته ، وقاتلوا عدوكم ! » .

أما محمد بن أبى بكر ، فلم يكد يصله رد أمير المؤمنين حتى كتب إلى معاوية : « تأمرنى بالتنحى عنك كأنك لى ناصح ، وتخوفنى بالحرب ، كأنك على شفيق ، وأنا أرجو أن تكون الدائرة عليكم ، وأن يهلككم الله فى الوقعة ، وأن ينزل بكم الذل ، وأن تولوا الأدبار ، فإن يكن لكم الأمر فى الدنيا فكم وكم لعمرى من ظالم قد نصرتم ! وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به ! وإلى الله المصير وإليه ترد الأمور ! وهو أرحم الراحمين ، والله المستعان على ما تصفون » .

وكتب لعمرو : « أما بعد ، فقد فهمت كتابك ، وعلمت ما ذكرت وزعمت أنك تكره أن يصيبنى منك ظفر ، فأشهد بالله إنك لمن المبطلين . وزعمت أنك ناصح لى ،

أقسم إنك عندى ظنين ، وقد زعمت أن أهل البلد قد رفضونى ، وندموا على اتباعى ، فذلك حزبك وحزب الشيطان الرجيم . وحسبنا الله رب العالمين ونعم الوكيل ، وتوكلت على الله العزيز الرحيم ، رب العرش العظيم » .

ونادى منادى أمير المؤمنين فى الناس أن يخرجوا ليدركوا مصر قبل أن يستولى عليها معاوية ، ويجعلها بخراجها الضخم طعمة لعمرو بن العاص ! فلئن غلبهم معاوية على مصر ، إنهم إذن لخاسرون . . !

فلم يخرج غير ألفين من نحو ستين ألف مقاتل !! فقال على فى حزن عميق ، وامتعاض ، وسأم : « سيروا : لله ما أنتم ؟! ما أخالكم تدركون القوم حتى ينقضى أمرهم ! » .

وشيعهم بنظرات يغشاها الأسى . . بمَنْ مِنَ الرجال ينقذ مصر ، وينقذ محمدا ؟!

أبهؤلاء الرجال ؟!

ياللرجـــال !!

* * *

الفصل السابع

مصر .. عز لكم !

كان على يدعو إلى الوحدة ورجاله يتفرقون من حوله ! ..

ومعاوية يشق الجماعة ورجاله يتجمعون عليه !

ولم يكن ذلك لأن معاوية أفضل من على أو أبصر منه بمعاملة الرجال ، ولا لأن رجال معاوية خير من رجال على .. !

إنما حدث ذلك لأن معاوية كان يعرف ماذا يخاطب فى الرجال ..

كان العصر عصر متاع ، وإقبال على الحياة ، وتفاخر بالأموال والبنين والخيل المطهمة ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة !

وكان بعض الناس يملك الآلاف المؤلفة من الدنانير والدراهم ، والضياع الواسعة ، والقصور الشامخة ، ومئات الإماء ، وعلى المرابط آلاف الدواب من الحمير والبغال والخيل والأنعام والأغنام !!

وكانت بعض البطون لا تتحرج مما تمتلىء به وتتكرش منه ، فخاطب معاوية هذه البطون والنزعات والأهواء والشهوات فأشبعها ، ووجد علماء تكرشوا وسمنوا بما أطعمهم ، وامتلكوا الآلاف المؤلفة ، فانسلخوا عن عملهم ، وأوّلوا القرآن كما يشاء معاوية ، وأفتوا له بكل ما يريد ، أفتوه فتيا تحفظ عليهم الترف الذى أغرقهم فيه !! وإن بعضهم لينام قرير العين على الفراش الوثير ، ويتمرغ على نضائد الحرير ، راضيا عن نفسه ، متخيلا أنه أرضى الله لأنه أدّى المفروض عليه من الزكاة ! فإذا رأى فى الأمة الشاسعة بعض أصحاب الحاجات والجياع ، تأوّلَ من آيات القرآن ، ما يزيف به على نفسه أن هذا هو ما قسمه الله من الرزق !!

وما من أحد منهم سأل نفسه لماذا يحسب أن الله تعالى فضله على غيره فى الرزق !! ..

إن معاوية لَمِلكٌ ، اصطنع حوله حاشية ملكية ، ببهارجها وزينتها ، ومفتيها !

هو زعيم المحلين . . الذين يحلون لأنفسهم ما حرم الله . . والعلماء الذين انسلخوا من دينهم قد أصبحوا فى بطانته بعض زينته ، وقد تحولوا من علماء دين إلى رجال دين فهم أصحاب سطوة وسلطة . . وهو ما لم يعرفه الإسلام من قبل !! . .

لهم الله ، فقد سَنُّوا بهذا التزييف سنة سيئة فعليهم وزرها إلى يوم القيامة !! وكم عانت الأمة وتعانى من هذا الطراز الزائف المزيف من الجبابرة المرتزقة عبيد السلطان ، جنود الشيطان ، أعداء الرحمن ، المنتسبين إلى الدين ، وهم يخونون الديان . . !!

أما على . . فوارحمتا لعلى !! . .

وارحمتا لإمام المتقين !!

كان قد فهم روح العصر كما فهمها معاوية ، وهو أفقه من معاوية بالحياة والناس ، وأغزر منه علما ، وأدق بصرا ، وأحد منه ذكاء ، وأشد دهاء لولا التقوى !!

فهم علىٌ روح العصر ، وانكباب الناس على الشهوات ، فلم ينافق غرائزهم أو يدغدغها أو يستثير أهواءهم كما صنع معاوية !! ولكنه احترم إنسانيتهم ، وخاطب فيهم ما هو روحى ورفيع ونبيل ، ودعاهم إلى السمو الجدير بالإنسان خليفة الله فى الأرض !

خاطب فيهم تقواهم ، وحضهم على الزهادة ، وأمرهم بأن يستمتعوا بما أحل الله من زينة الحياة التى أخرجها لعباده والطيبات من الرزق ، ولكن فليكونوا أرفع من البهائم التى لا هم لها إلا الطعام والشراب والمتاع !!

فليتذوقوا اللذات الروحية الرفيعة !! . .

إنه ليعرف ما يصلحهم : « لا أصلحكم بإفساد دينى » . .

هو يحاول أن يرسخ فى أعماقهم أن الباقيات الصالحات خير ثوابا وخير أملا . . وأن ما عند الله خير وأبقى ، وأن العاقبة للتقوى . .

ولكن هيهات !! فوراءهم ملك يسترضى الغرائز !!

علىٌ يقسم بين الناس بالعدل والسوية ، لينال كل رجل من الآلاف المؤلفة من أبناء الأمة ما يستحقه بعمله . . وأمامه ملك يمنح الآلاف المؤلفة للنفر للقليل ، ويؤثرهم على غيرهم ليكونوا أوتادا لملكه . . !!

عليٌّ كرم الله وجهه يتقى الله ، ويتحرج أن يملأ بطنه بالطعام وهو أمير المؤمنين ، وفى الأمة جائع ، ومعاوية يأكل ويطعم حتى يصاب بالتخمة ، ويكسر عيون من يطعمهم !!

عليٌّ يخاطب الناس فيقول لهم : « أنتم الأتقياء ، وأنتم حملة القرآن » ، ويستنفر منهم عزمات الإيمان ، وأمامه ملك يعد الناس بالغنى ، ويرشو بلا حساب ، ويستنفر فى الإنسان شوارد الأطماع ، وأوابد الشهوات !!

وعليٌّ يشق على الناس ، فيعلمهم أن فى المال حقا آخر غير الزكاة ، إن كان فى الأمة أصحاب حاجة . . ويدربهم على أن الصدقة عبادة . . ثم يتحرى العدل حتى ليفرض الزكاة على المال إن بلغ نصاب الزكاة، مهما يكن مالكه . . فيفرض الزكاة على أموال القصَّر واليتامى ، بما أنهم يملكون ما يستحق أن يؤدى عليه الزكاة . . ويقوده اجتهاده الباحث عن العدل والمساواة إلى أن الزكاة حق فى المال يجب أن تؤدى حين يستوفى النصاب . أيا ما يكن المسلم صاحب المال .

ثم يجد أصحاب الحرف يكسبون ويقتنون . . وإلى جوارهم أصحاب حاجات . . فيقوده اجتهاده فى بحثه الدائب عن العدل والإحسان ، إلى أن يفرض الخراج (الضرائب) على ما يكسبه أصحاب الحرف وأهل الصناعات !

ويظل شعار العصر : « الصلاة وراء على أتقى ، وأطهر وأزكى ، ولكن الطعام مع معاوية أشهى ، وأطيب وأوفى ! » .

وهو شعار أطلقه بعض الذين يخدعون أنفسهم ، ويريدون أن يكسبوا معاوية لدنياهم ، ويحتفظوا فى الوقت نفسه بعلى لدينهم !!

وعندما عاد معاوية من صفين بعد الخديعة الكبرى ، وسلم عليه الناس بالخلافة ، وأصبح ملكا حقا ، بدأ رجال حاشيته من أهل الفتيا يأمرون الناس باسم الإسلام فى أرض الإسلام أن يبايعوا لمعاوية وينكثوا بيعة على على الرغم من أنهم يعلمون أن رسول الله قد أمر بقتل من يصنع هذا بأمته !!

كان هذا النفر من المزيفين من أهل الفتيا فى بلاط معاوية ، قد تحولوا بحق إلى رجال دين فاسدين ، يرهبون الناس !!

كانوا قد ألفوا أن يتجاسروا على القرآن الكريم ، وأن يفتروا على الله كذبا ، فَأَوَّلُوا

الآيات بما شاءت لهم مصالحهم ، وبما أراده لهم سيدهم معاوية ليكون ملكا على المسلمين كالشمس . . وما دروا أن الكل باطل . . باطل الأباطيل ، وقبض الريح !!

وبلغ النفاق بهذا النفر من علماء المسلمين إلى وضع الأحاديث الشريفة فى مدح بنى أمية ، وذم بنى أبى طالب . . !!

ولم لا ؟ ! لقد تجاسر هؤلاء المرتشون على الله تعالى ، فما يمنعهم من الجرأة على رسول الله ﷺ ؟!

وهكذا كثرت الأحاديث الموضوعة ، كما اشتط المزيفون فى تأويل القرآن . . !

كما يحدث فى عصرنا ، إذ يلجأ بعض المنافقين والمزيفين من العلماء إلى خيانة علمهم حماية لما يكنزون ـ ويفخر الواحد منهم بالغنى ، فى غير ما حياء ـ والحياء شعبة من الإيمان ـ وهو يعلم أن غناه هذا معرة ، لأن الأمة الإسلامية ملأى بالصالحين أصحاب الحاجات !! . .

فهؤلاء الفاسدون يجرون على سنة أسلافهم الذين لم يعرفهم الإسلام إلا منذ عهد معاوية !!

لقد عرفت الجاهلية صاحبات الرايات الحمراء اللائى يبعن الأعراض واللذات ، وعرفت الأمة فى عهد معاوية أصحاب الأهواء الذين يبيعون ضمائرهم ، ويغلون فى الثمن ، ويبذلون عرضهم العلمى ، وشرفهم الدينى مقابل الأموال والضياع والمناصب !!

وهم شر سلف لشر خلف !!

وهؤلاء هم الذين حاول الإمام علىٌّ أن يعظهم ، وأن يذكرهم بتعاليم الإسلام . . وأفتاهم عشرات المرات أنه لا بأس بالغنى لمن اتقى . . وأنه ما من أحد يحرم زينة الحياة التى أخرج الله لعباده والطيبات من الرزق ، وإذن فلا حاجة بهم إلى بيع ضمائرهم وشرفهم لكى يثروا !! فأموال الفىء قد أصبحت بحمد الله وفيرة ، وقد فتح الله على المسلمين بلادا غنية كثيرة ، يأتى خراجها إلى بيت المال ، وهذا المال حين يوزع بالسوية يكفى الجميع . . !! . . ولكنهم كعاهرات الجاهلية ، يريدون أن يمتازوا !! عجبا !! ولم يمتازون ؟!

والإمام الورع يقود المتقين والمساكين ليقر عدل الله فى الأرض ، وليجعل المساواة دستور الحياة ، وإذ بمعاوية يفتن الناس ويرمى شباك الإغراء بالمال والمناصب والمتاع على

ثقات على . . ويجعلها قضيته : فيقسم بالله أن يجذب من عَلِىٍّ ثقات عَلِىٍّ ، وأن يغلبهم بدنياه على دينه !!

من أجل ذلك انطلق أهل الفتيا فى بطانة معاوية يخفون أحاديث ويضعون أحاديث نفاقا لمعاوية ، ليزدادوا ثراء ! . . وعَلِىٌّ يحاول أن يثقف ثقاته ليزدادوا إيمانا .

زعم علماء معاوية ـ وفى الحق أنهم كانوا علماء معاوية لا علماء الإسلام ـ زعموا ـ نفاقا لمعاوية ـ أن رسول الله ﷺ قال لمعاوية : « اللهم قِهِ العذاب والحساب وعلمه الكتاب » .

وإمعانا فى نفاق معاوية زَيَّفوا حديثا آخر : « آل أبى طالب ليسوا لى بأولياء ، إنما وليى الله وصالح المؤمنين » وذلك ردا على الأحاديث الشريفة الصحاح التى سمعها ثقات الصحابة : « على منى وأنا من على ، أنا ولى من والاه وعدو من عاداه . . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » . .

وغضب رواة الحديث من ثقات الصحابة لهذا الاختلاق والبهتان ، فأغضى علماء معاوية عن الحديث الذى ينكر ولاية على . . وسكتوا عن الأحاديث التى تمدحه . . وروّجوا للحديث الذى وضعوه فى مدح معاوية !!

ثم أذاعوا عن النبى أنه قال : « من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة ولا حجة له » . . واستندوا إلى هذا الحديث ليطالبوا الناس بالبيعة لمعاوية أميرا للمؤمنين ، بما أن أهل الشام بايعوه !

وتحسر عبد الله بن عمر لأنه لم يجاهد مع علىٍّ الفئة الباغية وهى معاوية وحزبه !!

وقد أحسن معاوية اختيار من يشاكله فى حربه عليا ، وساقت إليه المشاركة فى المصالح الدنيوية ، أدهى العرب وأمكرهم ، وهو عمرو بن العاص الذى اعتمد عليه معاوية فى الكيد لعلى ، فانضمت طاقتان خارقتان من الدهاء والكيد ، تواجهان طاقة خارقة من التقوى والورع والصلاح ، وهى طاقة تتحرج من الدهاء وتعف عن الكيد !!

ولقد أدلى عمرو مع الدهاة بدلوهم ، وأسام سرح الكيد حيث أساموا ، وبلغ من الحياة ما بلغ امرؤ بكيده ، فإذا هو فى آخر العمر يجد عصارة كل ذاك أثاما !! وإنه ليبكى بعد أن بلغ من الكبر عتيا ، وأدرك أنه ملاق ربه فسائله عما صنع !

وإنه ليناجى ربه فيعترف بذنوبه . . وكلها ذنوب اشترى بها دنيا معاوية إذ يحارب دين على ! . .

قال عمرو باكيا : « اللهم إنك أمرتنى فلم أأتمر ، وزجرتنى فلم أنزجر » .

ثم إنه ليضع يده فى موضع الأغلال التى ستكون يوم القيامة فى أعناق المذنبين ، ويتحسس عنقه ، ثم يقول أسفا : « اللهم لا قوى فأنتصر ، ولا برىء فأعتذر، لا إله إلا أنت » .

فقد أدرك عمرو أن دهاءه الذى استخدمه ضد على ، جر الدواهى على أمة محمد ، فخشى ألا يفلت ـ بما أحدث هو ومعاوية ـ من عقاب الله . . فظل يبكى ! !

كان يشعر بالندم المعذب ، كلما مرض ، وأحس أن الحياة فانية ، وأنه ملاق ربه فسائله ، وأن كل ما جمعه من مال وضياع ، وكل ما اجتمع له من سلطان وهيبة وجاه ، إنما هو باطل . . باطل الأباطيل ، وقبض الريح ! ! وأن كل ما كاد به ، وفرق به الأمة هو ومعاوية ، وكل ما أسالا من دماء المسلمين ، ذنوب عظام سيسأله عنها من لا تأخذه سنة ولا نوم ، وهو شديد العقاب ! !

دخل عليه ابن عباس فى مرضه فسلم عليه وقال : « كيف أصبحت يا أبا عبد الله ؟ » قال عمرو : « أصبحت وقد أصلحت من دنياى قليلا وأفسدت من دينى كثيراً ، فلو كان الذى أصلحت هو الذى أفسدت ، والذى أفسدت هو الذى أصلحت لفزت ، ولو كان ينفعنى أن أطلب طلبت ، ولو كان ينجينى أن أهرب هربت ، فصرت كالمنجنيق بين السماء والأرض لا أرقى بيدين ، ولا أهبط برجلين ! فعظنى بعظة أنتفع بها يا ابن أخى » فقال له ابن عباس : « هيهات هيهات يا أبا عبد الله ! » .

ودخل عليه ابنه عبد الله بن عمرو فوجده يبكى . قال عبد الله : « لم تبكى ؟ أجزعا من الموت ؟ » قال عمرو : « لا والله ولكن لما بعده » فقال عبد الله : « قد كنت على خير » وجعل يذكره صحبة رسول الله ﷺ وفتوحه الشام ، فقال له عمرو : « تركت أفضل من ذلك شهادة أن لا إله إلا الله ! إنى كنت على ثلاثة أطباق ليس منها طبق إلا عرفت نفسى فيه : كنت أول شىء كافرا ، فكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ ، فَلَوْمتُّ يومئذ وجبت لى النار . فلما بايعت رسول الله ﷺ كنت أشد الناس حياء منه ، فما ملأت عينى من رسول الله ﷺ حياء منه ، فَلَوْمتُّ يومئذ قال الناس : هنيئا لعمرو ، أسلم وكان على خير ومات على خير أحواله فترجى له الجنة . ثم بُليت بعد ذلك بالسلطان وأشياء ، فلا أدرى أعلىَّ أم لِىَ ، فإذا مت فلا تبكين على باكية ! . . » .

إلى هذا المدى بلغ الندم المعذب بعمرو بن العاص . ولكنه ندم اعتراه فى سن الرابعة والثمانين ، وهو على فراش الموت ، عندما أيقن أنه هالك ، فى آخر عهده بالدنيا ، وأول عهده بالآخرة .

أما فى صراعه مع على ، فكان كما قال من خلال دموع الندم ، قد ابتلى بالسلطان وأشياء من الجاه والترف فأفسد الكثير من دينه ليصلح القليل من دنياه كما قال . . هو نفسه .

* * *

وفى الحق أن عليا ومعاوية كانا يختلفان فى كل شىء . . وكان الخلاف لصالح معاوية الذى أحسن اختيار رجال يلائمون العصر ، إذ عرف معاوية اتجاه تيار العصر فسبح عليه ؛ أما على فواجه التيار . . !

وكان علىٌّ قد رفع الكلفة بينه وبين أصحابه ، فكل واحد منهم يستطيع أن يخاطبه فى أى شىء . . أما معاوية فقد كان ملكا وضع للبطانة والحاشية حدودا . . ولم يسمح لأحدبأن يطلع على سره . . وكان يتجهم فى وجوه أصحابه إذا حاول أحد منهم أن يجاوز معه ما رسمه له من حدود !

كان علىٌّ يشجع الناس على أن يسألوه ، والآخر يصدهم ليتهيبوه . .

كان على يذرع شوارع الكوفة ماشيا أو على حمار ، يرشد الناس ، ويحذرهم من الوقوع فى الشبهات . . سألوه : « وما الشبهة » قال : « إنما سميت الشبهة شبهة لأنها تشبه الحق ، فأما أولياء الله فضياؤهم منها اليقين ، ودليلهم سمت الهدى ، وأما أعداء الله فدعاؤهم فيها الضلال ، ودعاؤهم العمى ، فما ينجو من الموت من خافه ، ولا يعطى البقاء من أحبه » .

وكان دون معاوية أستار كثاف ، وحجاب غلاظ ، أما على فهو يمشى فى سوق الكوفة ، يحادث الناس ، ويسألهم ويسألونه ، وينصح التجار . . ويقول لهم : « بيعوا ولا تحلفوا ، فإن اليمين تنفق السلعة وتمحق البركة » .

روى نافع بن أبى مطر : « خرجت من مسجد الكوفة فإذا رجل ينادى من خلفى : ارفع إزارك فإنه أنقى لثوبك ، وأتقى لك ، وخذ من رأسك إن كنت مسلما . فمشيت خلفه وهو مؤتزر بازار ومرتد برداء ومعه الدرة (عصا صغيرة) ، كأنه أعرابى بدوى فقلت : من

هذا ؟ فقال لى رجل : أراك غريبا بهذا البلد ، فقلت : أجل أنا رجل من أهل البصرة قال : هذا على بن أبى طالب أمير المؤمنين » .

ثم أتى أمير المؤمنين أصحاب التمر ، فإذا فتاة تبكى فقالت : باعنى هذا الرجل تمرا بدرهم فرده مولاى فأبى أن يقبله . فقال له على : خذ تمرك وأعطها درهمها فإنها ليس لها أمر ، فدفعه الرجل فى غلظة ، فقلت لصاحب التمر : أتدرى من هذا الذى تدفعه ؟! قال : لا . فقلت هذا على بن أبى طالب أمير المؤمنين ! فأخذ الرجل التمر فصبه وأعطاها درهمها ، ثم قال : أحب أن ترضى عنى يا أمير المؤمنين . قال : ما أرضى عنك إلا إذا أوفيت الناس حقوقهم .

ثم مر مجتازا بأصحاب التمر فقال : يا أصحاب التمر أطعموا المساكين يرب (يزد) كسبكم . ثم مر مجتازا ومعه المسلمون (المساكين) حتى انتهى إلى أصحاب السمك فقال : لا يباع فى سوقنا سمك فاسد . . » .

وروى أحد أصحابه : « كان على يمشى فى الأسواق وحده وهو خليفة ، يرشد الضال ، ويعين الضعيف ، ويمر بالتجار فيفتح القرآن ويقرأ : ﴿ **تلك الدارُ الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا** ﴾ . ثم يقول نزلت هذه الآية فى أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس » .

وروت امرأة من أهل الكوفة : « رأيت عليا اشترى تمرا بدرهم فحمله فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ألا نحمله عنك ؟ فقال : أبو العيال أحق بحمله » .

وكان كرم الله وجهه يركب حمارا ، ومن حوله الذين يركبون الخيل والبغال المطهمة ، ويدلى رجليه من على ظهر الحمار إلى موضع واحد ويقول : أنا الذى أهنت الدنيا !!

وقابله رجل فى الطريق وهو يحمل التمر إلى أهله ، فأفرط فى الثناء عليه وكان على يتهم هذا الرجل ، فقال له : « أنا دون ما قلت وفوق ما فى نفسك » . .

وما كان يمكن أن يطوف معاوية بأسواق دمشق ، ولا أن يظهر للناس إلا فى أبهى ثيابه الفاخرة ، وما كان يمكن أن يتحدث معاوية مع أحد أو يحادثه أحد بمثل اليسر الذى يتحدث به أمير المؤمنين الإمام علىٌّ وأصحابه .

* * *

وشرد الإمام فى الذين معه ، وخشى عليهم الفتنة ، فقد أخذت دنيا معاوية تغلبهم على دين محمد !!

ولقد التفت الإمام حوله ذات يوم ، فوجد نفسه وحيدا إلا من بعض ثقاته ! .

فدعا الناس إليه ، فلما أتوه ، وقف يخطب فقال : « الحمد لله فاطر الخلق ، وفالق الإصباح ، وناشر الموتى ، وباعث من فى القبور ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وأوصيكم بتقوى الله فإن أفضل ما توسل به العبد الإيمان ، والجهاد فى سبيله وكلمة الإخلاص ، فإنها الفطرة ، وإقام الصلاة فإنها الملة ، وإيتاء الزكاة فإنها من فريضته ، وصوم شهر رمضان فإنه جُنَّةٌ من عذابه ، وحج البيت فإنه منفاة للفقر مَدْحَضَةٌ للذنب ، وصلة الرحم فإنها مثراة فى المال ، ومحبة فى الأهل ، وصدقة السر فإنها تكفر الخطيئة وتطفىء غضب الرب ، وصنع المعروف فإنه يدفع ميتة السوء ويقى مصارع الهول .

أفيضوا فى ذكر الله فإنه أحسن الذكر ، وارغبوا فيما وعد المتقين فإن وعد الله أصدق الوعد ، واقتدوا بهدى نبيكم ﷺ ، فإنه أفضل الهدى ، واستسنوا بسنته فإنها أفضل السنن ، وتعلموا كتاب الله فإنه أفضل الحديث ، وتفقهوا فى الدين فإنه ربيع القلوب ، واستشفعوا بنوره فإنه شفاء لما فى الصدور ، وأحسنوا تلاوته فإنه أحسن القصص ، وإذا قرىء عليكم فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ، وإذا هديتم لعلمه فاعملوا بما علمتم به لعلكم تهتدون ، فإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الجائر الذى لا يستقيم عن جهله ، بل لقد رأيت أن الحجة أعظم والحسرة أدوم على هذا العالم المنسلخ من علمه ، عن هذا الجاهل المتحير فى جهله ، وكلاهما مضلل مثبور (خاسر هالك) .

لا ترتابوا فتشكوا ، ولا تشكوا فتكفروا ، ولا ترخصوا لأنفسكم (تبيحوا لها ما لا يباح)فتذهلوا (تغفلوا) ، ولا تذهلوا فى الحق فتخسروا ! .

ألا وإن الحزم أن تثقوا ، ومن الثقة ألا تغتروا ، وإن أنصحكم لنفسه أطوعكم لربه ، وإن أغشكم لنفسه أعصاكم لربه .

من يطع الله يأمن ويستبشر ، ومن يعص الله يخف ويندم .

ثم سلوا الله اليقين وارغبوا إليه فى العافية ؛ وخير ما دام فى القلب اليقين .

إن عزائم (فرائض) الأمور أفضلها ، وإن محدثاتها شرارها ، وكل محدث بدعة ، وكل محدث مبتدع ، ومن ابتدع فقد ضيع ، وما أحدث محدث بدعة إلا ترك بها سنة . المغبون من غبن دينه ، والمغبون من خسر نفسه ، وإن الرياء من الشرك ، وإن الإخلاص من العمل والإيمان » .

وأدار الإمام بصره فيمن يسمعون ، فلم يجد بينهم المقاتلين ! فقد انصرفوا عنه إلى مجالس اللهو الحلال ، منذ عاد من صفين ، وكأنهم بعد أن أشرفوا على الموت فى الحرب أرادوا أن يعتصروا الحياة إلى آخر قطرة . . !

فكلما دعـاهم الإمام إلى الجهاد ، تثاقلوا أو تعللوا ، وقليل منهم من خرج لقتال الخوارج بعزيمة صدق ، أما الآخرون فقد آثروا أن يجلسوا إلى نسائهم وأبنائهم ، أو إلى أصحابهم يسمرون ويتناشدون الأشعار ، أو يتلذذون بالغناء وفنون اللهو المباح . .

وبعد أن صمت الإمام ليتأمل وجوههم ، وليتعرف على أثر موعظته فيهم وجد الأنظار شاردة ، وصفحات الوجوه لا تعبر ! فقال : « إن الرياء من الشرك ، وإن الإخلاص فى العمل من الإيمان ، ومجالس اللهو تنسى القرآن ويحضرها الشيطان ، وتدعو إلى كل غى ، ومجالسة النساء تزيغ القلوب وتطمح الأبصار ، وهى مصائد الشيطان ، فاصدقوا الله فإن الله مع من صدق ، وجانبوا الكذب فإن الكذب مجانب للإيمان ، ألا إن الصدق منجاة وكرامة ، والكذب هلكة ، ألا وقولوا الحق تعرفوا به ، واعملوا به تكونوا من أهله ، وأدوا الأمانة إلى من ائتمنكم ، وصلوا أرحام من قطعكم ، وعودوا بالفضل على من حرمكم ، وإذا عاهدتم فأوفوا ، وإذا حكمتم فاعدلوا ، ولا تفاخروا بالآباء ، ولا تنابزوا بالألقاب » . .

ولا يغتب بعضكم بعضا ، وأعينوا الضعيف والمظلوم والغارمين (المدينين) وفى سبيل الله وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب ، وارحموا الأرملة واليتيم .

وأفشوا السلام وردوا التحية على أهلها بمثلها أو بأحسن منها ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب** ﴾ .

وأكرموا الضيف ، وأحسنوا إلى الجار ، وعودوا المرضى ، وشيِّعوا الجنائز ، وكونوا عباد الله إخوانا . .

ألا وإن القبر حفرة من حفر النار ، أو روضة من رياض الجنة ، ألا وإنه يتكلم كل يوم ثلاث مرات فيقول : أنا بيت الظلمة ، أنا بيت الدود ، أنا بيت الوحشة ، ألا وإن وراء ذلك يوما يشيب فيه الصغير ، ويسكر فيه الكبير ﴿ **وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ ، ألا وإن وراء ذلك ما هو أشد منه ، نار حرها شديد ، وقعرها بعيد ، ومقامعها حديد ، وماؤها صديد ، وخازنها مالك ليس فيه رحمة » . . ثم بكى ، وبكى الناس . . !

ولقد تعود أن يقول وهو يعظ ثقاته وبطانته : « المسلم البرىء من الخيانة بين إحدى الحسنيين إذا ما دعا الله ، فما عند الله خير له ، إما أن يرزقه الله مالا فإذا هو ذو أهل ومال معه حسبه ودينه ، وإما أن يعطيه الله فى الآخرة ، فالآخرة خير وأبقى . الحرث حرثان حرث الدنيا المال والتقوى ، وحرث الآخرة الباقيات الصالحات . وقد يجمعهما الله تعالى لأقوام » .

شتان ما بين هذا ، وبين ما أخذ به معاوية بطانته وحاشيته !!

كان على يكره لعماله أن يحتجبوا ، وكان هو نفسه يلقى الرعية فى المسجد والسوق والطرقات . .

وكان دون معاوية حجاب وأستار . . كما كان لكسرى وقيصر !!

ولقد تعود الإمام أن يكتب لمن يوليه من عماله : « أما بعد ، فلا تحتجب عن رعيتك ، فإن احتجاب الولاة عن الرعية شعبة الضيق ، وقلة علم بالأمور ، والحجاب يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه ، فيضعف عندهم الكبير . ويعظم الصغير ، ويقبح الحسن ، ويحسن القبيح ، ويشاب الحق بالباطل ، وإنما الوالى بشر لا يعرف ما يوارى عنه الناس به من الأمور ، وليس على القوم سمات يعرف بها ضروب الصدق من الكذب ، فإنما أنت أحد الرجلين : إما امرؤ شحت نفسك بالبذل فى الحق ففيم احتجابك من حق واجب عليك أن تعطيه ؟ وخلق كريم تسد به ؟ وإما مبتلى بالمنع والشح فما أسرع زوال نعمتك ، وما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا يئسوا من ذلك ، مع أن أكثر حاجات الناس إليك مالا مؤنة فيه عليك من شكاية مظلمة أو طلب إنصاف ، فانتفع بما وصفت لك ، واقتصر على حظك ورشدك إن شاء الله » .

كان رقيبا على سير الولاة ، حريصا على عدلهم بين الناس : فلا يحابوا أحدا لمودة أو قرابة أو مصلحة . . وهذا كله غير ما يفعله معاوية .

كتب كرم الله وجهه إلى أحد عماله يؤنبه : « رويدا فكأن قد بلغت المدى ، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذى ينادى المغتر بالحسرة ، ويتمنى المضيع التوبة ، والظالم الرجعة » .

ومن عجب أن معاوية كتب إليه بعد صفين وخديعة التحكيم : « يا أبا الحسن إن لك فضائل كثيرة ، وكان أبى سيدا فى الجاهلية ، وصرت أنا ملكا فى الإسلام ، وأنا صهر رسول الله ﷺ ، وأخو أم المؤمنين أم حبيبة بنت أبى سفيان ، وكاتب الوحى » .

فعجب على لجرأة معاوية !! وقال : « أبالفضائل يسخر عليَّ ابن آكلة الأكباد ؟! »
ثم قال : اكتب يا غلام :

محمد النبى أخى وصهرى	وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يمسى ويضحى	يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى	مَسُوطٌ لحمها بدمى ولحمى
وسبطا أحمد ولداى منها	فأيكمو له سهم كسهمى؟!
سبقتكمو إلى الإسلام طرا	صغيرا ما بلغت أوان حلمى

مسوط : مختلط .

وأرسل هذا الشعر إلى معاوية .

فأخفى معاوية كتاب على ، وكان كثيرا ما يخفى عن أهل الشام كتبا لعلى حذرا أن يطلعوا عليها فيدخل ما فيها عقول بعضهم ، فيكتشفوا أنهم مخطئون !! قال معاوية : « اخفوا كتاب على لا يقرؤه أهل الشام فيميلوا إلى ابن أبى طالب » .

كان علىٌّ حينما يحدثه الناس عن ترف معاوية وبطانته يقول ساخراً : « من هوان الدنيا على الله أنه سبحانه يُجيع المؤمن مع نفاسته ، ويشبع الكلب مع خساسته ! والكافر يأكل ويشرب ، ويلبس ويتمتع ، والمؤمن يجوع ويعرى ، وذلك لحكمة اقتضتها حكمة أحكم الحاكمين ! » .

كان على يأمر أصحابه أن يبروا جيرانهم ، وأن يتحابوا فى الله ، ويسمى معاوية وصحبه : المتحابين فى عمل المعصية .

ولقد أوصى الإمام أصحابه بقوله : « الله الله فى الفقراء والمساكين ، فأشركوهم فى معايشكم . . قولوا للناس حسنا كما أمركم الله ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » .

كان علىٌّ يحرص على أمانة عماله ، ويأخذهم بالشدة فى رعاية حقوق الأمة ، فإذا خافوا لحقوا بمعاوية ، فجزاهم أحسن الجزاء ، وأجزل لهم العطاء !! هكذا فر عامله على الرَّىّ ، بعد أن عزله على وحبسه وعين عليه حارسا اسمه سعد ، فغافله وفر إلى معاوية بما نهبه من مال وقال :

وخادعت سعدا وارتمت بى ركائبى إلى الشام واخترت الذى هو أفضل

وغادرت سعدا نائما فى غيابة وسعد غلام مستهام مضلل

فلما أجزل له معاوية العطاء ، وأقره على ما نهبه من بيت مال الرى ، قال :

أحببت أهل الشام من بين الملا وبكيت من أسف على عثمان

وعلم عَلىٌّ أن عاملا آخر من عماله أحب امرأة جميلة ، فجعل لها صداقا مائة ألف درهم ، فأرسل إليه على : « ارفع إلىَّ حسابك ! » ففر الوالى العاشق إلى معاوية بما نهب من الناس ، ومن بيت المال ، وأقره معاوية على ما نهبه ، وكافأه بسخاء !

وهكذا . . فر عن الإمام كبار اللصوص الذين نهبوا أموال الأمة فلحقوا بمعاوية . . وكانوا كلهم ولاة وأمراء . . ! ياله ويا للمساكين والمتقين من هؤلاء الأثرياء ، الذين لا يريدون إلا الترف !! قال قائلهم حين استقر عند معاوية بما نهبه من بيت المال وحقوق المسلمين ، وبما أغدقه عليه معاوية بغير حق :

ألا من مبلغ عنى عليا بأنى قد أمنت فلا أخاف ؟

وقد جاء إلى الإمام أحد أصحابه يطلب مالا ، وكانت له دالّة عليه ، وهو عبد الله ابن رفعة وهو أيضاً من ذوى قرباه . . وكان معسرا ، فقال له : « إن هذا المال ليس لى ولا لك ، وإنما هو فىء المسلمين وجلب أسيافهم ، فإن شركتهم فى حربهم كان لك مثل حظهم ، وإلا فجنَاه (جنى أيديهم) لا تكون لغيرهم » .

وكان على يستقصى المظالم فيردها .

اقترب الموسم ، وشكا الناس إلى الإمام أن أهل مكة يغالون فى أجرة بيوتهم . . وهاله ذلك !! إن رسول الله ﷺ أمر أهل مكة ألا يؤجروا بيوتهم لحجاج بيت الله الحرام ، وقد أخذهم عمر بالشدة ، وحتّم على كل صاحب دار أن يترك فناء داره للحجاج ، وأن يُضيّفَ من استطاع منهم بلا مقابل .

وأرسل أمير المؤمنين كرم الله وجهه إلى عامله على مكة قثم بن العباس : « أما بعد ، فأقم للناس الحج ، وذكرهم بأيام الله (التى عاقب فيها الأمم الغابرة على سوء العمل) ، وأجلس لهم العصرين (أى صباحا ومساء) ، فأفت المستفتى ، وعلم الجاهل ، وذاكر العالم ، ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك ، ولا حاجب إلا وجهك ، ولا تحجبن

ذا حاجة عن لقائك بها ، فإنها إن ذِيدت (مُنِعت) عن أبوابك فى أول وردها لم تُحمد فيما بعد على قضائها . وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله فاصرفه إلى من قِبَلَكَ (أى عندك) من ذوى العيال والمجاعة مصيبا به مواضع الفاقة والخَلاَّت (الحاجات) ، وما فضل عن ذلك فاحمله إلينا لنقسمه فيما بيننا » .

ومر أهل مكة لا يأخذوا من ساكن أجرا ، فإن الله سبحانه يقول : ﴿ سواء العاكف فيه والباد ﴾ فالعاكف المقيم به ، والبادى الذى يحج إليه من غير أهله ، وفقنا الله وإياكم لمحابِّه والسلام » .

وقال له همام بن شريح وهو أحد النساك من أتباعه : « يا أمير المؤمنين صف لى المتقين حتى كأنى أراهم » فتثاقل عن جوابه ، ثم قال : « يا همام اتق الله وأحسن فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون » .

فأصر همام إصرارا على أن يجيبه الإمام ، وأقسم عليه أن يفصل له القول فى صفة المتقين .

قال الإمام : « فإن الله تعالى خلق الخلق حين خلقهم غنيا عن طاعتهم ، آمنا من معصيتهم ، لأنه لا تضره معصية من عصاه ولا تنفعه طاعة من أطاعه ، فقسم بينهم معيشتهم ووضعهم عن الدنيا مواضعهم ، فالمتقون فيها أهل الفضائل منطقهم الصواب ، وملبسهم الاقتصاد ، ومشيهم التواضع ، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم ، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم . نزلت أنفسهم منهم فى البلاء كالتى نزلت فى الرخاء (أى أنهم فى البلاء لا يجزعون فكأنهم فى رخاء ، وفى الرخاء لا يبطرون ولا يتجبرون فكأنهم فى بلاء) » .

ولولا الأجل الذى كتب عليهم لم تستقر أرواحهم فى أجسادهم طرفة عين شوقا إلى الثواب ، وخوفا من العقاب ، عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما دونه فى أعينهم ، فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون ، وهم والنار كمن قد رآها فهم معذبون . قلوبهم محزونة ، وشرورهم مأمونة ، وأجسادهم نحيفة ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة . صبروا أياما قصيرة أعقبتهم راحة طويلة . تجارة مربحة يسرها لهم ربهم .

أرادتهم الدنيا فلم يريدوها ، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها ، أما الليل فصافُّون أقدامهم ، تالين لأجزاء القرآن يرتلونه ترتيلا ، يحزنون به أنفسهم ويستثيرون به دواء دائهم ، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا ، وتطلعت نفوسهم إليها شوقا ، وظنوا أنها

نصب أعينهم ، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم ، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها فى أصول آذانهم . .

وقد خالطهم أمر عظيم ، لا يرضون من أعمالهم بالقليل ، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون ، ولأعمالهم مشفقون ، إذا زُكِّىَ أحدهم (مدحه أحد) خاف مما يقال له ، فيقول : أنا أعلم بنفسى من غيرى ، وربى أعلم بى من نفسى ، اللهم لا تؤاخذنى بما يقولون ، واجعلنى أفضل مما يظنون ، واغفر لى ما لا يعلمون .

فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة فى دين ، وحزما فى لين ، وإيمانا فى يقين ، وحرصا فى علم ، وعلما فى حلم ، وقصدا فى غنى (القصد أى الاقتصاد) وخشوعاً فى عبادة ، وتجملا فى فاقة (التجمل : التظاهر باليسر) وصبرا فى شدة ، وطلبا فى حلال ، ونشاطا فى هدى ، وتحرجا عن طمع ، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل ، يمسى وهمه الشكر ، ويصبح وهمه الذكر ، يبيت حذرا ، ويصبح فرحا ، حذرا من الغفلة ، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة . إن استصعبت (لم تطع) عليه نفسه فيما تكره ، لم يعطها سؤالها فيما تحب ، قرة عينه فيما لا يزول ، وزهادته فيما لا يبقى . يمزج العلم بالحلم ، والقول بالعمل ، تراه قريبا أمله ، قليلا زلله ، قانعة نفسه ، منزورا (قليلا) أكله ، سهلا أمره ، حريزا (حصينا) دينه ، ميتة شهوته ، مكظوما غيظه ، الخير منه مأمول ، والشر منه مأمون . .

يعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويصل من قطعه ، بعيداً فحشه ، لينا قوله ، غائبا منكره ، حاضرا معروفه ، مقبلا خيره ، مدبرا شره ، فى الزلازل وقور ، وفى المكاره صبور ، وفى الرخاء شكور . .

لا يضيع ما استحفظ ، ولا ينسى ما ذكر ، ولا يدخل فى الباطل ، ولا يخرج من الحق . .

نفسه منه فى عناء ، والناس منه فى راحة ، أتعب نفسه لآخرته ، وأراح الناس من نفسه ، بعده عمن تباعد عنه زهد ونزاهة ، ودنوه ممن دنا منه لين ورحمة ، ليس تباعده بكبر وعظمة ، ولا دنوه بمكر وخديعة » .

وعندما انتهى الإمام من كلامه غشى على همَّام فقال الإمام : « أما والله لقد كنت أخافها عليه » ثم قال : « هكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها » .

فلما أفاق همام ، أخذ الإمام يتفكر فيما انتهى إليه أمر الناس ، وفيما مر به وبالأمة من أحداث ، وفيما يحاصره من شدائد . .

وصلى ركعتين. . وحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال : « يأتى على الناس زمن عضوض (شديد) يعض الموسر فيه على ما فى يديه ولم يؤمر بذلك . قال الله سبحانه : ﴿ ولا تنسوا الفضل بينكم ﴾ ، تَنْهَدُ (ترتفع) فيه الأشرار ، وتستذل الأخيار ، ويبايع المضطرون ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع المضطر !! » .

وحدثوه عن بطانة معاوية من الذين انسلخوا عن عملهم ، كيف تحولوا إلى طلاب مال فكلما أغدق عليهم معاوية طلبوا المزيد ، فقال : « منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال » . . ثم قال : « طالب علم وطالب دنيا » .

وقال : « ما كان الله ليفتح على عبد باب الشكر ويغلق عنه باب الزيادة ولا ليفتح على عبد باب الدعاء ويغلق عنه باب الإجابة ، ولا ليفتح على عبد باب التوبة ويغلق عنه باب المغفرة » .

وقال : « كفاك من عقلك ما أوضح لك سبل غيك من رشدك » .

وجلس فى بعض الناس بالسوق ، فمرت امرأة رائعة الجمال ، فتطلعت إليها أبصارهم وظلوا يتابعونها بنظراتهم ، فقال : « إن أبصار هذه الفحول طوامح ، فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه فليلامس أهله ، فإنما هى امرأة كامرأة » فقال رجل من الخوارج كان فى الناس : « قاتله الله كافرا ما أفقهه ! » فوثب القوم ليقتلوه فقال كرم الله وجهه : « رويدا إنما هو سب بسب ، أوعفو بذنب ! » (أى إما أن نسبه نظير سبه أو أعفو عن ذنبه) .

* * *

وفى الحق أن الخوارج لم يكونوا قد انتهوا بعد معركة النهروان . . لقد ضرب الإمام جمعهم فى النهروان ، ولكن الذين لم يتوافوا منهم إلى النهروان نجوا وانتشروا فى البلاد ، وعدلوا عن الهجرة إلى الجبال والخلوات ، واندسوا فى المجتمع ، وغيروا مظهرهم الذى غلب عليهم ، فأطالوا شعورهم وشواربهم وقصروا لحاهم ، وكانوا من قبل يحلقون الرءوس ويطيلون اللحى ويحفون الشوارب .

لم يمض غير أسابيع قليلة على يوم هزيمتهم الساحقة فى النهروان ، ولقد مشى الإمام بعد المعركة حينئذ محزونا بين قتلاهم ، وكان منهم عدد من القراء ، أهلكهم التطرف . . ونظر الإمام إلى عبد الله بن وهب وحرقوص وغيرهما وهم مجندلون فى العراء تسفى عليهم الرياح السافيات ، فاسترجع وقال : « بؤسا لكم ! لقد ضركم من غركم ! » فسأله بعض أصحابه : « ومن غرهم يا أمير المؤمنين ؟ » قال : « الشيطان ، وأنفس بالسوء أمارة . غرتهم بالأمانى وزينت لهم المعاصى ، ونبأتهم أنهم ظاهرون . وقد تأولوا قول الله تعالى : ﴿ ومن لم يحكم بما أنـزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ وكذا التى بعدها ﴿ فأولئك هم الظالمون ﴾ و ﴿ الفاسقون ﴾ . . كما تأولوا قوله تعالى : ﴿ لقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ » .

ثم نهض الإمام ونهض القوم ، فقال لهم وهو يتمشى فى السوق : (قل هل أنبئكم بالأخسرين أعمالا * الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) . . أولئك هم الخوارج . .

ومشى فى السوق ، فمر ببائع يحلف فقال له : « لا تحلف . ويل للصانع وويل للتاجر من (لا والله) و (بلى والله) ! يا معشر التجار ، ألا إن كل يمين فاجرة تذهب بالبركة . فاتقوا (لا والله) و (بلى والله) . فقد كنا نتحدث أن التاجر فاجر وفجوره أنه يُحلِّ السلعة بما ليس فيها . قال رسول الله ﷺ : اليمين الكاذبة مُنفقة (مروجة) للسلعة ، مُمحقة للربح ! واعلموا أن التاجر فاجر إلا من أخذ الحق وأعطاه . وقد قال رسول الله ﷺ : ألا إن التجار هم الفجار ، إلا من اتقى وبرّ وصدق . وقال : يا معشر التجار تحشرون مع الفجار إلا من اتقى ربه وصدق . كما أنه عليه الصلاة والسلام قال : التاجر الصدوق مع النبيين والصديقين والشهداء » .

ولم يكد ينصرف من السوق حتى وجد أحد الخوارج يقف على جماعة من الناس يعظهم بأن من اقترف الكبيرة فقد كفر ، وأن الصلاة والصيام لهما شروط صحة غير التى يعرفها الناس . .

وإذن فلم تكن وقعة النهروان هى نهاية الخوارج !

لقد صدمه أحدهم الساعة حين قال : « قاتله الله كافرا ، ما أفقهه ! » .

وهذا هو متطرف آخر يفتى الناس فى أمور الدين فيقول عجبا . . !

إنهم مازالوا يجوسون خلال الديار ، ويصور لهم التطرف والتعصب والإفراط فى التدين أفكارا غريبة عن الدين ، حتى لقد خالفوا بها الدين نفسه !!

فأصبح من واجب الإمام على ، وهو إمام الهدى وولى كل مؤمن الآن أن يدحض كلام الخوارج ، كما كان من واجبه وهو أمير المؤمنين، أن يخوض حروبا ضد الخوارج وضد معاوية جميعا ، دفاعا عن وحدة الأمة ، وذيادا عن حوض الشريعة ، وعن القيم الفاضلة التى جاء بها الإسلام ، وعن مكارم الأخلاق التى بعث الله رسوله محمدا متمما لها . .

زعم الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر ، فشرح الإمام للناس ، أن من نطق بالشهادتين وآمن بأركان الإسلام الخمسة لا يمكن أن يكون كافرا؟وليس من حق أحد أن يحكم عليه بالكفر !!

فمن ترك الصلاة إهمالا ، مذنب عاص فاسق ، ولكنه ليس كافرا ، إلا إذا أنكر أن الصلاة أحد أركان الإسلام ! كذلك من منع الزكاةعن بخللا عن إنكار ، وكذلك من أفطر فى رمضان عامدا متعمدا بغير عذر ، أومن لم يحج وهو يستطيع إلى الحج سبيلا ، كسلا منه أو بخلا غير منكر أنه فرض واجب ! . فالذى يقصر فى الفريضة غير الذى ينكر الفريضة نفسها !

وقد وضع الله حدودا لمرتكب الكبيرة يجب على ولى الأمر أن يقيمها ، فان لم يجد الحكم فى الكتاب أو السنة ، فقد وجب على أهل الذكر أن يستنبطوه . . وتحتم عليهم أن يعملوا العقل ليجدوا الحكم مستهدين بما فى الكتاب والسنة من حكم لواقعة مشابهة ، عندما تتشابه العلة أو الحكمة أو السبب ، وبما تقتضيه مصلحة الأمة والعباد .

وزعم الخوارج أن نواقض الوضوء ليست هى الحدث المادى وحده ، بل إن الحدث الروحى أيضاً ينقض الوضوء ، كالنميمة والاغتياب والكذب فهى تنقض الوضوء فلا صلاة لمن يرتكبها ، وتفسد الصيام ، فلا يقبل صيام مقترفها . .

وشرح الإمام للناس ، أن نواقض الوضوء وما يفطر الصائم أوضحها الرسول على سبيل الحصر ، فلا مجال للاجتهاد فيها ، وأن الأحداث المعنوية الأخرى جرائم قائمة بذاتها ، يعاقب الله عليها من يقترفها . . ويجب أن يتطهر منها القلب واللسان ، ولكنها لا تنقض وضوءاً أو تبطل صياما . . فالله يتقبل من العبد صلاته إن صلاها بشروطها ، ويقبل الصيام ما لم يبطله شىء من المفطرات المادية ، ويعاقب فى الوقت نفسه من أساء

باساءته . . وما كان ربك نسيا ، وهو لا يرفض الحسنى لأنها اقترنت باساءة ، فلكل عمل من أعمال الإنسان حسابه . . ولكل وازرة وزرها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى . .

ثم إن هؤلاء المتطرفين الخوارج أنكروا من القرآن كل الآيات التى تروى قصصا . . رفضوا قصص القرآن جميعا ، والله يقول لرسوله : ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين ﴾ وهكذا انتهى بهم الإفراط فى التدين إلى الطعن فى الدين نفسه والتشكيك فى القرآن ! فقالوا إن سورة يوسف تروى قصة عشق، ولا يعقل أن تكون فى التنزيل فالله تعالى لا يوحى إلى نبيه بقصص عشق!!

وهكذا صنعوا لأنفسهم قرآنا خاصا تداولوه سرا ، ورفعوا منه كل القصص. . !

وأفتى الإمام بأن هذا الذى يتداوله القراء المتطرفون الذين غلب عليهم اسم الخوارج ليس هو القرآن ، ولكنه تزييف على القرآن ، وافتراء على الله وأخذ ببعض الكتاب وترك لبعض !! قد جمع علىٌّ وزيد وبعض قراء الصحابة القرآن أواخر عهد الرسول وأول عهد أبى بكر ، وقد أتم عثمان هذا العمل المجيد ، ومصحف عثمان الذى أحرق ما عداه ، هو وحده الذى يضم بين دفتيه القرآن الكريم ، وليس من حق المسلم أن يقبل منه أو يرفض كما شاء له الهوى أو النزق أو التطرف أو الشطط !

* * *

وهكذا وجد على نفسه بين الذين أحدثوا صدعا فى الإسلام بالكلمة كهؤلاء المتطرفين الخوارج ، والذين أحدثوا ثلما فى الإسلام بالحركة كمعاوية !! كلاهما سن سنة سيئة سيتحمل وزرها ووزر من ساروا عليها إلى يوم القيامة : استن معاوية سنة عصيان الإمام وشق عصا الطاعة والخروج على الجماعة !! فلو لم يفرق الشمل ، لما عرفت الأمة الإسلامية التمزق والفرقة والخلاف ، بعد معركة الجمل ! إذ ندم كل قوادها الذين حاربوا عليا ، وتمنوا لو أنهم ماتوا قبلها !!

ثم هاهم أولاء المتطرفون يخرجون على الأمة ، ويبتدعون كلاما فى الدين ، يفتح باب خلاف فكرى عريض ، ويشق الأمة باسم حرية الفكر ! باسم الفكر يدفعون بالمسلمين إلى عشوات داجية يتخبطون فيها . . ! ويغلقون باب التوبة أمام من عصى الله ، وقد علم الناس أن الله يعفو عن التوابين . .

وهكذا كتب على الإمام أن يناجز الخوارج بوصفه إماما للمتقين ، وإماما للهدى ، وأن يحارب بوصفه أميرا للمؤمنين معاوية وأصحابه ومن حوله من العلماء المرتشين الضالين المضلين المنسلخين عن العلم . .

ورفض زعماء الخوارج أن يجادلوا عليا ، ولكن عليا نهى عن الخوض فيما يخوض فيه الخوارج من كلام سدا لذرائع الفتن والمروق من الدين وإشاعة القنوط من رحمة الله فى النفوس فيزداد العصاة عصيانا . . نهى عن الكلام فى القضاء والقدر . . ونهى عن الكلام فى المتشابه من آيات القرآن الكريم ، ونهى عن تحكيم عقل الإنسان فى غير ما يتقنه ، فليس للعقل أن يرفض ما جاء فى القرآن ، ولكنه مطالب بأن يحسن استنباط الأحكام من نصوص القرآن . .

ولكن من القراء الخوارج ، من كان يحب أن يتفقه فى الدين ، ومن رفض أن يجعل للعقل سبيلا على القرآن فيأخذ بعضه ويدع بعضه ، بدلا من أن يكون القرآن هاديا للعقل . . ومن هؤلاء نافع بن الأزرق .

وقد ذهب إلى عبد الله بن عباس يسأله فى القرآن ، لا منكرا لقصصه أو لبعض آياته ، بل ليتفهم معانيه .

وعبد الله بن عباس هو أنبغ تلاميذ الإمام ، وأفقههم بالقرآن والسنة والشعر وأيام العرب وسائر المعارف فى عصره ، وكان ينتجعه شداة العلم يسألونه عن القرآن ومعانيه . .

سأله ابن الأزرق عن قوله تعالى : ﴿ والليل وما وسق ﴾ . قال ابن عباس : « وما جمع » قال : « أتعرف ذلك العرب ؟ » قال ابن عباس : « أما سمعت قول الراجز :

إن لنا قلائصا حقائقا ... مستوسقات لو يجدن سائقا

(قلائص : جمال صغيرة . حقائق جمع حقة وهى من الإبل التى استحقت أن يحمل عليها . مستوسقات : مجتمعات يقال استوسق القوم إذا اجتمعوا) » .

وسأله : « أرأيت نبى الله سليمان عليه السلام مع ما خوله الله وأعطاه كيف عنى بالهدهد على قلته وضؤولته ؟! » قال له ابن عباس : « إنه احتاج إلى الماء والهدهد يرى باطن الأرض كظاهرها ، فسأل عنه لذلك » قال ابن الأزرق : « كيف يبصر باطن الأرض والفخ يغطى له بمقدار أصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه !؟ » فقال ابن عباس : « ويحك يا ابن الأزرق ! أما علمت أنه إذا جاء القدر عشى البصر !؟ » .

هكذا انشغل الإمام باقامة العدل وتوفير الراحة للرعية ، وتنوير العقول بالعلم ، وإعمار القلوب بالتقوى ، ومقاومة الأطماع بذكر الله . .

* * *

أمـا معـاوية ، فقد عاد من صفين إلى قصره الباذخ الضخم فى دمشق ، والناس يسلمون عليه بالخلافة ، ويبجلونه كما تبجل الروم أباطرتها ، وهو يقول مزهوا : « أنا أول ملك فى الإسلام ! » .

وأمر الناس أن يسبوا عليا على المنابر ، وأن يتهموه بالكذب ، ولكن أحد العلماء الذين انسلخوا من علمهم ليكونوا من صنائع معاوية ، نصحه ألا يفعل ذلك كيلا يستثير عداء الناس ، فقد علم الناس أن رسول الله قال : « على منى وأنا من على وهو ولىُّ كل مؤمن بعـدى » فقال معاوية : « إنما نلعن أبا تراب ، فإن قال الناس : من أبو تراب ، فقولوا : هو رجل من بنى عبد مناف ! » .

ولام سعد بن أبى وقاص معاوية لأنه يلعن عليا ، وقال لمعاوية أمام بطانته : « إن يوماً واحدا من على أفضل من معاوية حيا وميتا ! » فقال معاوية : « وما يمنعك أن تسب أبا تراب ؟ » فقال سعد : « ثلاث قالهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأن تكون لى واحدة منهن أحب إلى من أن يكون لى حمر النعم ، فلن أسبه ، سمعت رسول الله ﷺ يقول وقد خلفه فى بعض المغازى فقال له على : يا رسول الله تخلفنى مع النساء والصبيان ؟ فقال له الـرسول : أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى ؟ وسمعته يقول يوم خيبر لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، فتطاولنا إليها ، فدعا عليا فدفع الراية إليه ففتح الله عليه . وأنزلت هذه الآية : ﴿ قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ﴾ فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليا وفاطمة وحسنا وحسينا فقال : « اللهم هم أهلى » .

ثم أضـاف رجـل من أنصار سعد : « قال رسول الله لعلى : لا يحبك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق » .

ثم إن معاوية دعا جماعة من ثقاته فيهم عمرو بن العاص السهمى ، وبشر بن أرطأة العـامرى ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومى ، وحبيب بن مسلمة الفهرى ، وكلهم من قريش ، ودعا ثلاثة من غير قريش فيهم . شرحبيل بن السمط الحميرى . فقال لهم معاوية : « أتدرون لماذا دعوتكم ؟ » قالوا : « لا » قال : « فإنى دعوتكم لأمر هو لى مهم ، وأرجو أن يكون الله عز وجل قد أعان عليه » فقال رجل منهم : « إن الله لم يطلع على غيبه أحداً ولسنا ندرى ما تريد ! » .

فوثب عمرو بن العاص بجسده النحيل فقال ، وقد التمعت عيناه : « أرى والله أمر هذه البلاد المصرية قد أهمك لكثرة خراجها وعدد أهلها . فدعوتنا تسألنا عن رأينا فى

ذلـك ، فإن كنت لذلـك دعوتنا ، وله جمعتنا فاعزم واحزم ونعم الرأى ما رأيت ! إن فى افتتاحها عزك وعز أصحابك ، وذل عدوك ، وكبت أهل الخلاف عليك » .

فقال معاوية : « أهمك ما أهمك يا ابن العاص ، وما أهمك إلا مصر » . والتفت معاوية لأصحابه وقال : « إن ابن العاص قد ظن وحقق ظنه . أما بعد فقد رأيتم كيف صنـع الله لكـم فى حربـكم هذه على عدوكم ! ولقـد جاءوكم وهم لا يشكـون أنهم يستأصلونكم ويحوزون بلادكم ، وما كانوا يرون إلا أنكم فى أيديهم ، فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكفاكم مؤنتهم ، وحاكمتموهم إلى الله فحكم لكم عليهم ، ثم جمع كلمتنـا ، وأصلح ذات بيننـا ، وجعلهم أعداء متفرقين ، يشهد بعضهم على بعض بالكفر ويسفك بعضهم دماء بعض ، والله إنى لأرجو أن يتم الله لنا هذا الأمر ، وقد رأيت أن أحاول حرب مصر فما ترون ؟ » .

فوافقوه جميعا ، وقال عمرو : « إنى مشير عليك بما تصنع : أرى أن تبعث جيشا كثيفا ، عليه رجل صارم ، تأمنه وتثق به ، فيأتى مصر فيدخلها فإنه سيأتينا من كان على مثل رأينا من أهلها ، فنظهره على من كان من عدونا ، فإن اجتمع بها جندك ومن كان بها من شيعتك على من بها من أهل حربك ، رجوت الله أن يعز نصرك » .

ولكن معـاوية رأى أن يتـأنى ، ويرسـل إلى من بها من أنصاره يمنيهم بقدومه ، ويدعـوهم إلى الانتقـاض على محمـد بن أبى بكر ، ويرسل إلى من كان بها من عدوه ، فيدعوهم إلى الصلح ، ويرشوهم بالأموال الطائلة ، ويخوفهم الحرب ، ويمنيهم المناصب الكبرى ، فإن استقام الأمر بلا قتال فخير ، وإلا فهى الحرب . .

ولكن ابن العاص كان فى عجلة من أمره لتكون مصر طعمة له كما تعاقد مع معاوية منذ تحالفا ضد على .

فقال معاوية : « إنك يا عمرو لا مرؤ بورك لك فى العجلة ، وبورك لى فى التؤدة ! » فقال عمرو : « فاعمل بما أراك الله ، فوالله ما أرى أمرك وأمرهم يصير إلا إلى الحرب ! » .

فأرسـل معـاوية بن أبى سفيان إلى معـاوية بن خديج الكنـدى ومسلمة بن مخلد الأنصارى ، وهما قائدا أنصاره الذين لم يبايعوا عليا واعتزلوا بخربتا بإقليم البحيرة يأمرهما بالثورة ، ويعدهما بإرسال جيش كثيف يساعدهما ، ويمنيهما بجاه كبير . . إذ يقول لهما : « إن الله قد ابتعثكما لأمر عظيم ؛ لأعظم من أجركما ، وأرفع درجتكما ومرتبتكما بين المسلمين » .

ولم يكد الكتاب يصل إلى خربتا حتى ثار من كانوا بها من أنصار معاوية ، فأرسل محمـد إليهم حملة فقتلوا قائدها ، وأتبعها بحملة أخرى فقتلوا قائدها ، ونفروا فى عشرة آلاف مقاتل يريدون الوثوب على محمد فى الفسطاط عاصمة مصر !

غير أن عمرو بن العاص ، لم يكن سعيدا بهذه التؤدة فى الحصول على مصر . . فقد كان دائـماً فى عجلة من أمـره فى شأن مصر . إنـه ليعـرف مصر منذ كان تاجراً كبيراً فى الجـاهلية ، ولقد زار الإسكندرية مرة فى إحدى رحلاته التجارية ، فصادف حضوره يوم الـزينـة . وفى هذا العيد كان أبناء الملوك يجتمعون ويلعبون بكرة يتقاذفونها فيما بينهم ، وزعموا أن من تقع الكرة فى حجره ، يملك الإسكندرية . وجلس عمرو بين المشاهدين فإذا بالكرة تقع فى حجره !! فعجب أبناء الملوك لأمر الكرة ، وقالوا : « ما كذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة ، وأنى لهذا الأعرابى أن يملك الإسكندرية !؟ هذا والله لا يكون ! » .

ولكنه كان . . !

فقد أسلم عمرو بن العاص ، حتى إذا فتح المسلمون بلاد الشام كان عمرو أحد قواد تلك الفتوحات العظمى ، فلما استقر المسلمون فى الشام ، والشام حينئذ هو سوريا ولبنان وفلسطين والأردن ، وأصبح عمرو والى فلسطين على حدود مصر ، أرسل إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه فى فتح مصر . . قال : « إنى عالم بها وبطرقها ، وهى أقل شىء منعة ، وأكثر أموالا » ولكن عمر عزف عن مواجهة الروم فى مصر بعد أن كسرهم فى كل بلاد الشام . . غير أن ابن العاص عاد يزين له الأمر ، ويؤكد له أن أمر الروم فى مصر أهون منه فى بلاد الشام .

ثم إن ابن العاص أمر أصحابه أن يتسللوا من فلسطين إلى مصر . . فكتب إليه عمر ابن الخطاب كتـابـا تلقاه وهو يقرع باب العريش ، فلم يفض الكتاب حتى دخل باب العريش ، وأصبح فى أرض مصر . فإذا فى الكتاب : « من عمر بن الخطاب إلى عمرو ابن العاص . فأما بعد فإنه بلغنى أنك سرت ومن معك إلى مصر ، وبها جموع الروم ، وأن من معك نفر يسير ، ولعمرى لو كانوا من ذوى رحمك ما تقدمت ولما عرضتهم للهلاك ! فإذا جاءك كتابى هذا ، فإن لم تكن بلغت مصر فارجع » فقال عمرو : « الحمد لله » وأشهد الناس ، فسألهم : « أى أرض هذه » قالوا : « مصر » فتقدم إلى الفرما (وكانت تقع شرقى بورسعيد الحـالية) فلقى بها جموع الـروم فهـزمهم ، وتقـدم حتى بلغ قرية « أم دنين » (وكـانت تقـع شمالى حصن بابليون ، ومكـانها الآن حى الأزبكية فى القاهرة) فاستعر

القتال ، ولم ينتصر أحد الجانبين فأرسل إلى عمر بن الخطاب يطلب منه مددا ، فأرسل إليه الزبير بـن العوام فى اثنى عشر ألفا . .

ثم بلغ حصن بابليون (فى مصر القديمة حاليا) وهو معقل منيع ، فحاصر الحصن سبعة أشهر ، حتى فتحه . وكان قد أقام فسطاطا خارج الحصن أثناء الحصار ، فلما سقط الحصن ورأى أن يزحف إلى الإسكندرية ، أمر أن يقوضوا الفسطاط ، ولكنه وجد يمامة اتخذت عشها فى أعلى الفسطاط ، فباضت ، فقال : « لقد تحرمت بجوارنا . أقروا الفسطاط حتى تنقف فراخها وتطير (تنقف تخرج من البيض) . » فسمى المكان بالفسطاط ، وفيه بنى عمرو مساكن له ولجنده ، وأنشأ أول مسجد فى أفريقية ، وجعل الفسطاط عاصمة لمصر .

ثم زحف عمرو إلى الإسكندرية فافتتحها ، ثم إلى برقة وطرابلس . . وولى عمر ابن الخطاب على مصر وبرقة وطرابلس عمرو بن العاص ولكنه ولى عبد الله بن سعد بن أبى سرح العامرى على صعيد مصر . فلما قتل عمر وبويع عثمان ، سأله عمرو أن يعزل ابن أبى سرح عن الصعيد ، لخلاف اشتجر بينهما ، ولكن عثمان عزل عمرو بن العاص ، وولى مكانه ابن أبى سرح على مصر كلها . فغزا أفريقية ، وهزم الروم فى أول معركة بحرية خاضها المسلمون ، وهى غزوة ذات الصوارى قرب الشواطىء الجنوبية لآسيا الصغرى ، وكان الروم بقيادة قسطنطين بـن هرقل فى ألف مركب والمسلمون بقيادة ابن أبى سرح فى مائتى مركب ، فسميت ذات الصوارى لكثرة ما فيها من صوارى السفن .

ولم يفلح عمرو فى إقناع عثمان باعادته إلى مصر ، فأقام فى فلسطين ، يحرض على عثمان ، حتى إذا قتل عثمان ، أرسل إليه معاوية يستنصره ويحذره من علىٍّ الذى سيجرده من أمواله وضياعه إن هو لم ينهض لمقاومته مع معاوية وأهل الشام . .

حتى إذا التقى معاوية وعمرو ، اشترط عمرو أن تكون له مصر طعمة أى مأكلة يأكلها خالصة له ، يستأثر وحده بخراجها . فلما آلت الأمور إلى ما آلت إليه ، وسقط من المسلمين من جيش معاوية نحو سبعين ألف قتيل ، وانتهى الأمر إلى التحكيم ، وخديعة عمرو أبا موسى الأشعرى طاب لعمرو أن يستنجز معاوية وعده . . وما كان معاوية فى حاجة إلى من يذكره فقد كانت مصر أهم له من الشام لكثرة أهلها ، ولحرصه على تأمين حدوده الجنوبية ، ولأنه كان يعرف أنه إن ملك مصر ، فقد أنهى معركته مع على بانتصار كبير . فمن يملك مصر يملك العرب !

فلما وصـــل كتـــاب معـاوية إلى مسلمـة بن مخلد ومعـاوية بن خديج ردا عليه : « أما بعد ، فإن هذا الأمر الذى قد ندبنا له أنفسنـا ، وابتغينا الله به على عدونا ، أمر نرجو به ثواب ربنا ، والنصر على من خالفنا ، وتعجيل النقمة على من سعى على إمامنا عثمان بن عفان . . وقد ذكرت مؤازرتك فى سلطانك وذات يدك ، وبالله إنه لا من أجل مال نهضنا ، ولا إياه أردنا ، فإن يجمع الله لنا ما نريد ونطلب ، أو يرينا ما تمنينا ، فإن الدنيا والآخرة لله رب العالمين ، وقد يثوبهما الله جميعا عالما من خلقه ، كما قال فى كتابه : ﴿ **فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين** ﴾ . عجل لنا بخيلك ورجلك فإن عدونا قد كان علينا جريئا ، وكنا فيهم قليلا ، وقد أصبحوا لنا هائبين ، وأصبحنا لهم منابذين ، فإن يأتنا مدد من قِبَلك يفتح الله عليك ، ولا قوة إلا بالله ، وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

كان سلوك ابن مخلد وابن خديج هو السلوك الشائع عند كل من رشاهم معاوية ، فهم يفرحون للرشوة ولكنهم ، يرددون الكلمات نفسهـا : أنهم إنما ينضمون إليه لينتقموا ويثأروا لعثمان ، وأنهم ما من أجل مال أوجاه نهضوا ، ولا أرادوا مالا أو جاها ، ولكن إن جمع الله لهم المال والجاه وأنالهم ما تمنوا فلا بأس ، وهو ثواب من الله !! ثم يتأولون آية كريمة من القرآن كما تأولوا غيرها . . ويذهبون إلى أن الله قد يثيب أقواما فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى : ﴿ **فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين** ﴾ . . !

هكذا كان رأى المرتشين فى الرشوة : أنها ثواب الدنيا . . رأى كل المرتشين من أهل الحرب ، وأهل العلم !! . . وما أول لهم ما تأولوه من القرآن الكريم ، وما قدم لهم الفتيا التى تجيز لهم الرشوة ، إلا أهل العلم من صنائع معاوية ، وهم الذين وصفهم الإمام بأنهم شر من الجهـلاء ، فالجـاهـل له عذره من جهله ، أمـا هم فيعملون بغير ما يعلمون ، ويجعلون الحق مطية للباطل ، ويتسكعون بآيات الهدى فى وديان الضلال !!

عندما بلغ معاوية رد شيخ أنصاره فى مصر ، استدعى عمرو بن العاص فقال له : « تجهز يا أبا عبد الله » فعجل عمرو بإعداد جيش من ستة آلاف مقاتل ، مؤمناً بأن الله قد بارك له فى العجلة كما زعم له معاوية . . !

فلما تقدم عمرو بجيشه ، قام محمد بن أبى بكر فى الناس فقال بعد حمد الله والثناء عليه : « أما بعد ، يا معشر المؤمنين ، فإن القوم الذين كانوا ينتهكون الحرمة ، ويفشون الضلالة ، ويستطيلون بجبروتهم ، قد نصبوا لكم العداوة وساروا إليكم بالجنود ، فمن

أراد الجنة والمغفرة فليخرج إلى هؤلاء القوم فليجاهدهم فى الله . فخفوا إليهم رحمكم الله مع كنانة بن بشر » .

وبعث محمد جيشاً من ألفى رجل هم طليعة جنده وعلى رأسهم كنانة .

ومضى هو خلفهم فى ألفين آخرين . . فهؤلاء هم كل ما تيسر لمحمد بن أبى بكر جمعهم من جند مصر !!

لقى عمرو بن العاص كنانة فى مقاتليه الأشداء . . وآثر عمرو بن العاص وكان قائدا ماهرا محنكا ألا يقابل كنانة ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله . . وهو يعرف أن من نفر إلى الحرب مع كنانة ومحمد ، إنما نفروا حرصا على النصر أو الشهادة ، ولن يفر أحد منهم حتى يظفر أو يستشهد ، أما الذين زحف بهم عمرو من الشام ، فقد جاءوا طمعا فى العطاء المضاعف ، وخيرات مصر ، والاستمتاع بالدنيا !

وعمرو لا يجهل الفرق بين من يحارب للجنة ، ومن يحارب لمتاع الحياة الدنيا . . وهو نفسه قد عرف هذا الشعور الذى يمنح المقاتل قوة لا تقهر ، حين حارب تحت راية الإسلام . . جنود الروم من قبل ببعض بلاد الشام . . وعلى هذه الأرض الطيبة نفسها : أرض مصر .

وسرح عمرو الكتائب إلى كنانة فهزمها كنانة كتيبة بعد كتيبة . . !

واستنجد عمرو بمعاوية بن خديج السكونى ومسلمة بن مخلد الأنصارى ، حيث كانا غير بعيد من الفسطاط فى عشرة آلاف جندى . .

فأتيا كنانة وجنده من المؤخرة وزحف عمرو بجند الشام على مقدمة كنانة ، فلما رأى كنانة أنه قد حوصر بين عشرة آلاف بقيادة ابن خديج وستة آلاف بقيادة عمرو ، نزل عن فرسه ، وأمر أصحابه الألفين أن يترجلوا جميعا . وقرأ : ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا** ﴾ .

فقاتل برجاله حتى أحدثوا فى جند الشام مقتلة عظيمة . . ولم تتوقف الحرب حتى قتل كنانة نفسه ، وتمزق رجاله ، ما بين قتيل وجريح وأسير . . وإذا بجند محمد بن أبى بكر يفرون عنه ناجين بأنفسهم ، ملتمسين جاه الحياة الدنيا عند عمرو ومعاوية . . !

أما محمد فقد لجأ إلى خربة فاختفى فيها . . ولكن ابن خديج ظل يبحث عنه ، حتى عرف مكانه ، وكان ذلك النهار شديد الحرارة . فذهب ابن خديج مع ثلة من الجند ، إلى

الخربه فوجدوا محمدا يكاد يهلك عطشا وإعياء فسألهم الماء ، فأباه ابن خديج عليه . . وجاءوا به إلى الفسطاط ، فوثب أخوه عبد الرحمن بن أبى بكر إلى عمرو فقال فى غضب عارم : « لا والله لا يقتل أخى صبرا ! » فقال معاوية : « أقتلتم كنانة بن بشر ابن عمى وأخلى عن محمد ! هيهات ! ﴿ أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر ؟ ﴾ صدق الله العظيم » .

وألح العطش على محمد فقال : « اسقونى قطرة ماء ! » فقال له ابن خديج : « لا سقانى الله إن سقيتك قطرة أبدا ! إنكم منعتم عثمان أن يشرب الماء ، حتى قتلتموه صائما محرما ، فسقاه الله من الرحيق المختوم ، والله لأقتلنك يا ابن أبى بكر وأنت ظمآن ويسقيك الله من الحميم ! » فقال محمد : « يا ابن اليهودية النساجة ، ليس ذلك اليوم إليك ! إنما الله الذى يسقى أولياءه ويظمىء أعداءه وهم أنت وقرناؤك ومن تولاك وتوليته ، والله لو كان سيفى فى يدى ما بلغتم منى ما بلغتم ! » فقال ابن خديج : « أتدرى ما أصنع بك ؟ أدخلك جوف حمار ميت ثم أحرقه عليك بالنار ! » .

فقال محمد : « إن فعلتم ذلك بى فطالما فعلتم ذلك بأولياء الله ، وأيم الله إنى لأرجو أن يجعل الله هذه النار التى تخوفنى بها بردا وسلاما على ، كما جعلها على إبراهيم خليله ، وأن يجعلها عليك وعلى أوليائك كما جعلها على نمرود وأوليائه ، وإنى لأرجو أن يحرقك الله وإمامك معاوية وهذا ـ وأشار إلى عمرو بن العاص ـ بنار تلظى ، كلما خبت زادها الله سعيرا » . .

فقام ابن خديج محنقا فضرب عنق محمد بسيفه . . ثم أدخل جسمه فى جوف حمار ميت بوحشية باردة عجيبة !! ثم أحرقه بالنار ، ووقف يتلهى ويتلذذ ، ويمنى نفسه بما وعده به سيده معاوية بن أبى سفيان من عطاء ضخم ومنصب كبير ، ورفع عقيرته يسب الإمام عليا ، سبا منكرا وينظر إلى من حوله عسى أن يبلغوا ابن أبى سفيان بإخلاص ابن خديج له !!

وأرسل ابن خديج رأس ابن أبى بكر إلى ابن أبى سفيان !! لكأن الآباء يعودون : كل بفجوره أو تقواه !! فلما جاءوا ابن أبى سفيان برأس محمد بن أبى بكر . . أمر أن يطاف به فى دمشق. فكان أول رأس طيف به فى الإسلام !!

وحين علمت عائشة ما حدث لأخيها كظمت غيظها حتى نزفت دما ، ثم بكت أحر بكاء ، وصرخت تلعن معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ومعاوية بن خديج . . ! وضمت إليها أولاد محمد ، وحرمت على نفسها الشواء أبدا ، فلم تأكله حتى توفيت .

وظلت كلما تعثر قدمها تقول : « تعسا لمعاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، ومعاوية بن خديج ! وتعودت أن تدعو عليهم عقب كل صلاة » .

* * *

وجاء عليا رجلان ينعيان إليه محمدا ، أما أحدهما فقد جاء من مصر ، يتحدث باكيا عما أصاب محمدا ، وأما الآخر فقد جاء من الشام يروى عجبا مما رآه فى الشام .

فقد صعد معاوية منبر المسجد الجامع فى دمشق فأذن فى فرح عظيم بقتل محمد بن أبى بكر . . وكأنها بشارة كبرى يبشر بها أهل الشام !! بقتل محمد !! ثم قرىء كتاب عمرو إلى معاوية ، وفيه : « أما بعد ، فانا لقينا محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر فى جموع جمة من أهل مصر ، فدعوناهم إلى الهدى والسنة وحكم الكتاب ، فرفضوا الحق ، فجاهدناهم ، واستنصرنا الله عليهم ، فضرب الله وجوههم وأدبارهم ، ومنحونا أكتافهم ، فقتل الله محمد بن أبى بكر وكنانة بن بشر وأماثل القوم . والحمد لله رب العالمين . والسلام » .

وقال صاحب علىّ الذى جاء من الشام لعلى : « والله يا أمير المؤمنين قلما رأيت قط قوما أسر ، ولا سرورا قط أظهر من سرور رأيته بالشام حين أتاهم هلاك محمد بن أبى بكر » فقال على : « أما أن حزننا عليه على قدر سرورهم به ، لا بل يزيد أضعافا ! » .

فأرسل على إلى مالك بن كعب الذى كان قد أرسله لينجد محمدا فى ألفى رجل ، فرده قبل أن يبلغ مصر ، ويهلك بجيشه . . فما يجدى ألفا رجل أمام نحو ستة عشر ألفا أو يزيد !!

ثم وقف على يخطب الناس : « ألا وإن مصر قد افتتحها الفجرة أولياء الجور والظلم ، الذين صدوا عن سبيل الله ، وبغوا الإسلام عوجا . ألا وإن محمد بن أبى بكر قد استشهد رحمه الله ، وعند الله نحتسبه ، أما والله لقد كان ما علمت ينتظر القضاء ، ويعمل للجزاء ، ويبغض شكل الفاجر ، ويحب سمت المؤمن ، إنى والله لا ألوم نفسى على تقصير ولا عجز ، وإنى بمقاساة الحرب لجد بصير ، إنى لأقدم على الحرب ، وأعرف وجه الحزم ، وأقوم بالرأى المصيب ، فأستصرخكم معلنا ، وأناديكم مستغيثا ، فلا تسمعون لى قولا ، ولا تطيعون لى أمراً ، حتى تصير الأمور إلى عواقب المساءة . دعوتكم إلى غياث إخوانكم منذ بضع وخمسين ليلة . . فتثاقلتم إلى الأرض تثاقل من لا نية

له فى الجهاد ، ولا رأى له فى الاكتساب للأجر ، ثم خرج إلى منكم جنيد (تصغير جند) متذائب (مضطرب) ضعيف ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون ! فأف لكم ! » .

ثم عاد إلى داره محزونا مهموما محسورا !!

لماذا يحدث كل هذا ؟! بأى سحر من متاع الحياة الدنيا أصبح رجال معاوية أطوع له من بنانه وهو يركض بهم فى الباطل ، إذ أنت تقود رجالك إلى الهدى يا على ؟ فبأى فزع من وطيس الحرب ينفضون عنك !!..

لماذا يحدث هذا كله ؟ !

ما كنت تريد الخلافة ، ولكنهم تكاثروا عليك حتى قهروك .. وها هو ذا سيفك ذو الفقار الذى حطم هامات الشرك ، لم يعد يرتفع بعد ليشق بوجهه ظلمات الجهل فى بلاد كنت ترجو أن يفتحها الله على المسلمين ، وينقذ أهلها بالإسلام مما يعانونه من هوان !!

كم من الأبطال الصناديد استشهدوا فى هذه الحروب بين أهل القبلة ؟! ثلاثون ألفا يوم الجمل ، وسبعون ألفا يوم صفين . ومئات يوم النهروان !! أكثر من مائة ألف قتيل لم يشرق بدمائهم فجر الهدى على بلاد تغشاها ظلمات الضلال .. ولكنها جميعا مهج مسلمين !!

لو أن هذه الآلاف المؤلفة التى احتشدت يوم الجمل وفى وقعة صفين والنهروان ، تحركت تحت راية واحدة هى راية الإسلام ، وخلف إمام واحد هو الذى بايعه المهاجرون والأنصار ، فزحفوا شرقا وغربا ، لأضاءوا بالإسلام دنيا الإنسان جميعا . أما كان ذلك أفضل من هذا التمزق ، وهذه الفتنة التى يسقط فيها خيرة حملة القرآن ، والدعاة والشجعان والهداة والمتقون !!؟

لقد سننت هذا الشقاق يا معاوية ! أميران للمؤمنين فى زمن واحد ودولة واحدة . ابتدعت هذا الخلاف بين الأمة الإسلامية ، فلتتحمل أمام الله وزر هذه السنة ، التى سيتبعها بعدك خلف كثيرون ، ويمزقون ويفرقون هذه الأمة العظيمة إلى دويلات متناحرة أو متنافرة ، وإذ هم يصبحون شتى مختلفين ويمسى بأسهم بينهم شديداً !!

لئن تمزقت هذه الأمة يا على ، فلن يجتمع شملها آخر الدهر !

ستظل متفرقة أبدا .. ولكنه قدرك يا إمام المتقين وإمام المساكين ، أن تخوض الغمرات وتكابد الأهوال الشداد ، لكى ترأب الصدع الذى أحدثه معاوية بطمعه الخادع المخدوع فى الملك !! ولكن . بمن من الرجال تنهض الآن !! أبهؤلاء ؟! ياللرجال !!

وشعر على بأنه يريد أن يبث شكواه إلى قلب كبير عزيز عليه . . أين أنت يا رسول الله ﷺ ؟!! . . أين أنت يا أبا بكر !! يا عمر !! يا عمار !! يا سلمان . . يا أبا ذر !! أين أنت أيتها الصديقة الحبيبة فاطمة الزهراء !! ما عاد لك أحد بعد يا على تستطيع أن تلقى برأسك على كتفه وتبكى !! أواه يا ابن أبى طالب !! آه من قلة الزاد وبعد السفر !!

لم يعد من أحبائك إلا القليل !! . . ومن تستطيع أن تبثه شكواك منهم أقل من القليل !!

وكتب الإمام إلى ابن عمه ووزيره وتلميذه وصديقه ، عامله على البصرة عبد الله ابن عباس: « سلام عليك ورحمة الله وبركاته . أما بعد ، فإن مصر قد افتتحت ، وقد استشهد محمد بن أبى بكر ، فعند الله عز وجل نحتسبه ، وقد كنت كتبت إلى الناس ، وتقدمت إليهم فى بدء الأمر ، وأمرتهم باغاثته قبل الوقعة ، ودعوتهم سرا وجهراً ، وعودا وبدءا ، فمنهم الآتى كارها ، ومنهم المتعلل كاذبا ، ومنهم القاعد خاذلا ، أسأل الله أن يجعل لى منهم فرجا ، وأن يريحنى منهم عاجلا ، فوالله لولا طمعى عند لقاء عدوى فى الشهادة وتوطين نفسى عند ذلك ، لأحببت ألا أبقى مع هؤلاء يوما واحدا . عزم الله لنا ولك على هداه وتقواه إنه على كل شىء قدير . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

وعز على عبد الله بن عباس أن يبلغ السأم والمضض والأسى بأستاذه وخليله وإمامه هذا المبلغ . فكتب إليه مواسيا : « لعبد الله علىٍّ أمير المؤمنين من عبد الله بن عباس ، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، أما بعد ، فقد بلغنى كتابك تذكر فيه افتتاح مصر وهلاك محمد بن أبى بكر ، وأنك سألت الله ربك أن يجعل لك من رعيتك التى ابتليت بها فرجا ومخرجا وأنا أسأل الله أن يعلى كلمتك، وأعلم أن الله صانع لك ، ومعز دعوتك ، وكابت عدوك . وأخبرك يا أمير المؤمنين أن الناس ربما تباطئوا ثم نشطوا ، فارفق بهم يا أمير المؤمنين ودارهم ومَنِّهم . واستعن بالله عليهم . كفاك الله الهم ! والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » .

أينصحك عبد الله بن عباس أن تمنى الناس . . بماذا تمنيهم ؟!

ما تمنيهم إلا برضا الله والخير الآجل إن هم عملوا الصالحات وأحسنوا واتقوا ثم اتقوا وأحسنوا . . !

أما معاوية فيمنيهم بالمتاع العاجل ، وزينة الحياة الدنيا وزخرفها . . !

وظل الإمام أياما لا يرى إلا حزينا ، كأنه مغلوب على أمره ! . . فقال له بعض أصحابه : « لقد جزعت على محمد بن أبى بكر يا أمير المؤمنين » فقال : « وما يمنعنى ! إنه كان لى ربيبا ، وكان لبَنِىّ (أبنائى) أخا ، وكنت له والدا ، أعده ولدا » .

* * *

ورأى الإمام أن يعظ الناس بدلا من أن يتركهم ، وأن يضع أقدامهم على طريق الهدى ، عسى أن يستنقذ وحدة الأمة التى مزقها معاوية وعصبته !

ورأى أن يزهدهم فى الدنيا التى يغلبهم بها معاوية على تقواهم ودينهم فأمر أن ينادى فى الناس : « الصلاة جامعة » .

فلما اجتمع الناس فى المسجد صعد المنبر فقال : « أما بعد ، ما أنتم إلا كالإبل ضل رعاتها ، فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر ! فما تنتظرون ؟ أما ترون أطرافكم قد انتقصت ؟ أما ترون مصر قد فتحت ؟ وإلى شيعتى بها قد قتلت ؟ وإلى بلادكم تغزى ، وأنتم ذوو عدد كثير ، وشوكة وبأس شديد ؟ ! فما بالكم !؟ لله أنتم من أين تؤتون ، ومالكم تؤفكون !! . . ولو أنكم عزمتم وأجمعتم لم تراموا . إلا أن القوم (جند معاوية) تناصحوا ، وأنتم تغاششتم وافترقتم . . فأجمعوا على حقكم ، وتجردوا لحرب عدوكم . . إنما تقاتلون الطلقاء وأبناء الطلقاء وأولى الجفاء ، ومن أسلم كرها . . أكلة الرشاوى وعبدة الدنيا وأهل البدع ، ويود هؤلاء لو ولوا عليكم ، فأظهروا فيكم الفساد والفجور والتسلط ، واتبعوا الهوى وحكموا بغير الحق ، ولأنتم على ما كان فيكم من تواكل وتخاذل خير منهم وأهدى سبيلا ، فيكم العلماء والفقهاء ، والنجباء والحكماء ، وحملة الكتاب والمتهجدون بالأسحار ، وعمار المساجد بتلاوة القرآن . أفلا تسخطون ؟! أفلا تهتمون أن ينازعكم الولاية عليكم سفهاؤكم ، والأشرار الأراذل منكم !؟ فاسمعوا قولى وأطيعوا أمرى . فوالله لئن أطعتمونى لا تغوون ، وإن عصيتمونى لا ترشدون ! خذوا للحرب أهبتها ، وأعدوا لها عدتها ، فقد شبت نارها ، وعلا سنانها ، وتجرد لكم فيها الفاسقون ، كى يعذبوا عباد الله ، ويطفئوا نور الله ! » .

ألا إنه ليس أولياء الشيطان من أهل الطمع والمكر والجفاء بأولى فى الجد فى غيهم وضلالهم ، من أهل البر والزهادة والإخبات فى حقهم وطاعة ربهم ! إنى والله لو لقيتهم فردا وهم ملاء الأرض ، ما باليت ولا استوحشت وإنى من ضلالتهم التى هم فيها ، والهدى الذى نحن عليه ، لعلى ثقة وبينة ، ويقين وبصيرة ، وإنى إلى لقاء ربى لمشتاق ، ولحسن

ثوابه لمنتظر ، ولكن أسفا يعتريني ، وحزنا يخامرني ، أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا وعباده خَوَلا (أتباعا) ، والفاسقين حزبا ، وأيم الله لولا ذلك لما أكثرت تأنيبكم وتحريضكم ، ولتركتم إذ ونيتم وأبيتم حتى ألقاهم بنفسى ، متى حم لى لقاؤهم . فوالله إنى لعلى الحق ، وإنى للشهادة محب ، فانفروا خفافا وثقالا ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، ولا تثاقلوا إلى الأرض فتقروا بالخسف ، وتبوءوا بالذل ، ويكن نصيبكم الخسران ، إن أخا الحرب هو اليقظان ، ومن ترك الجهاد كان كالمغبون المهين .

اللهم اجمعنا وإياهم على الهدى ، وزهدنا وإياهم فى الدنيا ، واجعل الآخرة خيرا لنا من الأولى . .

* * *

وبادر علىٌّ إلى علاج الموقف بعد أن استولى عمرو على مصر ، وقتل أميرها ، فرأى أن يبعث أحد رجلين : قيس بن سعد ، أو الأشتر، فكلاهما يستطيع أن يستنهض شيعة على وهم أكثر الناس بمصر ، ويجمعهم حوله ، وينقض بهم على عمرو .

ولكنه كان قد ولى قيس بن سعد أمر الشرطة ، فتركه ليعمل صاحب شرطته ، واستدعى الأشتر وكان عامله على نصيبين وكتب له عهداً طويلاً يرسم له فيه أسلوب الحكم .

وأرسل الإمام إلى أهل مصر : « أما بعد ، فقد وجهت إليكم عبدا من عباد الله لا ينام فى الخوف ، ولا ينكل عن الأعداء حذر الدوائر ، أشد على الفجار من حريق النار ، وهو مالك بن الحارث الأشتر أخو مذحج ، فاسمعوا له وأطيعوه ، فإنه سيف من سيوف الله . . وهو حسام صارم ، ومن أشد عباد الله بأسا ، وأبعد الناس عن دنس وعار ، رزين فى الحرب ، حليم فى السلم ، ذو رأى أصيل ، وصبر جميل . . فان أمركم أن تقيموا فأقيموا وإن أمركم أن تنفروا فانفروا ، وإن أمركم أن تحجموا فأحجموا ، فإنه لا يقدم ولا يحجم إلا بأمرى ، وقد آثرتكم به على نفسى ، لنصيحته وشدة شكيمته على عدوه ، عصمكم الله بالحق ، وثبتكم بالتقوى ، ووفقنا وإياكم لما يحب ويرضى . والسلام عليكم ورحمة الله » .

وقال له الإمام وهو يودعه : « استعن بالله على ما أهمك وأخلط الشدة باللين ، وارفق ما كان الرفق أبلغ ، واعتزم على الشدة حين لا يغنى عنك إلا الشدة » .

وسار الأشتر إلى مصر ، حتى انتهى إلى القلزم (وهى مدينة كانت تقع قرب السويس على شاطىء الخليج وهى على الطريق بين مصر والحجاز) .

وكان معاوية قد عرف من عيونه أن الأشتر قد ولى مصر ، فخافه على مصر ، وخشى أن يلتف حوله أهل مصر ـ وهم شيعة على ـ فيثبوا على عمرو بن العاص ، ويستردوا مصر إلى دولة على .

فبعث إلى صاحب خراج القلزم : « إن الأشتر قد ولى مصر ، فان كفيتنيه لم آخذ منك خراجا ما بقيت أنا وبقيت أنت ! فلتحتل فى هلاكه ما قدرت عليه » وكان خراج القلزم كثيرا ووفيرا .

فلما جاء الأشتر القلزم أتاه صاحب الخراج مرحبا متوددا ، فقال له : « أيها الأمير ، هذا منزل فيه طعام وعلف ، وأنا رجل من أهل الخراج ، فأقم واسترح » .

ثم قدم له طعاما ، ثم سقاه عسلا مترعا بالسم ، فمات الأشتر من فوره .

وعندما بلغ الخبر معاوية صفق طربا ، وقال : « إن لله جنودا من عسل ! » وأعلن البشرى لأهل الشام ، وقام فى الناس خطيبا فقال : « أما بعد ، فانه كان لعلى بن أبى طالب يمينان ، فقطعت إحداهما يوم صفين وهو عمار بن ياسر وقد قطعت الأخرى اليوم ، وهو مالك الأشتر ! » .

أما على فلما بلغه موت الأشتر ، حزن حزنا شديداً ، وظل يقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون! الحمد لله رب العالمين، اللهم إنى أحتسبه عندك، فإن موته من مصائب الدهر ! » .

ثم غلبه الدمع فقال وهو يحاول أن يكفكف دمعه : « رحم الله مالكا فقد وفى بعهده ، وقضى نحبه ، ولقى ربه ، مع أنا قد وطَّنا أنفسنا أن نصبر على كل مصيبة بعد مصابنا برسول الله ﷺ فإنها أعظم المصيبات ! » .

ولكنه كان أحيانا يهمهم فى أسى فاجع : « مالك وما مالك !! . . لو أخْبنى جبل لتداعى !! » .

وأرسل صاحب خراج القلزم ، إلى معاوية كتابا طويلا وجده فى متاع الأشتر . كما كان قد أرسل إليه عمرو بن العاص من قبل ، كل ما وجده عند محمد بن أبى بكر من كتب على . .

فلما نظر معاوية فى هذه الكتب جميعاً وجد فيها علما غزيرا ، فأبدى إعجابه بها وحرصه عليها ، وبصفة خاصة عهد على إلى الأشتر .

فاقترح عليه الوليد بن عقبة أن يحرق هذه الكتب جميعاً فقال معاوية : « مه (مهلا) لا رأى لك ! » فقال الوليد : « أمن الرأى أن يعلم الناس أن أحاديث أبى تراب (على كرم الله وجهه) عندك تتعلم منها ؟! » فقال معاوية : « ويحك أتأمرنى أن أحرق علما مثل هذا ؟! والله ما سمعت بعلم هو أجمع منه ولا أحكم ! » فقال الوليد : « إن كنت تعجب من علمه وقضائه فعلام تقاتله !؟ » .

فتأنى معاوية ولم يبادر بالإجابة ، وبعد أن أعمل فكره قال للوليد ومن معه من الخلصاء : « إنا لا نقول إن هذه من كتب على بن أبى طالب ، ولكن نقول هذه من كتب أبى بكر الصديق ، كانت عند ابنه محمد ، فنحن ننظر فيها ونأخذ منها . . ! » .

وكانت الكتب التى وجدوها عند محمد هى التى قرأها على أهل مصر كما مر بنا آنفا . . وكان بعضها شرحا لما خفى على ابن أبى بكر من أمور السنة .

أما عهد على إلى الأشتر ، فقد أذهل معاوية ومن معه حقاً ، لما جمع من الحكمة وأحكام فى السياسة وكل أمور الدين والدنيا . .

وتساءل أحد ثقات معاوية ألا يخشى إن زعم لهم أنه يدرس كتب أبى بكر ويعمل بها ، أن يسأل لم لم يدرس وصية عمر إلى الخلفاء من بعده . ويعمل بها ؟!

فسأله معاوية : « وما تلك ؟ » فقال الرجل : «أوصى عمر الخليفة من بعده فقال : « أوصيك بتقوى الله لا شريك له ، وأوصيك بالمهاجرين الأولين خيراً ، أن تعرف لهم سابقتهم ، وأوصيك بالأنصار خيرا ، فاقبل من محسنهم ، وتجاوز عن مسيئهم ، وأوصيك بأهل الأمصار خيرا ، فانهم دَرْء (دفع وصد) العدو ، وأوصيك بجباة الأموال والفىء ، لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم ، وأوصيك بأهل البادية خيرا ، فانهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ، أن تأخذ من حواشى أموال أغنيائهم فترد على فقرائهم ! » .

فوثب رجل من أغنياء بادية الشام وقال : « هذه لهجة أبى ذر ! وقول أبى تراب ابن أبى طالب ! » .

فاستمر صاحب معاوية يقرأ من ورقة معه بقية وصية عمر للخليفة من بعده : « وأوصيك بأهل الذمة خيرا : أن تقاتل من ورائهم ، ولا تكلفهم فوق طاقتهم . .

وأوصيك بتقوى الله وشدة الحذر منه ، ومخافة مقته ، وأن يطلع منك على ريبة ، وأوصيك أن تخشى الله فى الناس ، ولا تخشى الناس فى الله . وأوصيك بالعدل فى الرعية ، والتفرغ لحوائجهم وثغورهم ، ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم » .

فوثب البدوى الغنى مرة أخرى : « هذه سيرة أبى تراب ! » .

واستمر الرجل يقرأ وصية عمر : « . . فإن ذلك باذن الله سلامة لقلبك وحط لوزرك ، وخير فى عاقبة أمرك ، حتى تفضى بذلك إلى من يعرف سريرتك ، ويحول بينك وبين قلبك . وآمرك أن تشتد فى أمور الله ، وفى حدوده ومعاصيه ، على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذك فى أحد رأفة حتى تنتهك منه مثل ما انتهك من حرمة ، واجعل الناس عندك سواء ، لا تبالى على من وجب الحق ! » .

فصاح الرجل : « كأنك تقرع أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ! » . .

فاستمر القارىء يقرأ بقية وصية عمر للخليفة من بعده : « ولا تأخذك فى الحق لومة لائم . وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله مما أفاء الله على المؤمنين ، فتجور وتظلم ، واحرم نفسك من ذلك ما قد وسعه الله عليك . وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة ، فإن اقترفت لدنياك عدلا وعفة عما بسط الله لك ، اقترفت إيمانا ورضوانا . وإن غلبك عليه الهوى ومالت بك شهوة ، اقترفت سخط الله . وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولا لغيرك من ظلم أهل الذمة . . فان عملت بالذى وعظتك ، وانتهيت إلى الذى أمرتك ، أخذت به نصيبا وافرا ، وحظا وافيا ، وإن لم تقبل ذلك ولم يهمك ، يكن ذلك بك انتقاصا ، ورأيك فيه مدخولا ، لأن الأهواء مشتركة ، ورأس كل خطيئة إبليس وهو الداعى إلى الهلكة . . ثم اركب الحق وخض إليه الغمرات ، وكن واعظاً لنفسك ، وأنشدك الله لما ترحمت على جماعة المسلمين فأجللت كبيرهم ، ورحمت صغيرهم ، ووقرت عالمهم . ولا تضربهم فيذلوا ، ولا تستأثر عليهم بالفىء فتغضبهم ، ولا تحرمهم عطاياها عند محلها . . فتفقرهم . . ولا تجعل المال دولة (متداولا) بين الأغنياء منهم ، ولا تغلق بابك دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم . . هذه وصيتى إياك ، وأشهد الله عليك ، وأقرأ عليك السلام » .

فصاح أحد الحاشية المقربين يلوم الرجل الذى قرأ الوصية ، ويتهمه بأنه يعرض بأمير المؤمنين معاوية !

وتساءل آخرون : « كيف يسمح معاوية لرجل كهذا بأن يغلظ له كل هذه الغلظة ؟ فما قراءة وصية عمر إلى الخليفة من بعده !؟ » .

فاستند معاوية على يسراه ، ووضع إحدى رجليه على الأخرى وكسر عينه ، وهو يتأمل الرجل قائلا له مستهينا به : « ياهناه ! » (كلمة تنكير) فقالوا له : « يا أمير المؤمنين أتحلم عن هذا ؟ » فقال : « إنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا ! » .

الملك إذن هو كل ما يعنيه !

الملك لا الخلافة ! .

وبعد قليل قال : « رحم الله أبا بكر ، لم يرد الدنيا ولم ترده الدنيا ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها ، وأما عثمان فأصاب من الدنيا وأصابت منه ، أما نحن فتمرغنا فيها ! والله إنه لملك آتانا الله إياه ! » .

وبعد أن سكت قليلا قال : « دعونى أتأمل فى عهد علىٍّ للأشتر : فما قرأت علما أجمع منه ولا أغزر ولا أحكم ، ولا أشد إلماما بالآداب والقضايا والأحكام والسياسة » .

وأخذ يقرأ عهد علىٍّ للأشتر ، الذى وضع فيه الإمام دستور الحكم فى الإسلام .

* * *

الفصـــل الثـــامن

إمـــام المتقين . . ورجـل العصـر !

كان هذا هو عهد الإمام للأشتر . .

وهو أطول عهد كتبه خليفة إلى أحد عماله ، وهو أجمعها للمحاسن ، وأكثرها علما ، وهو دستور للحكم ، وناموس للتعامل ، ونبراس يهتدى به الراعى والرعية على السواء .

ولقد عز على الإمام أن تصير مصر وأهلها إلى ما صارت إليه !. إذ أعطى معاوية عمرو بن العاص مصر وأهلها هبة يتصرف فيها وفيهم كيف يشاء ! . .

وكان الإمام يحب مصر ويؤثر أهلها ، فهو لا ينسى أنهم أصهار الرسول وأنه أوصى بهم : « استوصوا بالقبط خيراً » والقبط هم المصريون . .

وهذا هو عهد الإمام أو كتاب الإمام للأشتر . . وهو حرى بأن يكون وثيقة سياسية دستورية ، تضبط موازين الأمور ، لو أنها طبقت فى عصرنا هذا المضطرب المتمزق المتوتر بالمتناقضات ، وهو مهما يكن من أمر تبيان للمبادىء الشرعية فى سياسة أمور الدولة .

﴿ بســم الله الرحمــن الرحــيم ﴾

« هذا ما أمر به عبد الله على أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر فى عهده إليه حين ولاه مصر : جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها .

أمره بتقوى الله ، وإيثار طاعته ، واتباع ما أمر به فى كتابه : من فرائضه وسنته ، التى لا يسعـد أحد إلا باتباعها ، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها ، وأن ينصر الله سبحانه بقلبه ويده ولسانه ، فإنه جل اسمه ، قد تكفل بنصر من نصره ، وإعزاز من أعزه .

وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات ، ويزعها عند الجمحات (يمنعها من الجموح) ، فإن النفس أمارة بالسوء إلا مارحم الله .

ثم اعلم يا مالك أنى قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور ، وأن الناس ينظرون من أمورك فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقوله فيهم ، وإنما يستدل على الصالحين بما يجرى الله لهم على ألين عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح . فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك ، فان الشح بالنفس الانصاف فيما أحبت أوكرهت . . وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتنم أكلهم فإنهم صنفان : إما أخ لك فى الدين ، أونظير لك فى الخلق ، يفرط منهم الزلل (أى يسبق الخطأ) ، وتعرض لهم العلل ، ويؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ (أى تأتى السيئات على أيديهم) ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ،فإنك فوقهم وولى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك ! وقد استكفاك أمرهم (طلب الله منك رعاية مصالحهم) ، وابتلاك بهم ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله (حرب الله أى مخالفة شريعته) ، فإنه لا يد لك بنقمته (لا طاقة لك) ، ولاغنى بك عن عفوه ورحمته ، ولا تندمن على عفو ، ولا تفرحن بعقوبة . . وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطان أبهة أو مخيلة فانظر إلى عظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فإن ذلك يطامن (يخفف) إليك من جماحك (جموحك) ، ويكف عنك من غربك (حدتك) ، ويفىء إليك بما عزب عنك من عقلك .

وإياك ومساماة (المباراة فى السمو) الله فى عظمته ، والتشبه به فى جبروته ، فان الله يذل كل جبار ، ويهين كل مختال » .

وبعد أن يضع الإمام هذه القواعد الصارمة السامية لما يجب أن يكون عليه سلوك الحاكم الصالح ، وما ينبغى أن يتصف به من ورع وأدب وتقوى ، وخشية لله تمنحه الشجاعة ، ورحمة بالناس تسلك به طريق العدل ، وقدرة على أن يستميل إليه قلوب الرعية ليصلحوا بمودته . . بعد هذا كله يضع الإمام قواعد واضحة وحدودا بينة للعدل والحيدة ، فيقول : « أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك ، فانك إلا تفعل تظلم ! ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدحض (أبطل) حجته وكان لله حربا حتى ينزع أو يتوب . وليس شىء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم ، فإن الله سميع دعوة المضطهدين ،

وهو للظالمين بالمرصاد . وليكن أحب الأمور إليك أوسطها فى الحق ، وأعمها فى العدل وأجمعها لرضا الرعية ، فان سخط العامة يجحف برضا الخاصة (أى يذهب به) ، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة » .

وهذا المبدأ وضعه الإمام مستنبطا مبادىء الإسلام ، وهو مبدأ أساسه احترام رأى الأغلبية ، وجعل رضا الأغلبية أساس الحكم . .

ثم يستمر الإمام فى إرساء هذا المبدأ وتبيانه : « وليس أحد من الرعية أثقل على الوالى مؤونة فى الرخاء ، وأفضل معونة له فى البلاء ، وأكره للإنصاف ، واسأل بالإلحاف (الإلحاح) ، وأقل شكرا عند الإعطاء ، وأبطأ عذرا عند المنع ، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة ، وإنما عماد الدين وجمّاع (جمع) المسلمين، والعدة للأعداء العامة من الأمة ، فليكن صفوك لهم ، وميلك معهم » .

من أجل موقفه هذا من الخاصة والعامة ، أحبه العامة وارتضوه إماما وهاديا مهديا ، وأنكره معظم الخاصة ، وكرهه أقوام منهم ، حتى لقد حاربوه وتمنوا قتله ، وفروا من دينه إلى دنيا معاوية ، الذى أحسن استمالة أهواء معظم الخاصة ، فأشبع الأطماع ، وأرضى الأهواء ! !

ثم يمضى الإمام فيضع ناموسا خلقيا للتعامل بين الوالى والمحكومين ، متحريا تحقيق مصالح الأمة التى هى كل مقاصد الشريعة وأهدافها .

يستطرد الإمام فيقول : « وليكن أبعد رعيتك منك ، وأشنأهم (أبغضهم) عندك أطلبهم لمعائب الناس ، فإن فى الناس عيوبا الوالى أحق من سترها ، فلا تكشفن عما غاب عنك منها فانما عليك تطهير ما ظهر لك والله يحكم على ما غاب عنك ، فاستر العورة ما استطعت ، يستر الله منك ما تحب ستره من رعيتك . أطلق عن الناس عقدة كل حقد ، واقطع عنك سبب كل وتر (عداوة) ، وتَغَاب (تظاهر بالغباء) عن كل ما لا يصح لك ، ولا تعجلن إلى تصديق ساع ، فإن الساعى غاش (الساعى بالوقيعة أو النميمة) وإن تشبه بالناصحين .

ولا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ، ويعدك الفقر ، ولا جبانا يضعفك عن الأمور ، ولا حريصا يزين لك الشره بالجور ، فإن البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله .

وبعد أن يوضح الإمام هذه الأصول من مكارم الأخلاق التى لا تقوم السياسة الشرعية إلا بها . . بعد هذا يمضى الإمام فى شرح أصول أخرى للسياسة الشرعية فيكتب فى عهده لمالك الأشتر ، مستخلصا حكمة التعامل من تجارب الحياة فضلا عن مبادىء الإسلام : « إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرا ، ومن شركهم فى الآثام ، فلا يكونن لك بطانة فإنهم أعوان الأثمة (جمع آثم) ، وإخوان الظلمة ، وأنتَ واجدٌ منهم خير الخلف ممن لهم مثل آرائهم ونفاذهم ، وليس عليه مثل آصارهم (ذنوبهم) وأوزارهم ممن لم يعاون ظالما على ظلمه ، ولا آثما على إثمه ، أولئك أخف عليك مؤونة ، وأحسن لك معونة ، وأحنى عليك عطفا ، وأقل لغيرك إلفا ، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ، ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك (مرارة الحق صعوبته على نفس الحاكم) ، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعا من هواك حيث وقع . والصق بأهل الورع والصدق ، ثم رضهم على ألا يطروك (عودهم على ألا يمدحوك) أو يفرحوك بباطل لم تفعله ، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو .

ولا يكونن المحسن والمسىء عندك بمنزلة سواء ، فإن فى ذلك تزهيدا لأهل الإحسان فى الإحسان ، وتدريبا لأهل الإساءة على الإساءة ! وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه (من شكر أو عقاب) واعلم أنه ليس شىء بأدعى إلى حسن ظن راع برعيته من إحسانه إليهم (لأن الإحسان يقودهم إلى الطاعة) وتخفيفه المؤونات عنهم ، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قِبَلهم (أى عندهم) . فليكن منك فى ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك ، فإن حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا ، وإن أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك (صنعك) عنده ، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده .

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة ، واجتمعت بها الألفة ، وصلحت عليها الرعية ، ولا تُحْدِثنَّ سنة تضر بشىء من ماضى تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها ، والوزر عليك لما نقضت منها .

وأكثر ممارسة العلماء، ومناقشة الحكماء فى تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك » .

ثم يخلص الإمام من هذا إلى تقسيم الرعية إلى طبقات ، ويحدد صفات وماهية كل طبقة ، وحاجاتها ، وما يجب على الحاكم الصالح لها ، وما يجب عليها ، ويوضح حتمية التكافل الاجتماعى : « واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض : فمنها جنود الله ، ومنها كُتّاب العامة والخاصة (الكتاب هم الموظفون

والمستخدمون بلغة عصرنا) ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ، ومنها التجار وأصحاب الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجة والمسكنة . . وكلٌ قد سمى الله له سهمه (أعطى نصيبه من الحق) ، ووضع على حده فريضة فى كتابه أوسنة نبيه - ﷺ - عهدا منه عندنا محفوظاً » .

ويمضى الإمام فيفصل الطبقات ومهامها : « فالجنود ، بإذن الله ، حصون الرعية ، وزين الولاة ، وعز الدين ، وسبل الأمن ، وليس تقوم الرعية إلا بهم . ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج الذى يقرون به على جهاد العدو (أى الرواتب والمكافآت ونحوها) ، ويعتمدون عليهم فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم .

ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال (الولاة) والكتاب ، لما يحكمون به من المعاقد(العقود وما شابهها) ويجمعون من المنافع (من حفظ الأمن والجباية وتصريف الناس فى المنافع العامة وما شابه ذلك) ، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها .

ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ، ويقيمونه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفق (الانتفاع) بأيديهم ما لا يبلغه غيرهم .

ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم (مساعدتهم) ومعونتهم . وفى الله لكل (منهم) سعة . ولكلٍ على الوالى حق بقدر ما يصلحه .

وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك بالاهتمام والاستعانة بالله ، وتوطين النفس على لزوم الحق ، والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل » .

ويشرح الإمام أسلوب التعامل مع كل هذه الطبقات : « فول من جنودك أنصحهم فى نفسه لله ولرسوله ولإمامك ، وأنقاهم جيبا (أطهرهم) وأفضلهم حلما : ممن يبطىء عن الغضب ، ويستريح إلى العذر ، ويرأف بالضعفاء ، وينبو على الأقوياء (يعلو عليهم ويشتد ليحمى منهم الضعفاء) وممن لا يثيره العنف ، ولا يقعد به الضعف . . ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقمن من نفسك شىء قويتهم به (لا تعد شيئا قويتهم به أعظم مما يستحقونه) ، ولا تحقرن لطفا تعاهدتهم به وإن قل ، فإنه داعية لهم إلى بذل النصيحة لك ، وحسن الظن بك ، ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها ، فان لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به ، وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه .

وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم فى معونته (أى ساعدهم بمعونته لهم) ، وأفضل عليهم من جِدَته (أى جاد عليهم من غناه) ، مما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم (مما يكفيهم ويكفى أهليهم الذين يخلفونهم وراءهم حين يخرجون للحرب) ، حتى يكون همهم هما واحدا فى جهاد العدو ، فإن عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك ، وإن أفضل قرة عين الولاة استقامةُ العدل فى البلاد ، وظهور مودة الرعية ، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم ، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم (أى حفظهم وصيانتهم) . . فأفسح فى آمالهم وواصل حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم . فإن كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع ، وتحرض الناكل إن شاء الله .

ثم اعرف لكل امرىء منهم ما أبلى ، ولا تُضيفنّ بلاء امرىء إلى غيره ولا تُقصرَنَّ به دون غاية بلائه ، ولا يدعونّك شرف امرىء إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ، ولا ضعة امرىء إلى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما .

واردد إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ، ويشتبه عليك من الأمور ، فقد قال الله تعالى لقوم أحب إرشادهم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول** ﴾ فالرد إلى الله الأخذ بحكم كتابه ، والرد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة»(وهى ما اتفق الرواة على نسبتها للرسول ولم يختلفوا على صحة هذه النسبة) .

ثم انتقل للكلام عن القضاة بعد أن انتهى من الكلام عن الجند ، فكتب :

« ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تُمحِكهُ (تغضبه وزنا ومعنى) الخصوم ، ولا يتمارى فى الزلة ، ولا يحصر من الفىء (لا يضيق من الرجوع) إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، وأوقفهم فى الشبهات ، وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم ، وأصبرهم على تكشف الأمور ، وأصرمهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدهيه إطراء ، ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل . ثم أكثر تعاهد قضائه (أى يجب مراجعة الأحكام وتصويب أخطائها) ما يزيل عنه هموم العيش ، وتقل معه حاجته إلى الناس ، وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك ، وانظر فى ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً فى أيدى الأشرار ، يعمل فيه بالهوى ، وتطلب به الدنيا ! » .

وينتقل كتاب الإمام بعد ذلك إلى سائر الطبقات :

« ثم انظر فى أمور عمالك (العمال : الولاة) فاستعملهم اختبارا (أى ولهم الأعمال بالامتحان) ، ولا تولهم محاباة وأثره . . وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الإسلام المتقدمة (أى الخطوة السابقة وهم المسلمون الأوائل) ، فإنهم أكرم أخلاقا ، وأصح أعراضا ، وأقل فى المطامع إشرافا ، وأبلغ فى العواقب نظراً . ثم أسبغ عليهم الأرزاق (أغدق عليهم الرواتب الكبيرة) فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك (أى خانوها) ، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون (الرقباء) من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فان تعاهدك فى السر لأمورهم حَدْوة لهم (أى حث لهم ، أى يحدوهم) على استعمال الأمانة والرفق بالرعية .

وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدا ، فبسطت عليه العقوبة فى بدنه ، وأخذته بما أصابه من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ، ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة .

وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله (الخراج هو ما يشبه الضرائب فى أيامنا هذه) ، فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمَنْ سواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله . وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد ، وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلا » .

ثم يمضى كتاب الإمام فيضع آدابا وسياسة لجباية الخراج ، بقوله : « فإن شكوا ثقلا (كثرة المفروض عليهم من الضريبة) أو علة أو انقطاع شِرْب (الماء الذى تشربه الأرض لتنبت وتثمر) أو إحالة أرض (فساد البذر فيها) اغتمرها غرق ، أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم . ولا يثقلن عليك شىء خففت به المؤونة عنهم ، فإنه ذخر يعودون به إليك فى عمارة بلادك ، وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسن ثنائهم ، وفرحك باستفاضة العدل فيهم . . فربما حدث من الأمور ما إذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طَيِّبَةً أنفسهم به فإن العمران محتمل ما حملته ، وإنما يُؤْتى خراب الأرض من إعوازأهلها، وإنما يُعْوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع (جمع المال أثناء ولايتهم) ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر » .

ثم يتحدث الإمام بعد ذلك عن الكتاب :

والكتّاب فى عصر الإمام هم أفراد الجهاز الإدارى للدولة . . وكان أمير المؤمنين يريد أن ينشىء جهازاً جديداً للإدارة فى مصر ، بدل الجهاز الذى أنشأه عمر حين دون له الدواوين عقيل بن أبى طالب ، إذ كان الخليفة عمر قد اضطر إلى قبول النظم الإدارية القائمة فى البلاد المفتوحة ، وهى نظم أنشأها الرومان والفرس والمصريون القدماء . وكانت لغات البلاد المفتوحة لا اللغة العربية هى اللغات الرسمية فى الدواوين !

وقد تحرى الإمام ألا تجتمع سلطات إدارية واسعة فى يد واحدة ، بل وزع السلطات الإدارية بين المسئولين . كل وما يتقنه .

كتب الإمام :

« ثم انظر فى حال كتابك ، فولِّ على أمورك خيرهم . . . . ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك (السكون والثقة) وحسن الظن منك ، فإن الرجال يتعرضون لفراسات الولاة ، بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شىء ، ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك ، فاعمد لأحسنهم فى العامة أثرا ، وأعرفهم بالأمانة وجها ، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره ، واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم لا يقهرها كبيرها ، ولا يتشتت عليها كثيرها ، ومهما يكن فى كتابك من عيب ، فتغابيت عنه ، ألزمته (أى لزمك فكان عيبك) » .

ويتحدث عهد الإمام للأشتر بعد ذلك عن طبقة أخرى من طبقات الأمة وهى التجار .

« ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات وأوص بهم خيراً : المقيم منهم والمضطرب بماله (الذى يتنقل بماله بين البلاد) ، والمترفق ببدنه (المرافق هى المنافع) ، فإنهم مواد المنافع ، وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح فى برك وبحرك وسهلك وجبلك . . . . وتفقد أمورهم بحضرتك وفى حواشى بلادك . واعلم ـ مع ذلك ـ أن فى كثير منهم ضيقا (عسر المعاملة) فاحشا ، وشحا قبيحا ، واحتكارا للمنافع ، وتحكما فى البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة . فامتنع من الاحتكار فإن رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، منع منه ، وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع (المشترى) ، فمن قارف حكرة (احتكارا) بعد نهيك إياه فنكل به ، وعاقبه فى غير أسراف » .

ويتنهى الإمام فى حديثه عن طبقات الأمة إلى الطبقة الفقيرة ، فيوصى بها ، ويأمر بحسن معاملتها ، ورعاية كرامتها :

« ثم الله الله فى الطبقة السفلى ، الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزَّمْنى (أصحاب العاهات أو الأمراض المزمنة التى تمنعهم من العمل والكسب) فإن فى هذه الطبقة قانعا ومعترا (القانع : السائل . المعتر : المتعرض للعطاء بلا سؤال) . واحفظ الله ما استحفظك (ما طلب منك حفظه) من حقه فيهم ، واجعل لهم قسما من بيت مالك ، وقسما من غلات صوافى الإسلام (من ثمرات أرض الغنيمة) فى كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثل الذى للأدنى . وكل قد استرعيت حقه ، فلا يشغلنك عنهم بطر (طغيان النعمة) فإنك لا تعذر . فلا تشخص همك عنهم (لا تصرف همك) ، ولا تصعر خدك لهم (لا تتكبر عليهم) ، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون ، وتحقره الرجال ، ففرغ لأولئك ثقتك (أى خصص للبحث عنهم رجالا تثق بهم ليتعرفوا على أحوالهم) من أهل الخشية والتواضع ، فليرفع إليك أمورهم ، ثم اعمل فيهم بالإعذار إلى الله (أى بما يكون لك عذر عنده تعالى) يوم تلقاه ، فإن هؤلاء من بين الرعية أحوج للإنصاف من غيرهم ، وكل (منهم) فاعذر إلى الله فى تأدية حقه إليه ، وتعهد أهل اليتم وذوى الرقة فى السن (كبار السن) ممن لا حيلة لهم ، وممن لا ينصب للمسألة نفسه ، وذلك على الولاة ثقيل ، والحق كله ثقيل ، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العافية فصبروا أنفسهم ، ووثقوا بصدق موعود الله لهم » .

ثم يتحدث عن واجبات الحاكم :

« واجعل لذوى الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه بشخصك ، وتجلس لهم مجلسا عاما ، فتتواضع فيه للذى خلقك ، وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك (أى تأمر الحرس والشرطة والأعوان ألاّ يتعرضوا لذوى الحاجات) حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع (متردد ومتلعثم) ، فإنى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول فى غير موطن : لن تقدس أمة (أى لا يطهر الله أمة) لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع . ثم احتمل الخرق (العنف وزنا ومعنى) والعى ، ونح عنهم الضيق والأنف (الاستكبار) ، يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ، ويوجب لك ثواب طاعته . ثم أمور من أمورك لابد لك من مباشرتها : منها إجابة عمالك بما يعيا (يعجز) عنه كتابك ، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك بما تحرج به صدور أعوانك (فالموظفون المصريون يحبون المماطلة وتضيق صدورهم بسرعة قضاء الحاجات !) ،

وامض لكل يوم عمله ، فإن لكل يوم ما فيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت . وإن كانت كلها لله إذا صلحت النية ، وسلمت منها الرعية .

وليكن فى خاصة ما تخلص به لله دينك : إقامة فرائضه التى هى له خاصة ، فأعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك ، ووف ما تقربت إلى الله من ذلك . . وإذا أقمت الصلاة فلا تكونن منفرا ولا مضيعا فإن فى الناس من به العلة وله الحاجة. وقد سألت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حين وجهنى إلى اليمن : كيف أصلى ؟ . فقال : « صل بهم كصلاة أضعفهم ، وكن بالمؤمنين رحيما » .

ويمضى عهد الإمام للأشتر فيوصى بألا يحتجب عن الرعية ، وهى وصية تعوَّد الإمام أن يوصى بها كل من استعمله . . وقد ذكرناها آنفا أكثر من مرة .

ثم يسترسل ناصحا :

« ثم إن للوالى خاصة وبطانة ، وفيهم استئثار ، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال (بمنعهم من التدخل فى شئون الحكم) . . وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، وكن فى ذلك صابرا محتسبا ، واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع ، وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فإن مغبة ذلك محمودة (إحقاق الحق وإن كان ثقيلا فهو محمود العاقبة) .

وإن ظنت الرعية فيك حَيْفاً (ظلماً) فأصحر (أظهر) لهم بعذرك ، واعدل عنك ظنونهم بإصحارك (بظهورك) ، فإن فى ذلك رياضة منك لنفسك (تعويدا لها على العدل) ، وإعذارا (تقديم العذر وإظهاره) تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق » .

ثم يمضى فيقدم منهجا للسياسة الشرعية الخارجية :

« ولا تدفعن صلحا دعاك إليه عدوك لله فيه رضا ، فإن فى الصلح دعة لجنودك ، وراحة من همومك ، وأمنا لبلادك . ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه ، فإن العدو ربما قارب ليتغفل (يستغفّل) فخذ بالحزم ، واتهم فى ذلك حسن الظن . وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة (معاهدة) أو ألبسته منك ذمة (عهدا) فحط (احفظ) عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالأمانة ، واجعل نفسك جُنَّةً (وقاية . أى حافظ على ما أعطيت من العهد بحياتك) ، فإنه ليس من فرائض الله شىء الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود . . فلا تغدرن بذمتك ،

ولا تخيسَنّ بعهدك (لا تنقضه) ، ولا تختل عدوك (تخدعه) ، فإنه لا يجترىء على الله إلا جاهل شقى . وقد جعل الله عهده وذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته ، وحريما يسكنون إلى مَنَعتِهِ ، ويستفيضون إلى جواره (أى يفزعون ويهرعون إليه) . . ولا يدعونّك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق ، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته » .

ثم يمضى فى نصح الحاكم :

« وإياك وسفك الدماء بغير حق ، فإنه ليس شىء أدنى لنقمة ، ولا أعظم تبعة ، ولا أحرى بزوال نعمة وانقطاع مدة ، من سفك الدماء بغير حقها ، والله سبحانه مبتدىء بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة ، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فإن ذلك مما يضعفه ويوهنه بل يزيله وينقله ، ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد لأن فيه قَوَدا (قصاص) . . » .

وإياك والإعجاب بنفسك ، والثقة بما يعجبك منها ، وحب الإطراء فإن ذلك من أوثق فرص الشيطان فى نفسه ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين .

وإياك والمَنّ على رعيتك بإحسانك ، أو التزيّد (إظهار الزيادة عن الواقع) فيما وقع من فعلك ، أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك ، فإن المن يبطل الإحسان ، والتزيد يذهب بنور الحق ، والخلف يوجب المقت عند الله والناس. قال الله تعالى : ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ .

ثم يمضى عهد الإمام للأشتر فيوضح مبادىء الأخلاق والسلوك والعدالة التى يجب أن يتحلى بها الحاكم ، ويتعامل مع الرعية على أساسها :

« وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها ، أو التساقط فيها عند إمكانها (التساقط : الاسترخاء والتهاون) ، أو اللجاجة فيها إذا تنكرت (لم يعرف وجه الصواب فيها) ، أو الوهن عنها إذا استوضحت . فضع كل أمر موضعه ، وأوقع كل أمر موقعه .

وإياك والاستئثار بما الناس فيه أسوة (متساوون) ، والتغابى عما تعنى به مما وضح للعيون ، فإنه مأخوذ منك لغيرك ، وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور ، وينتصف منك للمظلوم !

املك حمية أنفك (املك نفسك عند الغضب) ، وسورة حدك (حدة بأسك) ، وسطوة يدك ، وغرب (حدة) لسانك ، واحترس من ذلك بكف البادرة (ما يبدر من اللسان عند الغضب) ، وتأخير السطوة ،حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد إلى ربك .

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك(سبقك) من حكومة عادلة ، أو سنة فاضلة ، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، أو فريضة فى كتاب الله ، فتقتدى بما شاهدت مما عملنا به فيها ، وتجتهد لنفسك فى اتباع ما عهدت إليك فى عهدى هذا ، واستوثقت به من الحجة لنفسى عليك ، لكيلا تكون لك علة عند تَسرُّع نفسك إلى هداها . وأنا أسأل الله بسعة رحمته ، وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة أن يوفقنى وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه (يريد العدل فهو عذر لك عند من قضيت عليه ، وعذر عند الله فيمن وقّعت عليه عقوبة أوحرمته من منفعة) ، مع حسن الثناء فى العباد . وجميل الأثر فى البلاد، وتمام النعمة ، وتضعيف الكرامة (أى مضاعفتها) ، وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة ، إنا إليه راجعون . والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين ، وسلم تسليما كثيرا ، والسلام » .

* * *

لما قرأ معاوية هذا الكتاب وسمعه خاصته وتناقلوه ونقلوه إلى غيرهم . اهتز يقين عدد منهم بدعوى معاوية ، فمالوا إلى علىّ . . !

وكان قد استثار بعض الناس على معاوية ما سمعوه عما جرى لمحمد بن أبى بكر ، فقد استبشع هؤلاء قتله على هذا النحو الوحشى . . فلما سمعوا أن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تدعو على معاوية وعمرو فى كل صلاة ، نفروا من معاوية . .

ونَفرّهم من معاوية ما وجدوه من بذخ هو السفه بعينه ، وما شاهدوه فى دمشق من صور الترف المستبد ، وإلى جواره غير بعيد صور من الفقر المدقع تثير الأسى والإشفاق والإحساس بالمهانة والعار !

وشعر بعضهم أنهم قد تحولوا فى دنيا معاوية إلى أثرياء حقا . . ولكنهم فقدوا سمو الروح ، ولم يعودوا إلا كائنات تأكل وتشرب كالسوائم ، وتتمرغ فى الملذات كالبهائم !

ثم إنهم ليؤولون القرآن ، ويحرفون آيات القصاص عن مواضعها ، وهم يعلمون !!

فما قضى الله بأن يقتص أهل القتيل من القاتل حين أنزل الآية (ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب) . بل أراد أن يقوم بالأمر ولى الأمر ، لكى يحقن الدماء ، وتحيا أنفس كانت حرية بأن تراق دماؤها إن ترك أمر القصاص لأهل القتلى !!

ثم إن الذين لم يفرغوا قلوبهم من التقوى ، وجدوا أنهم سيتحملون مع معاوية وعمرو إثم الشقاق الذى صرف الإمام عليا عن نشر الإسلام ، وشغله بالفتن الداخلية . . هذا الخلاف الذى أزهق أكثر من مائة ألف من مهج المسلمين المجاهدين !!

وهكذا انتفض الذين فروا بدنياهم إلى معاوية ، ليندموا ويتوبوا ، ويفروا بدينهم إلى على .

وجاءوا إليه أرتالا . . فأخذ معاوية يستثير العصبية الجاهلية فى القبائل . .

ولكن الإمام رأى أن يكتب لآخر مرة إلى معاوية عسى أن يتوب ، وعسى أن يعظه ما تسبب فى سفكه من دماء المسلمين ، وعسى أن يدخل فيما دخلت فيه جماعة المسلمين !

فكتب: «يا معاوية أرديت جيلاً من الناس كثيراً (أى أهلكت صنفا) خدعتهم بغيِّك (ضلالك) ، وألقيتهم فى موج بحرك ، تغشاهم الظلمات ، وتتلاطم بهم الشبهات ، فجازوا عن وجهتهم (بعدوا عما كانوا يقصدونه وكان بعضهم قد انحاز لمعاوية متوهما أنه يطالب بقتلة عثمان حقا !) ونكصوا على أعقابهم ، وتولوا على أدبارهم ، وعولوا على أحسابهم (تعصبوا لقبائلهم تعصب الجاهلية الأولى) ، إلا من فاء من أهل البصائر فإنهم فارقوك بعد معرفتك ، وهربوا إلىَّ من موازرتك (مناصرتك) ، إذ حملتهم على الصعب ، وعدلت بهم عن القصد ! فاتق الله يا معاوية فى نفسك ، وجاذب الشيطان قيادك ، فإن الدنيا منقطعة عنك ، والآخرة قريبة منك » .

وذهب الإمام إلى المسجد الجامع يعظ الناس ، ويعلمهم كما تعود منذ كان فى المدينة فى الأيام الرائعة الذاهبة .

وسمع همهمة تبرم منهم ، وأحس أن النعرة القبلية التى أثارها معاوية وحشد الناس باسمها ، قد بدأت تتسلل إلى أعماقهم لتثير فيهم حمية الجاهلية . . فإذا هم يضيقون بمساواتهم بالموالى أهل البلاد المفتوحة : مصر وبلاد الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية .

لقد حسب الإمام أن الإسلام طهَّر المسلمين من هذه العصبية الجاهلية وهذه النعرة

القبلية . ولكن معاوية كان يدس إلى أهل العراق من يثير فيهم العصبية الجاهلية . . ! فهذه القبيلة خير من تلك ، فهى إذن أولى بالرعاية !! والعرب جميعاً هم مادة الإسلام ، فهم خير إذن من أهل البلاد المفتوحة ، فهم أولى بالرعاية من الموالى (!!) ويجب أن يمتازوا فى العطاء . . وخاصة الناس خير من العامة ، فيجب أن ينالوا نصيبا أكبر !!

وكان معاوية قد رسم خطتين لتمزيق رجال على : « الأولى قائمة على الدهاء والخديعة ، وهى إثارة العصبية فيما بينهم فلا يجتمعون ، ثم استمالة رءوسهم بالإغداق عليهم . . ! » .

أما الخطة الثانية فهى إرهابهم ، وضرب من يستعصى عليه حتى تصبح حياته وحياة أولاده أهم عليه من على وإمامته . . وحتى من دينه !!

وأحس علىٌّ بأن بعض رجاله قد استثارهم أنهم ـ هم أشراف العرب ـ يتساوون فى العطاء بالموالى من أهل البلاد المفتوحة ، وبالعامة من قبائلهم . . !

وإذ أحس أمير المؤمنين باشتعال العصبية والنعرات الجاهلية ، وإذ أحس بالأطماع تشرئب من أعماق بعض الذين أنقذهم صلاحهم من التورط ، وقف يخطب الناس فقال : « الحمد لله الذى لبس العز والكبرياء واختارهما لنفسه دون خلقه ، وجعلهما حمى وحرما على غيره ، واصطفاهما لجلاله ، وجعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده » .

ثم اختبر بذلك ملائكته المقربين ، ليميز المتواضعين منهم من المستكبرين فقال سبحانه ، وهو العالم بمضمرات القلوب ، ومحجوبات الغيوب : (إنى خالق بشرا من طين . فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين.فسجد الملائكة كلهم أجمعون . إلا إبليس . .) ، اعترضته الحمية ، فافتخر على آدم بخلقه ، وتعصب عليه لأصله ، فعدو الله (هو) إمام المتعصبين وسلف المتكبرين الذى وضع أساس العصبية . . فاحذروا عباد الله أن يعديكم بدائه ، وأن يستفزكم بندائه ، وأن يجلب عليكم بخيله ورجله . فلعمرى لقد فَوَّقَ لكم سهم الوعيد (فوق السهم يفوقه أعده للرمى) ، ورماكم من مكان قريب ، وقال : (رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين) (سورة الحجر آية ٣٩) . . صدقه أبناء الحمية ، وإخوان العصبية ، وفرسان الكبر والجاهلية ، حتى إذا انقادت له الجامحة منكم (الشاردون المتأثرون بالروح القبلية) ، واستحكمت الطماعية منه فيكم فنجمت الحال من السر الخفى إلى الأمر الجلى ، استفحل سلطانه عليكم ، ودلف (تقدم) بجنوده نحوكم ، فأقحموكم ولجات الذل (جمع ولجة وهى الملجأ) ، وأحلوكم

ورطات القتل ، وأوطؤوكم إثخان الجراحة (يقتل بعضكم بعضا) . . فأطفئوا ما كمن فى قلوبكم من نيران العصبية ، وأحقاد الجاهلية ، فإنما تلك الحمية تكون فى المسلم من شطرات الشيطان ونخواته ، ونزغاته ونفثاته . . فاعتبروا بما أصاب الأمم المستكبرين من قبلكم من بأس الله وصولاته ووقائعه ومثلاته ، واستعيذوا بالله من لوائح الكبر ، كما تستعيذونه من طوارق الدهر ، واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال ، وذميم الأعمال ، فتذكروا فى الخير والشر أحوالهم ، واحذروا أن تكونوا أمثالهم ! فإذا تفكرتم فى تفاوت حالتهم ، فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم ، ومدت العافية به عليهم ، وانقادت النعمة له معهم ، ووصلت الكرامة عليه حبلهم : من الاجتناب للفرقة ، واللزوم للألفة ، والتّحاضّ عليها والتواصى بها . واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم (بكسر الفاء فقرة الظهر) ، وأوهن مُنّتهم (قوتهم) ، من تضاغن القلوب وتشاحن الصدور ، وتدابر النفوس ، وتخاذل الأيدى . . . . فإن الله سبحانه قد امتن على جماعة هذه الأمة فيما عقد بينهم من حبل هذه الألفة التى ينتقلون فى ظلها ، ويأوون إلى كنفها ، بنعمة لا يعرف أحد من المخلوقين لها قيمة ، لأنها أرجح من كل يمن وأجل من كل خطر . . . ألا فالحذار الحذار من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبروا عن حسبهم ، فإنهم قواعد أساس العصبية ، ودعائم أركان الفتنة ، وسيوف اعتزاء (انتساب) الجاهلية ، فاتقوا الله . . ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم كدرهم ، وخلطتم بصحبتكم مرضهم ، وأدخلتم فى حقكم باطلهم ، وهم أساس الفسوق ، اتخذهم إبليس مطايا وجندا يصول بهم على الناس ، وتراجمة ينطق على ألسنتهم ، استراقا لعقولكم ، ودخولا فى عيونكم ، ونفثا فى أسماعكم . . » .

ولكن رشوة معاوية للناس كانت أبلغ تأثيرا فيهم من بلاغة الإمام ، وورعه ، وتقواه . . !

لقد تغير الزمان . . الله أكبر ، صدق رسول الله ﷺ يا على . .

وسجد على لله حين تذكر تحذير الرسول للأمة . . قال عليه الصلاة والسلام أنه لا يخشى عليها الفقر ، ولكن الغنى ، وما يصنعه الغنى ببعض الرجال ! . .

وصدق أبو بكر رضى الله عنه حين نصح خليفته عمر أن يحذر هذا النفر من صحابة رسول الله الذين اشرأبت أعناقهم إلى الدنيا بعد أن فتح الله عليهم بلادا واسعة الغنى . . وصدق حين لامهم على مظاهر الترف آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة . .

ورحم الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فقد منع هؤلاء من مغادرة المدينة إلا للجهاد فى سبيل الله ، وألزمهم جميعاً أن يقيموا فى عاصمة الدولة يستشيرهم ، ولا تغيب عنه تصرفاتهم . . !

لكم تغير الزمن منذ عهد الرسول وعهد الشيخين يا على !! أين ذلك العصر الورع المشوب بالرهبة من خشية الله ، المضىء بالفداء والتكافل ، والمنافسة فى البذل وبالرحمة ؟!

أين ذلك الزمن الذى كانت التقوى فيه هى زينة الرجال والنساء ، من هذا الزمن الذى يتباهى فيه الرجال والنساء بالثراء . . حتى العلماء والفقهاء !

لكل زمان دولة ورجال !! من أجل ذلك كان رجال الزمن الرائع الذاهب أبو بكر وعمر وعثمان وأبو عبيدة وابن عوف وطلحة والزبير وعمار وأبو ذر وسعيد بن زيد وسلمان وبلال وصهيب وغيرهم من شرفاء المهاجرين والأنصار . . أما رجال هذا الزمن . . فمن هم ؟! . . معاوية ، وعمرو ، وجنودهما !!

كيف تغير هذان الرجلان ، ولهما فى تلك الأيام الرائعة الغابرة بلاء عظيم وجهاد فى سبيل الله . . كيف تغير عمرو بن العاص أحد فاتحى الشام وفاتح مصر ؟! كيف انحاز إلى باطل معاوية ، وهو يعرف أنه على الباطل ؟!

ألأن معاوية حذره منذ أول يوم بويع فيه لك يا على ، وأعلنت أنك ستسترد إلى بيت المال ، كل ما أخذ بغير حق من مال وضياع ومتاع ، حتى لو كانوا قد تزوجوا به النساء ، واشتروا به الإماء ؟!

أليس من أجل ذلك أرسل معاوية إلى عمرو : « يا عمرو ما كنت صانعا فاصنع إذا قشرك ابن أبى طالب من كل ما تملكه كما تقشر من العصا لحاها » لكم أضلهم الحرص على الأموال والضياع والمتاع !!؟

من أجل ذلك نصبوا قميص عثمان على منبر جامع دمشق ، واختفوا وراءه بما يحركهم من حرص على الغنى وأحلام فى الثراء وأطماع فى الجاه والملك ؟!

من أجل ذلك استغل معاوية فى رؤساء القبائل نعرات أطفأها الإسلام وأيقظ فيهم ما أنامته الحكمة وتقوى الله من عصبية الجاهلية الأولى !؟

وإذن فكيف المرجع يا على ؟ ! « كيف المرجع ، ولقد أصبحت فى زمان قد اتخذ أكثر

أهله الغدر كيسا (ذكاء وعقلا) ، ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة ؟! ما لهم ؟ قاتلهم الله ! » .

أسفاه يا على !! فقد يرى الرجل الحكيم الورع التقى « وجه الحيلة رأى العين ، ودونه مانع من أمر الله ونهيه ، فيدعها بعد القدرة عليها » ، وينتهزها من لا تحرج له فى الدين ، ولا ورع له ! . .

وهكذا استطاع معاوية أن يصطنع لنفسه ولأهدافه الملكية كل أهل الشام . . كلهم جميعا إلا قليلا ممن غلبهم ورعهم على إغراءات معاوية . . وأهل الشام كما قال عنهم معاوية لا يعرفون فضل أحد فى الإسلام ، فهم حديثو عهد بالإسلام !! ولا يعرفون لشىء فضلا إلا العطاء !!

ولكم يغدق عليهم معاوية !..

ثم إن معاوية ليصطنع لنفسه كثيرين من رؤساء القبائل العربية : يثير فيهم العصبية القبلية ، والنعرات المتعصبة ، ثم يغدق عليهم ويجزل لهم من العطاء بغير حق أضعاف ما يعطيهم على بحق !

على يأخذهم بصرامة الحق ، بما تحتمه سياسة إمام الدين ، ومعاوية يجتذبهم بالرشوة بما تقتضيه حيلة رجل العصر الذى رأى أن يسبح على موجة العصر ، وأن يروى الأطماع التى استنبتها العصر فى أعماق الرجال والنساء . . !!

على لا يسكت على عوج أو خطأ يراه ، بل يبادر فيقومه ويصلحه . . أما معاوية فيسترضى الناس بكل ما يرضيهم ، ولا يجعل له على أحد سلطانا ما دام لا ينازعه الملك ، ولا يحول بين أحد وبين ما يقول أو يعمل ما دام هذا لا يحول بينه وبين الملك . .

فما من شىء يعنيه أول الأمر وآخر الأمر غير الملك !!

وإنه ليصرح بهذا فى كل أقواله وأفعاله حتى لقد يبلغ الأمر حد الإهانة ، فيحولها إلى دعابة ، ويصطنع الحلم ، ويمارسه حتى ليشتهر به !. .

تراهن جماعة من أهل الشام خليعا منهم على أن يقوم إلى معاوية إذا سجد فيضع يده على كفله ويقول : « سبحان الله ما أشبه عجيزتك بعجيزة أمك هند ! » . . ففعل الرجل السفيه ذلك ، فلما انتهى معاوية من صلاته قال للرجل : « يا أخا العرب . إن أبا سفيان كان محتاجا إلى ذلك منها ، فخذ ما جعلوه رهانا لك ! » . .

كان اهتمام معاوية بالعرب ، وبرؤساء القبائل العربية بصفة خاصة ، أما الإمام فكان اهتمامه بكل المسلمين ، ولم يكن اهتمامه بأهل الذمة أقل من اهتمامه بالمسلمين . . وكان يسوى فى العطاء بين الخاصة والعامة . . بين الرؤساء والمرءوسين فى القبائل العربية ، وبين العرب وأهل البلاد المفتوحة المعروفين ! على الرغم من أن بعض العرب يستنكف أن يسوى بالموالى ! !

ولكم نصحه ثقاته : « يا أمير المؤمنين ، أعط هذه الأموال ، وفضِّل هؤلاء الأشراف من العرب ومن قريش على الموالى والعجم ، واستمل من تخاف خلافه من الناس » . ! !

ولكم رد عليهم بالكلام نفسه : « إن المال مال الله ، ويجب أن يقسم بالسوية » . إنه من أجل إقامة العدل قِبل الخلافة . . فإن لم يقم العدل ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويدفع الباطل ويحمى حوض الشريعة وينشر مكارم الأخلاق ، ويجعلها أساسا للتعامل بين الناس ، فلماذا قبل البيعة ؟!

دخل عليه عبد الله بن عباس فوجده يخصف نعله بنفسه . . فلما حدثه فى أمر شدته على نفسه وعلى الناس قال أمير المؤمنين : « إن الخلافة أهون علىَّ من النعل إن لم أقم بها العدل والحق ، وأدفع الباطل ! » .

وعلى ليس كمعاوية : فقد ربته الطاهرة خديجة سيدة نساء العالمين ، ومحمد سيد الخلق أجمعين . . أما معاوية فرباه أبو سفيان ، وهند بنت عتبة !! وما أبعد ما تنتجه تربية سيد الخلق وسيدة نساء العالمين ، عما تنتجه تربية رأس الكفر وآكلة الأكباد . . بعد ما بين السماء والأرض !

إنه ليس كمعاوية : فقد كرم الله وجهه منذ كان صبيا فلم يسجد لوثن أو صنم ، وقد تربى على الفداء ، فنام فى فراش رسول الله حين تآمر عليه كفار قريش ليقتلوه ، مفتديا الرسول بحياته ! !

فما من خصلة من خصال على إلا ناقضتها خصلة من خصال معاوية !

رأى الإمام علىٌّ الناسَ من حوله يتواكلون ، وذهب بعضهم إلى أن كل شىء مقدر ، فما جدوى خروجهم إذن لحرب معاوية وأهل الشام ، والله غالب على أمره ؟! فإن كان قد قدر للإمام أن يظل أميراً للمؤمنين فسيخزى معاوية ، وإن كان قد قدر لمعاوية أن يصبح هو الخليفة والملك ، فلا راد لقضاء الله ! !

وفزع الإمام مما يسمع . . من أين جاءوا بهذه الأفكار ؟! وكيف يفهمون الإسلام ؟!

وجلس بين الناس يعظهم فقال : « كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالسا وفى يده عود ينكت به ، فرفع رأسه فقال : ما منكم من نفس إلا وقد علم الله منزلها من الجنة والنار . فقالوا : يا رسول الله فلم نعمل ؟ أفلا نتكل ؟ قال : لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ فأما من أعطى واتقى ، وصدق بالحسنى ، فسنيسره لليسرى ، وأما من بخل واستغنى ، وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى ﴾ » .

وظل الإمام يعلمهم أن الله يحاسب كل إنسان بعمله ، ولو أن الله قهر كل إنسان على ما يعمله وأجبره عليه ، لما جاز له سبحانه أن يحاسب الناس ، ولما كان هناك ثواب ولا عقاب ، ولأصبح المحسن كالمسىء ، والبر كالفاجر !!

وفى الحق أن الإمام كان لا يحب أن يخوض الناس فيما لا يعلمون ، وكان يؤثر لهم أن يتمسكوا بتعاليم دينهم فى كل أمور حياتهم اليومية . . ولقد جعل من نفسه قدوة .

أهدى إليه سمن وعسل ، فضمه إلى بيت المال ، وخرج يتفقد الأسواق ليقسمه عندما يعود ، فلما عاد وجده ناقصا ، وعلم أن ابنته أم كلثوم التى توفى عنها عمر بن الخطاب ، قد أخذت منه ، فأرسل الإمام من يقوّم ثمن ما أخذته من العسل بخمس دراهم ، فبعثتها ، وباع السمن والعسل ، وقسم الثمن على الناس .

وزاره رجل من أصحابه فطلب الطعام ، ولم يكن أمير المؤمنين موجودا فأخرج إليه أبناؤه قصعة فيها مرق بحبوب . فقال : « تطعمون هذا وأنتم أمراء الناس ؟ » قالوا : « كيف لو رأيت طعام أمير المؤمنين !؟ » .

وكان أمير المؤمنين يأتى السوق كل يوم يصنع ما تعود أن يصنعه : يعين الحمال على حمولته ، ويرشد الضال ، ويعظ التجار . . وينصح من يجده فى السوق ممن يلون أمرا من أمور المسلمين (أى الموظفين والمستخدمين) ألا يقبلوا الهدايا من أهل السوق ، ولا من أحد من الرعية ، ويحتج بالحديث الشريف : « من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا (راتبا) ، فأخذ أكثر من رزقه فهو غلول (رشوة) » .

وكان يرى تناول الطعام عند أحد من الرعية نوعا من الرشوة، إن لم يكن الداعى والمدعو صديقين . . وقد دعاه صاحب له عزيز عليه إلى الطعام فقال ضاحكا : « سآتيك على ألا تتكلف ما ليس عندك ولا تدخر عنا ما عندك ، فشر الإخوان ما تكلف له » فضحك صاحبه وقال : صدقت يا أمير المؤمنين .

ثم روى الإمام لبعض عماله وقضاته وهو يبتسم : « أن عمر بن الخطاب حكى له ، أن رجلا أهدى له رجل جزور (جمل أو ناقة) ، ثم جاء يخاصم إليه بعد ذلك فجعل يقول : يا أمير المؤمنين افصل بيننا كما تفصل رجل الجزور ! ثم قال عمر لعلى : « فوالله ما زال يكررها ويكرزها علىَّ حتى كدت أقضى له ! فاقض أنت أمره يا أبا الحسن ! » . .

وأضاف على يعظ الناس أن عمر بن الخطاب رحمة الله عليه ، مع منزلته فى الإسلام ، وشدته وصلابته فى الحق ، ومكانه من الدين ، قد عرض له ما عرض فى رجل جزور ، أهديت إليه ، مع قلتها وخساستها ، فكيف بمن لا يدانيه فى شىء من أشيائه ، ولا يقاربه فى فضله ودينه ، وقد قبل هدية مُهْدٍ من رعيته أو غير رعيته ، جليلا خطرها ، عظيما فى قلبه موقعها ، خاصم إليه خصما له ، فما تراه فاعلا . . ؟!

وخطب التجار فى السوق فقال ما تعود أن يقوله لهم : « قد أصبحتم فى زمن لا يزداد الخير فيه إلا إدبارا ، والشر فيه إلا إقبالا ، والشيطان فى هلاك الناس طمعا ، فهذا زمان قويت عدته (عدة الشيطان) ، وعمت مكيدته ، وأمكنت (سهلت) فريسته . اضرب بطرفك حيث شئت من الناس ، هل تبصر إلا فقيراً يكابد فقرا ، أو غنيا بدل نعمة الله كفرا ، أو متمردا كأن بأذنه عن سمع المواعظ وقرا ؟ أين خياركم وصلحاؤكم ؟ وأحراركم وسمحاؤكم ؟ وأين المتورعون فى مكاسبهم ؟ والمتنزهون فى مذاهبهم ؟ أليسوا قد ظعنوا (رحلوا) جميعاً عن هذه الدنيا الدنية والعاجلة المنغصة ؟؟ وهل خلفتم إلا فى حثالة لا تلتقى بذمهم الشفتان استصغارا لشأنهم ، وذهابا عن ذكرهم ؟ فإنا لله وإنا إليه راجعون ! ظهر الفساد فلا منكر متغير ، ولا زاجر مزدجر! أفى هذا تريدون أن تجاوروا الله فى دار قدسه ، وتكونوا أعز أوليائه عنده ؟! هيهات ! لا يخدع الله عن جنته ، ولا تنال مرضاته إلا بطاعته . لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له ، والناهين عن المنكر العاملين به » .

ألا وإن أفحش الظلم ظلم الحاكم للمحكوم ، والقوى للضعيف ، والمحتكر للعامة ! يا معشر التجار ألا إن التجار هم الفجار إلا من اتقى ربه وصدق ، وبر ، ووصل ، وأدى الأمانة ، والتاجر الصدوق مع النبيين والشهداء » .

فما كان يمل من تكرار هذه الموعظة على التجار .

وذات يوم أقبل يتحدث مع التجار ، فلاحظ أن فيهم عددا من الموالى (غير العرب) ، وكانت الكوفة هى ملتقى التجار بين الشرق والغرب ، فيها بضائع الأرض

ومعارفها جميعا . ولاحظ أن الموالى الذين يتعلمون العربية يلحنون فيها ، وكان هذا اللحن يستملح من الإماء ، أما الرجال فلحنهم معرة . ولقد أوشكوا أن يفسدوا اللغة !

واعتزم الإمام أن يأمر بوضع علم النحو لصيانة اللسان العربى .

ولقد كان الإمام يحض الناس على التعلم ، ويقول فى السوق وفى الطريق وفى المسجد وحيثما تجمع له الناس : « العلوم أربعة : الفقه للأديان ، والطب للأبدان ، والنحو للسان ، والنجوم لمعرفة الأزمان » وكان يحض التجار على تعلم الحساب . .

وقد تعود أن ينصح بقوله : « العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق . . هلك خزان المال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر : أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم فى القلوب موجودة » .

وكان يقول متحسراً : « لو أن حملة العلم حملوه بحقه ، لأحبهم الله وأهل طاعته من خلقه ، ولكنهم حملوه لطلب الدنيا ، فمقتهم الله وهانوا على الناس ! » .

وقال : « إذا مات المؤمن العالم ، ثلم فى الإسلام ثلمة لا يسدها شىء إلى يوم القيامة » .

وكان يكرر : « يا طالب العلم : إن العلم ذو فضائل كثيرة ، فرأسه التواضع ، وعينه البراءة من الحسد ، وأذنه الفهم ، ولسانه الصدق ، وحفظه الفحص ، وقلبه حسن النية ، وعقله معرفة الأشياء والأمور ، ويده الرحمة ، ورجله زيارة العلماء ، وهمته السلامة ، وحكمته الورع ، ومستقره النجاة ، وفائدته العافية ، ومركبه الوفاء ، وسلاحه لين الكلمة ، وسيفه الرضاء ، وجيشه محاورة العلماء ، وماله الأدب ، وذخيرته اجتناب الذنوب ، وزاده المعروف ، ومأواه الموادعة ، ودليله الهدى ، ورفيقه محبة الأخيار ، والعلماء غرباء لكثرة الجهال بينهم ! . . العلم تحفة فى المجالس وصاحب فى السفر ، وأنس فى الغربة » .

وكان ينصح هواة الطعام بأن يقتصدوا ويعظهم بقوله : « كثرة الطعام تميت القلب ، كما تميت كثرة الماء الزرع » .

* * *

ذات يوم عاد أمير المؤمنين إلى بيته ، فوجد على ابنته لؤلؤة من بيت المال كان قد عرفها . فسأل : « من أين لها هذه اللؤلؤة ؟ لله علىَّ أن أقطع يدها ! » فوثب إليه خازن

بيت المال فقال له : « أنا والله يا أمير المؤمنين زينت بها ابنة أخى - واليوم عيد - على أن تردها ، ومن أين كانت تقدر عليها لو لم تُعْطَها ؟ » فوبخه ، وحذره أن يعود لمثلها ، ثم قال : « يا بنت ابن أبى طالب لا تذهبى بنفسك عن الحق ! أكل نساء المهاجرين والأنصار يتزيّنّ فى العيد بمثل هذا؟! » .

واعتذر خازن بيت المال ، ورآه الإمام يرتعد من الخوف ، فقال يهون عليه : « إننى لأرفع نفسى عن أن يكون ذنب أعظم من عفوى ، وجهل أكثر من حلمى ، وعورة لا يواريها سترى ، أو إساءة أكثر من إحسانى » .

وإن الإمام لفى داره إذ جاءه كتاب من معاوية ، وشاع الخبر بين الناس . . فتوافوا على الإمام ، فقد حسب الناس أن معاوية تاب وأناب .

ولكن الكتاب كان فيه مسائل لم يعرفها معاوية ، ولا أحد من أهل الفتيا الذين معه عرفها ، فأرسل معاوية إلى الإمام على يسأله عنها !

من ذلك أن رجلا خطب إلى رجل آخر ابنته من امرأته الحرة ، فزوجه ابنته من الأمة ، فلما اكتشف الزوج الحقيقة بعد الدخول شكا إلى معاوية فسأل من حوله فقالوا : « إنما هى امرأة بامرأة » .

فلم يطمئن الرجل إلى صحة هذا الرأى ، وطلب أن يسألوا على بن أبى طالب .

فرد عليهم الإمام : يجلد الأب لتدليسه وافترائه ، وعليه أن يجهز الأخرى (بنت الحرة) من ماله ، أما بنت الجارية فطالق ، ولكنه لا يقرب أختها حتى تنقضى عدتها كيلا يجمع بين الأختين ! . .

ومنها أن رجلين تنازعا فى ثوب فأقام أحدهما البينة ، وقال الآخر : « اشتريته من رجل لا أعرفه » . فلم يعرف معاوية ولا من معه ما حكم المسألة ، فقضى الإمام لمن ادعى وأقام البينة .

ومنها أن رجلا قال له بنو عمه وهم أيضاً بنو عم امرأته : « إن امرأتك لا تحبك فان أحببت أن تعلم ذلك فخيرها : فقال لها اختارى » قالت : « ويحك اخترت ولست بخيارى » وكررتها ثلاث مرات . فقالوا له : « حرمت عليك » .

ولم يقض معاوية ومن معه بحكم ، حتى قضى الإمام بأنها لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره !

وقد غضب بعض أصحاب الإمام لأنه يجيب معاوية فى أمور الدين ويهديه إلى الصواب ، فقال : « أما يكفيكم أنه احتاج إلينا وسألنا ؟ الحمد لله الذى جعل عدونا يسألنا عما نزل فى أمور ديننا » ثم أمرهم بأن يخلصوا فى المشورة إذا ائتمنهم عدوهم واستشارهم !

وقام الإمام يكتب أوامره كما تعود لمن يستعمله على الصدقات : « انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تروِّعنَّ مسلما ، ولا تجتازن عليه كارها ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله فى ماله ، فإذا قدمت على الحى فانزل بمائهم . . ثم امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدع (تبخل) بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله ، أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم حق فتؤدوه إلى وليه ؟ فإن قال قائل : لا ! فلا تراجعه . وإن أنعم لك منعم (قال نعم) ، فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده أو تعسفه (ترهقه) ! فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة ، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تدخل اعليها دخول متسلط عليه ولا عنيف به ، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ، ولا تسوءن صاحبها فيها . ثم اصدع المال صدعين (اقسمه نصفين) ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله ، فاقبض حق الله منه ، فان استقالك فأقله (إن طلب الإعفاء من هذه القسمة فأعفه منها) ، ثم أخلطها ، ثم اصنع مثل الذى صنعت أولا حتى تأخذ حق الله فى ماله . . ولا تعمل بشىء من طاعة الله فيما تظهر ، وتخالف إلى غيره فيما تسر ! فمن لم يختلف سره وعلانيته ، وفعله ومقالته فقد أدى الأمانة ، وأخلص العبادة . وآمرك بتقوى الله فى سرائر أمرك ، وخفيات عملك ، حيث لا شاهد غيره سبحانه ، ولا وكيل دونه .

وآمرك ألا ترغب عن الناس تفضلا بالإمارة عليهم ، وألا تجبههم ، ولا تعضهم (أى تضرب جباههم وتؤذيهم) فإنهم الإخوان فى الدين ، والأعوان على استخراج الحقوق . وإن لك فى هذه الصدقة نصيبا مفروضا ، وحقا معلوما ، وإن لك شركاء أهل مسكنة ، وضعفاء ذوى فاقة ، وإنا موفوك حقك فوف حقوقهم ! وإلا فإنك من أكثر الناس خصوما يوم القيامة ، وبؤسا لمن خصمه عند الله الفقراء ، والمساكين ، والسائلون ، والغارم ، وابن السبيل ! ومن استهان بالأمانة ورتع فى الخيانة ، ولم ينزه نفسه ودينه عنها ، فقد أحل بنفسه فى الدنيا الذل والخزى ، وهو فى الآخرة أذل وأخزى ، وإن أعظم الخيانة خيانة الأمة ، وأعظم الغش غش الأئمة » .

وكان هذا دستورا للجباة وهم بلغة عصرنا مأمورو الضرائب ، فمن حاد عنه أخذه الإمام بالشدة ، وحمله على الطريق الصواب ، وهداه إلى المحجة .

* * *

خلا الإمام إلى نفسه يفكر فى كل ما مر به . . وطالما خلا إلى نفسه ففكر وتدبر واعتبر ! !

وتذكر الإمام بعض ما تعلمه عن كتب الهند والفرس واليونان . . وتذكر ما قاله كسرى أنو شروان ملك الفرس الغابر قال : « إنما أفحص عن الأعمال لا السرائر ، وأحكم الأجساد لا القلوب ، وأحكم بالعدل لا بالرضا » .

ثم تذكر نصيحة ملك فارس لولى عهده : « لا توسعن على عمالك توسعة يستغنون بها عنك فيطغوا ، ولا تضيقن عليهم ضيقا يضجون به منك ! » . .

صدق رسول الله . . علمنا أن نطلب العلم حيث وجدناه ولو فى الصين وهى أقصى الأرض ، وعلمنا أن الحكمة ضالة المؤمن ينشدها أنى وجدها . . !

وتذكر الإمام مثلا جاء فى كتب الهند ، فابتسم . . ودخل عليه بعض أصحابه ، وما كانوا ليتركوه يخلو إلى نفسه ، فثمت هموم ومشاغل أو مشاكل أو مسائل !

فلما سألوه أى شىء طاف بخاطر أمير المؤمنين فأضحكه . . قال : « حكاية من كتب الهند أو الفرس ! ! » ثم استطرد يحكى الحكاية : « أثوار ثلاثة كن فى أجمة ، أبيض وأسود وأحمر ، ومعهن فيها أسد ، فكان لا يقدر منهن على شىء لاجتماعهن عليه . فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يدل علينا فى أجمتنا إلا الثور الأبيض ، فإن لونه مشهور ، ولونى على لونكما ، فلو تركتمانى آكله صفت لنا الأجمة ! فقالا له : دونك فكله . فأكله . فلما مضت أيام ، قال للأحمر : لونى على لونك فدعنى آكل الأسود ، لتصفو لنا الأجمة ! فقال : دونك فكله ! فأكله . . ثم قال للأحمر : إنى آكلك لا محالة! فقال: دعنى أنادى ثلاثا ، فقال : افعل . فنادى : إنى أكلت يوم أكل الثور الأبيض ! » .

وفهم الناس ما يعنى الإمام بهذا المثل، فلو أنه نهض بالمهاجرين والأنصار فقاوموا المتطرفين من القراء يوم اتهموا عثمان بالكفر ، لما غلب الثوار أهل المدينة على أمرهم فقتلوا عثمان ! . ولو أنه قمع هؤلاء المتطرفين بعد أن بويع ، لما أفسدوا عليه أمر صفين وقهروه على التحكيم ، ثم أفسدوا عليه أمر الأمة إذ اتهموه بالكفر لأنه قبل التحكيم ، ثم انطلقوا يحكمون بالكفر على من يخالفهم وعلى من لم ينخلع من طاعة على !

ووجد أصحاب الإمام أن المقام مقام اعتبار وعلم وموعظة ، فسأله أحدهم عن صفة المؤمن ، فقال الإمام : « المؤمن بشره فى وجهه ، وحزنه فى قلبه ، أوسع شىء صدرا ، وأذل شىء نفسا ، يكره الرفعة ، ويشنأ (يبغض) السمعة ، طويل غمه ، بعيد همه ، كثير صمته ، مشغول وقته ، شكور صبور ، سهل الخليقة لين العريكة » .

فسأله أحد الجهلاء سؤالا غير واضح ، وفيه عنت ، عن معضلة مبهمة ! .

فقال الإمام ناصحا : « اسأل تفقها ولا تسأل تعنتا ، فان الجاهل المتعلم أشبه بالعالم ، وإن العالم المتعسف شبيه بالجاهل المتعنت ! » .

فتجهم الرجل فقال الإمام له ضاحكا : « من لان عوده كثفت أغصانه ! » .

فعاد صاحبه الذى سأله عن صفة المؤمن يسأله : « ما أفضل الإيمان يا أمير المؤمنين » فهش له الإمام وأقبل عليه قائلا : « قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيث كنت » .

ولاحت من الإمام نظرة عطف حانية أبوية على صاحبه الذى يسأله عن المؤمن والإيمان ، فضاق الرجل الجاهل الذى سأل الإمام متعنتا بمكانة صاحبه الآخر عند أمير المؤمنين !

وأدرك الإمام ما ينطوى عليه هذا الجاهل من حسد ، فقد وشت به نظراته ، فقال الإمام ناصحا مشفقا : « ما رأيت ظالما أشبه بمظلوم من الحاسد : نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم . مغتاظ على من لا ذنب له ، بخيل بما لا يملك » .

وشرد الإمام قليلا ، فأدرك بعض أصحابه ما يعانيه من تخاذل جنوده بعد أن استولى معاوية على مصر ، وقتل محمد بن أبى بكر والأشتر ، ونفرا من شيعة الإمام ثم سرح سرايا ترشو الخوارج ، وتغير بهم على أطراف البلاد ، وتقتل الأبرياء لأنهم فى طاعة على ، لم يحكموا بكفره !

فوثب بعض أصحاب الإمام فقالوا : « يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم » فقال ساخرا : « ما تكفونى أنفسكم فكيف تكفوننى غيركم ؟! إن كانت الرعايا قبل لتشكو حيف رعاتها ، فإننى اليوم لأشكو حيف رعيتى ، كأنى المقود ، وهم القادة !! » .

وسكت أصحابه ، ولكنه ابتسم فى مرارة ، وظل يفحص وجوههم ، فوجد أحدهم

متجهما فسأله عما به ، فعلم أنه خرج من بيته مغاضبا بعد أن أغلظ لأهله ، فذكره الإمام بالحديث الشريف : « خيركم خيركم لأهله » .

فذم الرجل النساء جميعا ، زاعما أن المرأة خلقت من ضلع أعوج ، وأن النساء ناقصات عقل ودين ! فحذرهم الإمام من النعرة الجاهلية ، أيام كانوا يكرهون الإناث ويفضلون الذكور ، وحين كانت المولودة توأد . . ثم ذكرهم بمكانة فاطمة الزهراء عند أبيها سيد المرسلين ، ويحب الرسول لبناته . . وقال : « آمركم بالنهى عن المنكر ، والإحسان إلى نسائكم » فلما جادله أحدهم قال : « انصروا المظلوم ، وخذوا فوق يد الظالم المريب ، وأحسنوا إلى نسائكم » .

وحاول الرجل الجاهل أن يقول فى حدة ما يناقضه به، فقال له الإمام : «لا تجعلن ذرب لسانك على من أنطقك ، وبلاغة قولك على من يسددك ! . وليس جزاء من عظم شأنك أن تضع من قدره ، ولا جزاء من سرك أن تسوءه ! » .

وتشعب حديث أصحاب الإمام ، فتحدث أحدهم بنوع من الإعجاب عن مكر معاوية ودهائه ، فقال الإمام : « والله ما معاوية بأدهى منى ولكنه يغدر ويفجر ، ولولا كراهية الغدر لكنت أدهى الناس ! ولكن كل غدرة فجرة ، ولكل فجرة كفرة ، ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة ، والله ما أستغفل بالمكيدة ، ولا أستغمز (أستضعف) بالشديدة » .

ولاحظ أحد أصحابه أنه يلبس قميصا جديدا ولكنه يضع عليه رداء قديما فسأله فى ذلك ، فقال الإمام ضاحكا : « إنما ألبس هذا الرداء ليكون أبعد لى عن الزهو والكبر » .

وكان الإمام على الرغم من خشونة ملبسه نظيف الثوب ، طيب الرائحة . . فقد كان يحب الرائحة الطيبة ، ويرغب فيها . . وكان إذا رأى رجلا يدخل المسجد فى ثياب قذرة ، أو له رائحة منكرة ، زجره ، فليس هذا من النسك ، فالنظافة من الإيمان ، وقد قال تعالى : ﴿ يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ .

وسأله بعض أصحابه : « ما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ » .

وعجب الإمام لهم !! ما جدوى هذا الآن ، ومعاوية يهاجم أطراف البلاد وجنده يقتلون وينهبون ؟!

أمازال هناك من يريد أن يسمع قول الإمام فى أبى بكر وعمر ؟! لكم قال !! وقال :

« إن الله اجتبى لرسوله من المسلمين أعوانا أيده الله بهم ، فكانوا فى منازلهم عنده على قدر فضائلهم فى الإسلام . فكان أفضلهم فى الإسلام وأنصحهم لله ورسوله الخليفة (أبو بكر) وخليفة الخليفة (عمر) ولعمرى إن مكانهما من الإسلام لعظيم ، وإن المصاب بهما لجرح فى الإسلام شديد ، رحمهما الله وجزاهما أحسن ما عملا » . . وكم قال فى عمر : « أقام السنة ، وذهب نقى الثوب ، قليل العيب ، أصاب خيرها ، أدى إلى الله طاعته ، واتقاه بحقه » .

وطال الصمت ، فعادوا يسألون الإمام : « ما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ » وكان السؤال يعنى حق أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فى تولى الخلافة قبله ! فقال لائما منكرا غاضبا مؤنبا : « أهذا ما أهمكم ؟! وقد تفرغتم لهذا ، وهذه مصر قد افتتحت وشيعتى قد قتلت ! » .

ثم ناشدهم أن يحرضوا أصحابهم على الخروج لمعاوية ، فسكتوا . . فقال :

« أيتها النفوس المختلفة ، والقلوب المشتتة ، الشاهدة أبدانهم ، والغائبة عنهم عقولهم . . هيهات أن أطلع بكم سرَار العدل (سرَار : الظلمة ، يعنى الظلمة التى غشيت العدل) أو أقيم بكم اعوجاج الحق ! اللهم إنك تعلم أن لم يكن الذى كان منا منافسة فى سلطان ، ولا التماس شىء من فضول الحكام ، ولكن لنرد المعالم من دينك ، ونظهر الإصلاح فى بلادك ، فيأمن المظلومون من عبادك ، وتقام المعطلة من حدودك » .

جاء عليا فىء كثير ملأ بيت المال مرة بعد مرة ، ثم مرة ثالثة ، فقام فوزعه بالسوية بين المسلمين كما تعود ، وأخذ هو نصيبه كواحد منهم . . ثم جاءه مال آخر كثير من أصبهان فخطب الناس فقال : « اغدوا إلى عطاء رابع ، فوالله ما أنا لكم بخازن » وبعد أن وزع الأموال كنس بيت المال وصلى فيه . . كما تعود . . ثم تمدد على أرضه ، فأغفى . .

فجاءه من يخبره أن معاوية أرسل جيشا يغزو البصرة ، وأنه رشا بعض كبارها ، وأنه استثار العصبية الجاهلية فى رؤسائها وبصفة خاصة رؤساء بنى تميم ، فقد جاء ابن الحضرمى على رأس جند كثيف ، فاتجه إلى بنى تميم وسائر أشراف البصرة ، فقرأ ابن الحضرمى كتاب معاوية إلى أهل البصرة يعدهم فيه إن هم بايعوه وخلعوا بيعة على أن يعطيهم عطاءين لاعطاء واحدا فى السنة !! . . فاعتزل بعض شيوخ البصرة إذ شعروا بالمهانة من هذا العرض بالرشوة ، وعلى رأسهم حكيمهم الأحنف . . ومال بعضهم إلى معاوية فقال قائلهم لابن الحضرمى : « لننصرنك بأيدينا وألسنتنا » . .

وإزدرى بعضهم لهذا الأسلوب المهين ، فأزرى بمبعوث معاوية وقال له : « والله لئن لم ترجع إلى مكانك الذى جئتنا منه لنجاهدك بأسيافنا ورماحنا ، ولا يغرنك هذا الذى يتكلم فما هو بشىء ! » .

وقال رجل حر آخر : « لبئس ما جئتنا به ، وما تدعونا إليه أنت ومعاوية !! أتيتنا والله بمثل ما أتانا به طلحة والزبير : أتيانا وقد بايعنا عليا واستقامت أمورنا ، فحملانا على الفرقة حتى ضرب بعضنا أعناق بعض ونحن الآن مجتمعون على بيعة على ، وقد أقال العثرة وعفا عن المسىء، أفتأمرنا أن ننتضى أسيافنا ويضرب بعضنا بعضا ليكون معاوية أميرا ؟! » .

وانقسم أهل البصرة ، فمنهم من انحاز إلى مبعوث معاوية ابن الحضرمى ومنهم من قاتله . . وكان عبد الله بن عباس أمير البصرة عند على بالكوفة حينئذ ، ولهذا انتهز فرصة غيابه ، وأرسل حملته الكثيفة ليستولى على البصرة !

غير أن الأتقياء وأحرار الضمائر من أهل البصرة ، رفضوا أن ينكثوا ببيعة على .

ولما كان معاوية قد حاول أن يثير عصبية بنى تميم فقد أرسل على جيشا بقيادة أحد رؤسائهم وهو جارية ، فهزم جارية جند الشام بقيادة ابن الحضرمى ، وفر ابن الحضرمى إلى قصر حصين أمامه خندق عميق ملىء بالماء ، فاحتمى به ، ومعه ابن حازم ، فأمرته أمه ـ وهى امرأة حبشية ـ أن ينزل من القصر ، فأبى ابن حازم فقالت تهدده : « لتنزلن أو لأنزعن ثيابى ! » وبدأت تنزع ثيابها ، فأسرع بالنزول ونجا !!

أما ابن الحضرمى ، فقد ظل ممتنعا بالقصر ، ودونه الخندق العميق الملىء بالماء ، ولكن جارية عبر برجاله هذا الخندق ، فأحرق القصر على من فيه ، وهلك ابن الحضرمى ومعه سبعون رجلا ، ما بين حريق وغريق !!

وهدأ معاوية عن على قليلا !

ولكنه حرض بعض الخوارج الذين لم يشهدوا النهروان . . كان يعرف أن الخوارج يتهمونه كما يتهمون عليا بالكفر ، ولكنه استطاع أن يخدعهم . . وتوافق النقيضان ضد على !!

وخرج هؤلاء المتطرفون يعربدون على الناس بأن مرتكب الكبيرة كافر ، وأفتوا بتكفير كل من كان فى طاعة على ، وكل من رفض أن يجاريهم فى اتهامهم عليا بالكفر . . فأرسل

إليهم أمير المؤمنين ناصحا : « إن أبيتم إلا أن تزعموا أنى أخطأت وضللت ، فلم تضللون عامة أمة محمد صلى الله عليه وعلى آله بضلالى !؟ وتأخذونهم بخطئى ، وتكفرونهم بذنوبى ؟! سيوفكم على عواتقكم تضعونها مواضع البرء والسقم ، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب . وقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وآله رجم الزانى المحصن ثم صلى عليه ، ثم ورثه أهله ، وقتل القاتل وورث ميراثه أهله ، وقطع السارق وجلد الزانى غير المحصن ، ثم قسم عليهما من الفىء ونكحا (تزوجا) المسلمات . فأخذهم رسول الله صلى الله عليه وآله بذنوبهم وأقام حق الله فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام . ولم يخرج أسماءهم من بين أهله ! ثم أنتم شر الناس من رمى بهم الشيطان مراميه ، وضرب بهم تيهه (سلك فى بادية ضلاله) . . وسيهلك فىَّ صنفان : محب مفرط يذهب به الحب إلى غير الحق ، ومبغض مفرط يذهب به البغض إلى غير الحق . وخير الناس فىَّ حالا النمط الأوسط ، فالزموه والزموا السواد الأعظم . فإن يد الله مع الجماعة ، وإياكم والفرقة . فإن الشاذ من الناس للشيطان ، كما أن الشاذ من الغنم للذئب ! ألا من دعا إلى هذا الشعار (الخروج على الجماعة) فاقتلوه ولو كانت تحت عمامتى هذه » .

له الله هذا الإمام فيما يلقاه ! وإن الخوارج ليكفرونه إذ بآخرين يؤلهونه !!

وأرسل الإمام إلى من يؤلهونه من يردهم إلى الهدى ، ولكنهم أبوا ، وغالوا فى تأليهه . . وفروا وتفرقوا فلم يدركهم أحد من أصحاب الإمام !!

ثم أرسل حملة يقودها أحد أصحابه إلى الذين يكفرونه ، فهزموها ، وقتلوا صاحب الإمام ، فأرسل إليهم حملة أخرى كثيفة فهزمتهم . . وكان ذلك فى رجب سنة ثمان وثلاثين .

وصعد الإمام المنبر ليشكو للناس خروج هؤلاء الخوارج الجدد وقال لهم : « لا تقتلوا الخوارج من بعدى ، فليس من طلب الحق فأخطأه ، كمن طلب الباطل فأصابه » (يعنى معاوية) . .

ثم أبدى الإمام ندمه لأنه لم يأخذ الخوارج بالشدة والحسم أول الأمر حين قهروه بمساعدة الأشعث بن قيس على الكف عن القتال فى صفين ليقبل التحكيم ، ثم قادهم الأشعث بعد ذلك ليقهروه مرة أخرى على قبول أبى موسى حكما : عصبية جاهلية من الأشعث لأنه يمانى مثله ، ثم ندموا بعد ذلك لأنهم قبلوا التحكيم ، فاتهموا عليا بالكفر لأنه خضع لهم !!

فاعترضه الأشعث وقال : « يا أمير المؤمنين هذه عليك لا لك ! » .

الأشعث أيضاً . . !! ؟

فخفض الإمام بصره وهو على المنبر . . وانفجر بكل ضيقه مما يصنعه الأشعث منذ صفين وقال : « ما يدريك ما عليَّ مما ليَّ ؟! عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ! . . منافق ابن كافر (وكان هذا الأشعث من عليٍّ كابن سلول من رسول الله كل منهما رأس النفاق) ، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى (وكان الأشعث قد ارتد أيام أبى بكر فلجأ إلى حصن أثناء حروب الردة، فلما حوصر طلب أن يسلم المسلمين الحصن إذا أمنوه هو وعشرة من أقاربه، فأمنوه فأخذوه أسيراً هو وأقاربه العشرة فعفا عنهم أبو بكر لأنهم رجعوا إلى الإسلام . أما سائر من كان فى الحصن من قومه فقد قتلوا جميعا فكان الأشعث يعير بهذا) . فما فداك فى واحدة منهما (يعنى الأسر مرتين) مالك ولا حسبك . . وإن امرءا دل على قومه السيف ، وساق إليهم الحتف ، أحرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد ! » .

* * *

عاد معاوية يرسل حملات على بلاد متفرقة من أرض خلافة على . .

ليت معاوية وله بلاء سابق فى الجهاد ، وليت عمرو بن العاص وله سوابق مشهودة فى الفتح ، ليتهما جمعا دهاءهما ورجالهما إلى رجال على وذكائه وعلمه وورعه وتقواه وحكمته وفضله وشجاعته ، وما يعمر قلبه وقلوب الصالحين من رجاله من حب الاستشهاد فى سبيل الله !! ليت كل أولئك اجتمع وتوجه تحت راية الإسلام بقيادة على إلى الفتح والجهاد ونشر الإسلام ، إذن لأشرقت شمس هذا الدين على العالم كله ، ولأصبحت البشرية كلها أمة واحدة مسلمة !!

ولكن الذى كان يشغل معاوية وأصحابه هو إسقاط على بما يمثله على ويكل ما ينادى به ، لتبقى تحت أيديهم الأموال الطائلة والضياع الشاسعة ، وليتمتعوا بزينة الحياة وطيباتها وملذاتها ، فيتخموا ، وإن التمس آخرون أقواتهم فى مزابل أقوام أغنياء ! .

ما كان يشغل معاوية وعمرو وجنودهما إلا الملك !!

من أجل ذلك بكى عمرو أحر بكاء ، وندم أشد الندم على ما فرط منه عندما أحس بدنو الأجل !!

* * *

على أن الإمام حاول أن يتيح للأمة فرصة تلتقط فيها أنفاسها ، لتستأنف الجهاد فى سبيل الله ، فلعلها إن اتجهت لنشر دين الله ، تاب وأناب قوم توابون ، وجاء نصر الله والفتح !

أرسل على صاحبه المجاهد الجسور الحارث بن مرة العبدى إلى بلاد السند ، فى خيل عظيمة ، وانضم إليه الكثير من المقاتلين ، حتى من الذين تكاسلوا عن الخروج لحرب أهل الشام !! ذلك أنهم رأوا فى فتح السند جهادا أعظم فى سبيل الله ، فخرجوا بتلك الروح المتوقدة المقدسة التى كانت تلهب عزائم الصحابة المجاهدين الأوائل فى المغازى والفتوحات الكبرى ، أيام الرسول والخلفاء الثلاثة الراشدين من بعده ! . .

خرج هؤلاء المجاهدون بقيادة الحارث بن مرة العبدى ليضيئوا بنور الإسلام بلادا تلفها ظلمات الجهالة والشرك والجور ، وإنهم لعلى يقين أن لهم إحدى الحسنيين : إما النصر وإما الشهادة !

وانتصر رجال علىٍّ انتصارا رائعا فى بلاد السند ، وغنموا أموالا طائلة ، وقسم الحارث ابن مرة العبدى قائد الجيش فى يوم واحد ألفا من السبايا . . !

وكانت أرض السند من أخصب الأراضى وأكثفها سكانا ، فأجرى فيها الإمام الحكم الذى أجراه عمر على الأرض المفتوحة . . وهو الحكم الذى اتفق عليه عمر وعلى وعثمان فى عهد عمر وأقنعوا به بقية المهاجرين ، وأيدهم الأنصار : أن تبقى الأرض فى يد زارعيها من أهل البلاد المفتوحة ، وأن يؤدوا عنها خراجا لبيت المال ، ليسد حاجات الأمة وينفق منه أمير المؤمنين على المصالح العامة جميعا . . وهذا هو الإنفاق فى سبيل الله .

وكان على قد أمر قائد جيشه الحارث بن مرة العبدى أن يعرض الإسلام على أهل البلاد التى فتحها ، وأن يشرح لهم مبادىء الدين الجديد ، وأن يبين لهم ما يحققه الدين للإنسانية من كرامة وحرية ومساواة وحقوق . . فلا مفاضلة بين مسلم وآخر إلا بالتقوى ، والعمل الصالح !!

فدخل فى الإسلام كثير من أهل السند ، ودفع الآخرون جزية ضخمة .

إن عليا ليعلم علم اليقين أن سكان العالم جميعا يتطلعون إلى الإسلام منقذا لهم من غائلة الاستعباد والهوان ، ومن ليل الشرك الداجى الظلمات !! ولو بلغهم الإسلام ، لدخلوا فى دين الله أفواجا . .

ولكن كيف السبيل ؟! ألا تتقى الله يا معاوية أنت وعمرو ؟!

لكم دعا الإمام أن يهدى الله معاوية وعمرو بن العاص وجنودهما فيدخلوا فى الطاعة ، وينطلقوا جميعاً تحت راية الإسلام ، والأخوة الإسلامية شرقا حتى الصين ، وغربا حتى بحر الظلمات ، فينشروا الإسلام فى كل بلاد يحيا عليها بشر ، ويحرروا الإنسانية المشوقة إلى الحرية والعدل والنور والإخاء ، ويجعلوا كلمة الله هى العليا ، فيصبح الإسلام وقد عمر قلوب الناس من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ، ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ليكون العالم كله أمة واحدة تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم حياتها على التراحم والتآخى ومكارم الأخلاق التى جاء بها الإسلام ، وتصبح الإنسانية كلها أهل القبلة !!

يا للأحلام ، ويا للأمانى !!

فما كاد الإمام وأصحابه المتقون والمساكين ، يفرحون بنصر الله والفتح المبين فى السند ، حتى روعتهم أنباء تقطع نياط القلوب !

فبدلا من أن تتحد جيوش المسلمين لتنشر نور الله على أرض البشر ، سلط معاوية بعض المسلمين ليسفكوا دماء إخوانهم المسلمين غدرا وعدوانا وبغيا . .

بعث معاوية سراياه إلى أطراف بلاد على ، تنقض عليها ، وتنتقضها وتقتل الآمنين ، وتنهب الأموال :

فقد بعث النعمان بن بشير إلى عين التمر وهى بلدة قريبة من الأنبار قرب الكوفة ، فاستولى عليها وقتل أهلها ، ولما بلغ عليا الخبر حض الناس على الخروج لإنقاذ إخوانهم فى عير التمر من بطش البغاة ، فتثاقل الرجال ! . . ياللرجال !

وشجع هذا التخاذل معاوية فبعث سفيان بن عوف وأمره أن يستولى على هيت (قرب الأنبار) ، وأن يوقع بأهل الأنبار والمدائن ، فلما أتى هيتا وجدها خاوية على عروشها فقد ولى أهلها منه فرارا ثم جاء جند معاوية الأنبار وكانوا ستة آلاف ، فلم يجدوا من جند على غير مائتين إذ كان قائدهم كميل قد خرج بثلثمائة رجل ليدافع عن هيت حين علم أن أهل قرقيسيا يريدون الغارة عليها لحساب معاوية !! واستولى سفيان بن عوف قائد حملة معاوية على كل ما فى الأنبار من أموال : حتى حلى النساء !! فقد نهب ما فى بيت مالها ، كما نهب أموال أهلها !

فلما علم الإمام حض جنوده للخروج لإنقاذ الأنبار ، فتثاقلوا ، ثم خرجوا

متكارهين ، فوصلوا إلى الأنبار حين بلغ سفيان بن عوف دمشق ، فسر معاوية بما صنع وكافأه أحسن مكافأة !!

وبعث معاوية عبد الله بن مسعدة إلى تيماء بين الشام ووادى القرى ، وأمره أن يستولى على الصدقة التى يؤديها أهل البادية لبيت مال على ، وأن يقتل من امتنع !! فاستولى على الصدقات وزحف حتى بلغ مكة والمدينة فأرسل على إليه جندا يقودهم المسيب بن نجبة الفزارى ، فتقاتل الجندان ، وانتهز الأعراب الفرصة فنهبوا إبل الصدقة التى كان جند معاوية قد نهبوها وفر جماعة من جند معاوية عائدين إلى الشام ، وبقى قائدهم ابن مسعدة وعدد قليل منهم ، فاحتنعوا بأحد الحصون ، فحاصرهم المسيب وجند على وأوشكوا أن يحرقوا الحصن على من فيه ، ولكنهم استعطفوه وبكوا وعلا نشيجهم ، فرق لهم المسيب ، وكانت تعمر قلبه الرحمة والمروءة كإمامه علىٍّ ، فعفا عنهم ، وخرجوا عائدين إلى الشام بعد أن عاهدوه على ألا يعودوا لمثلها . . !

لو أن رجال معاوية صنعوا كما صنع المسيب ، لكبت معاوية ، وخاب من حمل ظلما ، ولحقنت دماء كثيرة !!

وأرسل إلى معاوية بعض المهاجرين والأنصار يعظونه وينصحون له بأن يكف عن بغيه ، حقنا لدماء المسلمين !

ولكن معاوية كان قد صمم على ألا يسكت حتى يسقط عليا ، ليصبح هو ملكا على الأمة الإسلامية كلها ، مهما يكلف هذا المطلب أمة محمد من دماء !!

وأرسل معاوية الضحاك بن قيس وأمره بأن يسير إلى الطريق بين الكوفة ومكة فيقطع الطريق ، ويغير على كل من يمر بهذا الطريق ممن يدين بالولاء لعلى ، فيستولى على أمواله ويقتله !!

وهكذا قتل الضحاك وجنوده كثيراً من الأبرياء ، واغتصب كثيراً من الأموال ، ثم انحدر برجاله متجها إلى مكة يغير على الأعراب وأهل القرى ، فإن أقروا بالطاعة لعلى قتلهم ونهب أموالهم . . فلما بلغ ذلك عليا أرسل إليه حجر بن عدى فى أربعة آلاف مقاتل ، فالتقيا واقتتلا حتى هبط الليل ففر الضحاك بن قيس بما نهب من أموال وأنعام ومتاع . . ثم بعث معاوية يزيد بن شجرة إلى مكة ، أميرا على الحج من قبله ، وأمره معاوية أن يأخذ البيعة من الناس فى الموسم ، فمن رفض البيعة فليقتله ! . . واستنهض قثم بن العباس عامل علىٍّ على مكة أهل مكة فلم ينهض معه أحد !! فاتفق ويزيد مبعوث معاوية أن يتركا أمر الحج بالناس ؛ لكيلا يقتتلا فى الموسم عند المسجد الحرام !

فحج بالناس شيبة بن عثمان ، فلما انقضى موسم الحج أرسل علىٌّ مددا لقثم ، فيه أبو الطفيل ومعقل بن قيس ، فاقتتل الجيشان ، وانهزم ابن شجرة وفر جند معاوية ، كما أسر حجر بن عدى كثيراً من رجال معاوية ففاداهم على بأسراه عند معاوية !

ثم أرسل معاوية سرايا إلى دومة الجندل ، وإلى نصيبين ، فأنفذ إليهم على صاحبه كميل بن زياد وهو فى هيت ، فسار إليهم ، وأمده برجاله ، فهزموا جند معاوية ، وأحدثوا فيهم مقتلة عظيمة ، وفر الآخرون عائدين إلى الشام ، فغنم جند كميل ماشية كثيرة وخيلا ومتـاعـا ، فأرسل إليه الإمام على يأمرهم ألا يغنموا من أموال المنهزمين إلا ما قاتلوا عليه وبه : الخيل والسلاح فحسب !

وسار معاوية بنفسه حتى بلغ دجلة . . رجع دون أن يحارب ! وتذكر بعض أصحابه ما دار بينه وبين عمرو ذات يوم من أيام صفين . قال له عمرو : « والله يا معاوية قد أعيانى أن أعلم أشجاع أنت أم جبان !؟ لأنى أراك تتقدم حتى أقول : أراد القتال ، ثم تتأخر حتى أقول : أراد الفرار » فقال معاوية : « والله ما أتقدم حتى أرى التقدم غنما ، ولا أتأخر حتى أرى التأخر حزما ، كما قال الشاعر الجاهلى القطامى :

شجاع إذا ما أمكنتنى فرصة   فإن لم تكن لى فرصة فجبان

فلما أسرف معاوية فى الاغارة على بلاد على ، وأعمل فيها النهب والقتل جمع الإمام الناس ، وحضهم على الجهاد فسكتوا مليا . . فقال لهم :

« أتخرسون أنتم !؟ » فقام قوم منهم فقالوا : « يا أمير المؤمنين إن سرت معنا سرنا معك » .

فقال :

« ما بالكم لا سددتم لرشد ، ولا هديتم لقصد ؟ أفى مثل هذا ينبغى أن أخرج ؟! إنما يخرج فى مثل هذا رجل ممن أرضاه من شجعانكم وذوى بأسكم ، ولا ينبغى أن أدع المصر ، والجند ، وبيت المال ، وجباية الأرض والقضاء بين المسلمين ، والنظر فى حقوق المطالبين ، ثم أخرج فى كتيبة أتبع أخرى ، أتقلقل القدح (السهم قبل أن يلصق به الريش) فى الجفير الفارغ ! (الجفير : وعاء يوضع فيه السهم والسهم غير المراش يتقلقل فى وعائه فالريش يمنع القلقلة) . وإنما أنا قطب الرحى ، تدور علىَّ وأنا بمكانى ، فإذا فارقتها استحار (اضطرب) مدارها ، واضطرب ثُفالها (ما يوضع بين الرحى والأرض

ليسقط عليه الدقيق) . هذا - لعمر الله - الرأى السوء !! والله لولا رجائى الشهادة عند لقائى العدو - لو قد حم لى لقاؤه - لقربت ركابى ثم شخصت عنكم ، فلا أطلبكم ما اختلف جنوب وشمال . إنه لا غناء لى فى كثرة عددكم مع قلة اجتماع قلوبكم . لقد حملتم على الطريق الواضح التى لا يهلك عليها إلا هالك (المحتم هلاكه لفساده) . من استقام فإلى الجنة ، ومن زل فإلى النار . . والسلام .

وانتظر الإمام أن ينهضوا ، ولكنهم ظلوا ساكتين ، كأنهم خشب مسندة ! فقال ساخرا : « ليتنى صرفتكم برجال معاوية صرف الدينار بالدراهم : الواحد بعشرة ! » .

ثم قال وقد أدرك شدة حرصهم على الحياة ، ومتاع الدنيا : « أحذركم الدنيا . . قد تزينت بغرورها ، وغرت بزينتها وهانت على ربها : فخلط حلالها بحرامها ، وخيرها بشرها ، وحياتها بموتها ، وحلوها بمرها ، لم يُصفَّها الله تعالى لأوليائه ، ولم يضن بها على أعدائه ، خيرها زهيد ، وشرها عتيد (حاضر) ، وجمعها ينفد ، وملكها يسلب ، وعامرها يخرب ، فما خير دار تنقض نقض البناء . وعمر يفنى فيها فناء الزاد ؟ . . إن الزاهدين فى الدنيا تبكى قلوبهم وإن ضحكوا ، ويشتد حزنهم وإن فرحوا ، ويكثر مقتهم أنفسهم وإن اغتُبِطُوا (غبطهم غيرهم) بما رزقوا .

قد غاب عن قلوبكم ذكر الآجال ، وحضرتكم كواذب الآمال . فصارت الدنيا أملك بكم من الآخرة ، والعاجلة أذهب بكم من الآجلة ، وإنما أنتم إخوان على دين الله ، ما فرق بينكم إلا خبث السرائر ، وسوء الضمائر . . فلا تناصحون (تتناصحون) ، ولا توادون (تتوادون) ما بالكم تفرحون باليسير من الدنيا تملكونه ، ولا يحزنكم الكثير من الآخرة تحرمونه ؟! ويقلقكم اليسير من الدنيا يفوتكم حتى يتبين ذلك فى وجوهكم وقلة صبركم عما زوى منها عنكم ؟! كأنها دار مقام ، وكأن متاعها باق عليكم !! وما يمنع أحدكم أن يستقبل أخاه بما يخاف من عيبه إلا أن يستقبله بمثله ! قد تصافيتم على رفض الآجل ، وحب العاجل » .

وأعلن أمير المؤمنين آخر الأمر أنه سيسير بنفسه إلى قتال معاوية فى معقله بالشام حماية لمهج المسلمين من بغيه . .

وأرسل الإمام إلى أمرائه وعماله : « من عبد الله على أمير المؤمنين إلى من يمر به الجيش من جباة الخراج وعمال البلاد . أما بعد ، فإنى قد سيرت جنودا هى مارة بكم إن شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى، وصرف الشذى (الشر) ، وأنا أبرأ إليكم

وإلى ذمتكم من معرة الجبس (أذاه ، فهو بغير رضاه) إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهبا إلى شبعه ، فنكلوا (عاقبوا) من تناول شيئا - ظلما - عن ظلمهم (جزاء ظلم بظلم) ، وكفوا أيدى سفهائكم عن مضارّهم والتعرض لهم فيما استثناه منهم(أى فى حالة الاضطرار) ، وأنا بين أظهر الجيش ، فارفعوا إلى مظالمكم وما عراكم مما يغلبكم من أمرهم ، وما لا تطيقون رفعه إلا بالله وبى ، فأنا أغيره بمعونة الله إن شاء الله » .

وقبل أن يفزغ علىٌّ من تجهيز جيش صالحٍ للزحف على الشام ، وخلال تثاقل من أصحابه أسامه ، وتكاره منهم فجعه ، جاءته أنباء مروعة عن مذابح فى الحجاز واليمن لم يعرفها الإسلام من قبل !!

فرأى أن يصرف ما جمع من جند لدفع هذه الغاشية . . وجهز أربعة آلاف جندى لإنقاذ أهل الحجاز وأهل اليمن ، من شر المذابح .

ذلك أن معاوية بعث إلى الحجاز واليمن جيشا كثيفا بقيادة بسر بن أرطأة ، وهو فاتك ، فاسق ، شرير ، غليظ القلب ، شديد الفجور ، بذىء العداء لآل البيت وللإمام على . . وبسر هذا بارز الإمام فى صفين فلما أوقعه الإمام كشف عورته لينجو من سيف الإمام ، كما فعل عمرو، فانصرف عنه الإمام متقززا . . فهجاهما شاعر من الشام من جند معاوية بشعر فاحش !!

بلغ بسر بن أرطأة بجيشه الكثيف مدينة رسول الله ، فقام أميرها أبو أيوب الأنصارى يحرض الناس على الخروج لحماية المدينة وأهلها من بطش الفاتك العربيد بسر ابن أرطأة . فلما لم ينهض أحد مع أبى أيوب الأنصارى خرج إلى الكوفة يستنجد بعلى بنفسه ، وأخبره أن بسر بن أرطأة قد توعد أهل المدينة إن لم يخلعوا طاعة على ، ويبايعوا لمعاوية ، أن يقتل الرجال ويسبى النساء والذرارى !! ما أبشع هذا ، وأبعده عن أخلاق العرب حتى فى الجاهلية !! لم تعرف العرب مثل هذا الهول فى جاهلية ولا فى إسلام . .

وروع الإمام لهذا الصريخ ، وأرسل حجر بن عدى على رأس الجيش الذى كان معدا للزحف على الشام .

وسيطر الذعر على أهل المدينة ، ولم يستطع أحد منهم أن يفر فينجو برأسه ودينه ، فقد أحكم بسر بن أرطأة حصار أبوابها لا يخرج أحد من رجالها قبل أن يخلع بيعة على ، ويبايع لمعاوية !!

وتناجى الناس : « إنها بيعة قهر !! بيعة ضلالة ! » .

ثم زحف بسر بن أرطـأة بعـد ذلك إلى مكة ، وكان أبو موسى الأشعرى معتزلا الناس ، يتعبد فى البيت الحرام ، فخشى أبو موسى على نفسه ، فهرب فلما علم ذلك ابن أرطأة قال : « ما كنت لأطلب أبا موسى وقد خلع عليا ! » .

وكتب أبو موسى إلى قومه باليمن وكان علىٌّ قد استعمل عليها عبيد الله بـن عباس ، وهو من أسخى الناس يدا ، وأرحمهم قلبا .

وزحف ابن أرطأة إلى اليمن ، وفى طريقه إليها أثخن فى الأرض ، وقتل كل من رفض أن ينخلع من طاعة علىٍّ ويبايع لمعاوية ونهب أمواله .

ووصلت أخباره إلى اليمن قبل أن يصلها ، ولم يكن فى اليمن من جند على إلا مئات قليلة ، فأرسل عبيد الله بن عباس إلى على يطلب منه مددا ، فتثاقل الناس فى الكوفة عن الخروج ، فاضطر عبيد الله بن عباس أن يذهب إلى الكوفة ليعود بالمدد بنفسه ، قبل أن يصل ابن أرطأة إلى اليمن .

ولكن الناس فى الكوفة تكاسلوا عنه . . فلما دخل بسر بن أرطأة اليمن هدد أهلها بالقتل إن لم يبايعوا لمعاوية فرفضوا أن ينخلعوا من طاعة على وأبوا أن يبايعوا لمعاوية ، فأعمل فيهم ابن أرطأة القتل . .

بدأ بقتل عبد الله بن عبد مدان الحارثى ، الذى استخلفه عبيد الله بن عباس بدلا منه على اليمن . .

ثم قتل مالك بن عبد الله بن عبد مدان .

وذهب إلى بيت عبيد الله بن عباس فلم يجد به أحدا ، فأحرقه ، وعلم أن امرأة عبيد الله وطفليها فى بادية بنى كنانة . . فلما عرف مكانهما ذهب إليهما فأخذ الطفلين وأراد ذبحهما فقال له صاحب البيت : إن كنت قاتلهما فاقتلنى معهما !!

وقاتل الرجل حتى قتل ، فأخذ بسر بن أرطأة الطفلين من أحضان أمهما فذبحهما أمـامها وأمام نسوة بنى كنانة ، فقالت امرأة منهن : « ما هذا ؟ قتلت الرجال فلم تقتل الـولدان ؟ والله ما كانوا يقتلون فى جاهلية ولا إسلام ! والله إن سلطانا لا يقوم إلا بقتل الضعيف والصغير والشيخ الكبير ، وبرفع الرحمة وعقوق الأرحام لسلطان سوء ! » .

فقـال لها بسر : « والله لقد هممت أن أضع فيكن السيف » فقالت : « والله إنها لأخت التى صنعت ، وما أنا لها منك بآمنة » ثم قالت للنساء اللائى حولها : « ويحكن ! تفرقن » !

وبعد أن فرغ ابن أرطأة من إبادة الرجال والولدان ، سبى النساء المسلمات وباعهن فى الأسواق !!

فكن أول مسلمات سبين فى الإسلام !! . . كما كانت رأس محمد بن أبى بكر أول رأس طيف به فى الإسلام . . وكما كانت بيعة معاوية خليفة فى عهد علىٍّ أول انقسام للدولة فى الإسلام !!

وبكى الناس على الإسلام ، فلم ير يوم أكثر باكيا وباكية من تلك الأيام السود !!

ومن خلال الدموع لاحت صورة أبى ذر الغفارى رحمه الله .

ها هو ذا يوم العورة الذى حذر منه أبو ذر قد حل !!

حقا ما كان أحد أصدق لهجة من أبى ذر ، كما قال عنه الرسول ﷺ : ها هن النساء المسلمات يسبين ويبعن فى أسواق الإماء !!

قال رجلان ممن شهـدا أنهما سمعـا أبـا ذر رضى الله عنه يدعو ويتعوذ فى صلاة صلاها ، طال قيامها وقعودها وركوعها . فسألناه : مم تعوذت ؟ وفيم دعوت ؟ فقال : « تعوذت بالله من يوم البلاء أن يدركنى ، ويوم العورة أن أدركه » فقلنا : « وما ذاك ؟ » قال : « أما يوم البلاء فتلتقى فتتان من المسلمين فيقتل بعضهم بعضا ، وأما يوم العورة فإن نساء من المسلمات يسبين فيكشف عن سوقهن فأيتهن كانت أعظم ساقا اشتريت على عظم ساقها ! فدعوت الله ألا يدركنى هذا الزمان » وبكى الناس !!

أما زوجة عبيد الله بن عباس ، فقد ذهب عقلها بعد أن ذبح ابن أرطأة ولديها فدعا الإمام عليه : « اللهم اسلبه عقله » .

فلما بلغ به الكبر فقد عقله ، فكان يمسك بسيف من خشب ويطوف به ويضرب به الهواء ، أوزقا منفوخا ، والصبيان من حوله يتضاحكون . وطال به العمر فى هذا الجنون . .

لقد قتل بسر خلقا كثيرين من أنصار على وشيعته من أهل الحجاز واليمن فكان فى

شيخوخته يصرخ فزعا إذ يتخيل أشباحهم تطارده ، وبصفة خاصة طفلا عبيد الله بن عباس . . كانت نظراتهم تعذبه عذابا هائلا فيشعر فى كل لحظة أنه يختنق ، وظل يتدحرج فى الطرقات ، فيركله الصبيان !!

أرسل علىٌّ جيشا إلى بسر يقوده جارية بن قدامة الفارس الصنديد ، وجيشا آخر يقوده وهب بن مسعود ، ليطبقا عليه ، ولكن بسر بن أرطأة قتل من قتل ، ونهب ما نهب ، وهرب إلى الشام عائدا بما نهب ، حيث استقبله معاوية استقبال الغزاة الفاتحين ، وكافأه أجزل مكافأة ، وأثنى عليه أعظم الثناء !

وكان عبيد الله بن عباس حسن السمعة محبا للخير محسنا إلى الناس ، فبكى الناس طفليه ، وحنقوا على معاوية حنقاً شديدا ، ولعنوه . . واستبشعوا صنيعه !! كيف يأمر ويرضى بهذه الأعمال الوحشية ، التى لا تفعلها الوحوش نفسها !!؟

وعبيد الله بن عباس هو أول من وضع الموائد بالطعام على الطرق يأكل منها من يشاء . .

وكانوا يقولون عنه : « إنه أجود من الريح إذا عصفت ، وأسخى من البحر إذا زخر . . وكان من أرق الناس قلبا . . ما سمع عن صاحب حاجة إلا انهمرت عيناه إشفاقا عليه ، وحمل إليه كل ما يستطيع من مال ، وإن استدان ! » .

ويروى عنه « أن سائلا أتاه وهو لا يعرفه فقال له : تصدق ، فانى نبئت أن عبيد الله بن عباس أعطى سائلا ألف درهم واعتذر إليه » قال : « وأين أنا من عبيد الله ؟ » قال : « أين أنت منه فى الحسب أم فى كثرة المال ؟ » قال : « فيهما » قال السائل : « أما الحسب فى الرجل فمروءته وفعله وإذا شئت فعلت ، وإذا فعلت كنت حسيبا » فأعطاه عبيد الله ألف درهم واعتذر له عن ضيق الحال . فقال له السائل : « إن لم تكن عبيد الله ابن عباس فأنت خير منه . وإن كنت هو فأنت اليوم خير منك أمس » فأعطاه ألفا أخرى . فقال السائل : « هذه هزة كريم حسيب » .

ويروى عن جوده أيضاً : أنه جاءه رجل من الأنصار . . وكان الأنصار أثيرين عند بنى هاشم ، وكانت فاطمة الزهراء رضى الله عنها تقول لهم : « أنتم حضنة الإسلام ، وأعضاد الملة » . فلما أتى الأنصارى عبيد الله قال له : « يا بن عم رسول الله ﷺ ، إنه ولد لى فى هذه الليلة مولود ، وإنى سميته باسمك تبركا منى به ، وأن أمه ماتت » فقال عبيد الله : « بارك الله لك فى الهبة ، وأجزل لك الأجر على المصيبة » ثم دعا بوكيله فقال

له : « انطلق الساعة فاشتر للمولود جارية تحضنه ، وادفع إليه مائتى دينار للنفقة على تربيته » ثم قال للأنصارى : « عد إلينا بعد أيام فإنك جئتنا وفى العيش يبس وفى المال قلة » قال الأنصارى: « لو سبقت حاتما بيوم واحد ما ذكرته العرب أبدا ، ولكنه سبقك فصرت له تاليا ، وأنا أشهد أن عفوك أكثر من مجهوده ، وطل كرمك أكثر من وابله » .

حاول الإمام مرة أخرى أن يستنفر الناس ليزحف بهم إلى معاوية ، فلا إنقاذ لحياة المسلمين وأموالهم إلا بهزيمة معاوية ، وقهره على لزوم جماعة المسلمين .

ولكنهم تكاسلوا !

وجاءته الأنباء أن جندا لمعاوية عادوا إلى الأنبار فنهبوا أموالها حتى حلى النساء !! وانصرفوا آمنين ، بعد أن قتلوا ، ونهبوا ، وفتكوا ، وفسقوا ، لم يعرض لهم أحد !!

وها هو ذا الإمام يجلس وحده حزينا كئيبا ، يتمنى لو أن الله أراحه من هؤلاء الناس الذين لم يعد العار نفسه يستنفر نخوتهم . . !!

وإنه ليفكر فيما يصنع ليحرك هذه الهمم الميتة ، وإنه ليدعو الله أن يقبضه إليه ليستريح ، فقد ملهم وسئم عشرتهم ، إذ برجل يسأله : يا أمير المؤمنين أين كان ربنا قبل أن يخلق الأرض والسماء ؟ فقال : « أين : توجب المكان وكان الله عز وجل ولا مكان » ولاحظ أحد أصحاب الإمام كآبة الإمام فنهر السائل ، ولكن الإمام نصحه ألا يغلظ على الناس وقال له : « من لانت كلمته وجبت محبته » .

وسأله أحد أصحابه : « صف لنا المرائى يا أمير المؤمنين » وسكت الإمام مليا . . لكم كان يعانى فى أعماقه . . ثم قال : « للمرائى أربع علامات : يكسل إذا كان وحده ، وينشط إذا كان فى الناس ، ويزيد فى العمل إذا أثنى عليه ، وينقص منه إذا لم يثن عليه ! » .

وتحلق حوله عدد من أصحابه ومن الموالى وسألوه أن يعظهم . . فتنهد ، ومسح بيديه دمعة أسى على ما يحدث للإسلام والمسلمين . . ثم قال : « من حلم ساد ، ومن ساد استفاد ، ومن استحيا حرم ، ومن هاب خاب ، ومن طلب الرئاسة صبر على السياسة ، ومن أبصر عيب نفسه عمى عن عيب غيره ، ومن سل سيف البغى قتل به ، ومن احتفر لأخيه بئرا وقع فيها ، ومن نسى زلته استعظم زلة غيره ، ومن هتك حجاب غيره انتهكت عورات بيته ، ومن كابر فى الأمور عطب ، ومن اقتحم اللجج غرق ، ومن أعجب برأيه ضل ، ومن استغنى بعقله زل ، ومن تجبر على الناس ذل ، ومن تعمق فى العمل مل ،

ومن صاحب الأنذال حقر ، ومن جالس العلماء وقر ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن حسن خلقه سهلت له طرقه ، ومن حسّن كلامه كانت الهيبة أمامه ، ومن خشى الله فاز ، ومن استفاد الجهل ترك طريق العدل ، ومن عرف أجله قصر أمله . . » .

وسكت قليلا شرد عقله يفكر فى أمر معاوية وما يصنعه بالناس . . حتى العلماء ! لكم يدمر من نفوس ، ويخرب من ضمائر ، ويسفك من دماء !! . .

وقال الإمام : « قال عيسى بن مريم عليه السلام : سيكون فى آخر الزمان علماء يزهدون فى الدنيا ولا يزهدون ، ويرغبون فى الآخرة ولا يرغبون ، وينهون عن إتيان الولاة ولا ينتهون ، ويقربون الأغنياء ، ويبعدون الفقراء ، ويتبسطون للكبراء ، وينقبضون عن المساكين ، أولئك إخوان الشياطين أعداء الرحمن . . » وما كان يعنى الذين رشاهم معاوية فحسب ، بل يعنى المرتشين وأهل الأهواء من العلماء فى كل زمان ومكان . . !!

ومضى علىّ إلى رؤساء الكوفة يستفز غيرتهم على الدماء والأعراض ، فلم يجد إلا تثاقلا ، وتبلدا ، كأن القوم فقدوا نخوة الرجال ! . . فهم أشباه رجال لا رجال !!

وإذا بأنباء رهيبة تأتيه : أن معاوية بعث سفيان بن عوف من بنى عامر ، مرة أخرى إلى بلاد علىّ ، فغزوا الأنبار ، وقتلوا رجالها وانتهكوا نساءها ، ونهبوا أموالها حتى حلى النساء ! وخرجوا عائدين إلى معاوية ، لم يمسسهم سوء ، ولم يصبهم قرح ، ولا تعرض لهم رجل ! . . هكذا تعود جند معاوية أن ينتهكوا الأنبار ويعودوا آمنين سالمين . . !

فخرج على وحده مغاضبا يزفر أنفاسه الحرى ويجر رداءه إلى النخيلة خارج الكوفة ، وهى المكان الذى اتخذه معسكراً لجنوده كلما جهزهم للجهاد !!

لم يكن فى النخيلة أحد من الجند ، ولكن الناس تبعوا الإمام آسفين خيارى منكسى رءوسهم تحت وطأة الندم والعار . .

ووقف على كرم الله وجهه على مرتفع صنعه بيده من الأحجار ، وسيفه على حمائل من ليف ، فحمد الله وأثنى عليه وصلى وسلم على رسوله وآله ثم قال :

« أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فتحه الله لخاصة أوليائه ، وهو لباس التقوى ، ودرع الله الحصينة ، وجنته الوثيقة . فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، وديّث بالصغار والقماءة (لُوِّث وأصبح ديوثا لا غيرة له) ، وضرب على قلبه بالإسهاب (والإسهاب هو ذهاب العقل وكثرة الكلام بلا جدوى) . وأديل الحق منه ،

بتضييع الجهاد ، وسيم الخسف ، ومنع النصف (الإنصاف) » .

ألا وإنى قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا ، وسرا وإعلانا ، وقلت لكم : اغزوهم قبل أن يغزوكم ، فوالله ما غُزِىَ قوم قط فى عقر دارهم إلا ذلوا ، فتواكلتم وتخاذلتم ، حتى شنت عليكم الغارات ، وملكت عليكم الأوطان .

وهذا أخو غامد (عامل معاوية) ، وقد وردت خيله الأنبار ، وقد قتل حسان ابن حسان البكرى، وأزال خيلكم عن مسالحها (المسلحة : المعسكر) « معسكرها » وقتل رجالا ونساء كثيرين . وقد بلغنى أن الرجل منهم كان يدخل على المرأة المسلمة ، والأخرى المعاهدة (ذات العهد : أى الذمية) وينتزع حجلها (خلخالها) وقلبها (أساورها) وقلائدها ورعاثها (قرط) ، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام . ثم انصرفوا وافرين وما نال رجل منهم كلم (جرح) ، ولا أريق لهم دم !

فلو أن امرءا مسلما مات بعد هذا أسفا ، ما كان به ملوما ، بل كان به عندى جديرا !

فيا عجبا ! عجبا والله يميت القلب ، ويجلب الهم ، من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم ، وتفرقكم على حقكم ! فقبحا لكم وترحا (هما وحزنا) حين صرتم غرضا يرمى ، يغار عليكم ولا تغيرون ، وتُغزَوْن ولا تغزُون ، ويُعْصَى الله وتَرضون ! .

فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم : هذه حمارة القيظ ، (شدة الحر) أمهلنا ينصرم عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير إليهم فى الشتاء قلتم هذه صبارة القر (شدة البرد) ، أمهلنا فينسلخ عنا البرد ، فكل هذا فرارا من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر !

يا أشباه الرجال ولا رجال ! حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال ، لوددت أنى لم أركم ولم أعرفكم ، معرفة ـ والله ـ جرت ندما وأعقبت سدما (غيظا) ! قاتلكم الله ! لقد ملأتم قلبى قيحا ، وشحنتم صدرى غيظا ، وجرعتمونى نغب التهمام (نغب جمع نغبة كجرعة لفظا ومعنى ، والتهمام : الهم) أنفاسا ، وأفسدتم علىَّ رأيى بالعصيان والخذلان ، حتى لقد قالت قريش : إن ابن أبى طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب . لله أبوهم ! وهل أحد منهم أشد لها مراسا وأقدم فيها مقاما منى ! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين وهأنذا قد ذرفت على الستين ! ولكن لا رأى لمن لا يطاع ! » .

* * *

الفصل التاسع

سلام عليه . . عليه السلام !

أقبل العام الأربعون بعد الهجرة ، والمسلمون فى فزع شديد مما يصنعه جند معاوية بالرجال والنساء والأطفال والأموال !

وفى الحق أن ما أحدثه جند معاوية كان صدعا فى الإسلام ما ابتلى دين بمثله من قبل قط !

لقد زلزل أركان الدين الجديد زلزالا عنيفا . . !

وقارن الناس بين ما يسفكه معاوية من دماء فى طلب الملك ، وبين ما يبذله على من عناء فى التماس جمع الشمل . . فأطلقوا ألسنتهم فى معاوية . .

لهذا نشط بعض المرتزقة من علماء معاوية يردون عليهم ، فوضعوا أحاديث فى فضل معاوية وفضل بنى أمية ، غير أن من الضمائر ما استيقظ فى بلاط معاوية ، فنصحه بعض أهل الفتيا بأن يكف أذاه عن المسلمين . . وقالوا له إنهم لا يجدون فى القرآن آية يؤولونها أو يحرفونها عن موضعها ليحللوا له ذبح الأطفال ، وقتل الرجال، وانتهاك النساء وسبى المسلمات ، وهدم الدور على ساكنيها كما فعل بسر بن أرطأة فى مدينة رسول الله ، وفى اليمن ، وكما صنع أخو غامد فى الأنبار . . ! ولئن كانوا قد استطاعوا أن يؤولوا آيات القصاص والفىء ، ويجدوا فى تأويلها ما ينفع معاوية ويخدم أهدافه ، إنهم ليعجزون عن الفتيا بصحة ما صنعه ابن أرطأة والغامدى ، وما من إنسان واحد حتى من الهمج يمكن أن يسكت عما يحدث !! وإن نفوسهم لتتقطع حسرات لما أصاب المسلمين وهم ينظرون ، وإنهم ليخشون أن يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون على صمتهم عن قتل النفوس الزكية ، وعن هذا الفساد العريض البشع فى الأرض !!

ونصح بعضهم معاوية أن يرفع السيف عن مهج المسلمين وحرماتهم !

وأدرك معاوية أنه خسر كثيراً بما فعله جنوده ،وأن عليا هو الرابح الوحيد ، وأن الذين بايعوا له تحت تهديد السيف من أهل الحجاز واليمن لن يلبثوا حتى ينقضوا عليه إن تمكنوامنه ! وأدرك أن هذه البيعة لا يعترف بصحتها أحد : لا الذين أعطوها مقهورين ، ولا حتى المرتزقة من أهل الفتيا . . فهم آخر الأمر لا يستطيعون أن يذهبوا فى الضلال والتضليل إلى هذا المدى كله ، مهما يغدق عليهم ويملأ خزائنهم بالآلاف المؤلفة من الدراهم والدنانير . !

وزعم أقوام أن معاوية ليس أفقه من على بصناعة الإمارة على المسلمين ، ولا هو بأدهى منه ولا بأوسع حيلة ، ولكنه رجل العصر حقا ! . . عصر كثرت فيه الثروات ، وتوفرت الملذات ، ورجاله يشرئبون إلى الغنى والمتاع والجاه ، وما استمتعوا بالسمو الذى يثيره فى القلب جهاد صادق فى سبيل الله ، ومحاماةأبية عن العدل والحق وكرامة الإنسان ! !

حقا . . حقا . . إن رجل هذا العصر هو معاوية ، فهو وحده يخاطب الأطماع ، ويشبعها ، ويستنفر الأهواء فيرضيها ، ملك قاهر ، لا يعف عن شىء يخدم به هدفه ، حتى الغدر نفسه . . وحتى سفك الدماء ، ونهب الأموال ، وانتهاك الحرمات ، وسبى النساء المسلمات ! !

أما على كرم الله وجهه . . فوا رحمتا لعلى ! ولى الله القانت . . إمام الورع والتقوى . . خليفة راشد . . لا يرضى الدنية فى دينه أو دنياه ، يعرف طريق الغدر ولا يسلكه ، الخدعة عنده لا تجوز إلا فى الحرب ، أما فى زمن السلم فهى لون من الخيانة والكذب ، ومسلك زرى لا يجمل بالإنسان التقى . .

هو قدوة : له قيمه العليا ومثله السامية التى يتمسك بها ولا يتنازل عنها لأنه تربى عليها ، ولأنها وحدها هى الجديرة ـ فى رأيه ـ بإصلاح الناس . .

يعرف ما يرضى الناس ـ كما قال لهم ـ ولكنه لا يأتيه ، لأنه يرى فيه ظلما لآخرين ، وإغضابا لله !

علىٌّ رجل دولة بصير بسياسة أمور الرعية ، ولكنه يريد أن يقيم سياسته على دعائم من مكارم الأخلاق ، ولا يضيره ما يعانى وهو يشق الطريق الوعر إلى الحقيقة ، ليقيم العدل ، ويحقق للناس المساواة، ويدفع الظلم ، ولو أنه عدل عن نهجه السوى لحظة ، لتهدمت قيم نبيلة ، وانهارت مثل عليا .

أما معاوية فهو يصنع كل شيء ، وأى شيء ، مهما يكن من شيء ، للوصول إلى الغاية . . وغايته الملك . .

علىٌّ يرى أنّ صلاح الغاية لا يتم إلا بصلاح الوسيلة ، وغايته مصلحة الأمة ، وصلاحها .

ولأن يخسر أمنـه ، وراحته ، خير من أن يهدر قيمه . . ولأن يهدى به الله رجلا واحدا ، خير له من الدنيا وما فيها !!

على استقى من منبع النبوة ، وتربى بخلق النبوة ، فكان ربانى هذه الأمة .

أما معاوية فقد استقى من منبع أبى سفيان وهند ، وتربى على اكتساب المنفعة من أى سبيل ، ووجد عصرا سلطانه المنفعة ، وهدفه المنفعة ، وقانونه المنفعة ، فكان بحق رجل العصر . . بينما كان عصر المنافع هذا ينبذ أصحاب التقوى وينبو بأهل الورع ، ولهذا عذب العصر الشرس إمام المتقين وإمام المساكين .

وإذ رأى معاوية أن حملاته الوحشية قد سفكت من الدماء أكثر مما كان يحسب ، وروعت الناس وأسخطتهم عليه ، وأكسبته معرة ذبح الأطفال ، وسبى المسلمات ، وقتل الأبرياء ، ونهب الأموال ، وانتهاك الحرمات . . إذ رأى معاوية هذا ، اعتزم أن يكف عما أخذ فيه من فتك وغدر وفساد فى الأرض ، وأرسل إلى الإمام علىٌّ كتابا يطالبه فيه بالموادعة والمهادنة وقال : « أما إذا شئت فلك العراق ولى الشام ، ونكف السيف عن هذه الأمة ، ولا نهريق دماء المسلمين » . . !

ولم يكن لعلى حيلة بعد . .

فيمن من الرجال يجاهد فى سبيل الله معاوية وحزبه ، ويردهم إلى الجماعة ؟!

وتحكمت الظروف فى الحكمة فسكت على ، ولم يرد !!

وهكذا اضطر إلى ما ظل يرفضه منذ بويع له . . !!

ووجـدهـا الإمـام فرصـة لالتقاط الأنفاس ، ليحكم دستور الدولة ، ويقيم أمر القضاء ، ويجرى العدالة ، ويرعى حقوق الناس ، ويصلح شئون الرعية وينظم السياسة الشرعية . .

أزعجه اختلاف العلماء فى الفتيا ومصدر التشريع واحد فقال : « ترد على أحدهم

القضية فيحكم فيها برأيه ، ثم ترد تلك القضية بعينها على آخر فيحكم فيها بخلافه ، ثم يجتمع القضاء بذلك عند الإمام الذى استقضاهم (أى الخليفة الذى ولاهم القضاء) فيُصَوِّب آراءهم جميعا ، وإلههم واحد ! ونبيهم واحد ! وكتابهم واحد ! أفأمرهم الله تعالى بالاختلاف فأطاعوه ؟! أم نهاهم عنه فعصوه ؟! أم أنزل عليهم دينا ناقصا فاستعان بهم على إتمامه ؟ أم كانوا شركاء فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى ؟ أم أنزل الله سبحانه دينا تاما فقصر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فى تبليغه وأدائه ، والله سبحانه يقول : ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ وقال : ﴿ وفيه تبيان لكل شىء ﴾ وذكر أن الكتاب يصدق بعضه بعضا ، وأنه لا اختلاف فيه فقال سبحانه : ﴿ ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا ﴾ . وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق ، لا تقضى عجائبه ، ولا تكشف الظلمات إلا به » .

وفى ذلك العصر المضطرب ، كان الرجل يمسى مؤمنا بمبادىء على ، ويصبح متطلعا للحاق بمعاوية ، ويروح فى حال ، ويغدو فى حال ! وفى هذا المضطرب تختلط الأشياء ، وقد وجد الإمام الناس قابلين لتصديق أى شىء فى أى إنسان ، لكثرة ما كابدوه من تغيرات عجيبة فى أمور الحياة وقلوب الناس . . فقال الإمام ناصحا : « أيها الناس من عرف من أخيه وثيقة دين (أى متانة فى دينه وإيمانه) ، وسداد طريق ، فلا يسمعن فيه أقاويل الرجال . أما أنه قد يرمى الرامى وتخطىء السهام ، ويحيك الكلام (من حاك القول فى القلب أثرَّ فيه) ، وباطل ذلك يبور ، والله سميع وشهيد . أما أنه ليس بين الباطل والحق إلا أربع أصابع » فلما سئل فى ذلك جمع أصابعه ووضعها بين أذنه وعينه وقال : « الباطل أن تقول : سمعت ، والحق أن تقول : رأيت » .

فسألوه : « ما العمل : أيسكتون ؟ » فقال : « لا خير فى الصمت عن الحكم ، كما أنه لا خير فى القول بالجهل ، بل يستنبطون من كتاب الله وسنة رسوله » .

ثم سئل عن التوحيد والعدل فقال : « التوحيد ألا تتوهمه (يعنى الله تعالى ، لأنك تحدده بوهمك) والعدل ألا تتهمه » .

* * *

ولكن الإمام قد سئم كل شىء . . ها هو ذا يرغم بعد ما سال طوفان من دم المسلمين على قبول ما رفضه أول الأمر ـ أن يستقل معاوية بالشام ، ويضم إليه مصر !! . . وهكذا تتمزق الدولة الواحدة لأول مرة فى الإسلام !! . . والإمام الذى جاهد من أجل وحدة الأمة مقهور ، بلا حيلة ، ولا حول !!

وتمنى لو أن الله تعالى قبضه فأراحه من هؤلاء الرجال الذين ابتلى بهم ! إذن لأمن الغدر والكيد ، وسفاهة السفهاء ، وتكبر الحمقى والجبارين ، وكذب الفجار ، وتخاذل الأنذال !!

وإذن لاستراح من خيانة الأصدقاء ، وسوء مكر الأعداء !!

يا رسول الله صلى الله عليك وعلى آلك . . لقد وعدتنى يوما بالشهادة . . ألم يحن الوقت بعد . . فاتتنى الشهادة فى سبيل الله فى بدر وأحد والخندق وخيبر ، وفى كل أيامك المجيدة ، أيام كنت تقودنا لنصنع بوهج السيوف فجر الحياة الرائعة العذبة القادمة ، ونورنا بين أيدينا ومن خلفنا وعن اليمين وعن الشمال . . ؟! أسفاه !! ما بال هذه الأسياف اليوم ؟! . . واحزنا ! إنما يصنع وهجها غسق الزمن السعيد ، زمن الحق والحقيقة والعدل والمساواة واحترام الإنسان !! أيغرب هذا كله فى مستنقع الفتنة ؟! . . لا كانت الحياة إذن . . فيم أنت أمير المؤمنين يا على إن لم تنصر الحق ، وتدفع الباطل ؟!

وصمم الإمام على أن يصوغ قواعد الحكم ويعلمها للناس قبل أن يفارق دنياه لتكون من بعده دستورا متكاملا للسياسة الشرعية ، يستنبط أحكامه من الكتاب والسنة .

وعاد يعظ الناس ويعلمهم أمور الدين . . وينفث حسراته على تفرق الأمة . قال :
« أما بعد ، فإن الدهر لم يقصم جبارى دهر قط ، إلا بعد تمهيل ورخاء ، ولم يجبر عظم أحد من الأمم إلا بعد أزل (أى الشدة) وبلاء ، وفى دون ما استقبلتم من عتب (شدة) ، وما استدبرتم من خطب معتبر ! وما كل ذى قلب بلبيب ، ولا كل ذى سمع بسميع ، ولا كل ذى نظر ببصير ، فيا عجبا ! وما لى لا أعجب من خطأ هذه الفرق على اختلاف حججها فى دينها !؟ لا يقتصون أثر النبى ، ولا يقتدون بعمل وصى ، ولا يؤمنون بغيب ، ولا يعفون عن عيب ، يعملون فى الشبهات ، ويسيرون فى الشهوات ! المعروف عندهم ما عرفوا ، والمنكر ما أنكروا ! مفزعهم فى المعضلات إلى أنفسهم ، وتعويلهم فى المبهمات على آرائهم ، كل امرىء منهم إمام نفسه ، قد أخذ منها ما يرى بعرى وثقات (جَمع عروة وثقى) وأسباب محكمات ! » ثم قال : « . . ألا وإن الدنيا دار لا يسلم منها إلا فيها (من أراد السلامة من محنتها فليهيىء وسائل النجاة وهو فيها) ، ولا ينجى بشىء كان لها (أى عمل يقصد به الدنيا) : ابتلى الناس بها فتنة ، فما أخذوه منها لها أخرجوا منه وحوسبوا عليه ، وما أخذوه منها لغيرها قدموا عليه وأقاموا فيه ، وإنها عند ذوى العقول كفىء الظل ، بينا تراه سابغا حتى قلص ، وزائدا حتى نقص » .

ثم أخذ يشرح للناس معانى آيات القرآن ويقول لهم : « اسألونى » .

سأله رجل عن معنى الآية الكريمة : ﴿ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان معذبهم وهم يستغفرون ﴾ فقال كرم الله وجهه : « كان فى الأرض أمانان من عذاب الله ، وقد رفع أحدهما فدونكم الآخر فتمسكوا به . أما الأمان الذى رفع فهو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . وأما الأمان الباقى فالاستغفار ، وقد عجبت لمن يقنط ومعه الاستغفار !! » .

وسئل عن معنى قوله تعالى : ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾ . فقال : « إن قولنا : ﴿ إنا لله ﴾ إقرار على أنفسنا بالملك (أى العبودية لله تعالى) ، وقولنا : ﴿ وإنا إليه راجعون ﴾ إقرار على أنفسنا بالهُلك (أى الهلاك) » . .

وسكت قليلا ثم قال : « لا يترك الناس شيئا من أمر دينهم لاستصلاح دنياهم إلا فتح الله عليهم ما هو أضر منه » .

واستمر : « لقد علق بنياط هذا الإنسان بضعة هى أعجب ما فيه (نياط : على وزن كتاب ، عرق معلق به القلب) وذلك القلب : له مواد من الحكمة وأضداد من خلافها : فإن سنح له الرجاء أذله الطمع ، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن عرض له الغضب اشتد به الغيظ ، وإن أسعده الرضا نسى التحفظ ، وإن ناله الخوف شغله الحذر ، وإن اتسع له الأمن استلبته الغرّة (يعنى الغفلة)، وإن أفاد مالا أطغاه الغنى ،وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع ،وإن عضته الفاقة شغله البلاء ، وإن جهده الجوع قعد به الضعف ، وإن أفرط به الشبع كظته (آلمته) البِطْنة (امتلاء البطن حتى يضيق النفس) » .

وسكت الناس قليلا ، ثم انهالوا عليه يسألونه ، وشعر أن الناس فى حاجة إلى كثير من النصح ، وإن كثيرا من العادات التى اكتسبوها فى حاجة إلى تغيير ، ليصح المجتمع كله . . فقال : « لو قد استوت قدماى من هذه المداحض (المزالق ، يعنى الفتن والحروب التى استهلكت وقته منذ بويع) لغيرت أشياء ! . . » .

ووجد أن الطمع الدنيوى هو أخطر ما ابتلى به الناس ، فقال : « إن الطمع مورد غير مصدر (من ورده هلك فيه ولم يصدر عنه) ، وضامن غير وفى ، وربما شرق شارب الماء قبل ريه (قبل أن يرتوى به) ، وكلما عظم الشىء المتنافس عليه عظمت الرزية لفقده ، والأمانى تعمى أعين البصائر ، والحظ يأتى من لا يأتيه » .

وجاءه أن أقواما ثاروا عليه فى بعض الأمصار البعيدة ، فأرسل إلى عامله على ذلك المصر ، يأمره بأن يدعوهم إلى الطاعة بالحكمة والموعظة الحسنة : « فإن عادوا عادوا إلى الطاعة فذلك الذى نحب ، وإن توافت الأمور بالقوم إلى الشقاق والعصيان ، فانهد (انهض) بمن أطاعك إلى من عصاك ، واستعن بمن انقاد معك عمن تقاعس عنك ، فإن المتكاره (المتثاقل كراهية للحرب) مغيبه خير من مشهده ، وقعوده أغنى من نهوضه » .

وعاد الناس يسألونه .

سألوه ما معنى قوله تعالى : ﴿ ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر ؟ ﴾ فقال : « كم أكلت الأرض من عزيز جسد وأنيق لون ، كان فى الدنيا غذى (يتغذى) ترف ، وربيب شرف ، يتعلل بالسرور فى ساعة حزنه ، ويفزع إلى السلوة إن مصيبة نزلت به . . فبينما هو يضحك إلى الدنيا وتضحك الدنيا إليه فى ظل عيش غفول ، إذ وطىء الدهر به حَسَكه (نبات فيه شوك قوى) ، ونقضت الأيام قواه ونظرت إليه الحتوف من كثب . . . وإن للموت لغمرات . . » .

وسألوه عن معنى قوله تعالى : ﴿ رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله ﴾ . فأجاب : « إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء القلوب (والذكر الحق هو استحضار الصفات الإلهية) تسمع به بعد الوقرة (ثقل السمع) ، وتبصر به بعد العشوة (ضعف البصر) ، وتنقاد به بعد المعاندة ، وما برح لله ـ عزت آلاؤه ـ فى البرهة بعد البرهة وفى أزمان الفترات (فترات الخلو من الأنبياء) عباد ناجاهم فى فكرهم ، وكلمهم فى ذوات عقولهم ، فاستصبحوا (أضاءوا المصابيح) بنور يقظة فى الأبصار والأسماع والأفئدة ، يذكرون بأيام الله ، ويخوفون مقامه ، بمنزلة الأدلة فى الفلوات ، من أخذ القصد حمدوا له طريقه (القصد هو الاعتدال) ، وبشروه بالنجاة ، ومن أخذ يمينا أو شمالا ذموا إليه الطريق ، وحذروه من الهلكة ، وكانوا كذلك مصابيح فى الظلمات ، وأدلة تلك الشبهات ، وإن للذكر لأهلا أخذوه من الدنيا بدلا ، فلم تشغل تجارة ولا بيع عنه ، يقطعون به أيام الحياة ، ويهتفون بالزواجر عن محارم الله فى أسماع الغافلين ، ويأمرون بالقسط (العدل) ويأتمرون به ، وينهون عن المنكر ويتناهون عنه ، فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة وهم فيها فشاهدوا ما وراء ذلك ، فكأنما اطّلعوا على غيوب أهل البرزخ فى طول الإقامة فيه . . فلو مثلتهم لعقلك فى مقاومهم (مقاماتهم) المحمودة ، ومجالسهم المشهودة ، وقد نشروا دواوين أعمالهم ، وفرغوا لمحاسبة أنفسهم على كل صغيرة وكبيرة أمروا بها فقصروا عنها ، أو نهوا عنها ففرطوا فيها . . لرأيت أعلام هدى ، ومصابيح دجى ، قد حفت بهم

الملائكة ، وتنزلت عليهم السكينة ، وفتحت لهم أبواب السماء ، وأعدت لهم مقاعد الكرامات ، فى مقام اطَّلع الله عليهم فيه فرضى سعيهم ، وحمد مقامهم . . » .

فلما انتهى من كلامه ، سكت الناس ، فقال : « اسألونى قبل ألا تسألونى ! » .

فبكى الناس ، وأدركوا أن الإمام يشعر بدنو أجله !

وسألوه عن قوله تعالى : ﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ﴾ قال : « يا أيها الإنسان ما جرأك على ذنبك ، وما غرك بربك ، وما أنسك بهلكة نفسك ؟ أليس من ذلك بُلول ؟ (مِنْ بَلَّ من مرضه بُلُولاً أى شفاء) أليس من نومك يقظة ؟ أما ترحم من نفسك ما ترحم من غيرك ؟ فربما ترى الضاحى بالشمس فتظله (الضاحى بالشمس أى الماشى فى وهجها) أو ترى المبتلى يمض جسده ، فتبكى رحمة له (يمض جسده أى ينهكه إنهاكا شديدا) ، فما صبرك على دائك ، وجلدك بمصائبك . . فكن لله مطيعا ، وتمثل فى حال توليك عنه إقباله عليك : يدعوك إلى عفوه ، ويتغمدك بفضله ، وأنت متولٍّ عنه إلى غيره . فتعالى من قوىٍّ ما أكرمه ! وتواضعت من ضعيف ما أجرأك على معصيته ، وأنت فى كَنَف ستره مقيم ، وفى سعة فضله متقلب ، فلم يمنعك فضله ، ولم يهتك عنك ستره ! ! . . فما ظنك به لو أطعته ؟ وأيم الله لو أن هذه الصفة كانت فى متفقين فى القوة ، متوازنين فى القدرة ، لكنت أول حاكم على نفسك بذميم الأخلاق ، ومساوىء الأعمال ! وحقا أقول ما الدنيا غرتك ولكن بها اغتررت . . وإن السعداء بالدنيا غداً هم الهاربون منها اليوم » .

ثم رفع يديه إلى السماء وأخذ يدعو ، والناس وراءه يرددون دعاءه : « اللهم صن وجهى باليسار (الغنى) ، ولا تذل جاهى بالإقتار ، فأسترزق طالبى رزقك ، وأستعطف شرار خلقك ، وأبتلى بحمد من أعطانى ، وأفتن بذم من منعنى ، وأنت من وراء ذلك كله ولىّ الإعطاء والمنع ، إنك على كل شىء قدير » .

* * *

ولاحظ أصحابه اكتئابه فحاولوا مواساته ، فقال لهم كرم الله وجهه مُهوِّنا من شأن ما يعانيه : « . . ينحدر عنى السيل ، ولا يرقى إلىّ الطير . إنى لمَّا نهضت بالأمر (يعنى الخلافة) نكثت طائفة ، ومرقت أخرى ، وقسط (ظلم وبغى) آخرون . كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول : ﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين ﴾ ؟ والله لقد سمعوها ووعوها ، ولكنهم حَليت الدنيا فى

أعينهم ، ورواقهم زبرجها (زينتها) ، أما والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة لولا حضور الحاضر (من حضر البيعة من المهاجرين والأنصار) ، وقيام الحجة بوجود الناصر ، وما أخذ الله به على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم (الكظة امتلاء البطن من الطعام) ، ولا سغب مظلوم (السغب : الجوع الشديد) ، لألقيت حبلها على غاربها (أى تركتها) » .

وسأله رجل عن الأمير البرّ والأمير الفاجر فقال : « أمّا الإمرةُ البرّة فيعمل فيها التقى ، وأما الإمرة الفاجرة فيتمتع فيها الشقى ، إلى أن تنقطع مدته وتدركه منيته » .

وأراد رجل من أهل الكوفة أن يخفف عنه ، وأن يواسيه ، فقال : « ما كان أحرانا أن نغزو بلادا جديدة وننشر دين الله إلى أقصى الأرض لو لم يكفر أهل الشام » فقال الإمام : « لا تقولوا كفر أهل الشام ، بل قولوا فسقوا وظلموا » فقال رجل من الأنصار : « يا أمير المؤمنين والله ما قاتلْنا أهل الشام إلا على طمع الدنيا ، وما قاتلناهم معك إلا على الآخرة ، فكنا نتنادى فى صفين : يا معشر الأنصار أصدقوهم الضرب ، فإنهم قوم يقاتلون على طمع الدنيا وأنتم قوم تقاتلون على الآخرة » .

ونال أقوام من طلحة تقربا إلى الإمام ، فنهرهم ، ذكرهم بأنه لما وجد طلحة فى القتلى معفرا يوم الجمل ، أجلسه واعتنقه ، ومسح التراب عن وجهه وبكى عليه !

وقال سفيان الثورى للناس : « لما انقضى يوم الجمل خرج على بن أبى طالب فى ليلة ذلك اليوم ومعه مولاه وبيده شمعة يتصفح وجوه القتلى ، حتى وقف على طلحة بن عبيد الله فى بطن واد متعفرا ، فجعل يمسح الغبار عن وجهه ويقول : أعزز علىّ يا أبا محمد أن أراك متعفرا تحت نجوم السماء وفى بطون الأودية ، إنا لله وإنا إليه راجعون :

شفيت نفسى وقتلت معشرى إليك أشكو عُجرى وبُجرى

(العيوب والأحزان ، وما أبدى وما أخفى) .

ثم كرر الإمام ما كان يقوله كلما ذكروا له يوم الجمل :

« والله إنى لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير من الذين قال الله فيهم : ﴿ ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين ﴾ ، وإذا لم نكن نحن فمن هم ؟! » .

* * *

وفى الحق أن كل ما عانته الأمة منذ بغى معاوية بن أبى سفيان على أمير المؤمنين الإمام على بن أبى طالب ، يرجع إلى تغير طبيعة العصر ، وإلى الخلاف الشاسع بين طبع كل من الرجلين :

علىٌّ صارم حاسم كالسيف لا يقبل المهادنة أو المساومة فى الحق ، ولا التنازل عما يعتقد أنه حق مهما يخسر .

أما معاوية فيحسب حساب الكسب والخسارة ! فالحياة عند معاوية صفقات ، يبرم منها وينقض ، ويساوم ، ويتنازل ، ويهادن بقدر ما تدر من ربح أو تجلب من خسارة !

والحياة عند علىٍّ موقف ، لا يبالى إذا اتخذه عن اقتناع وإيمان بما يكسب أو يخسر ، ما دامت الحقيقة هى التى تربح ، وما دام العدل هو الذى يُقضى . . وما دام ينصر بموقفه حقا ويدفع باطلا !!

وما أبعد الفرق فى هذه الحياة بين الموقف والصفقة ! . . فصاحب الصفقة يعطى أقل مما يأخذ ، وصاحب الموقف قد يعطى كل شىء ويفقد كل شىء حتى الحياة نفسها ، ولا يفكر فيما يأخذ أبدا ، بل يفكر فيما يفيد القضية التى يدافع عنها . . !

معاوية همُّه الدنيا وما تفىء به على الحاضر ، وعلىٌّ همه الآخرة وما يكون عليه المستقبل .

وإن الإمام ليعرف ما صنعته النعرة الجاهلية والعصبية القبلية . . وهو إن ينس لا ينس يوم جاءه زعماء بنى أمية ، فما حدثوه عن قتلة عثمان كما أجلبوا فيما بعد ، ولكنهم قالوا له متلطفين : « يا أبا الحسن لقد وترتنا جميعا (يشيرون إلى قتل آبائهم وكبارهم فى معركة بدر وغيرها) . . ونحن نبايعك على أن تضع عنا ما أصبناه أيام عثمان » . . ما كانوا يريدون منه إلا الإبقاء على أموالهم وضياعهم . . !

ولكنه ما كان ليساوم أو يهادن فى دينه ولا فى حقوق الأمة !! وكان يرى أن كل ما أصابوه أيام عثمان ، إنما أصابوا به العدل نفسه فى مقتل ! فكان يجب أن يرده الإمام الجديد إلى بيت المال ليقسمه بالسوية بين المسلمين بلا تفرقة . . وإلا فلماذا قبل الخلافة إن لم يكن من أجل إقامة العدل !!

أما معاوية فقد كانت له سياسته التى يجذب بها رؤساء القبائل والعشائر : الإغداق

عليهم ، وبذل الوعود بالمناصب الكبرى ، وإغراقهم فيما يثير فيهم الإحساس بالكبرياء ، وإتخامهم من ملذات الحياة الدنيا . .

فعلى ومعاوية طرفا نقيض فى كل ما يأخذان وما يدعان من صغار الأمور وعظائمها . .

فلكل واحد من الرجلين طبيعة تشى بهواجس النفس ، وخفقات القلب ، وخطرات العقل ، واتجاه الضمير والخطوات !

وهى طبيعة تنبىء عما عسى أن يفعله كل منهما فى مواجهة ما تطرحه عليه الحياة الجديدة التى فتنت الكثيرين . . !

وهى طبيعة صاغتها النشأة ، وصهرتها البيئة ، وثقفتها تقواه ، والجهاد فى سبيل الله .

فى بيت الله الحرام ولد على ، وفى حجر النبوة نشأ . .

بيئة هى الطهر ، والنقاء ، والوضوح ، والأمانة ، والصدق ، والقداسة !!

ربته الطاهرة خديجة سيدة نساء العالمين ، فأنبتته نباتا حسنا ، وكفله سيد الخلق أجمعين ، فأدبه منذ سنواته الخضر بآداب الإسلام . . فكان أدب علىٌّ من أدب الرسول ﷺ ، وأدب الرسول هو ما أدبه به ربه فأحسن تأديبه ، فكان خلق علىٍّ هو القرآن . .

وهكذا قُدِّر لعلى أن ينزهه الله منذ نعومة أظفاره عن الشرك بالله ، وكرم الله وجهه عن عبادة الأصنام ، والسجود لها ، وصاغ القرآن الكريم والسنة الشريفة مشاعره وعقله وأحاسيسه وثقافته .

وشكله حب الفداء والإيثار وهو فى مطلع الشباب ، فافتدى الرسول بنفسه حين قررت قريش قتله ، فنام فى فراشه . . !

وإذن فقد نشأ علىٌّ فى حجر النبوة ، وتربى بهديها الربانى ، ثم صهره اضطرام المعارك ، وهو يجاهد الكفار فى سبيل الله !

أما معاوية فقد نشأ فى بيت أبى سفيان ، رأس الكفر فى الحجاز ، وربته أمه هند بنت عتبة التى عرفها المسلمون باسم آكلة الأكباد ، منذ خرجت فى معركة أحد تقود نساء المشركين ، ومعها وحشى الذى وعدته بكل ما يغرى مثله إن هو قتل حمزة أسد الله فقتله

قتلة ما كانت تعرفها العرب !! كان حمزة يفعل الأفاعيل بالمشركين يوم أحد . . فلما انجلى عنه الغبار دلت هند وحشيا على مكانه ، فهز رمحه وقذفه على ظهر حمزة ، فسقط سيد الشهداء . ولم تتركه هند حتى استخرج لها وحشى الكبد من جوف الشهيد العظيم ، فمضغت الكبد وتجرعت الدم !!

وتربى معاوية منذ نشأ ، فى قصر ضخم يملكه رجل من أكبر أغنياء مكة ، يعمر لياليه بالمتاع ، وما من شىء يعنيه إلا قتل محمد وصحبه ، وهدم الإسلام قبل أن يرتفع بنيانه ، وتتوطد أركانه ! . . كلا الوالدين يملأ قلبه الضغن وطلب الثأر ، وخوف ضياع المكانة ، وفقدان السكينة إذا انتصر محمد ، وأتباع محمد . .

حتى إذ أسلم معاوية وأبوه وأمه وغيرهم من الطلقاء حرص أبو سفيان شيخ بنى أمية على أن تكون له ولقومه مكانة فى الدولة الجديدة، بعد أن دالت دولتهم . . وكان بنو هاشم هم أقرب قريش إليهم فكلهم من بنى عبد مناف ، فلما بويع أبو بكر رضى الله عنه بعد أن قبض الرسول ﷺ ، طاف أبو سفيان ببنى عبد مناف وحاول أن يستفز صديقه العباس للبيعة لعلى لتكون الخلافة فى بنى عبد مناف ، ولكن عليا أبى ، واتهم أبا سفيان باثارة الفتنة !!

ثم لم يرق لبنى أمية أن يتولاها عمر رضى الله عنه وهو ليس من بنى عبد مناف ، ولكن أبا سفيان كان يعرف شدة عمر فأذعن له ! فلما استعمل عمر على دمشق معاوية بن أبى سفيان مكان أخيه الذى مات ، قدم معاوية على أمه هند فنصحته : « يا بنى ، إنه قلما ولدت حرة مثلك ! وقد استعملك هذا (تعنى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه) ، فاعمل بما وافقه ، أحببت ذلك أم كرهته » .

ثم دخل معاوية على أبيه ، فقال له : « إن هؤلاء الرهط من المهاجرين والأنصار سبقونا وتأخرنا عنهم ، فرفعهم سبقهم ، وقصر بنا تأخرنا ، فصرنا أتباعا وصاروا قادة ، وقد قلدوك جسيما من أمرهم ، فلا تخالفن أمرهم ، فانك تجرى إلى أمد لم تبلغه ، ولو قد بلغته لنوفست عليه » . . !

على هذه التعاليم والقيم التى يؤمن بها أبو سفيان وهند نشأ معاوية . .

أما علىٌّ فقد نشأ ونما على أن المروءة هى النصيحة فى الحق ، لا الموافقة على الخطأ ، وإن الرياء شرك بالله ! وكان كرم الله وجهه يعظ الناس بقوله : « رأيت رسول الله ﷺ يبكى

فسألته . ما يبكيك ؟ قال : إنى تخوفت على أمتى الشرك ، أما أنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا . ولكنهم يراءون بأعمالهم » .

وما تعلم علىٌّ أنه قلما ولدت مثله حرة ، كما تعلم معاوية من أمه هند ، بل علم الرسول ﷺ عليا أنه لا فضل لعربى على أعجمى ولا لأعجمى على عربى إلا بالتقوى ، وصاغت أسلوب حياته الآية الكريمة : ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ ، فشكلت هذه الآية مكارم أخلاقه ، وأساسها التقوى .

فما بالإمام من حرص على الإمارة بجاهها وسطوتها وسلطانها ، ولكن ما يكابده حقا هو حرص الإمامة على صياغة مجتمع فاضل على أساس وطيد من العدل ، وفى ظل ظليل من التراحم . . من أجل ذلك فهو يناضل لكى يغرس قيما نبيلة شريفة تثمر فى نفوس المسلمين ، وتزدهر بالفضائل ، لا أن يؤسس ملكا شامخا عضوضاً يمنحه الجاه والعزة والكبرياء . . فهو يعرف أن الكبرياء والعزة لله جميعاً . . !

كان يخصف نعله ذات يوم قبل معركة الجمل ، ودخل عليه صفيه ووزيره وتلميذه عبد الله بن عباس ، فعجب ابن عباس من أن يخصف أمير المؤمنين نعله بنفسه وهو يحكم نصف الأرض التى يعرفها البشر حينئذ ، فقال لابن عباس: « ما قيمة هذه ؟ » قال : « لا قيمة لها » فقال الإمام : « والله لهى أحب إلى من إمرتكم إلا أن أقيم حقا أو أدفع باطلا » .

تلك كانت قضيته ورسالته : إقامة الحق ودفع الباطل . .

أما معاوية فكانت قضيته هى الاستيلاء على السلطة !! . . لهذا كان لمعاوية حرس لا يفارقه حتى فى الصلاة . . أما على فقد رفض أن يتخذ له حرسا ، ورأى فى ذلك مظهراً من مظاهر الملك ، وهو إمام !!

وثمت أوجه أخرى للاختلاف بين على ومعاوية :

فعلىٌّ إمام المساكين يضرب لهم مثلا فى الصبر والاحتمال ، فهو زاهد ناسك ، يحب من اللباس ما قصر ومن الطعام ما خشن ، فإن شعر بزهو يتسلل إلى نفسه قمعه بإذلال باطنه لله ، واخشيشان ظاهره للناس ، فهو كما قال عنه الرسول ﷺ مخشوشن فى الله !

المساكين الذين ارتضوا عليا إماما ورضى بهم أصحابا وأتباعا ، هم الذين انقطعت بهم أسباب الرزق لعلة أو نحوها ، أو لم يجدوا عملا ، فوجب على ولى الأمر أن يكفيهم

مطالب الحياة . وأن يوفر لهم المقام الكريم فى هذه الدنيا ، وأن يوجههم إلى ما يتقنونه ويفيدون به الناس كطلب العلم أو التفرغ له ، إن أعياهم النهوض بالأعمال البدنية . . وإن لم يجد ولى الأمر فى بيت المال ما يسد حاجتهم ، وما يبلغ بهم حد الكفاية ، وجب عليه أن يفرض فى أموال الأغنياء حقا لهم ، ففى أموال الأغنياء حقوق غير الزكاة ، وإذا احتاجت الأمة فلا مال لأحد . . وقد لعن الله أقواما فى الغابرين لأنهم كانوا يصنعون بأموالهم الخاصة ما يشاءون لا ما يقتضيه الصالح العام ، ولا ينفقون أموالهم فى سبيل الله ، والإنفاق فى سبيل الله ، هو الإنفاق على مصالح المجتمع كله ، من جهاد لتوفير أمن الأمة ، وإقامة ما يقتضيه صالح الأمة من مرافق فى الصناعة والزراعة والتعليم والصحة والتثقيف ونحو ذلك . . والمسلمون يجب أن يعتبروا بقصص الأولين التى قصها الله تعالى فى القرآن ، فما أنزلها الله عز وجل إلا عبرة لأولى الألباب . . أفلم يسمعوا الله تعالى يقول عن قوم شعيب ؟ أفلم يعرفوا كيف عاقبهم الله بظلمهم هذا . . ؟

ولعل هذا المنحى فى التفكير والسيرة ، هو الذى كان يستفز ضد الإمام علىٍّ أكثر الأثرياء وطلاب الثراء ، وأهل المطامع والأهواء .

وهذا التفكير نفسه هو الذى كان يجذب إليه أهل التقوى ، والورعين والفقراء ، والمساكين . .

وزهد علىٍّ زهد لم يكن يقوى عليه كثير . . وكان معاوية على النقيض منه . . ما كان من الزاهدين . . فهو فتى مترف ، يلبس كل يوم حلتين ثمينتين ، ويتحلى بالنفائس ، وهو يحب الطعام الفاخر مهما يتكلف ،وكان يتخير من أنواع الطيور والأحياء المائية ما يجلب إليه من أماكن بعيدة ، وعلى مائدته من الحلوى وحدها عشرة أصناف . . من أجل ذلك كان بعض المنتسبين إلى العلم يقولون : « الطعام مع معاوية أشهى والصلاة خلف علىٍّ أزكى » وهكذا كانوا يتنقلون فى صفين بين مائدة معاوية ومصلى على . . !!

وقد انتهى النهم بمعاوية إلى المرض بأحد أمراض التخمة . . ! وترهل وازداد ترهلا يوما بعد يوم فعجز عن القيام طويلا ، فكان يخطب وهو جالس ، فكان أول من جلس فى خطبة منبرية .

معاوية يمرض من التخمة لكن على يتحرج من أن يشبع وفى الأمة جائع واحد ، ويبكى للمحرومين ويقول : « اضرب بطرفك حيث شئت من الناس ، هل تبصر إلا فقيراً يكابد فقراً ، أو غنياً بدل نعمة الله كفرا » .

أجل . . هكذا كان الزمان . . غنى فاحش وبؤس مدقع ، وكان واجب أمير المؤمنين خلال هذه الفوضى أن يقيم العدل ويدفع الباطل . . ولقد كان علىٌّ كرم الله وجهه يؤنب بخلاء الأغنياء بقوله : « فلا أموال بذلتموها للذى رزقها ، ولا أنفس خاطرتم بها للذى خلقها . تكرمون بالله على عباده (أى تصبحون ذوى كرامة بنسبتكم للإيمان بالله تعالى) ولا تكرمون الله فى عباده ! فاعتبروا بنزولكم من كان قبلكم » . . وكان يكتب لمن يحس فيه التطلع إلى الدنيا من عماله : « أما بعد ، فإن المرء ليفرح بالشىء الذى لم يكن ليفوته ، ويحزن على الشىء الذى لم يكن ليصيبه ، فلا يكن أفضل ما نلت فى نفسك من دنياك بلوغ لذة أو شفاء غيظ ، ولكن إطفاء باطل أو إحياء حق . . ليكن سرورك بما قدمت ، وأسفك على ما خلفت ، وهمك فيما بعد الموت » .

ويكتب لعامل آخر : « أما بعد ، فإنك لست بسابق أجلك ، ولا مرزوق ما ليس لك ! واعلم بأن الدهر يومان : يوم لك ، ويوم عليك ، وإن الدنيا دار درك ، فما كان منها لك أتاك على ضعفك ، وما كان منها عليك لم تدفعه بقوتك ! » .

وكان يعظ أصحابه بقوله : « . . اعلموا أن ما نقص من الدنيا وزاد فى الآخرة خير مما نقص فى الآخرة وزاد فى الدنيا ، فكم من منقوص رابح ومزيد خاسر . إن الذى أمرتم به أوسع من الذى نهيتم عنه . وما أحل لكم أكثر مما حرم عليكم ، فذروا ما قل لما كثر ، وما ضاق لما اتسع » .

وبهذا الثراء الروحى الضخم ، وبهذه التقوى التى تمنح صاحبها قوة خارقة كان على يستقبل صروف الدهر ، ويستخلص منها العبرة ، ولا يأسى على ما يستطيع دفعه ، ويستقصى حكمة الله ووجه الخير فيما ينوبه من نائبات . . ضاق بعض أهل المدينة بالتسوية فى القسمة بينهم وبين العامة وهم الرؤساء ، فلحقوا بمعاوية الذى كان يميز فى القسمة ويؤثر الرؤساء والأقوياء وأهل السطوة . فأرسل سهل بن حنيف إلى على يخبره بأمر الهاربين من دينهم إلى دنيا معاوية ، فأجابه الإمام : « أما بعد ، فقد بلغنى أن رجالا من قِبَلِكَ (أى من عندك) يتسللون إلى معاوية ، فلا تأسف على ما يفوتك من عددهم ، ويذهب عنك من مددهم ، فكفى لهم غيا ولك منهم شافيا فرارهم من الهدى والحق ، وإيضاعهم (إسراعهم) إلى العمى والجهل ، إنما هم أهل دنيا مقبلون عليها ، ومهطعون (مسرعون) إليها ، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه ، وعلموا أن الناس عندنا فى الحق أسوة (سواء) فهربوا إلى الأثرة ، فبعدا لهم وسحقا ! » .

ويروى الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه فى حديثه عن نهم معاوية وإسرافه على نفسه فى الأكل ، « قال ابن عباس : كنت ألعب مع الغلمان فإذا رسول الله ﷺ قد جاء فقلت : ما جاء إلا إلىّ ، فاختبأت على باب ، فجاءنى ، فخطانى خطاة أو خطاتين ثم قال : اذهب فادع لى معاوية ـ وكان يكتب الوحى ـ فأتيت رسول الله فقلت : إنه يأكل . فقال : اذهب فادعه ، فقيل إنه يأكل . فأخبرته فقال فى الثالثة : لا أشبع الله بطنه . فما شبع بعدها ! » .

تربى معاوية على أن يبتغى مرضاة الناس : إما مرضاة أمير يخافه أو رعية يرجوهم !

فرق آخر بين على ومعاوية :

كان معاوية يقول لخصومه : « ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا . قد عرفت أنكم تفعلون ذلك ، ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم (لأحكم) » . وكان يقول : « إن السلطان ليغضب غضب الصبى ويأخذ أخذ الأسد » . أما على فكان لا يريد أن يقاتل أحدا ، وما قاتل إلا ليوطد أركان الدين ، وإلا لكى يأخذ الناس ما أتاهم به الرسول ، وينتهوا عما نهاهم عنه . ما قاتل إلا مضطرا مكرها دفاعا عن العدل ، ليقيم الحق ويدفع الباطل .

وكان على وهو أمير المؤمنين ، لا يغضب إلا لما يغضب له الصبور الحليم ، وكان يعاقب كما يعاقب الأب الرحيم الحكيم ! فهو يقول : « إذا قدرت فاذكر قدرة الله عليك ، وليكن عفوك شكرا لنعمته أن مكنك من عدوك » .

وهو شديد التواضع ، يقول لمن يفضله على غيره من الصحابة : « إن أنا إلا رجل من المسلمين » .

* * *

لم يعد العصر عصر نبوة ، ولا عصر خلافة راشدة ، فقد تغير الزمان والناس ! ! فإذا بالناس كما وصفهم أبو ذر رضى الله عنه : « كان الناس وردا بلا شوك ، فأمسوا شوكا بلا ورد ! » .

وأصبح التهادن أسلوب العصر وقانون التعامل بين الناس ، ولكنه ما كان ليهادن .

ولقد خسر الخلافة نفسها لأنه لم يهادن ، فعندما عرض عليه عبد الرحمن بن عوف البيعة على ألا يجعل أمرا من أمور المسلمين لأحد من عشيرة بنى هاشم رفض الشرط ، وقال

أنـه سيولى أمـور المسلمـين أصلح المسلمـين للأمر ، وأنهضهم بالعبء ، وأنفعهم للمسلمين ، سواء كان من بنى هاشم أم من غيرهم . .

وعندما اشترط عليه ابن عوف أن يبايعه على أن يسير على كتاب الله وسنة رسوله وسنة الخليفتين من بعده ، رفض علىٌّ الشرط ، لأنه رأى فى التقيد بسنة أبى بكر وعمر حرجا ، فهـذا التقيد تقييد لحريتـه فى الاجتهـاد واستنباط أحكام جديدة لوقائع قد تستحدث ، والعصر يتغير ويطرح على الفكر مسائل ومشاكل لم تطرح من قبل . . وما باله لا يجتهد وقد خالف أبا بكر وعمر فى بعض الفتيا ، فأخذا برأيه . . ؟!

من أجل ذلك لم يبايعه ابن عوف .

وبايع عثمان الذى قبل شروط ابن عوف جميعا ، ثم ما لبث أن جعل عشيرته من بنى أمية على رقاب الناس ، ومازالوا يظلمون الأمة ويخالفون سنة الرسول والشيخين من بعده ، حتى أثاروا الرعية على عثمان ، فاستغل المتطرفون من القراء تلك الأخطاء وحكموا على عثمان بالكفر ، ومخالفة القرآن ، وما قرأ أحد منهم القرآن إلا بفضل عثمان ، ثم نادوا بالبيعة لعلى ثم حكموا عليه من بعد بالكفر ، وما فهم أحد منهم القرآن إلا بفضل على وتلميذه عبد الله بن عباس ! !

وإنه لممض ومحزن حقا أن يصاب على بمعاوية ! ! فها هو ذا رجل تقى يسوس الناس بورع الزاهد ، ويضبط الأمور بحكمة الناسك ، ويحكم بالتقوى . . يواجه رجلا أدرك نهم الناس إلى الثراء والجاه واللذة ، فأشبع كل هذه النزعات والنزغات . .

رجـل واجـه الثـروة بالعـدل فى قسمتها بلا تمييز ، وآخر عرف أن رءوس الناس وخـاصتهم هم الـذين يقـودون العـامـة من عشـائرهم وقبائلهم ، فأغدق على الخاصة والرؤساء ، ليكسب ولاء العامة الأتباع ، وتم له ما أراد ! !

ولهذا كان الولاء لولاية على ولاء تقوى وورع وحب فى الله ، والولاء لمعاوية ولاء تطلع وطمع وحب للدنيا . . ! . . أما الذين والوا معاوية فقد ركبوا تيار عصرهم ، وأما أتباع على فقد كانوا يسبحون ضد التيار . .

•

كان العصر عصر مساومات ومهادنات وصفقات وثراء مقبل بلا حساب من خراج البلاد المفتوحة وجزيتها . .

وكان عصر مراوغات . . فراوغ معاوية وساوم ، وهادن ، وعقد الصفقات ، ووزع الثروات ، بما تفرضه روح العصر . أما الإمام على فوقف صامدا حاسما لا يساوم ولا يتنازل ولا يهادن فى الحق ، ولا يسكت عن باطل !

من أجل ذلك رفض من أول يوم نصيحة الذين أشاروا عليه بأن يقر معاوية على الشام ليحصل على بيعته ، وبأن يخص رؤساء القبائل والعشائر بعطاء أكبر ليضمن ولاء أتباعهم من العامة !

ورفض أن يقر الذين أثروا فى زمن عثمان على ما لا حق لهم فيه . . وطالبهم برد الأموال والضياع ، وإن كانوا قد تزوجوا بها النساء واشتروا الإماء ! بينما كان معاوية يمنح رؤساء القبائل ومن استرزق عنده من العلماء كما يشاء فهو يقطعهم أجود الأرض ، ويعطيهم فيجزل العطاء ، ويهبهم أجمل الإماء !!

وكان معاوية يفخر بسياسته ، ويزهو بأنها جذبت إليه كثيرين من أتباع على . . وكان على ينصح الناس أن يلتزموا جادة الحق ، وألا يرهبوا طرق الحقيقة إن خلت من سالكيها ، فالعقبى لهم !!

وفى الحق أن فى أتباع معاوية من استيقظ ضميره فلحق بعلى كمصقلة بن هبيرة الذى فر من على لأنه لم يستطع أن يؤدى ما عليه من ديون لبيت المال ثمن السبى الذى افتداه كما مر آنفا . فلما علم علىٌّ بهربه قال : « ماله فَعَل فِعْلَ السيد وفر فرار العبيد !؟ أما لو أنه أقام لأخذنا ما قدر عليه ، فإن أعسر أنظرناه (أمهلناه) ، وإن عجز لم نؤاخذه بشىء ! » وعاد مصقلة فارا من دنيا معاوية إلى دين على ، ففرح به وأثنى عليه .

ولكن بعض الذين فتنتهم الدنيا من أصحاب علىٍّ ضاقوا بما يعانون معه من خشونة العيش ، والشدة فى المال ، ففروا إلى طيبات الرزق ، والتميز والمتاع عند معاوية . .

ولكن لقد فضل الإمام أن يقسم المال بالسوية ، فيتساوى الناس فى سد حاجاتهم وفى بلوغ حد الكفاية ، بدلا من أن يخص عددا قليلا من رؤسائهم بالأموال الطائلة والعطاء الكبير ، ويترك الكثرة الكاثرة تعانى من الحاجة . . !

هكذا تعلم من رسول الله ﷺ .

وكان الإمام شديدا حاسما فى حساب عماله ، يأخذهم بالعنف إن اغتالوا حقا من حقوق المسلمين ، أو استأثروا دونهم بشىء . .

من أجل ذلك كان يتسرب من عماله إلى معاوية من فتنتهم الحياة الدنيا !

والإمام لا يجهل أن المال والبنين فتنة ، فقد سمع الله تعالى يقول : ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾ . . وهو يعلم أن الناس إلا من رحم الله قد زين لهم حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة !!

وكان الإمام يحب أن يعلم الرعية ، ويأخذها إلى الطريق المستقيم ، وكان فى ذلك يجابه رجلا يحب أن يداهن من رعيته أصحاب النفوذ على العامة ، وإن أخذوه إلى الطرق الملتوية . . !

ولقد فجع الإمام فى أحد عماله ، ممن اصطفاهم ليلوا بعض أمور الناس وكان هذا العامل مثالا للأمانة والصمود والحكمة وحسن السياسة ، وكان الإمام يثق به ويقربه ، غير أنه لم يطق الحرمان والشظف والاستمرار طويلا على نهج الإمام ، فأصاب شيئاً من بيت المال وزعم أنه حقه . . !

فكتب إليه الإمام مؤنبا ، وأنهى كتابه بقوله :

« كيف تسيغ شرابا وطعاما وأنت تعلم أنك تأكل حراما وتشرب حراما !؟ وتبتاع (تشترى) الإماء وتنكح (تتزوج) النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الأموال وأحرز بهم هذه البلاد ؟! فاتق الله وأدِّ إلى القوم أموالهم ، فإنك والله لئن لم تفعل وأمكننى الله منك لأعذرن إلى الله فيك . فوالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذى فعلت ما كانت لهما عندى هوادة ، ولما تركتهما حتى آخذ الحق منهما » .

فكتب إليه عامله : « أما بعد ، فقد بلغنى كتابك عن الذى أصبت من بيت المال ، ولعمرى إن حقى فى بيت مال الله أكثر من الذى أخذت . والسلام » .

فكتب إليه على : « أما بعد ، فإن العجب كل العجب منك ، إذ ترى لنفسك فى بيت مال الله أكثر مما لرجل من المسلمين !! وقد أفلحت إن كان تمنيك الباطل وادعاؤك ما لا يكون ينجيك من الإثم ، ويحل لك ما حرم الله عليك . عمرك الله ! إنك لأنت البعيد (يعنى البعيد عن الصواب) ، قد بلغنى أنك اتخذت مكة وطنا ، وضربت بها عطنا (مرابض الغنم والإبل والأنعام) تشترى المولدات من المدينة والطائف ، وتختارهن على عينك ، وتعطى بهن مال غيرك ، وإنى أقسم بالله ربى وربك رب العزة ، ما أحب أن

ماأخذت من أموالهم حلالا أدعه ميراثا لعقبى ، فمابال اغتباطك به تأكله حراما؟ اضح رويدا (أى لا تعجل فى ذبح الأضحية ، وهو مثل يضرب فى النهى عن العجلة فى الأمر) فكأنك قد بلغت المدى ، وعرضت عليك أعمالك بالمحل الذى ينادى فيه بالحسرة ، ويتمنى المضيع التوبة ، والظالم الرجعة » .

فكتب إليه ذلك العامل : «والله لئن لم تدعْنى من أساطير لأحملن هذا المال إلى معاوية يقاتلك به ! » .

إلى هذا المدى أفسدت الأموال الناس ! . وتلك هى روح العصر !! صدق رسول الله حين قال أنه لا يخشى الفقر على أمته من بعده ، وإنما يخشى إقبال الدنيا عليها ، وكثرة المال ، فيتحاسد الناس ويتفرقوا بعد أن أصبحوا بنعمة الله إخوانا . . ! وها هو ذا رجل تقى من أصحاب على وثقاته ، يتأول نصوص الشريعة كالمرتزقة من أصحاب معاوية التماسا للمنفعة وتحقيقا للمصلحة . . ثم يسمى تنبيهه إلى الحق وأداء الأمانة والتعفف عما لا يحق له ، أساطير !! ثم يهدد إمامه أن ينضم بما استباحه من مال إلى عدوه . . إلى هذا المدى فسد الناس بعد رسول الله وعهد الشيخين ، فأصبحوا كما وصفهم أبو ذر شوكا بلا ورد، بعد أن كانوا وردا بلا أشواك ، فى الزمن الرائع الذاهب . . !

وإن منهم من يقول عن نفسه للناس أن الدنيا مالت به ومال بها ، وأنه ابن الدنيا ، « فهى أمى وأنا ابنها ، فإنى لم تجدونى خيركم فأنا خير لكم ! » .

معاوية هو الذى يصارح الناس بهذا . .

وهذا حق كله ، فهو ليس بخير الفئة الباغية ، ولكنه أنفعهم لها ، فهو ابن الدنيا بحق كما وصف نفسه !

أما على فقد كان خير حزبه ، ولكنه لم يكن خيرا لدنياهم ، بل ربما كان عدو دنياهم ، ولكنه خيرهم لدينهم وأخراهم !! . .

من أجل ذلك كان الصالحون يقولون عن معاوية : « إنه واسع الدنيا ضيق الآخرة » وما كان معاوية ليحفل بما يقال عنه ولا بما يقال له ، ما دام هذا القول لا ينزع الملك منه !!

سأل معاوية عمرو بن العاص : « ما أعجب الأشياء ؟ » قال عمرو : « غَلَبَةُ من لا حق له ذا الحق على حقه » فقال معاوية : « أعجب من ذلك أن تعطى الدنيا من لا حق له ما ليس له بحق من غير غلبة » .

***

ظل أهل الورع والتقوى ينصرون عليا على الرغم من كل شيء . . قال أحدهم : « إن الدنيا لم تبن شيئا إلا هدمه الدين ، وإن الدين لم يبن شيئا فهدمته الدنيا ؟ ألا ترى أن قوما لعنوا علياليخفضوا منه،فكأنما أخذوا بناصيته جرا إلى السماء » .

وكان الناس على الرغم من اكتشافهم أن معاوية وحزبه لبسوا قميص عثمان ليخفوا وراءه الطمع فى الملك والرياسة ، ما انفكوا يسألون عليا عن عثمان !

قال على لأحد أصحابه : « انطلق إلى قومك فأبلغهم كتبى وقولى » (أى مواعظه) فقال الرجل : « إن قومى إذا أتيتهم يقولون : ما قول صاحبك فى عثمان ؟ » فقال الإمام : « أخبرهم أن قولى فى عثمان أحسن القول ، إن عثمان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين » .

ومن عجب أن معاوية استطاع أن يخفى الحقيقة فيما اصطنع من ضجيج وشغب ، كما أخفى أطماعه وراء قميص عثمان . . فلما هدأت الحرب ، واستقرت المهادنة ، اكتشف الناس أن أحدا لم يتهم عليا بقتل عثمان حتى بويع ، فلما بويع وأعلن فى أول خطبة خطبها بعد البيعة أنه سيرد إلى بيت المال ما وزعه عثمان ، وأنه سيسترد القطائع التى أقطعها عثمان رضى الله عنه لهؤلاء ،ليفلحها زارعوها ويدفعوا خراجها إلى بيت المال لا إلى أصحاب الأقطاعات . . لما أعلن الإمام على سياسته تلك ، فزع معاوية وأمثاله من الذين أترفوا فى زمن عثمان ، فقد تيقنوا أن عليا سينزع من الخاصة والرؤساء مالا يحق لهم ويوجهه لمصالح العامة ، فجاءه الملأ من بنى أمية يسألونه أن يبقى على ما فى أيديهم من عطايا عثمان وأن يقرهم على أعمالهم ، فأبى ، فلما أبى اتهمه معاوية واتهموه جميعا بقتل عثمان ،وأعلنوا أنهم لن يبايعوه . ! وأنهم ليعلمون أن عليا أبعد الناس عن هذه الشبهة ، وأنه حاول أن ينقذ عثمان جهده !

وقد روى عثمان بن حنيف وهو من أصحاب علىٍّ الثقات : « إنى شهدت مشهدا اجتمع فيه على وعمار ومالك الأشتر ، فذكروا عثمان فوقع فيه عمار ، ثم أخذ مالك (الأشتر) فحذا حذوه ، ووجه على يتمعر (يتغير وزنا ومعنى : يتغير من شدة الغيظ) ثم تكلم أحدهم ، فقال : « ما على رجل يقول : كان والله أول من ولى فاستأثر ، وأول من تفرقت عنه هذه الأمة » فقال على : « لقد سبقت لعثمان سوابق لا يعذبه الله بها ! » .

وكان أسلوب علىٍّ فى إدارة بيت المال يستفز ضده الأثرياء والخاصة . . فقد كان يدخل بيت المال مرة فى كل جمعة وينظر إلى ما فيه من الذهب والفضة ويقول :

ابْيَضِّى واصْفَرِّى وغُرِّى غيرى		إنى من الله بكل خير

ثم يوزع ما فى البيت فيسوى فى القسمة بين الناس جميعا من الخاصة والعامة ، والرؤساء والمرءوسين والعرب والموالى . . حتى إذا فرغ من القسم كنس بيت المال ، وفرش له فيه فصلى فيه ركعتين ، ولقد ينام فيه إذا كان الوقت صيفا . .

أحسن الذين قاوموه استغلال الأنفة والحمية الجاهلية عند رؤساء القبائل فأثاروا سخطهم على هذه المساواة . . ولأمر ما كان هذا النوع الشحيح الفاسد من الناس هم أعداء رسالات السماء ،وقتلة الأنبياء . . فكيف بعلىٍّ وما هو بنبى ! ! ؟

والتقى ابن عباس بعمرو بن العاص فى الحج ، فقال له ابن عباس : « حملك معاوية على رقاب الناس ، فأنت تسطو بحمله وتسمو بكرمه ! » .

فقال عمرو متوددا : « أما والله إنى لمسرور بك ، فهل ينفعنى عندك ؟ » قال ابن عباس : « حيث مال الحق ملنا ، وحيث سلك قصدنا » . وكانت هذه الصراحة فى الحق ، والتنزه عن الدنية من خلائق بنى هاشم .

ثم التقيا بعد ذلك فى موسم من مواسم العرب ، حيث قام عمرو بن العاص خطيبا فمدح معاوية وبنى أمية ، وتناول بنى هاشم ، وافتخر بما شهده فى صفين فاعترضه عبد الله ابن عباس قائلا : « يا عمرو ، إنك بعت دينك لمعاوية ، وأعطيته ما بيدك ومنَّاك ما بيد غيرك (يعنى مصر) ، وكان الذى أخذ منك أكثر من الذى أعطاك ، والذى أخذته منه دون الذى أعطيته ، حتى لو كانت نفسك فى يدك ألقيتها ، وكلٌّ راضٍ بما أخذ وأعطى ، فلما صارت مصر فى يدك كدَّرها عليك بالعذل (اللوم) والتنقيص . وذكرت مشاهدك بصفين ، فوالله ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك ، ولقد كشفت فيها عورتك ، وإن كنت لطويل اللسان ، قصير السنان ، آخر الخيل إذا أقبَلت ، وأولها إذا أدْبَرَتْ ، لك يدان : يد لا تبسطها إلى خير ، وأخرى لا تقبضها عن شر ، ولسان غادر ذو وجهين ، ووجهان : وجه موحش ، ووجه مؤنس ، ولعمرى إن من باع دينه بدنيا غيره ، لحرى أن يطول عليها ندمه . لك بيان وفيك خطل ، ولك رأى وفيك نكد ، ولك قدر وفيك حسد ، وأصغر عيب فيك أعظم عيب فى غيرك » .

فقال عمرو : « والله ما فى قريش أثقل علىَّ مسألة ، ولا أحر جوابا منك ولو استطعت ألا أجيبك لفعلت ، غير أنى لم أبع دينى لمعاوية ، ولكنى بعت الله نفسى ، ولم أنس

نصيبى من الدنيا ، وأما ما أخذت من معاوية وأعطيته فإنه لا تُعَلم العوان الخمرة (تُعلَّمُ بالبناء للمجهول المرأة الثيب كيف تضع خمارها . والمثل يضرب للمجرب العارف بأمره) ، وأمـا ما أتى إلىَّ من معـاوية فى مصر ، فإن ذلك لم يغيرنى له ! وأما خفة وطأتى عليكم بصفين ،فلم استثقلتم حياتى ، واستبطأتم وفاتى ؟ وأما الجبن ، فقد علمت قريش أنى أول من يبـارز ، وأمرُّ (من المـرارة) من ينازل ، وأما طول لسانى فإنى كما قال هشام ابن الوليد لعثمان بن عفان :

لســانــى طويــل فاحــترس من شبــاتــه
عليــك وسيــفــى من لســانــى أطــول

وأما وجهاى ولساناى ، فإنى ألقى كل ذى قدر بقدره ، وأرمى كل نابح بحجره ، فمن عرف قدره كفانى نفسه ، ومن جهل قدره كفيته نفسى ، ولعمرى ما لأحد من قريش مثل قدرك ما خلا معاوية ، فما ينفعنى ذلك عندك ؟

ثـم أنشـد :

بنــى هاشــم مالى أراكــم كأنــكــم
بى الــيــوم جهــال ولــيس بكــم جهــل!
ألم تعــلمــوا أنــى جســور على الــوغــى
سريــع إلى الــداعــى إذا كثــر الــقــتــل
وإنــى حســمــت الأمــر بعــد اشتبــاهــه
بدومة (دومة : دومة الجندل) إذ أعيا على الحكم الفصل

* * *

برح الخفاء ، وبان لكل ذى بصيرة أن معاوية لم يهمه دم عثمان ، ولم يخرج مطالبا به إلا تعلة ، وإخفاء لحقيقة هدفه وهو الملك . . وما أهمه غير الملك ! هكذا لبس قميص عثمان المخضب بدم الخليفة المقتول ظلما ، كل من أراد أن يخفى حقيقة نواياه ، وأن يظهر الرحمة وباطنه من قبله العذاب !

وعلى الرغم من كل شىء ، فما زال الشغب الذى أحدثه معاوية ومن معه يشوش بعض العقول فيغم عليها موقف علىٍّ من عثمان .

قال رجل للإمام على : « إنى سائلك عن مسألة كانت منك ومن عثمان ، فإن نجوت اليوم نجوت غدا إن شاء الله » (يعنى إن نجوت من دم عثمان فى الدنيا نجوت من العقاب فى الآخرة) .

ما كان سؤال كهذا ليوجه للإمام على ، ولكن عليا تعود أن يصبر نفسه وأن يتحمل فى سبيل الحقيقة عناء عظيما . . ومن مثل هذه الأسئلة ما يمزق النفوس المرهفة كنفس على ، غير أنه كان قد أجمع أمره - بكل ما أوتى من علم وحكمة - أن يصبر على سوء الظن ، وأن يعلم الناس ، ويبصرهم بما لم تكتشفه بصائرهم بعد . .

قال على للرجل : « سل ما بدالك » . قال الرجل : « أخبرنى أى منزلة وسعتك إذ قتل عثمان ولم تنصره ؟ » قال : « إن عثمان كان إماما ، وإنه نهى عن القتال ، وقال : من سل سيفه فليس منى ، فلو قاتلنا دونه عصينا » . قال الرجل : « فأى منزلة وسعت عثمان إذا استسلم حتى قتل ؟ » فأجاب الإمام : « المنزلة التى وسعت ابن آدم ، إذ قال لأخيه : (لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك إنى أخاف الله رب العالمين) » فسأل الرجل : « فهلا وسعتك هذه المنزلة يوم الجمل ؟ » قال الإمام : « إنا قاتلنا يوم الجمل من ظلمنا . قال الله تعالى : ﴿ **ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل ، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم . ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور** ﴾ فقاتلنا نحن من ظلمنا ، وصبر عثمان ، وذلك من عزم الأمور » .

ما انفك على يوضح للناس أن معاوية ومن معه من العلماء الذين انسلخوا من علمهم وثبوا على الدنيا بتأويل القرآن ، فصرفوا قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص** ﴾ وقوله : ﴿ **ولكم فى القصاص حياة** ﴾ ، وقوله : ﴿ **ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا** ﴾ فصرفوا هذه الآيات عن معناها وأفتى المفتون المرتشون بأن هذه الآيات تبيح لمعاوية الطلب بثأر عثمان دون ولى الأمر . . ثم قال علىٌّ : « عصبوا بى دم عثمان (حملونى مسئوليته) وألَّب عالمهم جاهلهم !! » .

وقد أخذ أنصار معاوية يذيعون أن الصالحين يبغضون عليا ويحبون معاوية .

دخل رجل على الحسن البصرى فقال : « إنهم يزعمون أنك تبغض عليا » فبكى الحسن حتى اخضلت لحيته ، ثم قال : « كان على بن أبى طالب سهما صائبا من مرامى الله على عدوه ، وربانىُّ هذه الأمة ، وذا فضلها وسابقتها وذا قرابة قريبة من رسول

الله ﷺ ، لم يكن بالنَّوَمة عن رسول الله ﷺ ولا الملولة فى ذات الله ، ولا السروقة لمال الله ، أعطى القرآن عزائمه ففاز منه برياض مونقة وأعلام بينة . ذلك على بن أبى طالب يالُكَعُ » .

فلما ذاعت فى الناس مقالة الحسن البصرى ، بدأ أنصار معاوية يشهرون بالإمام . . وتزعمهم عمرو ، فلم ينكر حق الإمام فى الخلافة ولكنه أخذ عليه مآخذ تجعله غير أهل للخلافة . . !

قال عمرو بعد أن كافأه معاوية بولاية مصر ، وترك له كل خراجها : « إن عليًا رجل ذو مزاح ودعابة كبيرة فهو لا يصلح أميراً للمؤمنين ، أما معاوية فهو جاد حازم صارم فهو أصلح منه » . .

وسمع الإمام هذا ، فقال : « عجباً لابن النابغة . يزعم أنى ذو دعابة وأنى رجل تلعابة ، إنى وشر القول أكذبه . إنه يسأل فيلحف ، ويُسْأل فيبخل، فإذا احمر البأس ، وحمى الوطيس ، وأخذت السيوف مأخذها من هام الرجال ، لم يكن له هم إلا نزعه ثيابه ، ويمنح الناس استه ، أعطبه الله وأترحه (أحزنه) » .

ثم سكت طويلا فسألوه أن يتكلم ، فقال : « إنا لأمراء الكلام : فينا تشعبت عروقه ، وعلينا تهدلت غصونه » ثم قال :

« واعلموا رحمكم الله أنَّا فى زمان القائل فيه بالحق قليل ، واللسان عن الصدق كليل ، واللازم للحق ذليل ، أهله معتكفون على العصيان ، مصطلحون على الإدهان ، فتاهم عارم (شرس سيىء الخلق)، وشائبهم آثم ، وعالمهم منافق ،. . لا يعظم صغيرهم كبيرهم ، ولا يعول غنيهم فقيرهم . . واعلموا أن الله يحب الأتقياء الأخفياء ، الذين إذا غابوا لم يفتقدوا ، وإذ حضروا لم يعرفوا ، قلوبهم مصابيح الهدى ، ينجون من كل غبراء مظلمة » .

ولا ريب أن شر ما تصاب به أمة هو ما ذكره الإمام : ألا يعظم الصغير كبيراً ، ولا يرحم الغنى فقيراً ، وأن ينافق العلماء !!

وسكت الإمام قليلا ، وعيناه تنظران إلى بعيد . . ثم قال : « رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبكى ، فسألته : ما يبكيك يا رسول الله ؟ قال : إنى تخوفت على أمتى الشرك من بعدى . أما أنهم لا يعبدون شمسا ولا قمراً ، ولكنهم يراءون بأعمالهم » .

وكان الإمام يردد هذا الحديث على الناس كلما حذرهم من المراء .

وجاءه خبر من بعض نواحيه أن أقواما ثاروا على عامله وأوشكوا أن يغلبوه ، فسيرَّ إليهم الإمام جندا ، وكتب إلى أمراء بلاده التى سيمر بها الجند كتابا كان قد تعود أن يرسله كلما سيرَّ جندا : « من عبد الله علىٍّ أمير المؤمنين إلى من مر به الجيش من جباة الضرائب وعمال البلاد : أما بعد ، فإنى سيرّت جنودا هى مارة بكم إن شاء الله ، وقد أوصيتهم بما يجب عليهم من كف الأذى ، وصرف الشذى (الشر) . وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة (أذى) الجيش إلا من جوعة المضطر الذى لا يجد عنها مذهبا إلى شبعه فنكلوا (عاقبوا) من تناول منهم شيئاً ظلما عن ظلمهم ، وكفوا أيدى سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم فيما استثنيناه منهم » . .

فقد كان الإمام حريصا على حماية حقوق كل فرد من أفراد الرعية ، وعلى ضبط الأمور ، بحيث لا يجور العسكر على الناس ، ولا يبغى أحد على العسكر . . !

* * *

خلا الإمام إلى نفسه يستعرض ما مر به وبالأمة من أحداث . .

وعجب لأن بعض الأثرياء ينكرون عليه أنه يسوى فى القسمة بين الناس ، ويريدون له أن يخصهم بمال أكثر ممن سواهم ، لأنهم أشراف الناس ورؤساؤهم . من أين جاءوا بهذا ؟ . . ألأن عمر كان يميز فى العطاء ؟ . . ولكن عمر لم يميز رؤساء الناس ، بل ميز السابقين إلى الإسلام ، وميز آل البيت وأزواج النبى . . وعلى من آل البيت ينزل راضيا عن هذا الامتياز ليسوى بين الناس ؟ . . إن عمر على النقيض حرم رؤساء من الذين كانوا يسمون المؤلفة قلوبهم ، حين وجد الإسلام قد قوى ، فلما احتج شيخهم أبو سفيان أغلظ له عمر وأعلن أن الإسلام فى غنى عن هؤلاء المؤلفة قلوبهم . .

أفلا تذكرون سنة الرسول فى التسوية . .

أفلا تذكرون سيرة أبى بكر . فليسألوا أم المؤمنين عائشة . . ألم تقل عائشة رضى الله عنها : « قسم أبى أول عام الفىء فأعطى الحر عشرة ، وأعطى المملوك عشرة ، وأعطى المرأة عشرة وأمتها عشرة ، ثم قسم فى العام التالى فأعطاهم عشرين عشرين ؟! » .

بلى كان أبو بكر رضى الله عنه ـ وهو من هو حرصا على اتباع السنة ـ يسوى بين الناس فى القسم : الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والصغير والكبير فيه سواء . . وكان لا يبقى فى بيت المال شيئا إلا قسمه . .

وعجب الإمـام للذين يلومونه لأنـه شديد الـوطـأة على عماله ، يحاسبهم حسابا عسيراً . . أفلا تدبروا سيرة عمر . . ألم يقاسم عماله ما أصابوه من مال فوق عطائهم . . فليتـذكـروا أخذ عمر لأبى هريرة ؟ ألم يحاسبه ويقاسمه ماله ؟ (الطبقات الكبرى لابن سعد) . . لقد كان عمر يولى عمالا هم أدنى من الذين لا يوليهم ، فلما سئل : مالك لا تولى الأكابر من أصحاب رسول الله كعثمان وعلى ؟ قال : « أكره أن أدنسهم بالعمل » وفى الحق أنه كان يستبقيهم لا لأنه لا يريد أن يدنسهم بالعمل فحسب ، بل ليكونوا أهل مشورته ، ولكيلا يفتن بهم أهل الأمصار . .

ثم لماذا يلومون عليًّا لأنه يؤثر الزهد ؟! أفلا تدبروا خيرة أبى بكر وعمر رضى الله عنهما . . ؟! . . لقد كان عمر يقول : « إنى أنزلت نفسى من مال الله منزلة وصى اليتيم من مال اليتيم : ﴿ **من كان غنيا فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف** ﴾ » .

وقد اشتكى عمر يوما ، وكان دواؤه فى العسل ، ولم يكن عنده عسل ، ولكن كان فى بيت المال كثير منه . فجمع أهل مشورته فقال : « إن أذنتم لى ، وإلا فإنه حرام » فأذنوا له .

وقد جاء المسلمون فدخلوا على أم المؤمنين حفصة بنت عمر رضى الله عنهما فقالوا لها : « أبى عمر إلا شدة على نفسه وحصرا ، وقد بسط الله فى الرزق فليبسط فى هذا الفىء فى ما شاء منه وهو فى حل من جماعة المسلمين » . فقالت حفصة بنت عمر لأبيها : « إن الله قد أوسع عليك الرزق ، وفتح عليك الأرض وأكثر من الخير ، فلو طعمت طعاما ألين من طعـامـك ، ولبست لبـاسـا ألين من ثيابك ! » فقال : « سأخاصمك إلى نفسك . أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش ؟ » . . وما زال يذكرها بما كان يصنعه ﷺ حتى أبكاها !! ثم قال لها عن الرسول وخليفته أبى بكر : « إنى قد قلت لك إنى والله لئن استطعت لأشاركنهما فى عيشهما الشديد لعلِّى ألقى معهما عيشهما الرضى » .

وعندما لامه بعض أصحابه قال : « أما والله لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأرفعكم عيشـا ، ولكنى سمعت الله جل ثناؤه عيرَّ قوما بأمر فعلوه وقال : ﴿ **أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** ﴾ . من أجل ذلك عندما كلمه عماله فى أن يفرض لهم من بيت المال عطاء أكبر مما يفرضه قال لهم :« يا معشر الأمراء ، أما ترضون لأنفسكم ما أرضاه لنفسى ؟ » قالوا : « ياأمير المؤمنين إن أرض المدينة العيش بها شديد ولا نرضى بطعامك وإنا بأرض ذات ريف . . » فأمر لهم بعطاء يجعلهم يعيشون عيشة أواسط الناس لا عيشة أغناهم ولا أفقرهم .

ولكن الأمراء فسدوا فى أيام عثمان ، وكان عثمان على الرغم من غناه يعيش عيشة الزاهدين ، ويتصدق من حر ماله فيطعم الفقراء أشهى الطعام ، ولكنه أغدق على عماله من بيت المال ، فعاشوا عيشة المترفين . .

وكان عمر قد اختار عماله من ذوى القدرة على إدارة شئون الولايات ، لا من أهل الصلاح والتقوى . . فقدرتهم للأمة ، وصلاحهم لأنفسهم ، ولكنه كان يقظا لهم ، ولا يغمض عنهم ، وهددهم أن المخطىء منهم سيضع خده على الأرض ، لكى يطأه بقدمه . . فخافوا ، واستقاموا ما استطاعوا . . أما عثمان فقد ترك الأمر لعماله من بنى أمية ، فاستغلوا واستبدوا وأثاروا السخط على الخليفة ذى النورين ، هذا السخط الذى استغله أعداء الإسلام ، والذى استثمره غلاة القراء والمتطرفون منهم ، فأفتوا بأن عثمان ذا النورين قد كفر ، وأهدروا دمه بدعوى الكفر ، فبطش به الثائرون والساخطون ! . .

لقد أنكر الناس على عثمان أنه ولّى الأحداث العارمين من عشيرته بنى أمية ، وفضلهم على أهل القدرة والصلاحية من أجلة أكابر الصحابة ، فلاموا عبد الرحمن بن عوف الذى بايع عثمان على أن يتبع سنة الشيخين ، وعلى ألا يجعل قومه بنى أمية على رقاب الناس . قالوا لابن عوف : « هذا عملك واختيارك لأمة محمد ! » فقال : « لم أظن هذا به » وأتى عثمان فقال له : « إنى إنما قدمتك على أن تسير فينا بسيرة أبى بكر وعمر ، وقد خالفتهما » . قال عثمان : « عمر كان يقطع قرابته فى الله ، وأنا أصل قرابتى فى الله » . فقال عبد الرحمن : « لله علىَّ ألَّا أكلمك أبدا » . . فمات وهو لا يكلم عثمان !

وما زال المتجبرون من بنى أمية يظلمون الناس ، حتى أثاروا السخط على ذى النورين . . واشتعلت الثورة عليه تطالبه بالاعتزال أو الاعتدال أو بعزل أقاربه الظلمة . . وما فكر أحد من المهاجرين والأنصار الذين أنكروا بعض أعماله فى قتله . . ولا الثوار . . ولكن قتل مظلوما !! فمن قتل عثمان ؟! ومن قتل عمر من قبله ؟!

ومن قبلهما من قتل أبا بكر ؟ ! . . نعم من قتل أبا بكر خفية ؟!

من دس له السم قبل عام من وفاته ؟! . .

حدث الليث بن سعد إمام أهل مصر والنوبة عن عقيل عن ابن شهاب أن أبا بكر والحارث بن كلدة كانا يأكلان خزيرة أهديت لأبى بكر فقال الحارث لأبى بكر : « ارفع يدك يا خليفة رسول الله ، والله إن فيها لسم سنة وأنا وأنت نموت فى يوم واحد » قال فرفع يده فلم يزالا عليلين حتى ماتا فى يوم واحد عند انقضاء السنة . (الطبقات الكبرى لابن سعد) .

لكم عانى من التفكير فى استقصاء هذه الأسرار واستجلائها . . من يكيد للإسلام هذا الكيد كله . . وأى شيطان أغرى معاوية بن أبى سفيان وعمرو بن العاص ، بالخروج على وحدة الأمة وتمزيقها إلى دولتين ، وإنهاك جيشها فى حروب داخلية ، بدلا من أن يتجه هذا الجيش من رهبان الليل وفرسان النهار إلى الجهاد فى سبيل الله ، ونشر الإسلام . . لو أن ابن أبى سفيان وابن العاص مكّنا عليا من ذلك لارتفعت راية الإسلام على كل مكان من أرض البشر ، ودخل كل الناس - كل بنى آدم ، فى دين الله أفواجا . . !

وجاء إلى الإمام من يدعوه . . لقد طالت خلوته فى داره ، وفى المسجد من ينتظره . .

وخرج الإمام فى إزاره الخشن ، الذى يصل إلى نصف ساقيه ، وعلى ظهره بردة كلاهمامن صنع قطر ، وعلى رأسه قلنسوة مصرية ، لطيفة بيضاء ، كان يستبدلها أحيانا بعمامة سوداء ، وفى يساره خاتمه المنقوش عليه : « الملك لله ، محمد رسول الله » ومضى يتكفأ بمنكبيه الضخمين ، ولحيته الطويلة العريضة البيضاء . . وبدا له أن يمر بالسوق ليفاجىء أهله . . فرأى منظرا أغضبه فصاح : « لا تنفخوا اللحم » وأنذر من يصنع هذا بعقاب شديد فى الدنيا والآخرة ، وذكر الناس بقول رسول الله « من غشنا فليس منا » .

* * *

وإن الإمام ليعانى من غلاة أعدائه ، إذ بجماعة من غلاة محبيه تسب الخلفاء الراشدين الثلاثة السابقين ، وتدعو إلى تقديس علىٍّ لأن روح الله حلت فيه ! وقد استتابهم فلم يتوبوا . . وقد علم كرم الله وجهه أن السنة قتل الكافر ، ولكنه لما رأى جرما عظيما جعل العقوبة أعظم منه ، فأمر بإحراقهم بالنار . فلم يرجعوا وقالوا : « بهذا يبين صدق قولنا إنه لإله ، حلت فيه روح الله . لأن الرسول ﷺ قال : « لا يعذب بالنار إلا ربها ! » .

ولكنه على الرغم من هذه الهموم الكثيفة الممزقة التى توزعت جهده ، كان يحاول أن يقيم أسسا وطيدة للحكم وللسلوك . . فجعل أكبر همه حض الناس على التقوى ، لأنها رأس كل الفضائل . . جعل همه أن يثقف النفوس بمكارم الأخلاق ، ويؤدبهم بالقرآن والسنة . .

ما عساه يملك إلا أن يعلم هذه النفوس أن تتنزه عن الطمع ، وأن تضىء جوانبها بالورع ؟!

قال يعلم الناس : « أوصيكم بتقوى الله والعمل بما أنتم عنه مسئولون ، فأنتم به رهن ، وإليه صائرون ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿كل نفس بما كسبت رهينة﴾ وقال :

﴿ ويحذركم الله نفسه وإليه المصير ﴾ وقال : ﴿ فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون ﴾ ، فاعلموا عباد الله أن الله سائلكم عن الصغير والكبير ، فإن يعذب فنحن الظالمون ،وإن يغفر ويرحم فهو أرحم الراحمين ، واعلموا أن أقرب ما يكون العبد إلى الرحمة والمغفرة حينما يعمل بطاعة الله ومناصحته فى التوبة ، فعليكم بتقوى الله عز وجل ، فإنها تجمع من الخير ما لا يجمع غيرها ، ويُدْرَك بها من الخير ما لا يُدْرَك بغيرها ، خير الدنيا وخير الآخرة ، يقول الله سبحانه : ﴿ وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم قالوا خيرا للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ﴾ .

وقد علم الناس حتى معاوية وعمر أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا إذا أشكل على أحدهم أمر سأل عليًا . .

وكان تفاعل الحضارات فى الكوفة قد خلق فيها تيارات فكرية متباينة ، إذ كانت الكوفة ملتقى القوافل والتجار من الشرق والغرب ، فالتقت فيها حضارات الرومان والفرس والهند ويونان ومصر والصين . . فمن كل هؤلاء البلاد كان يجيء ويذهب تجار ، ويختلطون ويتحاورون ، ويتباحثون فى غير شئون التجارة وهموم الدنيا . . فنشأ اتجاه للعناية بالإلهيات . .

وقد جاء أحد هؤلاء المهتمين بالإلهيات فسأل الإمام عليا : « هل نرى ربنا ؟ » فقال : « وكيف نعبد ما لم نره » . . ثم أضاف كرم الله وجهه : « لم تره العيون فى الدنيا بكشف العيان ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان . قال الله تعالى : ﴿ ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾ فأثبت الرؤية بالقلب فى الدنيا . وقال النبى ﷺ : اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

وكان التوزع الذى يمزق نفس الإمام يدعوه إلى التأمل ، ويشحذ عزمه ليجمع شتات نفس تفرقها اقتحامات العصر وأهل الهوى ، والاهتمام بهموم التقوى ، فقال يصف نفسه : « ما أنا ونفسى إلا كراعى غنم كلما ضمها من جانب انتشرت من جانب » .

وقال يعلِّم الناس : « الخير كله مجموع فى أربعة : الصمت والنطق والنظر والحركة ، فكل نطق لا يكون فى ذكر الله تعالى فهو لغو ، وكل صمت لا يكون فى فكر فهو سهو ، وكل نظر لا يكون فى عبرة فهو غفلة ، وكل حركة لا تكون فى تعبد الله فهى باطلة ، فرحم الله عبدا جعل نطقه ذكرا وصمته فكرا ، ونظره عبرة ، وحركته تعبدا ، ويسلم الناس من لسانه ويده » .

وقد قال أحد تلاميذه مستخلصا ما تعلّمه من الإمام : « من ترك الدنيا كلها وخرج من جميع ما يملك وجلس على بساط الفقر والتجريد فإمامه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ومن أخرج بعضها وترك البعض لعياله ولصلة الرحم وأداء الحقوق فإمامه عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومن جمع لله ومنع لله وأعطى لله وأنفق لله فإمامه عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومن لا يحوم حول الدنيا ، وإن جمعت عليه من غير طلبه رفضها ، فإمامه على رضى الله عنه » .

وكان الإمام إذا جاء وقت الصلاة يتزلزل ويتغير لونه ، فيقال له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول : « جاء وقت أمانة عرضها الله تعالى (على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفق منها وحملها الإنسان) فلا أدرى أأحسن حملها أم لا ! » .

وسأله أحد أهل الكوفة الذين دخلهم الاهتمام بالإلهيات : « ما حقيقة الإيمان ؟ » قال : « الإيمان على أربع دعائم : الصبر واليقين والعدل والجهاد . والصبر على عشر مقامات . . » ومضى يحدد مقامات كل دعامة من هذه الدعائم . فكان أول من تحدث عن المقامات التى تحدث عنها الصوفية فيما بعد .

وسأله رجل آخر : « بم عرفت ربك ؟ » قال : « بما عرفنى نفسه ، لا تشبهه صورة ، ولا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، قريب فى بعده بعيد فى قربه ، فوق كل شىء ولا يقال شىء تحته ، وتحت كل شىء ولا يقال شىء فوقه . أمام كل شىء ولا يقال شىء أمامه ، داخل فى الأشياء ولا كشىء ، ولا من شىء ، ولا فى شىء ، ولا بشىء ، سبحان من هو ، هكذا ولا هكذا غيره . . خلق الأشياء لا من شىء كان معه ، ولا عن شىء احتذاه ، ولا عن شىء امتثله ، فكل صانع فمن شىء صنع ، وكل عالم فمن بعد جهل علم ، والله تعالى عالم لا من بعد جهل . . والإيمان يبدو لمظة بيضاء فى القلب فكلما ازداد الإيمان ازداد القلب بياضا ، فإذا استكمل الإيمان ابيض القلب ، وإن النفاق يبدو لمظة سوداء فى القلب ، فكلما ازداد النفاق ازداد القلب سوادا ، فإذا استكمل النفاق اسود القلب . . وأسلم الناس من جعل عقله أميره ، وحذره وزيره ، والموعظة زمامه ، والصبر قائده ، والاعتصام بالتقوى ظهيره ، وخوف الله تعالى جليسه ، وذكر الموت والبلى أنيسه » .

* * *

ورأى الإمام اقتحام أفكار غريبة على ورع بعض الناس ، فإذا منهم من يدعو إلى التواكل ، لأن الله تعالى قدر كل شىء وقضاه ، فلا جدوى من عمل الإنسان ، وكل سعيه تحت الشمس لن يغير ما كتبه عليه القضاء . .

ولقد قال له شيخ من شيوخ الكوفة : « أخبرنا عن مسيرنا إلى الشام أكان بقضاء وقدر ؟ » فقال كرم الله وجهه : « والذى خلق الحبة وبرأ النسمة ما هبطنا واديا ولا علونا جبلا إلا بقضاء وقدر » . فقال الشيخ : « عند الله أحتسب عنائى . مالى من الأجر شىء ! » فقال الإمام : «بل أيها الشيخ أعظم الله لكم الأجر فى مسيركم وأنتم سائرون ، وفى منقلبكم وأنتم منقلبون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ، ولا إليها مضطرين » فقال الشيخ : « وكيف ذلك والقضاء والقدر ساقانا ، وعنهما كان مسيرنا ؟ » فقال : « لعلك تظنه قضاءواجبا وقدرا حتما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ، ولما كانت تأتى من الله لائمة لمذنب ، ولا محمدة لمحسن ، ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسىء ، ولا المسىء بعقوبة الذنب أولى من المحسن ! تلك مقالة إخوان الشياطين ، وعبدة الأوثان ، وخصماء الرحمن ، وشهود الزور ، أهل العماء عن الصواب فى الأمور ، هم قدرية هذه الأمة ومجوسها ، إن الله تعالى أمر تخييرًا ، ونهى تحذيرا ، ولم يكلف مجبرا ولا بعث الأنبياء عبثا ! ﴿ **ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار** ﴾ » فقال الشيخ : « فما ذلك القضاء والقدر اللذان ساقانا ؟ » قال الإمام : « أمر الله بذلك وإرادته » ثم تلا : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا** ﴾ .

فنهض الشيخ مسرورا بما سمعه من الإمام ، وأنشأ يقول :

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته — يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا — جزاك ربك بالإحسان إحسانا

وابتسم الإمام وهو يتذكر يوم جاءوا بسارق إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فسأله : « لم سرقت ؟ » فقال السارق : « قضى الله علىَّ » فأمر عمر بقطع يده ، وضربه أسواطا . وقال : « قطع اليد للسرقة ، والجلد لما كذب على الله » .

وانبرى رجل يسأل الإمام : « أليس كل شىء فى علم الله »قال الإمام : « بلى ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مثل علم الله فيكم كمثل السماء التى أظلتكم ،

والأرض التى أقلتكم ، فكما لا تستطيعون الخروج من السماء والأرض ، كذلك لا تستطيعون الخروج من علم الله ، وكما لا تحملكم السماء والأرض على الذنوب ، كذلك لا يحملكم علم الله عليها » .

وكان أعداء على يزعمون أن كل ما حدث منهم قضاء من الله وقدر . . فليس لأحد أن يلومهم ، وقد أفتاهم الذين يعيشون بدينهم فى بلاط معاوية بذلك ! . . وعلم الإمام بما يزعمون ، وجاء إلى البصرة قوم منهم يحاولون إذاعة آرائهم تلك ، ليصرفوا أهل البصرة عن علىّ ويأخذوا البيعة لمعاوية بما أن هذا هو قضاء الله وقدره . فأمر على ابنه الأكبر الحسن بأن يكتب إلى أهل البصرة كيلا ينخدعوا بمزاعم المضلين من بطانة معاوية ، فكتب : « من لم يؤمن بالله وقضائه فقد كفر ، ومن حمل ذنبه على ربه فقد فجر ، إن الله لا يطاع استكراها ، ولا يعصى لغلبة ، لأنه المليك لما ملكهم ، والقادر على ما أقدرهم عليه ، فإن عملوا بالطاعة لم يحل بينهم وبين ما فعلوا ، وإن عملوا بالمعصية فلو شاء الله حال بينهم وبين ما فعلوا . فإذا لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك ، فلو أجبر الله الخلق على الطاعات ، لأسقط عنهم الثواب ، ولو أجبرهم على المعاصى ، لأسقط عنهم العقاب ، ولو أهملهم لكان عاجزا فى القدرة ، ولكن له فيهم المشيئة التى غيبها عنهم ، فإن عملوا بالطاعات كانت له المنة عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحجة عليهم » .

أما والى البصرة عبد الله بن عباس فقد أثاره ما يقوله الذين فى بطانة معاوية من علماء انسلخوا من علمهم ، وروعه أنهم يرسلون رسلهم إلى البصرة ليفسدوا رجالها ، بأمور ليست من الدين فى شىء ، فقال لأهل البصرة : « سمعت أن قوما يقولون أن الله أجبرهم على المعاصى . فلو أعلم أحدا قال هذا لقبضت على حلقه فعصرته حتى تذهب روحه! لا تقولوا أجبر الله على المعاصى ، ولا تقولوا لم يعلم الله ما العباد عاملوه ، فتجهلوا الله ! » .

ثم أرسل إلى بطانة معاوية من علماء الشام ، الذين زعموا أن انضمامهم لمعاوية ضد أمير المؤمنين قضاء من الله وقدر : « أما بعد . . أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضل المتقون !؟ ، وتنهون الناس عن المعاصى وبكم ظهر العاصون ؟! هل منكم إلا مفتر على الله يحمل إجرامه عليه وينسبه علانية إليه ؟! . . وهل منكم إلا مَن السيف قلادته ، والزور على الله شهادته ؟ خالفتم أهل الحق حتى ذلوا وقلوا ، وأعنتم أهل الباطل حتى عزوا وكثروا ، فأنيبوا إلى الله وتوبوا ، وتاب الله على من تاب ، وقبل من أناب » .

ها هو ذا عدو جديد يجب على الإمام أن يواجهه إلى جوار البغاة من أهل الشام ، والخوارج ، والمغالين فى حبه الذين ألهوه . . ها هو ذا عدو جديد خطير يظهر : هو هذا الرأى الذى يبرر الخطأ الإنسانى والخطيئة نفسها بأنها قدر الله . . فإذا برجال من المسلمين يسرقون ، ويقتلون ، ويفسدون فى الأرض ويقولون : كان ذلك فى علم الله فلم نجد منه بدا . فعاقبهم الإمام وأقام الحد على كل جريمة كما شرع الله ، وقال : « كان فى علم الله تعالى أنهم يرتكبون المعصية ، ولكنه جل شأنه لم يحملهم على ارتكابها » .

ثم مضى الإمام يجادل الناس فى كل أمور الدين والدنيا ، فما راعه إلا أن كثيراً منهم لا يفقهون معنى الأحاديث الشريفة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « اللهم أحينى مسكينا وأمتنى مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين » ففهم بعض الناس أن المسكين هو الفقير ، فتكلفوا الفقر على الرغم من أن الإمام يلعن الفقر أمامهم ، ويحذرهم منه ، ويحضهم على العمل ليكسبوا ويغتنوا فيستغنوا عن الناس بما هيأ لهم الله من كسب أيديهم . .

فأخذ الإمام فى شرحه للحديث الشريف يبين للناس أن المسكين ليس هو الفقير ، والمسكنة ليست عدم المال ، فقد يكون الرجل بلا مال أو قليل المال وهو جبار شقى . وفى الحديث الشريف : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم : شيخ زان ، وملك كذاب ، وعائل (فقير) مستكبر » فالمسكنة خلق فى النفس ، وهى التواضع لله ، والخشوع فى ذات الله ، ونبذ التكبر ، كما قال عيسى عليه السلام : « وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا » . والمساكين هم أهل الفضل والبر والتواضع والخشوع الذين وصفهم الله تعالى بقوله : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما** ﴾ .

أولئك هم المساكين الذين ارتضاهم علىٌّ أصحابا ورضوا به إماما . .

* * *

وضع الإمام أصولا كثيرة فى التعامل أساسها حماية الإنسان والأمة ، وهى أصول استنبطها من الكتاب أو السنة ، إذ أخذ الإمام نفسه بقيود الشريعة لا يعدوها . . من أجل ذلك لم يكن هناك من شىء أو إغراء مهما يكن خطره يحمله على مخالفة الشرع . . من ذلك أنه نهى عن ضرب المتهم ، ورفض الوصول إلى الاعتراف من ضرب المتهم أو تعذيبه ، فى

عصر جعل التعذيب أسلوبا للتحقيق . . وكان يقول فى حماية ضمانات المتهم : « إن يثبت عليه الجرم بإقرار أو بينة أقمت عليه الحد ، وإلا لم أعترضه » .

وهـذا التمسـك بقواعد الشريعة هو الذى حدد موقفه من معاوية ، فقد علم أن الشريعة تحرم استعمال الفاسق ، وإذا كان معاوية فى رأيه فاسقا ، فقد عزله كما عزل غيره من عمال عثمان إعمالا للقاعدة الشرعية : « لا تجوز ولاية الفاسق » . . فلو أنه هادن معاوية وأقره حتى يأخذ بيعته ثم عزله ، لما استطاع أن يبـرر تصرفه هذا أمام المسلمين ، إلا بأنه خدعه حتى استقرت الخلافة ، ولو أنه كان قد صنع ذلك فأقر على الولاية من يرى فيه الجور والعـدوان والظلم لهد أركان الشريعة، ولما حق له أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر ، ولشجع عماله الآخرين على ظلم الرعية وخيانتها وهم آمنون !! ولما استطاع أن يقيم حقا أو يدفع باطلا ، وإذن لأصلح أمر دنياه بفساد دينه . . ومن يدرى فربما فسد عليه أمر دنياه أيضاً !! ذلك أن الناس لم تبايعه إلا على سجايا فيه : أولها شجاعته فى الحق ، وحرصه على العدل، وغيرته على الشريعة، ومحاماته عن الإسلام بما جاء به من مكارم الأخلاق جميعا ، وحرصه على أن يكون عمله خالصا لله وفى سبيل الله . . وما من عمل فى سبيل الله خير من رعاية مصالح الأمة . .

لقـد نصب نفسه للناس إماما فعليه كما قال : « أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه » .

فلو أنه هادن من اتهمهم بالجور وبالفسق وأقرهم على أعمالهم ، لما صدقه أحد من شداة العـدل وأهل التقوى !! ولكنه كما قال متضرعا إلى الله تعالى . لم يصنع ما صنعه « منـافسـة على سلطان ، ولا التـماس شىء من فضـول الحكام ، ولكن لنرد المظالم عن دينـك ، ونـظهـر الإصـلاح فى بلادك ، فيأمن المـظلومون من عبادك وتقام المعَطّلة من سنتك » . . أو كما كان يقول للناس : « . . ليس أمرى وأمركم واحدا . إنى أريدكم لله وأنتم تريدوننى لأنفسكم . أيها الناس أعينونى على أنفسكم ، وأيم الله لأنصفن المظلوم من ظالمه ، ولأقودن الظالم بخزامته حتى أورده منهل الحق وإن كان كارها » .

وفى تمسكه اليقظ والواعى بقواعد الشريعة نهى الناس عن الشح ، وربط بين الشح والإيمان ، فهما يدوران وجودا وعدما ، ذلك أن الله تعالى وصف أقواما بقوله : ﴿ **أشحة على الخير ، أولئك لم يؤمنوا** ﴾ وقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : « لا يجتمع الشح والإيمان فى قلب أبدا » . . ومدح الله أقواما فقال : ﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون** ﴾ .

ومن أجل ذلك كان أهل الشح هم ألد أعدائه فى حياته وبعد موته . ولم يستطع أعداء مبادئه عبر الأجيال أن يهاجموه ، فمدحوا الخارجين عليه . قال الإمام أحمد بن حنبل فى على ومعاوية : « أعلم أن عليا كان كثير الأعداء ، ففتش له أعداؤه عن عيب ، فلم يجدوا ، فجاءوا إلى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كيدا منهم له » .

وإذ كان الإمام شديد الحرج فى المال العام ؛ فإن هذه الشدة نفرت منه أصحاب الأطماع .

نزل بابنه الحسين ضيف ، فاشترى الحسين خبزا واحتاج لإدام ، فطلب من قنبر غلام أبيه أن يفتح له زقا من زقاق عسل ، جاءتهم هدية من اليمن ، فأخذ منها ما أطعم به الضيف . فلما جاء أمير المؤمنين ، وطلب الزقاق ليفحصها قال : « يا قنبر أظن أنه حدث بهذا الزق حدث ! » فأخبره ، فغضب وسأل الحسين : «ما حملك على أن أخذت منه قبل القسمة » قال الحسين : « إن لنا فيه حقا فإذا أعطيناه رددناه » قال الإمام : « وإن كان لك حق فليس لك أن تنتفع به قبل أن ينتفع المسلمون بحقوقهم » ثم دفع إلى قنبر درهما ، وقال : اشتر به خير عسل تقدر عليه ، ليقسم مع ما فى الزقاق .

* * *

وكان الإمام حريصا على أن ينشىء نظاما للحكم يصون كرامة الإنسان ، من أجل ذلك اهتم بتربية الفرد على مبادىء الإسلام ، الذى يجعل الإنسان حر الاختيار كريما ، عفيفا ، جديراً بأن يكون خليفة الله فى الأرض ، وبتكريم الله إياه ، فقد قال تعالى : ﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ فيجب على الإنسان أن يكون جديراً بالمكانة التى اختارها له خالقه . . وإذا كان هدف الشريعة هو تحقيق مصلحة الخلق ، فقد استنبط الإمام أن هذه المصلحة تقوم على حماية الدين والنفس والمال والعقل والنسل . . « فمقصود الشرع من الخلق خمسة : أن يحفظ عليهم دينهم ، وأنفسهم ، وعقلهم ، ونسلهم ، ومالهم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة ، وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة مفسدة ، ودفعها مصلحة . . وصلاح الخلق فى تحصيل مقاصدهم ، ومقاصد الشرع : جلب المصلحة ، ودفع الضرر » .

وجد الإمام الناس قد أسرفوا فى طعن بعضهم على بعض ، فمنهم من يتهم كل من خالفه بأنه كافر أو هو فاسق أو هو على الأقل زنديق !! فأوضح لهم بأن من يتهم إنسانا بغير

دليل ولا بينة يرد عليه اتهامه ، فمن اتهم من خالفه بأنه فاسق ولم يقم الدليل ، يعتبر هو الفاسق دون من اتهمه !!

وقد جعل الإمام للعقل سلطانا فى فهم الشريعة ، فهو يستطيع أن يعرف الحسن فيأتيه ، والقبيح فينتهى عنه ، ما لم يكن فى النص أمر واضح أو نهى واضح . . ويجب على العقل حين لا يجد نصا بحكم أن يستنبط الحكم بما يحقق المصلحة ويدفع المفسدة . . وما من واقعة تستجد فى أي زمان أو مكان إلا أمكن إخضاعها لأحكام القرآن والسنة . . أو ما تقتضيه المصلحة العامة . . والسبيل إلى ذلك أن نعمل العقل ، فحكم العقل يقضى بأن يترك ما فيه ضرر ، ويؤخذ ما فيه منفعة . .

وكان المدين يحبس فى الدين ، فمنع الإمام هذا ، وقال : « حبس الرجل فى السجن بعد معرفة ما عليه ظلم » .

وقد حكوا عن الإمام : « بينا علىٌّ رضى الله عنه جالس فى مجلسه ، إذ سمع ضجة . فقال : ما هذا ؟ قالوا : رجل سرق ومعه من يشهد عليه . فأمر بإحضارهم . فشهد شاهدان عليه أنه سرق درعا ، فجعل الرجل يبكى ، ويناشد عليا أن يتثبت فى أمره ، فخرج علىٌّ إلى مجتمع الناس بالسوق ، فدعا بالشاهدين ، فناشدهما الله وخوَّفهما ، فأقاما على شهادتهما ، فلما رآهما لا يرجعان دعا بالسكين وقال : ليمسك أحدكما يده ويقطع الآخر . فتقدما ليقطعاه فهاج الناس واختلط بعضهم ببعض ، فقام علىٌّ من الموضع ، فأرسل الشاهدان يد الرجل وهربا ! » .

فقال علىٌّ : « من يدلنى على الشاهدين الكافرين ؟ » فلم يوقف لهما على خبر ، فخلى سبيل الرجل .

كان لا يحكم بالظاهر ، ويأمر القضاة بأن يحققوا ويتحققوا فلعل فى الباطن ما يكذب الظاهر . .

جاءوه برجل وجد فى خربة بيده سكين ملطخة بالدم ، وبين يديه قتيل غارق فى دمه ، فسأله أمير المؤمنين على كرم الله وجهه فقال الرجل : « أنا قتلته » قال : « اذهبوا به فاقتلوه » فلما ذهبوا به ، أقبل رجل مسرعا ، فقال : « يا قوم لا تعجلوا ردوه إلى أمير المؤمنين » فردوه ، فقال الرجل : « يا أمير المؤمنين : ما هذا صاحبه ، أنا قتلته » فقال علىٌّ للرجل الأول : « ما حملك على أن قلت ، أنا قاتله ، ولم تقتله » قال : « يا أمير المؤمنين ، وما أستطيع أن أصنع وقد وقف العسس على الرجل يتشحط فى دمه ، وأنا واقف ، وفى يدى

سكين ، وفيها أثر الدم ، وقد أخذت فى خربة ؟! . . ألا يقبل منى . فاعترفت بما لم أصنع ، واحتسبت نفسى عند الله » .

فقال على : « بئسما صنعت . فكيف كان حديثك ؟ » . قال الرجل : « إنى رجل قصاب ، خرجت إلى حانوتى فى الغلس ، فذبحت بقرة وسلختها ، فبينما أنا أسلخها والسكين فى يدى أخذنى البول ، فأتيت خربة كانت بقربى فدخلتها ، فقضيت حاجتى ، وعدت أريد حانوتى ، فإذا أنا بهذا المقتول يتشحط فى دمه فراعنى أمره ، فوقفت أنظر إليه والسكين فى يدى فلم أشعر إلا بأصحابك قد وقفوا علىَّ ، فأخذونى . فقال الناس : هذا قتل هذا ما له قاتل سواه ، فأدركت أنك لا تترك قولهم لقولى ، فاعترفت بما لم أجنه » .

فسأل علىٌّ الرجل الثانى الذى أقر بالقتل : « فأنت كيف كانت قصتك ؟ » قال : « أغوانى إبليس ، فقتلت الرجل طمعا فى ماله ، ثم سمعت حس العسس فخرجت من الخربة ، واستقبلت هذا القصاب على الحال التى وصف ، فاستترت منه ببعض الخربة حتى أتى العسس ، فأخذوه وأتوك به فلما أمرت يا أمير المؤمنين بقتله علمت أنى سأبوء بدمه أيضاً ، فاعترفت بالحق » فقال على لابنه الحسن : « ما الحكم فى هذا ؟ » وكان يعلم أولاده على نحو ما تعلم هو من أستاذه العظيم رسول الله : يطرح القضية ويسأل عن الحكم ثم يجيز أو يصحح . فقال الحسن : « يا أمير المؤمنين إن كان قد قتل نفسا فقد أحيا نفسا . وقد قال الله تعالى : ﴿ ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ . فأقر الإمام الحكم ، وخلى عن الرجلين ، وأخرج دية القتيل من بيت المال » .

ثم إنه أصدر من الفتيا ما يلائم الظروف الجديدة ، فقد تغير العصر ، واستخدمت مشكلات فوجب عليه أن يواجهها باجتهاده .

من ذلك أن قد أمر بتضمين الصناع . . فإذا تلف عند صانع شىء عوض صاحبه ، كالخياط إذا تلف عنده قماش ، كان عليه أن يعوض صاحبه ، والحداد إذا تلف عنده سيف أو سكين يشحذه كان عليه أن يعوض صاحبه ، ولم يكن هذا الحكم موجودا من قبل ، ولا أفتى الإمام بهذه الفتيا فى عهد أحد من الخلفاء الثلاثة الراشدين ، ولكنه وجد الزمان قد تغير ، فأفتى بأن الصناع ضامنون لما تحت أيديهم . . وعلل ذلك بقوله : « فسد الزمان ، ولا يصلح الناس إلا بهذا » . .

* * *

ولم يتخل قط عن موعظة الناس . . وقال يعظ خاصة أصحابه وأبناءه : « إن أولياء الله هم الـذين إذا نظروا إلى باطن الدنيا نظر الناس إلى ظاهرها ، واشتغلوا بآجلها إذا اشتغـل النـاس بعـاجلهـا ، فأمـاتـوا منها ما خشوا أن يميتهم وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم ، ورأوا استكثار غيرهم منها استقلالا ، ودركهم لها فوتا ، أعداء ما سالم الناس ، وسلم ما عادى النـاس ، بهم علم الكتـاب وبـه علموا ، وبهم قام الكتاب وبه قاموا ، لا يرون مرجوًّا فوق ما يرجون ، ولا مخوفا فوق ما يخافون » .

وقال : « كان لى فيما مضى أخ فى الله ، وكان يعظمه فى عينى صغر الدنيا فى عينه ، وكان خارجا من سلطان بطنه ، فلا يشتهى ما لا يجد ولا يكثر إذا وجد ، وكان أكثر دهره صامتـا فإن قال بز القـائلين ، ونقع غليل السائلين . . وكان يقول ما يفعل ، ولا يقول ما لا يفعـل ، وكـان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت ، وكان على ما يسمع أحـرص منه على أن يتكلم ، وكان إذا بَدَهَه أمران ينظر أيهما أقرب إلى الهوى فيخافه . فعليكم بهذه الخلائق فالزموها وتنافسوا فيها ، فإن لم تستطيعوها فاعلموا أن أخذ القليل خير من ترك الكثير » .

دخل الإمام المسجد ، فإذا فى انتظاره أبو الأسود الدؤلى قاضيه على البصرة . . وهو أحد القراء الفقهاء الشعراء الظرفاء ، قرأ على الإمام ، وكان من أصغى القراء وأكثرهم حبا وولاء للإمام .

قال أبو الأسود : « يا أمير المؤمنين ، ذهبت لغة العرب لما خالطت العجم ! ففسدت ألسنتها ، وأوشكت لغة العرب إن تطاول عليها الزمن أن تضمحل » .

وكان الإمام قد لاحظ فى الكوفة فساد ألسنة بعض الصغار الذين تربيهم الإماء من الموالى . . ولكنه سأل أبا الأسود : « «ما ذاك ؟ » أراد أن يعرف ما ألم بالبصرة . . فروى أبو الأسود : « إن ابنة لى دخلت علىَ فقالت : ما أشدُّ الحرِّ (رفعت أشد وجرت الحر) . فرأيتها تستفهم عن أى زمان الحر أشد ، فقلت لها : ما نحن فيه . قالت : إنما أخبرك ولم أسألك . فعلمت أنها قصدت التعجب ، فقلت لها : يا بنية فقولى ما أشدَّ الحرَّ (بالنصب فى الكلمتين) وأرادت بنت أخرى لى أن تتعجب من جمال السماء فقالت : « ما أحسنُ السماءِ (برفع أحسن وجر السماء) . فقلت لها : « نجومها » فقالت : « إنى لم أرد أى شىء منها أحسن إنما تعجبت من حسنها » فقلت : « إذن فقولى ما أحسنَ السماءَ (بنصب أحسن والسماء) » .

ثم روى له أبو الأسود الدؤلى أن رجالا جاءوا إلى أمير البصرة فقالوا : « أصلح الله الأمير ، توفى أبانا وترك بنون » فصرخ فيهم أمير البصرة : « ليس هكذا . قولوا توفى أبونا وترك بنين ! » .

فنصح أمير المؤمنين لأبى الأسود الدؤلى أن ينهض فى الوقت فيشترى صحفا بدرهم ، ثم أملى عليه : « الكلام كله لا يخرج عن اسم وفعل وحرف . والاسم ما أنبأ عن المسمى ، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى ، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل » ثم قال كرم الله وجهه لأبى الأسود الدؤلى : «واعلم يا أبا الأسود أن الأشياء ثلاثة : ظاهر ، ومضمر ، وشىء ليس بظاهر ولا مضمر . . فاكتب قواعد اللغة فى هذا النحو» . فسمى ما كتبه علم النحو . . قال أبو الأسود : « فجمعت أشياء وعرضتها عليه ، وكان من ذلك حروف النصب ، فكان منها : إن وأن وليت ولعل وكأن ، ولم أذكر لكن ، فقال لى : لم تركتها ؟ فقلت : لم أحسبها منها ، فقال عليه السلام : بل هى منها فزدها » .

ونصح الإمام من يكتب : « فَرِّق بين السطور ، وقلل بين الحروف ، فإن ذلك أجدر بصباحة الخط » .

وكتب إلى عماله وكتابه : « أرقوا أقلامكم ، وقاربوا بين سطوركم ، واحذفوا من فضولكم ، واقصدوا قصد المعانى ، وإياكم والإكثار ، فإن أموال الأمة لا تحتمل الإضرار (يدعو إلى الاقتصاد فى استهلاك ما يكتب عليه وأدوات الكتابة ونحوها) » . .

كذلك تفرغ الإمام فى تلك الفترة ، لإصلاح كل أمور الرعية . .

قال فى أمر المال : « قلة العيال أحد اليسارين » ، فحض بذلك على الاعتدال فى الإنجاب . .

وقال : « ما ذهب من مالك ما وعظك » . . وقال لابنه محمد المعروف بابن الحنفية (لأن أمه من قبيلة بنى حنيفة) : « إنى أخاف عليك الفقر فاستعذ بالله منه ، فإن الفقر منقصة للدين ، مدهشة للعقل ، داعية للمقت » .

ولاحظ أبو الأسود أن أمير المؤمنين عليا لم يعد ضاحك السن كما عرفه من قبل ، فأراد أن يسرى عنه فقال له : « يا أمير المؤمنين ما زلت أعمل بنصيحتك : سل عن الجار قبل الدار وعن الرفيق قبل الطريق ، حتى ابتليت بجار حسبته صالحا ، فإذا به يقذفنى بالحجارة كل يوم ، فبعت الدار ، فَعيَّرنى الناس بأنى بعت دارى ، فقلت لهم : « ما بعت دارى بل بعت جارى ! » .

فلما وجد أبو الأسود سحابات الهموم ما زالت على وجه الإمام ، قص أبو الأسود عليه قصته مع أحد الثقلاء عساها تسرى عن الإمام ، قال أبو الأسود أنه كان جالسا فى دهليز داره وبين يديه رطب ، فجاءه رجل من الأعراب شديد الجفوة ، غليظ القفا ، ثقيل الوطأة ، فقال : « أأدخل ؟ » قال له أبو الأسود : ما وراءك أوسع لك ! ولكن الرجل تقدم ودخل على أبى الأسود فسأله : هل عندك شىء تطعمنيه ؟ قال أبو الأسود : « نأكل ونطعم العيال ، فإن فضل شىء فأنت أحق به من الكلب ! » فقال الأعرابى : « ما رأيت قط ألأم منك ! » فقال أبو الأسود : « بلى قد رأيت ، ولكنك قد أنسيت ! » قال الأعرابى : « أنا ابن أبى الحمامة » . فقال أبو الأسود : « انصرف ، وكن ابنَ أى طائر شئت » قال : « أسألك بالله إلا أطعمتنى مما تأكل » فألقى إليه أبو الأسود ثلاث رطبات ، فوقعت إحداهن فى التراب ، فأخذها فمسحها بثوبه ـ وكان قذرا ـ فقال له أبو الأسود : « دعها فإن الذى تمسحها منه أنظف من الذى تمسحها به » . قال الرجل : « إنما كرهت أن أدعها للشيطان » فقال أبو الأسود : « لا والله ، ولا لجبريل وميكائيل تدعها » .

وكان أبو الأسود معدودا فى الفرسان والظرفاء والدهاة والحاضرى الجواب ، فسأله أحد الحاضرين : « يا أبا الأسود أنت حريص وداهية كما قد علمنا . ألم يغلبك أحد على دهائك وحرصك ؟ » فضحك أبو الأسود وقال : « بلى ! ما غلبنى قط إلا رجل أخذت منه ثوبا بعشرين ، ومررت بجماعة فسألونى عنه ، فقلت متباهيا : أخذت هذا الثوب بأربعين ، فلما وفيت للرجل العشرين قال : ما آخذ إلا أربعين وهؤلاء شهود عليك » .

فضحك الإمام وضحكوا جميعا .

وسأل أبو الأسود الإمام : « ما رأى أمير المؤمنين فيما قاله أمير البصرة عبد الله بن عباس حين سئل عن أحب كلمات العباد إلى الله ، فقال : أحب كلمة إلى الله هى : (لا إله إلا الله) لا يقبل العمل إلا بها ، وهى المنجية ، والثانية هى : (سبحان الله) وهى صلاة الخلق ، والثالثة هى : (الحمد لله) وهى صلاة الشكر ، والرابعة (الله أكبر) فواتح الصلاة والركوع والسجود ، والخامسة (لا حول ولا قوة إلا بالله) وهى كلمة الإسلام لله . فما رأى أمير المؤمنين فيما قال ؟ » فقال الإمام فى إعجاب بابن عباس : « لله أبوه . إنه لكما قال » .

وسأل أبو الأسود ، أحد الحاضرين : « أنت أحد أصفياء أمير المؤمنين وقد قرأت عليه وإنى سائلك عن ثلاث » قال الرجل ضاحكا : « اسأل عن ثلاثين إن شئت ، أجبك إن

شاء الله » قال أبو الأسود : « من الناس ؟ ومن الملوك ؟ ومن العلماء ؟ » فقال تلميذ الإمام : « أما الناس فهم العلماء . وأما الملوك فهم الزهاد ، وأما السفلة فهم . . هم الذين يعيشون بدينهم كهؤلاء الذين اصطنعهم معاوية ! » .

وضحك ، وضحكوا . . ولكن أمير المؤمنين لم يضحك ، فقد عاودته أحزانه وإشفاقه على الدين منذ رأى بعض العلماء ينسلخ عن علمه ، ويرتشى فى دينه . .

وكان أبو الأسود يلبس رداء مرقعا فقال له أحد الحاضرين : « لقد أدمنت لبس هذه المقطعة » فقال أبو الأسود : « رب مملوك لا يستطاع فراقه ! » فعلم الحاضرون أنه مل هذا الثوب القديم، وأنه احتاج إلى كسوة فأهداه أحدهم كسوة . فقال أبو الأسود : « ألم نسمع من أمير المؤمنين عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أيما عامل أصاب فى عمله فوق رزقه الذى فرض له ، فهو غلول » فقال صاحب الإمام الذى أراد أن يهديه الكسوة : « هذا إن كنت من رعيتك . ولكنك قاضى البصرة ، وأنا من أهل الكوفة ! » فأمر الإمام أبا الأسود أن يقبل الهدية ، فليست فيها شبهة الرشوة . . وإن برئت الهدية من شبهة الرشوة وجب قبولها ، وذكرهم بالحديث الشريف : « تهادوا تحابوا » .

وإنهم لجالسون إذ جاءت امرأة تبكى، فشكت من زوجها وقالت أنه يضربها ضربا مبرحا. فتغير وجه أمير المؤمنين ونهى الرجال عن ضرب زوجاتهم وقال: «أتت امرأة الوليد بن عقبة النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، تشتكى الوليد ، تزعم أنه يضربها ، فقال لها : ارجعى فقولى له إن رسول الله قد أجارنى فلا تضربنى . . فانطلقت ، فمكثت ساعة ، ثم رجعت ، فقالت : يا رسول الله ، ما أقلع عنى ! فقطع رسول الله هدبة (قطعة من طرف الثوب) من ثوبه فقال لها : اذهبى بهذه فقولى له : إن رسول الله قد أجارنى فلا تضربنى ، فانطلقت فمكثت ساعة ، ثم رجعت فقالت : يا رسول الله ما زادنى إلا ضربا ! فرفع يديه فقال : اللهم عليك الوليد ، مرتين أو ثلاثا » . .

فقال أحد الحاضرين إن الرجل يحب امرأته هذه حتى ليكون أطوع لها من بنانها ، ثم يبغضها حتى يوجعها من الضرب ، فذكرهم الإمام بالحديث الشريف الذى يدعو المؤمن إلى الاعتدال والقصد فى كل أموره : « أحبب حبيبك هونا ما ، عسى أن يكون بغيضك يوما ما ، وأبغض بغيضك هونا ما عسى أن يكون حبيبك يوما ما . . » . . فقال فتى من تلاميذ الإمام : « على المرء أن يعتدل ويقتصد ويترك الغلو حتى فى عبادة الله تعالى . ولقد أفرط أقوام فى حب أقوام فهلكوا ، وأفرط أقوام فى بغض أقوام ، فهلكوا .

أفرطت النصارى فى حب عيسى بن مريم حتى قالوا : هو ابن الله ، جل الله عما قالوا وعز ، وأفرطت الغالية من الرافضة فى حب أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، حتى قال بعضهم : هو إلههم ، وقال بعضهم هو نبى مبعوث ، وقال آخرون فيه أقوالا عجيبة ، وأبغضت اليهود عيسى بن مريم حتى قذفوا أمه بالفرية ، وأبغضت المارقة من الخوارج إمامنا على بن أبى طالب رضوان الله عليه حتى أكفروه ! » .

* * *

مضى الإمام يؤسس قواعد العلوم والفقه والقضاء ، فقد أتاحت له الهدنة مع معاوية الفرصة ليعلم الناس ، ويحكم القواعد ، ويؤدى ما شغلته عنه الحرب من إصلاح الرعية ، وتهذيبها ، ودحض ما قد يغزو نفوسها من أباطيل . . وظل يقول : « اسألونى . . » .

وسألوه عن الراسخين فى العلم فقال : هم الذين أغناهم الله عن اقتحام السدود المضروبة دون الغيوب ، والإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله تعالى اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علما، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا فى العلم » .

وقال عن آداب العلماءوشرف العلم ، وفى الإزراء على من يهدر منهم هذا الشرف ، وينتهك آداب العلم وأخلاقه : « لو أن حملة العلم أحبوه بحقه لأحبهم الله وأهل طاعته من خلقه ، ولكنهم حملوه لطلب الدنيا ، فمقتهم الله وهانوا على الناس » .

ثم قال : « إن أبغض الخلائق إلى الله رجلان : رجل وكله الله إلى نفسه فهو جائر عن قصد السبيل ، شغوف بكلام بدعة ، ودعاء ضلالة ، فهو فتنة لمن افتتن به ، ضال عن هدى من كان قبله ، مضل لمن اقتدى به فى حياته وبعد وفاته ، حمّال خطايا غيره ، رهن بخطيئته . ورجل مُوضع (مسرع) فى جهال الأمة ، عار فى أغباش (ظلمات) الفتنة . . قد سماه أشباه الناس عالما وليس به . . ما قل منه خير مما كثر ، حتى إذا ارتوى من ماء آجن (فاسد) ، واكتنز من غير طائل ، جلس بين الناس قاضيا ضامنا ما التبس على غيره . فإن نزلت به إحدى المبهمات هيأ لها حشوا رثًا من رأيه ، ثم قطع به . جاهل خَبَّاط جهالات ، عاشٍ رَكّاب عَشَوات . . لا يحسب العلم فى شىء مما أنكره ، ولا أهل لما فُوِّض له . وإن أظلمَ عليه أمر اكتتم به ، لما يعلم من جهل نفسه . تصرخ من جور قضائه الدماء ، وتعج منه المواريث . . إنما الناس رجلان : متبع شرعة ، ومبتدع بدعة وليس معه من الله سبحانه برهان سنة ولا ضياء حجة » .

وسئل « كم المسافة بين المشرق والمغرب ؟ » قال : « مسيرة يوم للشمس » وسئل : « كم بين السماء والأرض ؟ » فقال : « دعوة مستجابة ! » .

وقال وهو يعظ أصحابه : « يضر الناس أنفسهم فى ثلاثة أشياء : الإفراط فى الأكل اتكالا على الصحة ، وتكلف عمل ما لا يطاق اتكالا على القوة ، والتفريط فى العمل اتكالا على القدر ! » .

وسئل : « لماذا إذا أكل لا يشبع ؟ » قال : « من شبع عوقب فى الحال ثلاث عقوبات : يلقى الغشاء على قلبه ، والنعاس فى عينه والكسل على بدنه . . وكثرة الطعام تميت القلب كما تميت كثرة الماء الزرع . . فلا تطلب الحياة لتأكل ، بل اطلب الأكل لتحيا . . ولا تجلس إلى الطعام إلا وأنت جائع ولا تقم منه إلا وأنت تشتهيه ، وجوِّد المضغ ، وأعرض نفسك على الخلاء إذا نمت ، فإذا استعملت هذا استغنيت عن الطب . . » .

وكان ينصح الأمهات : « ما من لبن يرضع به الوليد أعظم بركة من لبن أمه » .

وقال يضع قواعد للإنفاق : « إن الله وضع فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما متع به غنى ، والله تعالى سائلهم عن ذلك » . .

وكان هذا المبدأ هو ما أثار ضده البخلاء من الأغنياء والذين لا يحبون أن ينفقوا فى سبيل الله ، والذين يريدون أن يستأثروا بالمال دون غيرهم . . أثارهم هذا المبدأ ضد الإمام منذ نادى به إلى يومنا هذا ، وسيظل يثير أقواما من أهل الأطماع والأهواء والشح حتى يرث الله الأرض ومن عليها . . !

ومبدأ آخر أثارهم عليه ، وما زال يثير أمثالهم حتى اليوم . . ذلك قوله كرم الله وجهه : « من آتاه الله مالا فليصل به القرابة ، وليحسن منه الضيافة ، وليفك به الأسير والعانى ، وليعط منه الفقير والغارم (المدين) ، وليصبر نفسه على النوائب ابتغاء الثواب ، فإن فوزا بهذه الخصال شرف مكارم الدنيا ، ودرك فضائل الآخرة » . . وقوله : « اسع فى كدحك ولا تكن خازنا لغيرك » . وموعظته فى أمر المال : « أما بعد ، فإن الذى فى يدك من الدنيا قد كان له أهل قبلك ، وهو صائر إلى أهل بعدك ، وإنما أنت جامع لأحد رجلين : إما رجل عمل فيما جمعته بطاعة الله فسعد بما شقيت به ، وإما رجل عمل فيه بمعصية الله فشقيت بما جمعت له . وليس أحد هذين أهلا لأن تؤثره على نفسك ، ولا أن تحمله على

ظهرك ، فارج لمن مضى رحمة الله ، ولمن بقى رزق الله . . الفقر هو الموت الأكبر . . الفقر يخرس الفطن عن حجته . . والمقِلّ غريب فى بلدته . . ما أقبح الخضوع عند الحاجة ، والجفاء عند الغنى ! . . لا حاجة لله فيمن ليس لله فى ماله ونفسه نصيب ! . . الغنى فى الغربة وطن ، والفقر فى الوطن غربة . . من أتى غنيا فتواضع له لغناه ذهب ثلثا دينه » . . « يا ابن آدم ، كن وصى نفسك فى مالك ، واعمل فيه ما تؤثر أن يعمل فيه من بعدك . . ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء طلبا لما عند الله وأحسن تيه الفقراء على الأغنياء اتكالا على الله » . . « لكل امرىء فى ماله شريكان ، الوارث والحوادث . . ألا وإن إعطاء المال فى غير حقه تبذير وسرف ، وهو يرفع صاحبه فى الدنيا ويضعه فى الآخرة ، ويكرمه فى الناس ويهينه عند الله . . ولم يضع امرؤ ماله فى غير حقه ولا عند غير أهله ، إلا حرمه الله شكرهم ، وكان لغيره ودهم ، فإن زلت به النعل يوما فاحتاج إلى معونتهم ، فشر خليل ، وألأم خدين » .

وقال يحض على الخير : « الفرص تمر من السحاب ، فانتهزوا فرص الخير » وقال : « إضاعة الفرصة غصة . . » .

وكان من مبادئه التى أخذ يغرسها فى قلوب الناس : « ما ظفر من ظفر الإثم به ، والغالب بالشر مغلوب . . زهدك فى راغب فيك نقصان حظ ، ورغبتك فى زاهد فيك ذل نفس . . الشقى من حرم نفع ما أوتى من العقل والتجربة . . من التوفيق حفظ التجربة . . لا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت فى إيلامه ، فإن العاقل يتعظ بالآداب ، والبهائم لا تتعظ إلا بالضرب . . ثلاثة إن تظلمهم ظلموك : عبدك ، وزوجتك ، وابنك . . لا تقسروا أولادكم على آدابكم فإنهم مخلوقون لزمان غير زمانكم » .

* * *

كان من أحسن الناس وجها ، وكان كثير التبسم ، ولكنه منذ حين تغشى الكآبة وجهه الحسن ! . .

وتذكر قول رسول الله ﷺ : « سألت ربى ألا يهلك أمتى بسنة عامة فأعطانيها ، وسألته ألا يسلط عليهم عدوا فيستبيح بيضتهم فأعطانيها ، وسألته ألا يسلط بعضهم على بعض فمنعنيها . . » !

هذا هو ما يكربه ويعذبه حقا : إن المسلمين تسلط بعضهم على بعض ، وقد أصبح بأسهم بينهم شديدا ، وما عادوا كما كانوا وكما يجب أن يكونوا رحماء بينهم .

فها هم أولاء أهل الشام قد أخرجهم عليه وعلى الجماعة فئة باغية يقودها معاوية ، وعمرو ، والمرتشون ممن انسلخوا عن علمهم ، وركضوا فى الجهالة والهوى وحب الشهوات ، وحكمتهم بطنتهم ونهمهم ، ومع ذلك وجدوا من يسمى الواحد منهم عالما أو شيخا أو إماما . . ! وإنهم ليعلمون أن رسول الله عليه الصلاة والسلام أمر بقتل من يدعو إلى نفسه أو إلى غيره وفى الأمة إمام ! ولكنهم يخالفون الرسول إذ ينصرون الباغى على الإمام الشرعى !!

ومن الحق أن العلماء جميعا وأهل السنة بلا استثناء ، قد اتفقوا على أن الصواب مع على ، وأن ما رآه فى أمر القصاص من قتلة عثمان هو الشريعة . . فالقصاص بغير دعوى ولا إقامة بينة ليس من الشريعة فى شىء ، والشريعة تحتم على مخالفى علىّ أن يدخلوا فى طاعته بعد أن بايعه الناس أميرا للمؤمنين ، ثم يقوم أولياء دم عثمان وهم أبناؤه فيدعون بالدم ، فيعمل أمير المؤمنين بما توجبه الشريعة : القصاص من القتلة الذين تثبت عليهم الجريمة .

* * *

اجتمع نفر من الخوارج ، فبكوا على إخوانهم الذين قتلهم على يوم النهروان فقالوا : « ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً! إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم ، والذين كانوا لا يخافون فى الله لومة لائم ، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم ، فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم إخواننا » فقال ابن ملجم : « أنا أكفيكم على بن أبى طالب » وقال البرك بن عبد الله : « أنا أكفيكم معاوية » وقال عمرو بن بكر : « أنا أكفيكم عمرو بن العاص » فتعاهدوا وأقسموا بالله : « لا ينكص رجل منا عن صاحبه الذى توجه إليه حتى يقتله أو يموت دونه » .

ثم انطلق كلٌّ إلى وجهته ، وتواعدوا أن يفتك كل واحد منهم بمن توجه إليه ، فى صلاة الفجر فى اليوم السابع عشر من رمضان ، وكان ذلك فى السنة الأربعين للهجرة .

فأما البرك بن عبد الله ، فقد توجه إلى معاوية ، فرفع السيف ليضربه وهو يسجد فى صلاة الفجر فتكاثر عليه حرس معاوية فوقع السيف فى إلية معاوية . فقال له طبيبه لما فحص الجرح : « يا أمير المؤمنين ، اختر إما أن أحمى حديدة فأضعها موضع السيف ، وإما أن أسقيك شربة تقطع منك الولد » فقال معاوية : « أما النار فلا صبر لى عليها ، وأما الولد ففى يزيد وعبد الله ما تقربه عينى » فسقاه الطبيب شربة فشفى ، ولم ينجب بعدها . وأمر معاوية بقتل البرك ، فأخذوه فقتلوه .

وكان لمعاوية حرس كبير لا يتركه حتى فى المسجد ، وما حاول على أن يجعل عليه حرسا . . !!

وأما عمرو بن بكر ، فإنه جلس لعمرو بن العاص فى تلك الليلة ولكن ابن العاص تخلف عن الصلاة لألم باغته فى بطنه ، فأمر صاحب الشرطة واسمه خارجة أن يصلى بالناس . فشد عليه ابن بكر وهو يحسبه ابن العاص فقتله ، فأوثقوه وجروه إلى عمرو بن العاص فقال : « من هذا ؟ » قالوا : « عمرو بن العاص » فقال : « ومن قتلت » قالوا : « خارجة » . وكان خارجة يعدل ألف فارس ، وقد جاء إلى مصر فى المدد الذى أرسله عمر ابن الخطاب لفتح مصر، وأرسل فيه الزبير بن العوام . قال القاتل لعمرو : « والله ما ظننته غيرك » قال عمرو : « أردتنى وأراد الله خارجة » وأخذوه فقتلوه .

وأما عبد الرحمن بن ملجم فقد أتى الكوفة واشترى سيفا بألف ، وظل يسقيه السم أربعين يوما حتى لفظه ،وكان فى خلال تلك الأيام الأربعين يقصد باب على فيسأله ، فيعطيه أمير المؤمنين ويكرمه ، فرأى امرأة جميلة رائعة من نساء الكوفة تدعى قطام ، ففتن بها ، وكلمها وكلمته ، فوجدها على رأى الخوارج .

وأسرته المرأة بجمالها الفائق وظرفها وحسن حديثها ، فأخذت قلبه واستولت على مجامع لبه ، فتقدم إليها خاطبا . فقالت له : « لا أتزوجك حتى تشتفى لى فقد آليت ألا أتزوج على مهر لا أريد سواه » قال : « وما تريدين ؟ » قالت : « ثلاثة آلاف ، وعبد ، وقينة (جارية) ، وقتل على » . وعلم منها أن عليا قتل أباها وأخاها يوم النهروان ، فقال لها : « أما قتل على فما أراك ذكرته وأنت تريديننى » قالت : « بلى . التمس غرته ، فإن أصبته شفيت نفسى ونفسك ، ونفعك العيش معى . وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وما فيها » . قال : « والله ما جاءبى إلى الكوفة إلا قتل على . فلك ما سألت » . قالت : « سأطلب لك من يشد ظهرك ويساعدك » وبعثت إلى ابن عم لها اسمه وردان ، فكلمته فى ذلك فوافق .

فلما أهل رمضان زار ابن ملجم صاحبا له اسمه شبيب فقال له : « هل لك فى شرف الدنيا والآخرة » ؟ قال : « وما هو؟ » قال : « تساعدنى على قتل على بن أبى طالب » ففزع شبيب فزعا شديداً ، وقال : « ثكلتك أمك ! لقد جئت شيئا إدًّا ! كيف تقدر على قتله ؟! » . قال ابن ملجم : « إنه رجل لا حرس له ، ويخرج إلى المسجد منفردا دون من يحرسه ، فنكمن له فى المسجد ، فإن خرج إلى الصلاة فجراً قتلناه ، فإن نجونا نجونا ،

وإن قتلنا سعدنا بالذكر فى الدنيا وبالجنة فى الآخرة » فقال شبيب : « ويلك ! إن عليا ذو سابقة فى الإسلام وذو فضل ، والله ما تنشرح نفسى لقتله » قال ابن ملجم : « ويلك ! إنه حكَّم الرجال فى دين الله ، وقتل إخواننا الصالحين ، فنقتله ببعض من قتل . فلا تشكن فى دينك » .

فاتفقا ، وانطلقا إلى قبة ضربتها قطام فى المسجد فاعتكفت فيها منذ أول رمضان تصوم النهار ، وتقوم الليل .

أما على كرم الله وجهه ، فقد كان منذ دخل رمضان يفطر مرة عند الحسن ، ومرة عند الحسين ، ومرة عند ابن أخيه جعفر ، ويقوم عن الطعام قبل أن يملأ بطنه ، ويقول : « يأتينى أمر الله وأنا خميص » .

وكان عبد الرحمن بن ملجم يسم سيفه علانية ويقول متباهيا : « يأفتك به فتكة يتحدث بها العرب » .

فقالوا ذلك لعلى ، وكان يغدق على ابن ملجم كلما سأله ، وكثيراً ما كان يسأله !

وقد اشترى ابن ملجم سيفه وتعهده بالشحذ والسم من المال الذى يغدقه عليه الإمام . . فبعث إليه الإمام فسأله : « لم تسم سيفك ؟! » قال : « لعدوى وعدوك » .

وتذكر وهو ينظر إلى ابن ملجم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما : « يا على من أشقى الأولين ؟ » قال : « الذى عقر الناقة » (ناقة الله التى أرسلها الله فى ثمود قوم صالح ليرعوها فعقرها واحد منهم فعذبهم الله جميعا) قال النبى : « ومن أشقى الآخرين ؟ » قال على : « لا أدرى » قال : « الذى يضربك على هذا (يعنى يافوخه) ، فيخضب هذه (يعنى لحيته) ! » .

وكان الإمام علىٌّ كلما أعطى ابن ملجم مالا ، نظر إلى سيفه فقال : « أما إن هذا قاتلى » فقالوا له : « وما يمنعك من قتله » فيبتسم قائلا : « إنه لم يقتلنى بعد ! » . . ثم ينظر إلى ابن ملجم ويقول : « أريد حياته ويريد قتلى ! » .

ويتصدق عليه كما ألف أن يتصدق بالمال الذى يأتيه من أرض له فى الحجاز . . وقد آثر كرم الله وجهه أن يعيش على هذا المال ، وألا يتقاضى من بيت المال عطاء نظير نهوضه بأعباء الحكم .

ولما تأكد لأصحاب الإمام أن خطرا يتهدده نصحوه مرة أخرى أن يتخذ حرسا يحميه ، ولكنه أبى ! .

وتذكر أنه فى صدر شبابه مرض مرضا شديدا حتى أشرف على التلف ، فزاره النبى ﷺ ، وكان عنده أبو بكر وعمر يعودانه ، فهمس أبو بكر للرسول أن عليا ميت فى مرضه هذا ! فقال الرسول « إن عليا لن يموت فى مرضه هذا ، وهو لن يموت ولكن سيقتل بعد أن يتجرع الغيظ !! » .

الله أكبر يا على . . صدق رسول الله . . لكم تجرعت من الغيظ حتى اكتظ به بدنك وعقلك وقلبك . . وكادت روحك تزهق منه.. هأنتذا ترى الباطل يصول على الحق ويكاد يسحقه، وأنت لا تملك أن تقيم الحق فقد خذلك رجالك ؟! . . فبمن تقيم الحق بعد ؟

وهأنتذا ذا ترى أمة محمد تتوزع إلى دولتين ، وتمزقها الخلافات والأطماع !! إن كل المسلمين ليعرفون أن رسول الله أمرهم بقتل من دعا إلى نفسه ، وعلى الناس إمام . . فما بالهم يتركون معاوية يزعم أنه أمير المؤمنين ؟!

وثقل على الإمام أن يدع أهل الباطل يركضون فى وديان الضلال، ويفتنون الناس بالرشوة عن دينهم ، والفتنة أشد من القتل !

وعز عليه أن يسكت عن الظالم فيقره بهذا السكوت على ظلمه !

لكم يحزنه أن أتباع محمد الذين كانوا أعداء فألف الله بين قلوبهم ، فأصبحوا بنعمة الله إخوانا ، يتفرقون اليوم إلى شيع متناحرة ، ويتقطعون فيما بينهم إلى دولتين !! . . يالشقاء ما صنعه معاوية وعمرو بوحدة أمة محمد !!

أمر الإمام المنادين أن ينادوا الناس فاجتمعوا فى فضاء عريض بالكوفة يتسع لأضعاف ما يتسع له المسجد .

وأمر الإمام فنصبوا له حجارة ، فوقف عليها ، وعليه قميص من صوف كان يلبسه فى الحرب ، وحمائل سيفه من ليف ، وفى رجليه نعلان من ليف ، وعلى جبينه علامة واضحة من أثر السجود ، ولحيته العريضة الضخمة بيضاء كالقطن ، فقال : « الحمد لله الذى إليه مصائر الخلق ، وعواقب الأمر ، نحمده على عظيم إحسانه ، ونير برهانه ، ونوامى (زوائد) فضله وامتنانه ، حمدا يكون لحقه قضاء ولشكره أداء . . ونستعين به استعانة راج لفضله ، مؤمل لنفعه . . ونؤمن به إيمان من رجاه مؤمنا ، وأناب إليه موقنا ، وخضع له مذعنا ، وأخلص له موحدا ، وعظمه ممجدا ، ولاذ به راغبا مجتهدا . لم يولد سبحانه فيكون فى العز مشاركا ، ولم يلد فيكون موروثا هالكا ، ولم يتقدمه وقت ولا زمان ،

ولم يتعاوره (يتبادله ويتداول عليه) زيادة ولا نقصان ، بل ظهر للعقول بها أرانا من علامات التدبير المتقن والقضاء المبرم ، فمن شواهد خلقه السموات موطدات بلا عمد ، قائمات بلا سند . . جعل نجومها أعلاما يستدل بها الحيران فى مختلف فجاج الأقطار . . ويعلم مسقط القطرة ومقرها ، ومسحب الذرة ومجرها ، وما يكفى البعوضة من قوتها ، وما تحمل الأنثى فى بطنها » .

« الحمد لله الكائن قبل أن يكون كرسى ولا عرش ، أو سماء أو أرض أو جان أو إنس . لا يدرك بوهم ، ولا يقدر بفهم ، ولا يشغله سائل ، ولا ينقصه نائل ، ولا يبصر بعين ، ولا يحد بأين (بمكان) . . ولا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس ، لا إله إلا هو أضاء بنوره كل ظلام ، وأظلم بنوره كل نور » .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذى ألبسكم الرياش (اللباس الفاخر) وأسبغ عليكم المعاش . ولو أن أحدا يجد إلى البقاء سلما أو إلى دفع الموت سبيلا لكان ذلك سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ الذى سخر له ملك الجن والإنس مع النبوة وعظيم الزلفة ، فلما نال طعمته (المأكل أو ما يؤكل والمراد رزقه المقسوم) ، واستكمل مدته ، رمته قسى الفناء (جمع قوس) بنبال الموت ، وأصبحت الديار منه خالية ، والمساكن معطلة ، وورثها قوم آخرون ، وإن لكم فى القرون السالفة لعبرة .

« أين العمالقة وأبناء العمالقة ؟ أين الفراعنة وأبناء الفراعنة ؟ أين أصحاب مدائن الرّس (كانوا يسكنون على نهر يسمى الرس فى أذربيجان وكانوا يعبدون الشجر . وكلما أرسل الله إليهم نبيا يدعوهم إليه ، ألقوا نبيهم فى حفرة وتركوه حتى يهلك صبرا وجوعا وهم يتلذذون بأنينه ، فسلط الله عليهم بركانا أفنى مدائنهم وأذاب أجسادهم ، وهذا هو ملخص ما رواه الإمام لما سئل عن مدائن الرس) . أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين وأطفأوا سنن المرسلين ، وأحيوا سنن الجبارين ؟! وأين الذين ساروا بالجيوش وهزموا الآلاف ، وعسكروا العساكر ومدنوا المدائن ؟! » . . .

« أيها الناس ، إنى قد بثثت لكم المواعظ التى وعظ الأنبياء بها أممهم ، وأديت إليكم ما أدت الأوصياء إلى من بعدهم ، وأدبتكم بسوطى فلم تستقيموا ، وحدوتكم بالزواجر فلم تستوسقوا (تجتمعوا) . لله أنتم ! أتتوقعون إماما غيرى يطأ بكم الطريق ، ويرشدكم السبيل ؟! » .

« ألا إنه قد أدبر من الدنيا ما كان مقبلا ، وأقبل منها ما كان مدبراً ، وأزمع الترحال عباد الله الأخيار ، وباعوا قليلا من الدنيا لا يبقى بكثير من الآخرة لا يفنى » .

« ما ضر إخواننا الذين سفكت دماؤهم - وهم بصفين - ألا يكونوا اليوم أحياء يسيغون الغصص ويشربون الرنق (الكدر) ؟! قد والله لقوا الله فوفاهم أجورهم ، وأحلهم دار الأمن بعد خوفهم » .

« أين إخوانى الذين ركبوا الطريق ، ومضوا على الحق ، أين عمار ؟ وأين ابن التيهان ؟ وأين ذو الشهادتين ؟ (كلهم من الصحابة الذين قتلوا فى صفين ، وذو الشهادتين هو خزيمة بن ثابت الأنصارى من أهل بدر ، قد قبل الرسول شهادته بشهادة رجلين) وأين نظراؤهم من إخوانهم الذين تعاقدوا على المنية ، وأبرد برؤوسهم إلى الفجرة (أى أرسلت رؤوسهم مع البريد إلى البغاة للتشفى منهم) (شرح الشيخ محمد عبده) » .

ثم ضرب الإمام على بيده الشريفة الكريمة على لحيته وبكى فأطال البكاء . ثم قال : « أوهِ ! (كلمة توجع) أواه على إخوانى الذين تلوا القرآن فأحكموه ، وتدبروا الفرض فأقاموه ؟ أحيوا السنة وأماتوا البدعة . دعوا للجهاد فأجابوا ، ووثقوا بالقائد فاتبعوه » .

ثم نادى بأعلى صوته :

« الجهاد الجهاد عباد الله ! ألا وإنى معسكر فى يومى هذا ، فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج ! » .

وخرج ، وخرج معه بعض الناس .

ثم عقد لابنه الحسين فى عشرة آلاف مقاتل ، ولقيس بن سعد فى عشرة آلاف ، ولأبى أيوب الأنصارى ولغيرهم ، وهو يريد الزحف إلى الشام . وكان ذلك فى اليوم العاشر من رمضان ، وانتظر أن يكتمل الجيش مائة ألف أو نحوها ليستطيع أن يواجه بهم ما سيحشده معاوية وعمرو من جند الشام ومصر ، وهم أكثر من مائة وعشرين ألفا .

وظل على يحرض الناس على الجهاد ، وينتظر خروجهم فلم يخرج إليه أحد بعد غير الذين خرجوا . . !!

وشعر بمضض رهيب !!

فأخذ المصحف فوضعه على رأسه ثم قال : « اللهم إنهم منعونى أن أقوم فى الأمة بما فيه (يعنى المصحف) فأعطنى ثواب ما فيه . اللهم إنى مللتهم وملونى ، وأبغضتهم وأبغضونى ، وحملونى على غير طبيعتى وخلقى وأخلاق لم تكن تعرف لى ! اللهم فأبدلنى بهم خيراً منهم ، وأبدلهم بى شراً منى ، اللهم أمت قلوبهم موت الملح فى الماء » .

* * *

شعر أصحاب الإمام من نظرات ابن ملجم ، أنه يريد الفتك بالإمام . . وقدروا أن معه عددا آخر من الخوارج أهل التعنت والتطرف .

فاختار أصحاب علىٍّ كل ليلة عشرة منهم يبيتون بالسلاح ساهرين على حراسته دون أن يستأذنوه . . ورآهم ذات ليلة فسألهم : « ما يجلسكم ؟ » قالوا : « نحرسك يا أمير المؤمنين » فقال ساخرا : « من أهل السماء؟!» ثم قال : « إنه لا يكون فى الأرض شىء حتى يقضى فى السماء ، وإنه ليس من الناس أحد إلا وقدوكل به ملكان يدفعان عنه فإذا جاء القدر خليا عنه ، وإنه لا يجد عبد عرف حلاوة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » .

لقد كره الإمام الحياة وتمنى الموت ، منذ فقد الأمل فى أن ينصره أهل العراق . . كان أهل الشام كلما ازدادوا حول معاوية قوة وفتكا ، ازداد أهل العراق تمزقا وتفرقاً حول على . . فضاق بهم وسئم وملأت نفسه الكآبة ! فكان يقول : « والله لتخضبن هذه من هذه (يشير إلى لحيته ورأسه) فما يحبس أشقاها ؟ ما له لا يقتل ؟! ما ينتظر ؟! » .

كان كرم الله وجهه يتعجل نهايته فقد سئم الناس وملها ، وإنه ليتعذب من الغيظ الذى أحرق به أهل العراق قلبه الشريف !

وهكذا كان الاختلاف بين على ومعاوية حتى فى اللحظات الأخيرة من عمر على !!

رفض الحراسة ، فسهل الأمرعلى قاتليه .

أما معاوية فكانت حوله حراسة كثيفة ، فلما رفع قاتله السيف ليقتله ، انقض الحراس على الفاتك فوقع سيفه على إلية معاوية ، ولولا الحرس الكثيف لقتله !

وفى ليلة الجمعة التى توافق السابع عشر من رمضان ، صبيحة ذكرى غزوة بدر الكبرى ، أغلظت قطام لابن ملجم ، فاتهمته بالجبن، وبأنه استكان إليها ولن يضرب عليا . . وكان قد تزوجها ،فطالبته بانجاز وعده ، فأفهمها أن موعده الليلة .

وكمن فى المسجد هو وابن عمها وشبيب بعد ما عصبتهم قطام بالحرير فجلسوا مقابل الباب الذى ألف الإمام أن يدخل منه .

وقبل أن يخرج الإمام إلى الناس قال لابنه الحسن : « يابنى إنى بت أوقظ أهلى لأنها ليلة الجمعة صبيحة بدر ، فملكتنى عيناى فنمت ، فسنح (عرض) لى رسول الله (ﷺ) فقلت : يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد (العوج والخصومة) . فقال لى : ادع عليهم . فقلت : « اللهم أبدلنى بهم من هو خير منهم ، وأبدلهم بى من هو شر منى » .

ثم خرج كعادته ليوقظ الناس ويناديهم : « الصلاة الصلاة » ثم يؤمهم فى صلاة الفجر . فلما خرج من المسجد زعق الأوز فى وجهه ، فحاول الناس إسكاتهن فقال : « ذروهن ، فانهن نوائح ! » .

فلما دخل الإمام المسجد، ضربه شبيب فأخطأه ، وضربه عبد الرحمن بن ملجم على رأسه وقال : « الحكم لله يا على لا لك ولا لأصحابك ! » فقال على : « فزت ورب الكعبة ! لا يفوتنكم الكلب ! » .

فتكاثر الناس على ابن ملجم لعنه الله وهو يطوح بسيفه ، فرموا عليه قطيفة وصرعوه. وقعدوا على الصدر ، أما الآخران فقد هربا فى الزحام !

فقال على ودمه ينزف من رأسه فيخضب لحيته ، وقد أخذ أصحابه ابن ملجم : « احبسوه فان مت فاقتلوه ولا تمثلوا به ، وإن لم أمت فالأمر إلىّ فى العفو أو القصاص ! النفس بالنفس . إن هلكت فاقتلوه ، وإن بقيت رأيت فيه رأيى ! يا بنى عبد المطلب لا ألفينَّكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل أمير المؤمنين ! ألا لا يُقْتَلَنّ إلا قاتلى ! إن عشت فالجروح قصاص وإن مت فاقتلوه ، لكن احبسوه وأحسنوا » .

ثم طلب الإمام أن يأتوه بابن ملجم ، فجاءوا به ، فقال له : « أى عدو الله ، ألم أحسن إليك ؟ » قال : « بلى » ، قال : « فما حملك على هذا ؟ » قال : « شحذته أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه » فقال الإمام : « لا أراك إلا مقتولا به ، ولا أراك إلا من شر خلقه » .

وكان الحسن ما يزال فى داره لم يخرج إلى الصلاة بعد ، فلم يحن وقتها ، فدخل الناس فزعين عليه ، ومعهم ابن ملجم مكتوف اليدين . فبكت أم كلثوم بنت على - التى مات

عنها عمر بن الخطاب ـ ونادت ابن ملجم : « أى عدو الله ، لا بأس على أبى ، الله مخزيك ! » قال : « على من تبكين ؟ والله لقد شريت السيف بألف ، وسممته بألف ، ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقى منهم واحد ! » قالت باكية : « لا بأس على أمير المؤمنين » قال : « ما هو أمير المؤمنين ولكنه أبوك ! » .

ونظر ابن ملجم إلى الحسن فقال له : « أريد أن أسارك بكلمة فضع أذنك على فمى » . قال الحسن : « تريد أن تعض أذنى ؟ » قال ابن ملجم : « والله لو أمكنتنى منها لأخذتها من صماخها » .

وحان وقت الصلاة ، فأذن لها ، فطلب الإمام من جعدة بن هبيرة أن يصلى بالناس ، وجعدة هو ابن أم هانىء بنت أبى طالب أخت الإمام .

وجاء الطبيب ليعالج جرح الإمام ، فلما فحص جرحه وجسده وجد الجرح غائراً ، والسم يسرى فى بدنه ، وأيقن أنه لا علاج له ، فصارح أصحاب الإمام بما رآه ، وأشار عليهم أن يطلبوا من الإمام أن يستخلف الخليفة بعده . فقالوا له وهم يحاولون أن يغمضوا عيونهم لكيلا يرى الإمام فيها الدموع : « يا أمير المؤمنين ، إن فقدناك ـ ولا نفقدك ـ أنبايع للحسن ؟ » فقال : « ما آمركم ولا أنهاكم . أنتم أبصر بأموركم » فأعادوها عليه وكلماتهم تغيض فى الأسى العميق . . فقال : « لا . . أترككم كما ترككم رسول الله ، فإن يرد الله بكم خيرا يجمعكم على خيركم كما جمعكم على خيركم بعد رسول الله » .

وأخذ ابن ملجم يتلو وهو مطروح مكبل : (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد) .

وأخذ الإمام يردد : « لا إله إلا الله » ثم تلا : ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره** ﴾ .

ثم دعا ولديه الحسن والحسين فقال : « أوصيكما بتقوى الله ، وألا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تبكيا على شىء زوى عنكما ، وقولا الحق ، وارحما اليتيم ، وأغيثا الملهوف ، واصنعا للآخرة ، وكونا للظالم خصما ، وللمظلوم ناصرا ، واعملا بما فى كتاب الله ، ولا تأخذكما فى الحق لومة لائم » . ثم نظر إلى ابنه محمد بن الحنفية وهو أصغر منهما فقال : « هل حفظت ما أوصيت به أخويك ؟ » قال : « نعم » قال : « فإنى أوصيك بمثله ، وأوصيك بتوقير أخويك ، لعظيم حقهما عليك ، فاتبع أمرهما ، ولا تقطع أمراً دونهما » ثم

قال للحسن والحسين : « أوصيكما به ، فإنه أخوكما وابن أبيكما ، وقد علمتما أن أباكما كان يحبه » .

ثم قال للحسن : « أوصيك أى بنى بتقوى الله ، وإقام الصلاة لوقتها وإيتاء الزكاة عند محلها ، وحسن الوضوء ، فإنه لا صلاة إلا بطهور ، ولا تقبل صلاة من مانع زكاة . وأوصيك بغَفْر الذنب ، وكظم الغيظ ، وصلة الرحم ، والحلم ضد الجهل ، والتفقه فى الدين ، والتثبت فى الأمر ، والتعاهد للقرآن ، وحسن الجوار ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، واجتناب الفواحش » .

ثم قال لهم مرة أخرى : « ألا لا يُقْتَلنّ إلا قاتلى ، انظر يا حسن ، إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ، ولا تمثل بالرجل ،فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور ! » .

ثم طلب كرم الله وجهه أن يملى وصيته ، فأملى : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما أوصى به على بن أبى طالب : أوصى أنه يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . ثم إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، ثم أوصيك يا حسن وجميع ولدى بتقوى الله ربكم ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، فإننى سمعت أبا القاسم صلى الله عليه وآله وسلم يقول : إن صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام » !

« انظروا إلى ذوى أرحامكم فصلوهم يهون الله عليكم الحساب . الله ، الله ، فى الأيتام فلا يضيعُنّ بحضرتكم . والله الله فى جيرانكم ، فإنهم وصية نبيكم ﷺ ما زال يوصى بالجار حتى ظننا أنه سيورثه . والله الله فى القرآن ، فلا يسبقكم إلى العمل به غيركم ، والله الله فى الصلاة ، فإنها عمود دينكم ، والله فى بيت ربكم فلا يخلو ما بقيتم . . والله الله فى الجهاد فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم . والله الله فى الزكاة فإنها تطفىء غضب الرب . والله الله فى ذمة نبيكم (أهل الكتاب من غير المسلمين) فلا يُظْلَمُنّ بين أظهركم . والله الله فى أصحاب نبيكم ، فإن رسول الله أوصى بهم . والله الله فى الفقراء والمساكين فأشركوهم فى معايشكم ، والله الله فيما ملكت أيمانكم . الصلاة الصلاة ، لا تخافن فى الله لومة لائم ، فإنه يكفيكم من أرادكم وبغى عليكم (أى يحميكم منه) ، وقولوا للناس حسنا كما أمركم الله ، ولا تتركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فيولى الأمر شراركم ،

ثم تدعـون فلا يستجاب لكم ! وعليكم بالتواصل والتباذل ، وإياكم والتدابر والتقاطع والتفرق ، وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان . واتقوا الله إن الله شديد العقاب . حفظكم الله من أهل بيت، وحفظ فيكم نبيكم،أستودعكم الله . وأقرأ عليكم السلام ورحمة الله » .

ولم يسـمع له حينئذ صوت بعد حتى قبض وهو يتمتم : لا إله إلا الله .

ولكن صوته العظيم اخترق الآماد والمسافات والقرون، لتضىء كلماته الرائعة ظلمات النفوس ، وتنير طريق الهداية للسالكين . .

وقتل اللعين ابن ملجم ، وحل الحسن بن على محل أبيه . . وياله من أب للصالحين فى عصره ، وفى كل العصور !

* * *

وهكذا ، وورى التراب جسده النبيل . .

جسد رجل لم تعرف الإنسانية حاكما ابتلى بمثل ما ابتلى به من فتن ، على الرغم من حرصه على إسعاد الآخرين ، وحماية العدل وإقامة الحق ودفع الباطل ! . .

قبض الشهيد ، واستقر فى وعى الزمن أنه كلما قيلت كلمة الإمام فهو الإمام على ، على كثرة الأئمة فى الإسلام ! ذلك أن ما امتلكه من علم وفقه فى الدين وما أوتى من الحكمة لم يتوفر لفقيه أو عالم . .

قبض الشهيد الرائع البطولة ، الأسطورى ، المثالى ، واستقر فى ضمير الزمن ، أنه كلما نطق أحد باسم أمير المؤمنين فحسب فهو الإمام على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، على الـرغم من كثـرة الخلفـاء فى كل عصـور الإسـلام ، فكل خليفة بعد أبى بكر هو أمير المؤمنين . . ذلك أن عليا اجتمع له من عناصر القدوة وشرفها ، واجتمع فيه من مقومات القيادة ونبالتها ما لم يجتمع قط لحاكم .

وهكذا كان فريداً حقا: عالما وحاكما !

فسلام عليه يوم ولد ، ويوم يموت ، ويوم يبعث حيا . .

وسـلام عليه إذ توارى جسـده فى الـتراب ، وبقيت كلماته منارات إشعاع ومنابع حكمة ، ومثار عزائم ، وعدة للمتقين والمساكين بعد كتاب الله والأحاديث النبوية الشريفة . .

وسيظل القلب ينبض بما قال ، وتشرق به النفس ، ويزهو به العقل !

ولله در حكمته وعظمته حين قال : « اسأل عن الجار قبل الدار ، وعن الرفيق قبل الطريق . . انصروا المظلوم وخذوا فوق يد الظالم وأحسنوا إلى نسائكم . . ما جفت الدموع إلا لقسوة القلوب ، وما قست القلوب إلا لكثرة الذنوب . . من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . . الناس أبناء ما يحسنون . . أو أقنع فى نفسى أن يقال أمير المؤمنين ولا أشاركهم مكاره الدهر ؟! . . ألا وإنى قاتل رجلين : رجلا ادعى ما ليس له ، وآخر منع الذى عليه . . ما رأيت نعمة موفورة إلا وإلى جانبها حق مضيع . . ما جاع فقير إلا بما متع به غنى . . لو تمثل لى الفقر رجلا لقتلته . . إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بالعامة وبضعفة الناس . . إذا كان الراعى ذئبا فالشاة من يحفظها ؟! . . إذا غضب الله على أمة غلت أسعارها ، وغلبها أشرارها ! » . . إذا تغير السلطان تغير الزمان . . إن سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة . . اعلموا أنكم فى زمان القائل فيه بالحق قليل ، واللسان عن الصدق كليل ، واللازم للحق ذليل . . الذليل عندى عزيز حتى آخذ الحق له ، والقوى عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه . . أحب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكرهه لها ، ولا تظلم كما تحب ألا تظلم . . لا تقل ما لا تعلم وإن قل ما تعلم . . من ظن بك خيرا فصدق ظنه ، ولا تضيعن حق أخيك اتكالا على ما بينك وبينه . . إن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع إليها إن بدا له ذلك يوما ما . . استقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك . . ولا ترغبن فيمن زهد عنك . . أستودع الله دينك ودنياك ، وأسأله خير القضاء . .

«أيها الناس، ألا لا يقولن رجل منكم غدا ممن قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا القفار وفجروا الأنهار وركبوا الخيل واتخذوا الوصائف المرقفة ، إذا ما منعتهم ما كانوا يخوضون فيه وصيرتهم إلى حقوقهم التى يعلمون : حرمنا ابن أبى طالب حقوقنا ! ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته ، فإن الفضل غدا عند الله . فأنتم عباد الله ، والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية لا فضل فيه لأحد على أحد . . أما بعد فإنما أهلك من كان قبلكم أنهم منعوا الناس الحق فاشتروه (بالرشوة) ، وأخذوهم بالباطل فاقتدوه (أى صار الباطل قدوة) . . لا تستوحشوا فى طريق الهدى لقلة أهله ، فإن الناس اجتمعوا على مائدة شبعها قصير وجوعها طويل (يقصد الدنيا) . . إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلب وينبت عليهما النفاق . . أشقى الرعاة من شقيت به الرعية . . لا تقبلن فى استعمال عمالك وأمرائك شفاعة

إلا شفاعة الكفاية والأمانة . . المسئول حر حتى يعد . . إذا أخطأتك الصنيعة إلى من يتقى الله ، فاصنعها إلى من يتقى العار . . إذا أردت أن تصادق رجلا فانظر مَنْ عدوه . . من حفر بئراً وقع فيها . . من تجرأ لك تجرأ عليك . . من تذكر بُعد السفر استعد . . لا يكونن أخوك على مقاطعتك أقوى منك على صلته ، ولا يكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان . . لا يكن أهلك أشقى الخلق بك ولا تهن من يكرمك . . لا تنظر إلى من قال وانظر إلى ما قال . . لا تهدمن محاسنك بالفخر والتكبر . . لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان ، ولا على البخل أقوى منك على البذل ، ولا على التقصير أقوى منك على الفضل . . لا تلتبس بالسلطان فى وقت اضطراب الأمور عليه : فان البحر لا يكاد يسلم صاحبه فى حالة سكونه ، فكيف يسلم مع اختلاف رياحه واضطراب أمواجه ؟! لا تمار سفيها ولا فقيها : أما الفقيه فتحرم خيره ، وأما السفيه فيحزنك شره . . لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير العمل ويرجى التوبة بطول الأمل : يقول فى الدنيا بقول الزاهدين ، ويعمل فيها بعمل الراغبين ، إن أعطى منها لم يشبع ، وإن منع منها لم يقنع ، يعجز عن شكر ما أوتى ، ويبتغى الزيادة فيما بقى ، يحب الصالحين ولا يعمل عملهم ، ويبغض المذنبين وهو أحدهم . . لا تكثر العتب فى غير ذنب . . لا تقبل الرئاسة على أهل مدينتك فانهم لا يستقيمون لك إلا بما تخرج به من شرط الرئيس الفاضل! . . الكلام فى وثاقك ما لم تتكلم به ، فإذا تكلمت به صرت فى وثاقه . . أضر الأشياء عليك أن تعلم رئيسك أنك أعلم بالرئاسة منه . . أصحاب السلطان كقوم رقوا جبلا ثم سقطوا منه ، فأقربهم إلى الهلكة والتلف ، أبعدهم فى المرتقى ! . . ارض من الناس لك ما ترضى لهم به منك . . ارحموا ضعفاءكم ، فالرحمة لهم سبب رحمة الله لكم . . اذكر عند الظلم عدل الله فيك ، وعند القدرة قدرة الله عليك . . أذل الناس معتذر إلى لئيم . . إذا نزل بك مكروه فانظر : فإن كان لك فيه حيلة فلا تعجز ، وإن لم تكن فيه حيلة فلا تجزع . . إذا غضب الكريم فألن له الكلام ، وإذا غضب اللئيم ، فخذ له العصا . . إذا فعلت كل شىء فكن كمن لم يفعل شيئاً . . إذا قُذفتَ بشىء فلا تتهاون به وإن كان كذبا ، بل تحرَّز من طرق القذف جهدك ، فإن القول وإن لم يثبت يوجب ريبة وشكا . . إذا أيسرت فكل الرجال رجالك ، وإذا أعسرت أنكرك أهلك . . إذا رفعت أحداً فوق قدره فتوقع منه أن يضعك دون قدرك . . إذا رغبت فى المكارم فتجنب المحارم . . عمر قلبك بذكر الله والاعتصام بحبله وأى سبب أوثق مما بينك وبين الله إن أنت أخذت به » .

وكم من الكلمات المشرقة ، والمواقف المضيئة خلفها الإمام ميراثا للإنسانية كلها ، ودليلا ، ونبراسا !

وصدق رسول الله حين قال لعلى : « أنت سيد فى الدنيا ، سيد فى الآخرة . . من أحبك فقد أحبنى ، وحبيبك حبيب الله ، ومن أبغضك فقد أبغضنى ، وبغيضك بغيض الله ، وويل لمن أبغضك من بعدى ! » .

وقبل أن يموت كان قد أوصى بربع أرضه التى فى الحجاز لأصحاب الحاجات . .

فقضى ، ولم يخلّف تراثا غير الحكمة ، والقدوة الحسنة ، وما مات أحد من رعيته إلا خلّف من المال أكثر مما ترك الإمام .

عاش يناضل دفاعا عن الشريعة ، والعدل ، والحق ، والمودة ، والإخاء والسلام ، والمساواة بين الناس . . فسلام عليه !

سلام عليه يوم قال فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام : « رحم الله عليا اللهم أدر الحق معه حيث دار » .

ودار الحق معه حيث دار ، وما عاداه فى حياته وبعد موته إلا البغاة ، وفرسان الضلال ، وعبيد الشهوات ، وأهل البدع والشح والأهواء . . !

سلام عليه يوم قال عنه الرسول عليه الصلاة والسلام : « من اتخذ عليا إماما لدينه ، فقد استمسك بالعروة الوثقى » .

وعبر أجيال متطاولة تعاورت فيها الأحداث والمآسى العظام ، والهزائم التى تقصم الظهر وتكسر القلب ، والانتصارات التى تثير الكبرياء فى النفس . . عبر تلك الأزمان اتخذه المتقون إماما . . فقد كان دعاؤه مع عباد الله الصالحين : ! واجعلنا للمتقين إماما . .

واتخذه المساكين إماما . . واتخذه الفتيان والنساك والزهاد والعلماء والمجاهدون والشجعان إماما . . سلام عليه . . عليه السلام .

« تمـــت »

أهـــم المراجـــع

* القرآن الكريم : كتب التفسير ، وبصفة خاصة الطبرى وابن كثير والزمخشرى والسيوطى والنسفى والقرطبى .
* الحديث الشريف : الستة الصحاح .
* الأدب المفرد : الإمام البخارى .
* اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان البخارى ومسلم : محمد فؤاد عبد الباقى .
* نهج البلاغة : للإمام على بن أبى طالب ، اختيارات الشريف الرضى ، شرح الإمام محمد عبده .
* الإحكام فى أصول الأحكام : ابن حزم .
* أحمد بن حنبل : عبد الحليم الجندى .
* أحمد بن حنبل : الشيخ محمد أبو زهرة .
* إحياء علوم الدين : الإمام الغزالى (المتوفى فى القرن السادس الهجرى) .
* الاختيارات الفقهية : ابن تيمية .
* الاستيعاب : ابن عبد البر .
* أسد الغابة : ابن الأثير .
* الإسلام وحقوق الإنسان : د . القطب محمد القطب طبلية .
* الأشباه والنظائر فى القرآن : البلخى .
* الإصابة فى معرفة الصحابة : ابن حجر .
* أصول الفقه : الشيخ عبد الوهاب خلاف .
* إعجاز القرآن : الباقلانى .
* أعلام الموقعين : ابن قيم الجوزية .

* الأغـــانى : الأصفهـــانى .
* الأم : الإمام الشافعى .
* الإمامة والسياسة : ابن قتيبة (مع مراعاة مـا قيـل عنه أنه منتحل) .
* إنباه الرواة على أنباء النحاة : القفطـى .
* البداية والنهاية : ابن كثير .
* بلاغة الإمام على : د . أحمد الحوفى .
* البيان والتبيين : الجـــاحظ .
* تاريخ التشريع الإسلامى : د . محمد يوسف موسى .
* تاريخ الأمم والملوك : ابن جرير الطبرى .
* تهذيب الآثار، وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار : الطبرى (قرأه وخرج أحاديثه محمود شاكر) .
* التوابــون : ابن قدامة . .
* ثلاث رســائـل فى إعجـاز القـــرآن : الرمانى والخطابى والجرجانى .
* حسن المحاضرة : السيــوطى .
* خزانة الأدب : البغــدادى .
* خصــائص العشرة الكـرام البـــررة : الزمخشـــرى .
* خلفاء الرسول : خالد محمد خالد .
* الذيل على رفع الإصر : السخـــاوى .
* رجال حول الرسول : خالد محمد خالد .
* الروض الأنف : السهيــلى .
* سجع الحمام فى حكم الإمام : جمع وضبط وشرح على الجنـدى ومحمـد أبـو الفضـل إبراهيم ومحمد يوسف المحجوب .
* السياسة الشرعية : ابن تيمية .
* السيرة النبوية : ابن هشام .
* صبح الأعشى : القلقشندى .
* الطبقات الكبرى : ابن سعد .

* الطرق الحكمية : ابن قيم الجوزية .
* عبقرية الإمام : عباس محمود العقاد .
* العقد الفريد : ابن عبد ربه .
* على بن أبى طالب : جورج جرداق .
* عيون الأخبار : ابن قتيبة .
* الفـــاخر : ابن سلمة بن عاصم تحقيق عبد العليم الطحاوى .
* الفاروق عمر : د . محمد حسين هيكل .
* الفتاوى الكبرى : ابن تيمية .
* الفتنة الكبرى : د . طه حسين .
* فضائح الباطنية : الإمام الغزالى (أبو حامد ، المتوفى فى القرن السادس الهجرى) .
* تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية : الشيخ مصطفى عبد الرازق (شيخ الأزهر الأسبق) .
* الفهرست : ابن النـــديم .
* القاموس المحيط : الفيروز أبادى .
* الاقتصاد الإسلامى : شوقى الفنجرى .
* قضاة مصر وولاتها : الكندى المصرى .
* القضايا الكبرى فى الإسلام : للشيخ عبد المتعال الصعيدى .
* الكـــامـل : المبــرد .
* الكـــامـل : ابن الأثيــر .
* لســان العرب : ابن منظور .
* اللمع فى التصوف : الإمام الطوسى .
* المال فى الإسلام : عبد الكريم الخطيب .
* مروج الذهب : المسعودى .
* معــاوية : عبــاس العقــاد .
* معاوية بن أبى سفيان : إبراهيم الابيــارى .
* معجم البلدان : ياقوت الحموى .
* المغنى فى أبــواب التـوحيـد والعـــدل : عبد الجبار (القاضى أبو الحسن) .
* المقـــدمة : ابن خلدون .

* الملكية فى الشريعة الإسلامية : الشيخ على الخفيف .
* النجوم الزاهرة : ابن تغرى بردى .
* النظم الإسلامية : د . القطب محمد القطب طبلية .
* نهاية الأرب : النويـــرى .
* وفيات الأعيان : ابن خلكان .
* وقعة صفين : نصر بن مزاحم .
* يتيمة الدهر : الثعالبى .

الفهــرس

الموضوع	الصفحة

رقـم الإيـداع : ٥٩١٤
الترقيم الدولى : ٥ - ٠٨٠ - ١٧٢ - ٩٧٧

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩

الناشر
مكتبة غريب
٣،١ شارع كامل صدقى (الفجالة)
تليفون ٩٠٢١٠٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص . ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩